قدري قلعجي

صلاح الدين الأيوبي

قصة الصراع بين الشرق والغرب

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد



صلاح الدين الأيوبي

قصة الصراع بين الشرق والغرب
خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

برقياً: انكلسأمس

تلفون ٢ / ٣٥٠٧٢١

تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ - ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)

الطبعة الثالثة ١٩٩٧م

تصميم الغلاف: ابراهيم عياش

الاخراج الفني: منى التالى

قدري قلعجي

صلاح الدين الأيوبي

قصّة الصِّرَاع بَيْنَ الشَّرْقِ والغَربِ
خِلاَل القَرْنَيْن الثَانِي عَشَر والثَّالِث عَشَر للمِيلاَد

الجزء الأول

قَبْل صَلاح الدِّين

● ثمة شواهد عديدة على أن أمراء الحملة الصليبية، حين اندفعوا بسياستهم التوسعية، إنما كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة.

جون لا مونت

● كانت الحروب الصليبية أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الامم الاوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق.

ج. و. تومبسون

● بدلاً من أن يتحد الامراء المسلمون ضد الصليبية، واجهوها فرادى، وفرادى سحقوا، الواحد تلو الآخر، وتغلغلت الصليبية بينهم.

رينه غروسه

الفصل الأول

الشّرق والغرب

في ذلك الزمان، كانت الامبراطورية العربية قد اجتازت عصرها الذهبي، وبدأت تسير في طريق الانهيار، تدفعها إليه عوامل شتى أهمها تغلغل الموالي الفرس ثم المماليك الأتراك في جهاز الحكم وقيادة الجيوش، وتمرّد الأمراء والقادة العسكريين في الجهات التي يحكمونها، وتنازعهم على كل بقعة من الأرض، وظهور الدول المستقلة وشبه المستقلة في أنحاء الدولة العربية القديمة، كالصفارية والسامانية والغزنوية والعلوية والأغلبية والفاطمية والطولونية والأخشيدية والزيدية وغيرها، فضلاً عن الإمارات أو الدويلات التي كانت رقعتها تقتصر أحياناً على مدينة أو بلدة واحدة وما جاورها من القرى!

لكن، ومع ذلك، فقد ظلت عواصم تلك الامبراطورية العربية مشرق الحضارة السائدة يومذاك في العالم، وظلت اللغة العربية الرباط الوثيق الذي يصل بين بغداد والقاهرة في الشرق، وقرطبة وأشبيلية في الغرب، وظل الفكر العربي، الذي جنى ثماراً من الحضارة الفارسية والتراث اليوناني، يواصل سيره الظافر حيث وقفت جيوش العرب عاجزة أو ارتدّت مدحورة.

وقد أدى تضعضع العرب السياسي، إلى ازدهار الدولة البيزنطية من جديد، فظهرت على مسرح التاريخ كدولة عالمية محل الامبراطورية العربية، وألف الحكم البيزنطي

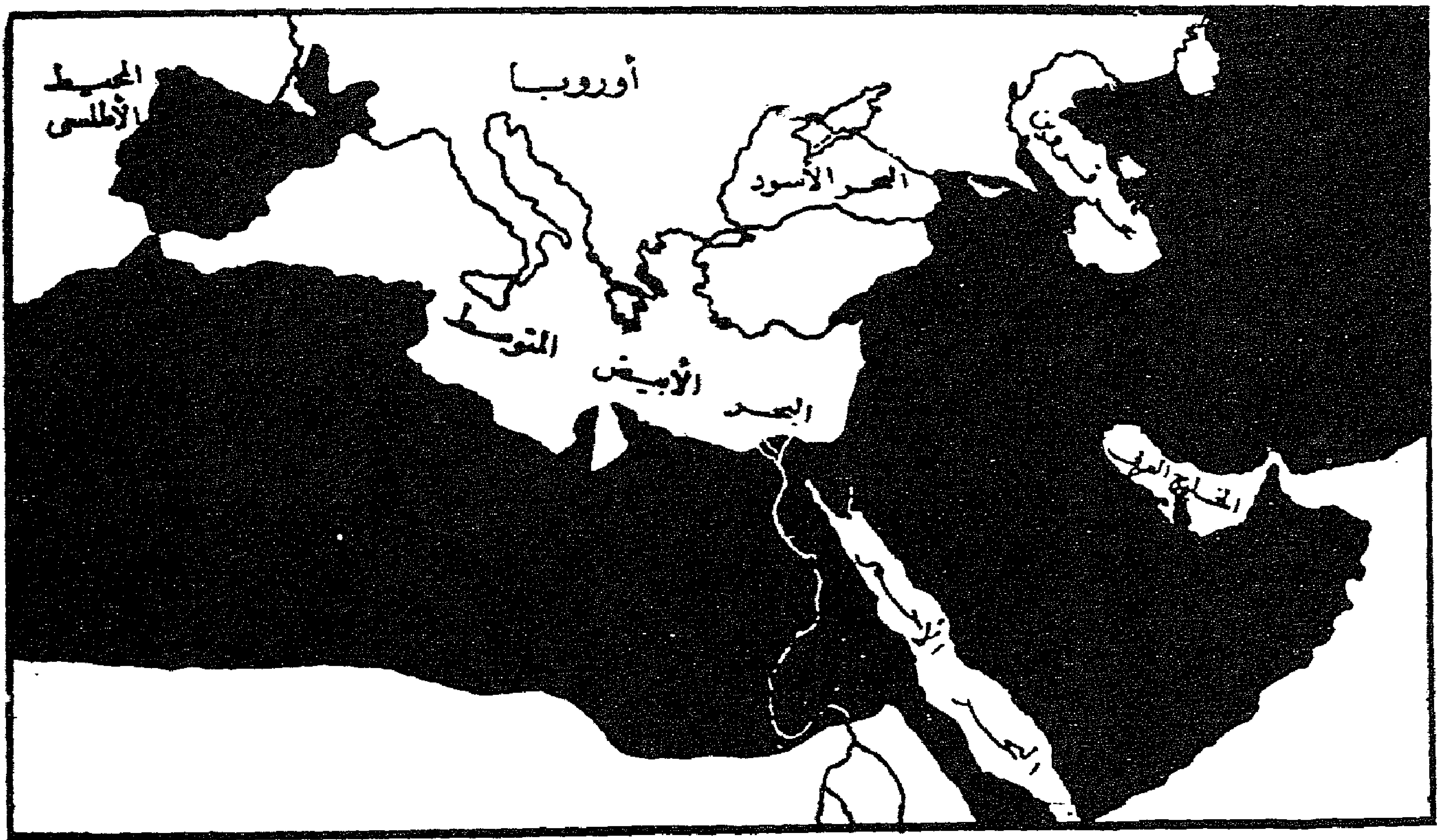
والمذهب الارثوذكسي واللغة اليونانية وحدة كبيرة من شعوب غربية وشرقية متعدّدة، وأصبحت القسطنطينية السوق التجارية الرئيسية بين أسواق العالم.

أما في أوروبة التي كانت تتقدّم ببطء شديد، فقد بدأت الشعوب تلتف حول قصور الأسياد وحصونهم، لتحتمي بها من غزوات القبائل الشمالية، فتوطّدت بذلك دعائم النظام الاقطاعي الذي يصون السيد في ظله حياة الفلاح مقابل استثماره لعمله، وحل الأسياد محل الملوك في حكم البلاد حكماً فعلياً وان بقي لهؤلاء الحكم الأسمي.

وقد نما هذا النظام في فرنسة بنوع خاص. ولم ينقض وقت وجيز حتى أصبحت للسيد حقوق متوارثة، وفُرضت على الفلاح واجبات متوارثة أيضاً. وسرعان ما انتظم رجال الاكليروس في عداد الطبقة الاقطاعية، وتقاسمت الكنيسة ملكية الأرض مع النبلاء. وكانت هذه الاقطاعات منعزلة بعضها عن بعض، ولكل منها أسواقه وتقاليده الخاصة، وكثيراً ما كانت تتحارب في ما بينها في البلد الواحد، أو تتفق أحياناً لمحاربة قطر آخر، لأن الغزو والنهب كانا يعودان عليها بأضعاف ما يعود به العمل الشريف، حتى غدت الفروسية في ذلك المجتمع الفضيلة الأولى.

وكانت رومة والقسطنطينية تهيمنان على أوروبة كلها، الأولى بوصفها مقر البابا ومركز المذهب الكاثوليكي وهي تطمح إلى توحيد أوروبة وإخضاعها لنفوذها بهذه الصفة، والثانية ببضاعتها وفنها ونقدها الذهبي وسيطرة مراكبها التجارية على حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد حرصت بيزنطية حرصاً شديداً على أن تظل مقاليد التجارة في يدها، لأنها مبعث عظمتها وتفوقها، وكان اتساع هذه التجارة يحرّر قسماً من سكان أوروبة من سيطرة الاقطاعية، فينشئون على شواطىء البحر، ولا سيما الشواطىء الإيطالية، مدناً تجارية تنقل بضائع الشرق إلى الغرب.

وساد السلام حيناً أقطار أوروبة المتفككة المتعادية، فأتيح للإقطاعية أن تنتقل إلى عهد من الازدهار انصرف فيه أصحاب القصور والأديرة إلى العناية باستثمار أراضيهم وزيادة خيراتها، مجندين جماهير الفلاحين لقطع الغابات وتجفيف المستنقعات وحرث الارضين وتعبيد الطرق، حتى تغير وجه أوروبة وامتدت فيها السهول المترامية والحدائق الغناء. وبدأ الفلاحون يستخدمون الحجارة في بناء منازلهم، فنشأت القرى إلى جانب



الامبراطورية العربية في أوج مجدها، وقد امتدت من المحيط الاطلسي غرباً الى حدود الصين شرقاً فلم تفقها امبراطورية اخرى في العالم حتى الامبراطورية الرومانية

القصور والأديرة، وعمّرت الكنائس من الحجر بدلاً من الخشب، على طراز اسلامي انتقل إلى فرنسة عن طريق الأندلس بواسطة البنائين العرب. وعن هذه الطريق نفسها انتقلت إلى فرنسة وإلى أوروبة كلها، أسس التفكير العلمي والفلسفي، وفتوحات الأغريق والفرس والعرب في هذا الميدان، كما انتقلت إليها عن طريق بيزنطية: الفنون والآداب(١).

واجتازت أوروبة الألف الأول للميلاد، واتصالها بالشرق يزداد، واتجارها واياه يتعاظم، ونهوضها وتكتلها يكادان يرافقان انهياره وتمزق أوصاله. وقد اشتد في الأقطار الأوروبية المختلفة النزوع إلى الحضارة وبنائها على الأسس الكاثوليكية. إذ إن أوروبة لم تكن تفرق في القرن الحادي عشر، بين الثقافة والمسيحية. وكانت المسيحية تواصل سيرها الظافر، حتى لم يبق في أوروبة من البلدان الوثنية إلا بلد واحد هو السويد. فإن حرث الأرضين كان يرافقه حرث الضمائر.

وقد انتشرت الأديرة على الدروب المتشعبة التي كانت في وقت واحد: طرق الحج إلى بيت المقدس، والطرق الإقتصادية الرئيسية. لقد أنشئت هناك ألوف الأديرة، وأخذ الرهبان يمتزجون بالحياة الاجتماعية فيُدخلون عليها فنونهم ومعارفهم، ويبنون، ويغتنون، ويضمنون في الوقت نفسه ملكية المنطقة التي يستثمرونها.

وهكذا أضحت المسيحية في أوروبة، كما كانت البوذية في آسية، والإسلام بين الشرق والغرب، الرواق الذي تعبر منه الحضارة. بيد أن نفوذ البابوية كان في ذلك الحين أضعف منه في أي وقت آخر، إذ كان البابا الذي انتُخِب في سنة ٤٢٥هـ-١٠٣٣م، لا يجاوز الثانية عشرة من عمره، مما جعل الجميع يدركون ضرورة إصلاح الكنيسة ويتحدثون به. إلا أن الأديرة كانت ما تزال تنشر في أوروبة شبكة واسعة من المبادلات التجارية، تنمّي القوى الاجتماعية الناشئة فيها، وتجعل الاتجار مع بيزنطية أمراً محدوداً لا يكفي حاجات المجتمع المتزايدة.

كانت البضائع التي يحملها التجار كثيرة متنوعة، وكان الصناع اليدويون الذين ينتجون النسيج في الفلندر وشمبانية في حاجة متعاظمة إلى الصباغ والحرير والقطن التي تصلهم عن طريق البندقية، الجسر الذي يصل بين الغرب والمجد البيزنطي.

---

(١) La prodigieuse Histoire de l'humanité

وقد استطاعت الغزوات العربية أن تُنزل أضراراً كبيرة بالمراكب البيزنطية، فأفادت البندقية من ذلك فائدة كبرى، إذ نشط تجارها إلى العمل المستقل، ولم ينقض أمد يسير حتى تحولت هذه المدينة إلى مركز تجاري عظيم في حوض البحر المتوسط، تنافسه بيزة وجنوة، وتناصره مرسيليا ومونبلييه، ولم تعد هذه المجموعة من المدن التجارية أسواقاً بيزنطية وإنما غدت مزاحماً قوياً لها في الأسواق العالمية.

وكان مجد بيزنطية قد أشرق من جديد في عهد باسيليوس الثاني امبراطور القسطنطينية المعروف باسم «قاتل البلغار» والذي تنصّر الروس في عهده إثر طلب الأمير فلاديمير حنة شقيقة باسيليوس زوجة له، فقبل العاهل البيزنطي ذلك شرط أن يتقبل فلاديمير النصرانية، فتقبلها وأمر شعبه باعتناقها[٢]. وقد أدرك هذا الامبراطور الخطر الذي يحدق ببلاده من جراء مزاحمة المدن الإيطالية، ولكن كان عليه في ذلك الوقت أن يردّ عن بلاده أخطاراً أخرى، فالتحم مع البلغار في معارك ظافرة أمر في نهايتها بأن تُسمل عيون ١٥ ألفاً من أسرى البلغار إلا مائة وخمسين منهم أبقى لكل واحد منهم عيناً واحدة ليقودوا إخوانهم في عودتهم إلى بلادهم[٣]، كما اشتبك مع العرب في قتال طويل كان النصر فيه سجالاً بين الفريقين، ثم قنع من المجد الحربي بالدفاع[٤]. وفي أواخر سنة ٣٧٧هـ ٩٨٧م، اضطر باسيليوس الثاني إلى مصالحة الخليفة الفاطمي العزيز بمعاهدة كان من شروطها أن يُذكر اسم العزيز في خطبة الجامع في القسطنطينية، وكان قد قام في القسطنطينية مسجد منذ القرن الثامن الميلادي[٥] (القرن الثاني الهجري). إلا أنه ما لبث أن هزم الجيش الفاطمي حين زحف هذا الجيش إلى حلب بعد وفاة سعد الدولة الحمداني طمعاً باحتلالها، واستنجد لؤلؤ الكبير الوصي على ابن سعد الدولة، بامبراطور الروم الذين طالما اشتبك الحمدانيون معهم في ضاري المعارك، فأنجده، فظفر الفاطميون بجيشه في موقعة العاصي سنة ٣٨٤هـ ٩٩٤م، فنهد إليهم بنفسه، وفاجأهم عند حلب، فتراجعوا عنها وفروا أمامه حتى أبواب دمشق.

وحين قضى باسيليوس الثاني نحبه سنة ٤١٦هـ ١٠٢٥م، تداعت الامبراطورية

---

(٢) الروم وصلاتهم بالعرب للدكتور أسد رستم. ج٢ ص٥٢.

(٣) تاريخ العالم لجون هامرتن، المجلد الرابع ص٥٨٢.

(٤) الحرب الصليبية الأولى للدكتور حسن حبشي، ص١٤.

(٥) الروم وصلاتهم بالعرب ج٢ ص ٥٤ ـ ٥٥.

البيزنطية في جميع تخومها، وأضحت القسطنطينية، مثل بغداد، رمزاً لحضارة عظيمة، أكثر منها مركزاً لدولة قوية. ثم ما لبثت أن تعرضت لخطرين جديدين مفاجئين: غزوات الشعوب الشمالية أو النورماندية في أوروبة، وهجمات القبائل التركية في آسية.

ذلك أن قبائل الأتراك السلاجقة التي استوطنت أواخر القرن العاشر على ضفاف أموداريا[٦]، ما لبثت ان تقدمت شطر فارس واعتنقت الاسلام، وثارت على الدولة الغزنوية فقهرتها، ثم زحفت غرباً فدانت لها البلاد من تخوم فارس إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط، وطفقت تناوىء العلويين في الشام حتى امتلكت الجزء الأكبر من سورية، وكادت تضع يدها على البلاد المصرية. كل ذلك والخلافة باقية لاحفاد العباسيين، ولكن كان للخلفاء منها الاسم، وللسلاجقة كما كان للديلم من قبلهم، مُسمَّاها.

وقد بدا حينذاك أن هذه القبائل الزاحفة بعنفوان وقوة، إنّما تهدد الشرق والغرب بموجة بربرية جديدة تطغى على مراكز الحضارة في العالم. بيد أن البرابرة المقتحمين كانوا يحملون هذه المرة جوازاً هو الإسلام، يدخلون باسمه إلى تلك البقاع ويحتمون بنفوذه فيها.

ولكن هل كان في وسع الأنظمة الاسلامية أن تتغلغل في حياة هذه القبائل الرحالة وتطبعها بطابعها وتحررها من هجمتها، بمثل تلك السرعة، دون أن تلابس الحضارات السائدة وتتفاعل معها؟

يقول سيد أمير علي: «مع أن الأتراك والمغول ينتميان إلى أصل واحد، فقد كان بينهما فرق كبير، إذ بينما كان المغول يعيشون وما يزالون في أقصى حدود آسية الشرقية في حالة شبه بربرية تُقارب حياة التوحش، كانت القبائل المغربية قد تأثرت تأثراً كبيراً باحتكاكها بمدنية العرب. وكان السلاجقة الذين كانوا أعظم هذه القبائل تقدماً، قد اعتنقوا الإسلام بحرارة واندفاع، وأصبحوا حماته الغيورين. وفيما كان العرب منصرفين إلى تشجيع فنون السلم، كان السلاجقة منصرفين بكل قواهم إلى نشر سلطان الإسلام وبسط نفوذه، والنصف الأخير من القرن الحادي عشر إنما يشكل أزهى حقبة في تاريخهم، ففيها اعترف السلاجقة بسلطان أعلى واحد، واتحد أمراؤهم الاقطاعيون فيما بينهم وأعلنوا له أخلاصهم وولاءهم»[٧].

---

(٦) نهر جيحون أو الاوكسوس كما كان يعرف في الزمن القديم.
(٧) مختصر تاريخ العالم ترجمة عفيف البعلبكي ص ٢٧٤.



فارس اوروبي في اواخر القرن الحادي عشر، عن لوحة قديمة

أما القبائل النورماندية فكانت الشعوب الأوروبية تعرف بأسها وتخشى خطرها. وكانت تراها في كل مكان يتسع فيه المجال للمغامرة. وقد انتظم فريق منها في صفوف الفرسان الفرنسيين الذين وضعوا أنفسهم بإمرة ملك قشتالة في حروبه مع ملك قرطبة، كما انتظم فريق آخر في صفوف الأجناد العرب الذين بلغ من تضعضعهم في الأندلس والمغرب، أنهم استنجدوا بالقبائل الشمالية لمساعدتهم في صقلية، فما كادت هذه القبائل تستقر في جنوب إيطالية حتى أنشأت دولة إقطاعية نورماندية برئاسة روبير غيسكار وبسطت سيطرتها على صقلية بعد أن ظل العرب قابضين فيها على زمام الأمر قرابة قرن كامل، مُتَحَدِّين سائر المحاولات التي جرت لإجلائهم عن البلاد(٨). إلاَّ أن الحكام النورمانديين قد أفسحوا للعلماء والصنّاع العرب مجال العمل والإبداع في الجزيرة، «وهكذا فاق ازدهار العلم في صقلية في ظل النورمانديين أيّما ازدهار مماثل في أوروبة الوسيطية. واحتفظ روجر الأول بالنظام الإداري الذي أقامه المسلمون، وراح البارونات النورمانديون والأمراء المسلمون يضطلعون بشؤون الحكم اليومية في تناغم كامل. والواقع أن أقدم وثيقة ورقية أوروبية معروفة إنما دونت في صقلية، وإن أول قطعة نقد أوروبية إنَّما ضربت في الجزيرة وهي تحمل تاريخ سكّها بالأرقام العربية. وقد وضع الجغرافي العربي العظيم أبو عبدالله الإدريسي، خرائطه المشهورة للعالم المعروف آنذاك برعاية روجر الثاني. أما عناية فردريك الثاني بالعلم الطبيعي فقادته إلى الأخذ بناصر العلماء المسلمين في حقول متفاوتة جداً ـ حقول الرياضيات، وعلم الأحياء، وعلم الحيوان، وعلم التنجيم، والبزدرة، وعلم حفظ الصحة. ولم يطبع المسلمون بطابعهم حركة صقلية العلمية فحسب، بل طبعوا حياتها اليومية أيضاً بذلك الطابع. فخلال عَهْدَيّ روجر الثاني وفردريك الثاني أمست العربية لغة رسمية في صقلية إلى جانب اللاتينية، وغدا من العسير على الزائر، بسبب من اصطناع الأزياء العربية والمآكل العربية والعمارة العربية، أن يميّز هذه المملكة النصرانية من جاراتها الإسلامية المعاصرة في الشرق الأدنى أو اسبانية(٩)».

ولقد كان ذلك الهجوم المزدوج ـ من قبل السلاجقة والنورمانديين ـ حرياً بأن يخدم بيزنطية، فان السلاجقة بتغلبهم على خليفة بغداد قد أنقذوها نهائياً من مطامح الخلفاء والعباسيين، كما أن النورمانديين بانتزاعهم الحكم من أيدي العرب في صقلية، قد أنقذوا

---

(٨) تاريخ العالم لهامرتن المجلد الرابع ص ٥٧٥.

(٩) الاسلام والعرب لروم لاندو، ترجمة منير بعلبكي ص ٩٢-٩٣.

المراكب البيزنطية من الغزوات العربية التي كانت تتعرض لها منذ أن سيطرت القوة البحرية الإسلامية في مناطق صولتها الثلاث الكبرى: اسبانية وشمال افريقية وصقلية، أو في مراكزها الأخرى في كريت وسورية ومصر، على البحر الأبيض المتوسط[١٠]. ولم تكن ذكرى غزوات الفاطميين البحرية على سواحل بلاد الروم واستيلائهم على سردينية وقرسقة وجنوة ببعيدة عن الأذهان، وإن كان اتجاههم في عهد المعز إلى الشرق واتخاذهم الأهبة لفتح مصر قد صرفاهم عن الاهتمام بأمر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط[١١]، ولكن من يدري متى يعيدون الكرة ويتجهون بمطامحهم إلى الغرب.

ولكن الواقع كان على نقيض ذلك، فان ذينك الحدثين الخطيرين قد وجها إلى الامبراطورية البيزنطية ضربة كبرى لا تقل اهميتها عن الخسارة التي تكبدتها من جراء النشاط التجاري الذي ابدته المدن الإيطالية. وكانت الضرائب الفادحة، وثورات الأمراء الاقطاعيين، والفوضى التي سادت في صفوف الجيش، قد زلزلت صرح الامبراطورية البيزنطية. ثم أصبح الانشقاق بينها وبين البابوية أمراً واقعاً صريحاً، بعد أن استعادت هذه مركزها في أوروبة بما أدخلت من إصلاح على الكنيسة، وأضحت الدولة البابوية في عداد الدول القوية الفعالة، فقضت القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية[١٢] على ما كان لبيزنطية من نفوذ في إيطالية، وبات واضحاً أن امبراطورية الشرق لن تصمد أمام أي هجوم جديد تقوم به على بلادها قبائل الأتراك من الشرق أو النورمانديون من الغرب.

غير أن العرب والبيزنطيين ظلوا مع ذلك أسياد الفكر، وظلت الحركة الفكرية تتابع ازدهارها وتطورها في عواصم الشرق، بيد أنه مهما كان من قوة هذه الحركة، فإنه لم يبق في وسعها أن تطغى على القوى الفكرية الخاصة التي بدأت تنمو في الغرب مع نمو دُوَلِه واتّقاد الحياة الاجتماعية والدينية فيه.

وبينما كان روبير غيسكار يحطم مقاومة بيزنطية، ويهدّد الشاطىء الدلماسي، كان الأتراك يزحفون على الأناضول، فيستولون على أرمينية، ويأسرون في سنة ٤٦٤هـ ١٠٧١م، الامبراطور البيزنطي نفسه.

---

(١٠) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ١١١.

(١١) انظر فصل «السيادة الاسلامية» لارشيبالد لويس في كتاب «دراسات اسلامية» ص٢٥ ـ ٨٤.

(١٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب «الروم وصلاتهم بالعرب» ج٢، ص ٧١ ـ ٧٧.

وأمام هذه الخسائر التي منيت بها بيزنطية، قوي نفوذ البابوية في أوروبة، وظهر البابا غريغوريوس السابع الذي عرف باسم «البابا القديس» وهو في رأي بعض المؤرخين أعظم أبناء القرون الوسطى بعد شارلمان، وكان يعتقد بأن مهمة نائب الله هي قيادة المجتمعات البشرية، فأنشأ يسعى لدى ملوك أوروبة، لفرض إصلاحاته على الأساقفة إينما كانوا، وتحرير الاقطاعية الاكليريكية من تدخّل السلطات المدنية، فاستطاع ان يربط الأوساط الاكليريكية بالمقر البابوي، وأن يقيم فوق النظام الاقطاعي ثيوقراطية تحقق السيادة البابوية.

لقد كان أنصار غريغوريوس السابع يقولون: مثلما جعل الله في السماء نيّرين هما الشمس والقمر، كذلك خلق في الأرض سلطتين: روحية وزمنية، لكن القمر منحط عن الشمس ويستمد نوره منها، ومثله الامبراطور فهو منحط عن البابا ويستمد منه كل قوة. وكانوا يشبهون السلطتين بالنفس والجسد، فالأولى متسلطة على الثاني، وكذلك فان السلطة الروحية متسلطة على السلطة الزمنية(١٣).

وكان ذلك يعني انكار كل سيادة أخرى، ومنها سيادة الامبراطورية الجرمانية المقدّسة التي كان رئيسها الامبراطور هنري الرابع لا يقلّ عن غريغوريوس السابع قوة وذكاء، فوقف في وجه الاصلاح البابوي، وجاهر بمعارضته إياه إلا إذا بقي للامبراطور حق تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة، واستحرّ النزاع بينهما في ٤٦٩هـ ١٠٧٦م، فأعلن البابا ان سلطته تشمل التيجان والعروش نفسها، ونشبت فيها حرب أهلية كادت تطوّح بعرش الامبراطور لولا أنه بادر إلى إظهار خضوعه حين رأى أن مملكته تكاد تتمزق وتخرج من سلطانه، ولكنه لم يكد يحرز رضى البابا عليه، ويستعيد قوّته ونفوذه، حتى بطش بخصومه في المانية، وحرّض رجال الدين الساخطين على كبار الأساقفة ورؤساء الأديرة، فأعلنوا تمرّدهم على البابا ورفعوا إلى مقام البابوية كليمنت الثالث.

ولم تُقبل سنة ٤٨٦هـ و١٠٨٣م، حتى انعكست الآية تماماً، إذ استولى هنري الرابع على رومة وتوجّه فيها البابا الموالي له، بينما مضى غريغوريوس السابع يستنجد بالنورمانديين. وكانت مراكب غيسكار قد انهزمت في بحر الأدرياتيك أمام مراكب البندقية

---

(١٣) التاريخ العام لفيليب فان نس مير، الترجمة العربية ص ٢٤٢.

المحالفة لبيزنطية، فتخلى عن معاركه هذه واتجه إلى محاربة هنري الرابع، واستطاعت جيوشه أن تُخرج جيوش الامبراطورية الجرمانية من رومة، ولكنها ما كادت تؤدي هذه المهمة حتى انقضّت على المدينة فنهبت أرزاقها وسبت نساءها، بحيث لم يبق في وسع «البابا القديس» الظهور أمام مواطنيه، فرجع إلى صقلية واعتزل فيها(١٤).

وفي سنة ٤٧٨هـ ١٠٨٥م، توفي غيسكار بعد أن أخرج البيزنطيين من إيطالية الجنوبية بعد حكم دام ثلاثة قرون متتالية وأوصل الخطر النورماندي الذي يهدد الامبراطورية البيزنطية إلى تيسالية. وفي تلك السنة نفسها توفي غريغوريوس السابع أيضاً. فأوقف موت هذين الرجلين نمو المشاريع الخطيرة التي نذرا أنفسهما لها، لكنه لم يوقفه إلا إلى أمد يسير. فان هنري الرابع، قاهر البابا، كان يعاني أزمة شديدة أمام تمرّد الأشراف السكسونيين، وعقوق ابنه كونراد الذي نصّبه البابا ملكاً على إيطالية والمدن الرئيسية في وادي بو. كما أن هزيمة النورمانديين أمام اسطول البندقية، قد منحت جمهورية سان مارك امتيازات جمة في الشرق اقرّت بها بيزنطية اعترافاً بالجميل. فجعل منها استيلاؤها على هذه المراكز المهمة، منافساً قوياً لبيزنطية يهددها بخطر لا يقل عن خطر الغزوات النورماندية. وقد علّقت هذه الدولة المتداعية آمالها حينذاك على الكسيوس كومنينوس أعظم قائد أنجبته، ورفعته إلى سدّة الحكم، ولكن هذا القائد تولى رئاسة الدولة، وخزينتها خالية، وجيشها مضطرب ضعيف لا يُعتمد عليه، فلم يستطع، رغم حنكته ومهارته، أن ينتشل بلاده من الهوة التي تنحدر إليها، وان كان قد بذل مساعي جليلة للتحالف مع هنري الرابع والمدن الإيطالية البحرية ضد مطامع النورمانديين(١٥).

وكان مصير العرب لا يختلف كثيراً عن مصير البيزنطيين، وكأنه يسير معه نحو انهيار محتوم، فإن الاسبانيين قد استردوا طُليطلة، واستنجد المغاربة بالبربر والمرابطين فأسس هؤلاء مدينة مراكش، وأنشأوا من المحيط إلى الجزائر والسودان مملكة ألحقوا بها القسم العربي من اسبانية، غير ان هذه المملكة نفسها كانت تتراجع شيئاً فشيئاً أمام فتوحات الإسبان.

أما في الشرق، فقد وقفت قبائل الأتراك السلاجقة على رأس الشعوب العربية

---

(١٤) تاريخ العالم لجون هامرتن، المجلد الرابع ص ٧٤٢.

(١٥) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص ١١٩ ـ ١٢٢.

والإسلامية، وكانت تلك القبائل، كما قلنا، تستر مطامعها التوسعية بستار الرغبة في نشر الإسلام أو المحافظة عليه، لتظهر أمام هذه الشعوب بمظهر الوريث الشرعي لامبراطورية العرب.

لقد بدأت دولة الأتراك السلاجقة حوالى سنة ٣٦٠هـ ـ ٩٧٠م، حين خرج سلجوق مع عشيرته الغز من بادية القيرغيز إلى جند حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم(أرال)، ثم انتقلت إلى بخارى، وما فتئت تنتقل نحو الغرب، وتشارك في الأحداث والحروب، حتى انتزع طغرل بك محمد وجغري بك داود، حفيدا سلجوق، ولاية خراسان، ثم احتلوا خوارزم وطبرستان على حساب الدولة الغزنوية، واستطاعوا القضاء على الدولة البويهية، وكانوا كلما تقدموا غرباً اتخذوا حاضرة جديدة أقرب إلى العراق. وقد أثار طغرل بك اهتمام الخليفة العباسي القائم (٤٢٣ ـ ٤٦٨هـ ـ ١٠٣١م ـ ١٠٧٥م)، فاستعان به على البساسيري القائد التركي الذي كان يعمل في خدمة الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه وكاد يجرّد الخليفة من جميع سلطاته، فانقلب البساسيري بولائه إلى الفاطميين الذين كانوا يحكمون في مصر، وغدا يخطب للمستنصر الفاطمي على منابر المدن التي آلت إليه، بينما كان سلاطنة السلاجقة يخطبون للخليفة العباسي في بغداد ويعتنقون المذهب السني مثله، في حين كان البويهيون شيعة كالفاطميين. ولما توفي طغرل بك خلفه ابن أخيه الب ارسلان الذي خاض عدداً من المعارك الظافرة مع البيزنطيين، وأسر امبراطورهم رومانوس ديوجين سنة ٤٦٤هـ ـ ١٠٧١م، في موقعة مانزكرت (ملاذ كرد) الشهيرة على الفرات الأعلى[١٦]، وهي الموقعة التي فتحت أبواب آسية الصغرى الشرقية أمام هجمات الأتراك السلاجقة فأنشأوا فيها سنة ٤٧٠هـ ـ ١٠٧٧م، مملكة خاصة بهم عرفت باسم «مملكة الروم السلجوقية»[١٧]، كانت نيقية (أزنيق في التركية) عاصمة لها ثم غدت

(١٦) بعد مفاوضات طويلة بين الب ارسلان ورومانوس، تعهد هذا بتزويج بناته من أولاد الب ارسلان وبأن يفتدي نفسه مع جميع الأسرى بمليون دينار، وبأن يدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة وستون الف قطعة ذهبية، وبتسليم جميع أسرى الحرب، ولكنه ما كاد يشخص ورجاله عائداً إلى عاصمته حتى علم بان رعاياه قد خلعوه من الملك، وما إن بلغها حتى سملوا عينيه وفتكوا به قبل ان يتمكن الب ارسلان من نجدته (مختصر تاريخ العرب ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤، الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص ١١٠ ـ ١١١).

(١٧) حل الأتراك العثمانيون محل الاتراك السلاجقة في آسية الصغرى أو الأناضول منذ سنة ٧٠٠هـ ـ ١٣٠٠م، وأنشأوا فيها امبراطوريتهم التي حلت نهائياً محل الامبراطورية العربية وبسطت نفوذها على كثير من البلدان المجاورة لها خلال عدة قرون.

عاصمتها قونية لما احتل الصليبيون نيقية سنة ٤٧٧هـ ١٠٨٤م، ثم انتزع الب ارسلان من الفاطميين ما في أيديهم من البلاد حتى دمشق. وزاد ابنه ملكشاه على ذلك فانتزع من الفاطميين سورية كلها، وأنشأ في دمشق وبيت المقدس إمارتين تابعتين له، بالإضافة إلى استيلائه على كاشغر وسمرقند[١٨]. إلا أن الامبراطورية السلجوقية سرعان ما تمزقت بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ١٠٩٢م، إثر تنازع أمراء السلاجقة في ما بينهم، واستبداد «الأتابكة» بهم، إذ كان من عادتهم أن يعهدوا بتربية أولادهم إلى قوادهم الذين يسمونهم بالأتابكة[١٩](، وقد انقسم السلاجقة خلال ذلك إلى فروع ثلاثة: واحد في بلاد العجم حيث تبلد أفراده واستعجموا، وثان في الأناضول حيث رسخت قدمهم وثبتت لغتهم، وآخر في سورية حيث استعربوا وتوطنوا[٢٠].

ولم يكن هذا كله ليعني الغرب في شيء، ولكن الذي كان يعنيه ويخيفه ان جيوش الأتراك السلاجقة كانت ما تفتأ تتوغل في الأناضول، وقد نفذت منه سنة ٤٧٧هـ ١٠٨٤م، إلى إنطاكية فاحتلتها، وأنشأت في إزمير اسطولاً كبيراً، بحيث لم يعد خطرها مقتصراً على بيزنطية وحدها، وإنما أخذ يقلق البندقية التي كانت تهمها التجارة الشرقية بقدر ما تهم بيزنطية إن لم يكن أكثر منها، والتي كانت قد أنشأت المخازن والمستودعات في كل مكان، حتى في شبه جزيرة القرم، وعقدت معاهدة تجارية مع بغداد، وأرسلت عملاءها إلى أنحاء الشرق العربي والشرق الأوسط كله، ولم تكن تتردد في تموين هذه البلاد حتى بالعتاد الحربي. فإن الطبقة الارستقراطية في هذه الجمهورية التي لم تكن تعاني ما تتخبط فيه بقية البلدان الأوروبية من نزاع بين الملاكين العقاريين والتجار، قد انصرفت الى التجارة وحدها وجنت منها أرباحاً طائلة، فأثرت بذلك تأثيراً كبيراً في شؤون بيزنطية المالية، ووجهت إلى هذه الامبراطورية ضربة قاضية، وبات التجار البيزنطيون مهما تكبدوا من مشاق، وعادوا من بلاد الصين بالأمتعة والبضائع والأفاويه، فإن القسط الأوفر من أرباحهم إنما يعود إلى تجار البندقية وبيزة وجنوة، لأنها الأبواب الرئيسية لأسواق الغرب.

---

(١٨) تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان، تعريب فارس وبعلبكي، ج٢، ص ١٢٤ـ ١٤٠.

(١٩) لفظة تركية مفردها اتابك مركبة من كلمة «أطاء» بمعنى أب وكلمة «بك» بمعنى الأمير أو السيد (انظر: الألقاب الاسلامية تأليف حسن الباشا ص ١٢٢).

(٢٠) العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، تأليف الدكتور زكي النقاش ص١٦.

ففي ايطالية وليس في غيرها، كانت تنتهي في تلك الأيام طريق الصين، أو طريق الحرير والتوابل، التي كانت أكثر الدروب المطروقة في ذلك العهد(٢١).

كانت أوروبة تخطو نحو المدنية خطوات واسعة في ظل الاقطاعية المزدهرة. فبفضل قصر السيّد ودير الراهب، نمت الزراعة وأُدخلت عليها أساليب جديدة لزيادة الانتاج، وبفضل التبادل التجاري تحسنت وسائل النقل وطرق المواصلات فتطورت العلاقات الاقتصادية تطوراً كبيراً، ونشأت الأسواق والمدن في البقاع الخصبة، وتأسست معامل حرفية صغيرة كان الصنّاع اليدويون يستخدمون فيها أساليب جديدة، فنمت بذلك المقدرة الشرائية، وتكاثرت حاجات الأهلين، واتسع في كل مكان نطاق البضائع المتداولة. ووقفت ايطالية وفرنسة والفلندر ورينانية على رأس هذه الوثبة المدنية والصناعية الكبيرة. وسادت في القصور الاقطاعية الحياة الباذخة وألوان الترف. وأدى هذا الازدهار الذي شمل الظروف المادية إلى ازدهار فكري بدا في فرنسة بنوع خاص.

لقد كان التجار يحملون من الشرق العطور والتوابل والصموغ والأصباغ والسكر والعاج والحرير والبخور والأحجار الكريمة، وينقلون إليه مقابل ذلك منتوجات الغرب وفي مقدّمتها الأنسجة والأجواخ. وواضحٌ أن أرباح هؤلاء التجار كانت تبلغ أضعاف ما يربحه منتجو البضائع التي يتاجرون بها، فمن البديهي إذن أن يشتدّ النضال بينهم وبين الاقطاعيين في سبيل سلامة المواصلات وحرية الأسواق والتخلص من الضرائب والمكوس، وأن يقف إلى جانبهم في هذا النضال أبناء المدن الناشئة من الصناع اليدويين والحرفيين، وأن تتطلع هذه القوة الاجتماعية الجديدة إلى الاتجاه بنشاطها الاقتصادي الى جميع أنحاء العالم، يشجعها على ذلك ويغريها به، مَثَلُ البندقية التي سادها الترف الباذخ لما يتوافر لها من ثراء متعاظم.

وأخذ ينشأ بين هذه المدن التجارية في ايطالية وفرنسة، التي قامت على طريق المتاجرة مع الشرق، رابطة اقتصادية قوية، وتضامن وثيق في المطامح والآراء. ولم يكن وصول الأتراك السلاجقة بالتالي، إلى الشواطىء، ليؤلف خطراً على مصالح بيزنطية

---

(٢١) للتوسع في معرفة دوافع الجمهوريات الايطالية البحرية في عهد الحروب الصليبية وسعيها وراء مصالحها الاقتصادية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً، انظر:

Heyd; Histoire du Commerce, II, pp. 131 __ 133.



حاج اوروبي في نهاية القرن الحادي عشر، عن لوحة قديمة

فحسب، وإنما كان قبل ذلك وأكثر منه، خطراً على هذه المدن التجارية في إيطالية وفرنسة وغيرهما من بلدان الغرب.

وإذا كان قيام الحكم التركي في هذه الربوع، قد استلب الحجاج المسيحيين الذين يؤمون بيت المقدس، بعض ما كانوا يتمتعون به في ظل الحكم العربي من حرية وتسامح عظيمين ولا سيما بعد الاتفاق المشهور بين شارلمان وهارون الرشيد(٢٢)، حتى بدأوا يحجون إليه متجمعين ومتسلحين(٢٣)، فإن المدن الأوروبية التجارية القائمة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط قد شعرت أيضاً بأن هذا الحكم نفسه إنما يهدد أوروبة بالتخلي عن مراقبة تجارة الشرق للأتراك أنفسهم، بينما هي تتطلع إلى تقوية هذه التجارة وقد غدت عصب الحياة الاقتصادية فيها.

وهكذا نمت تلك الفكرة الرهيبة، فكرة الحروب الصليبية، وهبّت تلك العاصفة الجنونية التي تركت جرحاً عميقاً في حياة البشرية. وقد جددت هذه الحروب المروعة ما دار من نضال عنيف بين الشرق والغرب في حروب طروادة ورومة، وحروب فارس ويونان، ودشنت الكفاح الذي نشب بينهما بعد انطفاء جذوة الحروب الصليبية بأجيال: كفاح الغرب لاستعمار الشرق واستثماره، وكفاح الشرق في سبيل تحرره واستقلاله، وهو كفاح مؤثر بلغ أوجه في عصرنا الحاضر.

---

(٢٢) يجمع المؤرخون الغربيون فضلاً عن الشرقيين، على ان المسيحيين في بيت المقدس وغيرها إنما كانوا يعاملون خلال الحكم العربي بالاحترام والرفق والتسامح، واقوالهم في ذلك كثيرة لا يمكن حصرها (انظر: تاريخ العالم لهامرتن المجلد الرابع ص٧٣٦ والتاريخ العام لفان نس مير ص ٢٤٥ ومختصر تاريخ العرب ص٢٨٥ و Runciman; Byzantine Civilisation, p.26 & Iorga: Byzantine Empire, p. 49) ولا بدع في ذلك فان العرب اقتدوا بخليفتهم عمر بن الخطاب الذي دخل القدس مسالماً بعد ان تسلم مفاتيحها من بطريركها اليوناني صفرنيوس، ومنح أهلها الأمان على دمائهم واموالهم وكنائسهم، وامتنع عن الصلاة في كنيسة القيامة لئلا يحولها المسلمون الى مسجد (انظر: تاريخ اليعقوبي ص ١٦٧ ـ ٢٦٨) وعملوا بوصية الرسول العربي: «من ظلم معاهداً، او كلفه فوق طاقته، فأنا خصمه يوم القيامة» واهتدوا بهدي القرآن الكريم: «إن الذين آمنوا والذين هادوا، والنصارى، والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، لهم اجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون». إلا أن الطوائف غير الإسلامية قد تعرضت لإجراءات قاسية لا مبرر لها في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي أقدم على كثير من التدابير الشاذة الأخرى التي لا تفسير لها.

(٢٣) لم تكتم بيزنطية تخوفها من بعثات الحج المسلحة ورأت فيها خطراً يهدد سلامتها (انظر: Bréhier: L'Eglise et L'Orient, p. 46)

الفصل الثاني

الحرُوب الصّليبيَّة

بدأت المدن الأوروبية تلهج بضرورة اقصاء الأتراك السلاجقة عن حوض البحر الأبيض المتوسط، وكان الأتراك مسلمين فانتشرت فكرة الحرب على الإسلام، وأذكى ضرام هذه الفكرة ما تعرض له بعض الحجاج الأوروبيين من اعتداء عليهم وهم في طريقهم إلى بيت المقدس، وكان دعاة الحرب يصورون المسلمين لابناء أوروبة على أنهم أكلة لحم البشر وذئاب الإنسانية وأعداء المسيح وغير ذلك من الصور التي يقول المؤرخ الانكليزي جيبون عنها: «ولم تكن هذه التهمة سوى نتيجة الجهل والتعصب، وهي صور ينفيها القرآن ويكذبها تاريخ الفاتحين العرب وتسامحهم مع المسيحية في الحياة العامة وفي الشرائع والقوانين»[١].

وإذا كانت شهادة الأهل ذات دلالة خاصة وأهمية كبرى، فإن المؤرخ رنسيمان يصرح «بأن المسيحيين كانوا اسعد حظاً في الغالب تحت حكم جماعات المسلمين منهم تحت حكم ملوك الرومان، حيث تمتعوا بحرية التجارة، والعيش في ظلال الأمن، ولم يرهقهم المسلمون بالضرائب كما كانوا يعانونه قبلاً»[٢] على انه إذا كانت هناك حوادث وقعت على الحجاج، فانها لا تعدو أن تكون حوادث فردية لا يخلو منها بلد وعصر، بل كان يلقاها المسيحيون أنفسهم على أرض أوروبة، ومن الظلم الواضح أن تتخذ الأحداث الفردية

---

(١) امتنا العربية لمحمد فريد أبو حديد ص١٦٠.

قاعدة عامة للحكم وترتيب النتائج. فالغرض من قيام تلك الحروب بأية وسيلة، كان واضحاً، بتجسيم الحوادث الفردية القليلة وتهويلها، لاستثارة النفوس[٢]. ويكفي ان نستشهد أيضاً بما قاله منرو في هذا الشأن: «كانت الفظائع المنسوبة الى المسلمين ممزوجة بكثير من التوابل.. لتوافق روح ذلك العصر الذي كان أشد توحشاً من عصرنا هذا..» أما ما قاله برناردو فيس في مذكراته فهو كاف لابطال افتراءات المبالغين: «ان السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين، حتى انني لو كنت مسافراً ونفق بعيري أو حماري الذي ينقل امتعتي على الطريق، وتركتها كلها دون حارس أو رقيب، وسرت إلى أقرب مدينة لأجلب لي بعيراً أو حماراً آخر، لوجدت عند عودتي أنها باقية على حالها لم يمسسها أحد»[٣،٤].

وقد سميت تلك الحروب «صليبية» لأن محاربي الفرنجة كانوا يرسمون علامة الصليب على ثيابهم واسلحتهم، واستطاع البابا أوربانوس الثاني أن يسبغ على تلك المغامرة الكبرى التي اشتركت فيها اشتات العوامل والأهواء والمطامع، طابعاً دينياً محضاً، لتوطيد سلطة البابوية. وكان أوربانوس الثاني، شأنه شأن غريغوريوس السابع، يعتقد بضرورة خضوع الممالك الكاثوليكية لسلطة البابا، ويطمع بأن تشمل هذه السلطة الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية أيضاً، كما أنه رأى في الحروب الصليبية وسيلة يحوّل بها شطر الشرق وجوه أولئك البارونات والفرسان الذين كانوا يعكرون أمن القارة الأوروبية بالحروب الداخلية والمغامرات المستمرة وأعمال القرصنة واللصوصية، ويسيئون إلى رجال الإكليروس منكرين عليهم ما ينبغي لهم من إكرام واحترام، «وكان أشد ما يقلقه جماعات النورمانديين التي عاشت في البر والبحر، والتي رأى ان من الحكمة إبعادها عن مسرح السياسة الأوروبية بتوجيه نشاطها الحربي إلى الشرق»[٥].

وأدرك البابا انه إذ يحشد تحت راية المسيح ذلك الجيش الأممي الذي يضم جموع الفرسان والاقطاعيين من أشتات البلدان والأجناس، ويُرسله إلى الأراضي المقدسة كي يحارب لخدمة الدين المسيحي، فإنه إنما يرفع البابوية إلى المقام السامي الذي يريده لها،

---

(٢) صراع العرب خلال العصور لمحمد عبد الغني حسن ص٤٦.
(٣) المرجع السابق ص٤٧.
(٤) المرجع السابق ص ٤٧.
(٥) Delare; Les normands en Italie. pp. 143 _ 144, & 192 _ 194



البابا اوربانوس الثاني

ويُخضع لسلطتها المعنوية أو الفعلية جميع الملوك والاقطاعيين الذين ينتظمون في تلك الحرب ويسهمون فيها، وتكون له يد كبرى على بيزنطية لانقاذه إياها من الخطر التركي الذي أحدق بها، فيسعى لضم كنيستها الشرقية إلى كنيسة رومة الغربية، وتصبح أقطار أوروبة، وربما أقطار العالم كله، خاضعة لكنيسة واحدة هي كنيسة روما، ولسلطة واحدة هي سلطة البابوية.

وهكذا يمكن القول مع المؤرخ الفرنسي روسّه، إن الرغبة في بسط سلطان الكنيسة الغربية على الكنائس الشرقية كانت أحد الدوافع الرئيسية للحروب الصليبية(٦) بالإضافة إلى دوافعها السياسية والاقتصادية.

وقال أندره ريبار: «لقد جندت البابوية أوروبة لتنفيذ خطتها الواسعة، وأرغمت الأمراء على الخضوع لها عن طريق متعرّجة، فانقضّت جيوشهم بشغف لانقاذ القدس، وهي تجهل الدوافع الخفية لتلك الحرب الضروس. ووطد هذا الانتصار الذي أحرزته الديانة المسيحية، مشاريع تجارية لم تكن البابوية نفسها تجهلها أو هي غريبة عنها(٧)». أو كما يقول رينه غروسّه: «إن تبشير سنة ١٠٩٥م حلّ سلاسل النزوع إلى السيطرة على الأراضي لدى الاقطاعيين الكباسيين واللوتارنجيين، والسيطرة الاقتصادية لدى الجمهوريات البحرية الإيطالية: فالحاجّ أصبح رجل فتحٍ يذهب لانشاء ممالك تحت شمس الشرق. وأخيراً عندما تحقق الفتح، فرضت الضرورات المحلية على بارونات «الأرض المقدسة» سياسة استعمارية(٨)».

وقد شخص أوربانوس الثاني في سنة ٤٨٨هـ ١٠٩٥م، إلى مجمع كليرمون فيران كي يرسل الصرخة الرسمية إلى الحروب الصليبية، وكان قد اختار هذا المكان عمداً ليكون الاجتماع بين الفرنسيين أهل الحدة والميل إلى الحرب. ولم يستطع هذا الرجل المخلص لتقاليد الكنيسة، إلا أن يُعرب لذلك المجمع عن فوائد هذا المشروع من جوانبه المتعددة، فكان مما قاله في خطابه التاريخي أن هذه الحرب «ليست تُشن لاكتساب مدينة واحدة، بل لامتلاك أقاليم آسية بأجمعها مع غناها وخزائنها التي لا تُحصى، فانتهزوا هذه الفرصة

---

(٦) Rousset; Les origines et les Caractères de la première Croisade; p: 56

(٧) La prodigieuse Histoire de l'Humanité, p. 249

(٨) رصيد التاريخ، ترجمة خليل الباشا، ج٢، ص ١١٤.

وخلصوا الأراضي المقدسة كلها من أيدي مختلسيها، وامتلكوها أنتم خالصةً لكم من دون أولئك الكفار، فهذه الأرض كما قالت التوراة: تفيض لبناً وعسلاً».

وقال مخاطباً جنود أوروبة: «لقد كنتم تحاولون من غير جدوى، إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم، فاستيقظوا الآن لأنكم وجدتم داعياً حقيقياً إليها. لقد كنتم سبب إزعاج مواطنيكم وقتاً ما، فاذهبوا الآن وازعجوا البرابرة. أذهبوا وخلّصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار. أيها الجند، أنتم الذين كنتم سلع الشرور والفتن، هبوا اليوم وقدموا قواكم وسواعدكم ثمناً لايمانكم، وتسلحوا بسلاح الدين والتقوى، فإنكم بذلك تنالون الجزاء الأوفى والنعيم الدائم»(٩).

وقد دعا البابا في ختام خطابه إلى الإسراع بتقديم المساعدات وحشد المتطوعين، بحيث يكون الجميع على أهبة الزحف إلى الشرق مع بداية الفصل(١٠).

ويقول هالام: «إنه لم تُترك وسيلة إلا اتبّعت لإذكاء هذا الجنون الوبائي، فكان الجندي عندما يلبس الصليب معفياً من الديون والضرائب، وكان شخصه محمياً من قبل الكنيسة التي كانت تغفر له ذنوبه وآثامه وتضمن له الخلود الأبدي»(١١) ومن هنا نشأت فكرة الغفران وغدت من طقوس الكنيسة الكاثوليكية.

وما لبثت المدن التجارية في فرنسة وإيطالية أن تبنت المشروع بحماسة شديدة، لأنه يبعد عنها الأسياد والاقطاعيين الذين تضيق بهم، ويؤمن لها أسواق الشرق. ووجدت هذه الدعوة تجاوباً مؤيداً لدى الروح الفروسية التي كانت تسود ذلك العالم الإقطاعي. «وإذا كان العامل المادي قد أغرى الجمهوريات الإيطالية التجارية على المساهمة في حملة الحجاج المسلحين للشرق، فقد وُجدت إلى جانب هذا روحٌ من التصوف الديني ترجمت عن نفسها في شخصية بطرس الناسك الذي اختلطت الحقيقة بالخرافة في تاريخه(١٢)، والذي كان

(٩) حياة صلاح الدين الايوبي للدكتور أحمد بيلي ص ٣٩ ـ ٤١.
(١٠) Chalandon: Hist. de la Première Croisade, pp. 37 _ 41
(١١) مختصر تاريخ العرب ص ٢٨٣.
(١٢) كان بطرس الناسك يطوف أرجاء أوروبة فوق حمار، وهو حافي القدمين، يرتدي ثياباً خشنة، ويحمل صليباً كبيراً، ويخطب في الدهماء والعامة فيبكيهم ويثير حماستهم ويذكي ظماهم إلى الانتقام واسترداد القبر المقدس (مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام لعنان ص٩٤) وكان يتحدث باكياً نادباً ناتفاً لحيته، منذراً بفناء النصرانية وضياع الدين، فيذهب الهياج بالعقول ويطير بالأفئدة، وتلغي الحماسة المنطق، وينسى الناس كل شيء إلا هذه النار التي سرت في العروق، ومشت في الدماغ فالهبته، فنهضوا يتبعون الناسك إلى حيث لا يعلمون (قصص من التاريخ لعلي الطنطاوي ص ٢١) ويجمع المؤرخون على أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة ـ بثيابه المهلهلة وقدميه الحافيتين وحماره الأعرج ـ قد جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء (Grousset; Hist. des Croisades, T1, p.5) وثمة شخصية مماثلة لبطرس الناسك، هي شخصية والتر الملقب بالمفلس وقد قاد اتباعه عبر المجر ثم أراضي الدولة البيزنطية، ونسيت تلك الجموع أثناء الطريق انها تخترق بلاداً مسيحية فاخذت تسلب وتنهب وتعتدي على الاهالي الأمنين (الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٧ نقلاً عن Vasiliev; Byzantine, Empire, T2, p. 404)



الدعوة الى الحرب الصليبية

تأثيره الشديد على سامعيه ـ لا سيما من الطبقات الدنيا والجاهلة ـ أكبر معوان على تحقيق الفكرة العامة التي اختمرت ولم يبق إلاَّ تنفيذها»[١٣].

وقد انتبه المؤرخون القدماء والمحدثون إلى العوامل السياسية والاقتصادية الكامنة وراء الحروب الصليبية، والتي كثيراً ما ذاب العامل الديني وسط تياراتها العنيفة الصاخبة[١٤]، وأجمل محمد كرد علي تلك العوامل جميعاً بقوله: «اتفق ان بعض زوار الأوروبيين في الأرض المقدسة شاهدوا شيئاً من العنف في بيت المقدس لم يكن لهم عهد به في أدوار الحكومات العربية القوية، وانقلبت سماحة العرب بجفاء من خلفوهم من التركمان، فعاد الزوار إلى بلدهم يقصون ما لقوا من الشدة في الشام ويعظمون الأمر. وكان التعصب الديني يومئذ على أشد حالاته في الغرب، ومعظم حكوماته تدين بدين البابا وتخضع لسلطانه القاهر، ولم يكن ظهر إذ ذاك المذهب الانجيلي، وكان مذهب الروم الارثوذكس آخذاً بالضعف ليس له روابط الكنيسة البابوية ولا سلطتها على الأرواح والأشباح. فأوعز البابا إلى أمم النصرانية في الغرب ليهبوا كلهم إلى إنقاذ القبر المقدس من أيدي المسلمين. وقد ذكر أهل الأخبار من الأوروبيين في تعليل الحروب الصليبية أن المسيحيين والمسلمين كانوا حتى القرن الحادي عشر للميلاد على صلات سلمية إلا قليلاً، يحمل العرب إلى مصر والقسطنطينية حاملات مختلفة من بلاد الهند والشرق الأقصى، فتستبضعها من المدن الإيطالية: باري وبيزة وجنوة ولا سيما أمالفي والبندقية فيبيعونها في أوروبا. وكان العرب يسمحون للزوار أن يأتوا زرافات إلى فلسطين، فيشخص إليها جماعات عظيمة من عامة نصارى بلاد الغرب يسجدون أمام القبر المقدس. وتضاعفت الحماسة الدينية في ذلك الزمن، وتداعى الحكم العربي القائم على التسامح في قارة آسيا، وقام مقامه المحاربون من الترك المعروفين بتعصبهم وبسالتهم. فاستولى السلجوقيون على أرمينية والشام ونيقية ودانت لهم في سنة (٤٦٩هـ ١٠٧٦م) فاختلت العلائق الاقتصادية بين آسيا وأوروبا، وخافت المدن التجارية في البحر المتوسط أن يغلق الأتراك أمامها أسواق الشرق»[١٥].

---

(١٣) انظر ابن الأثير، ج ١٠ ص ١١٢.

(١٤) Iorga: Brève Hist, des Croisades, pp. 1 _ 2

(١٥) خطط الشام، ج ١، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

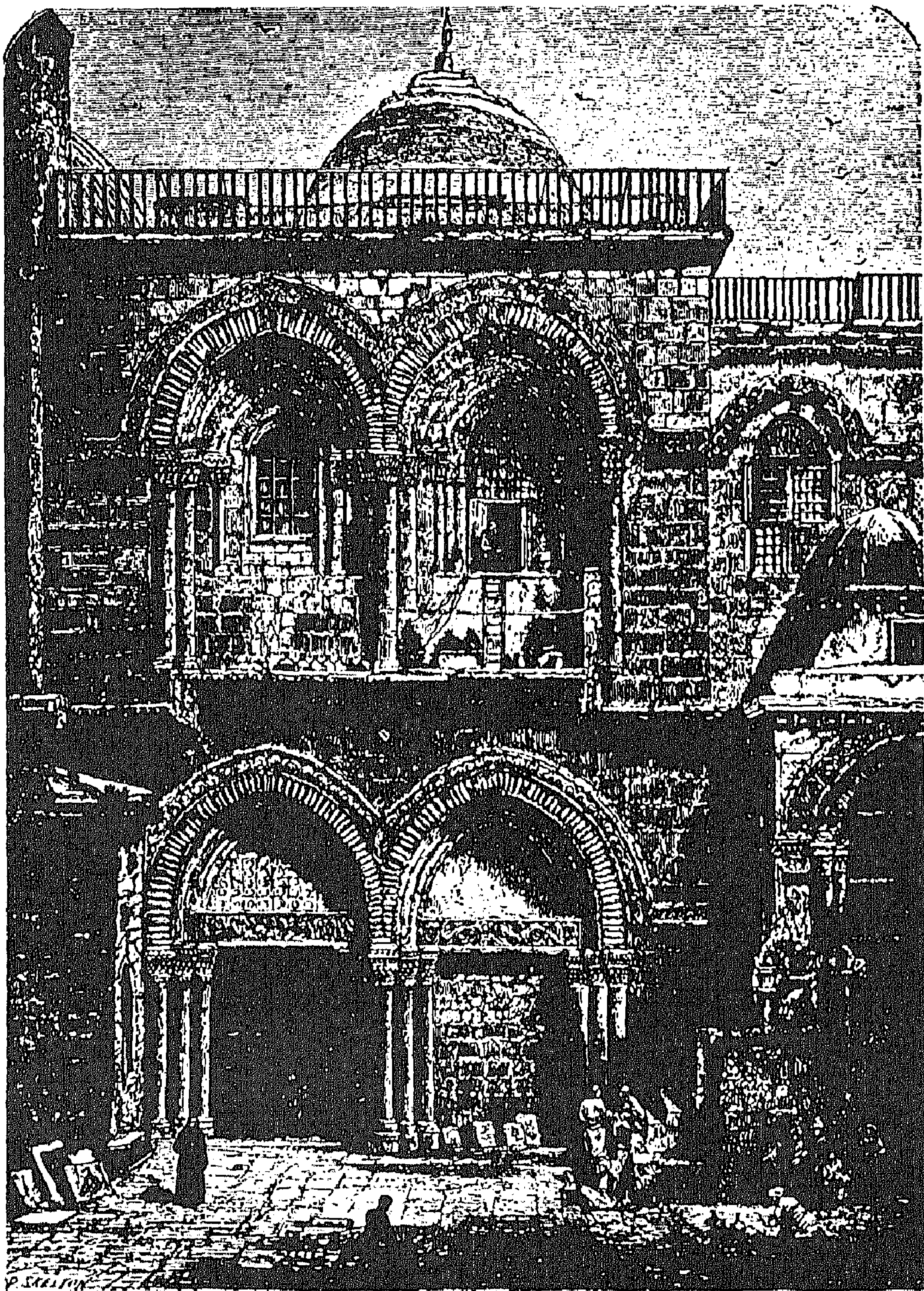
أما الدكاترة حتي وجرجي وجبور فقد أجملوا ما فصلناه آنفاً بقولهم: «ليس كل الذين حملوا إشارة الصليب فعلوا ذلك عن دوافع روحية، فقد كان عدد من زعمائهم ومنهم بوهمند، قد قصدوا بحركتهم هذه أن يفتتحوا أراضي جديدة لهم يرفعون رايتهم عليها. أما تجار بيزا والبندقية وجنوى فقد كان رائدهم خدمة مصالحهم التجارية. ومن هنا فقد كانت عوامل هذه الحروب الصليبية تشمل مطامح المغامرين وأهل الخيال فضلاً عن آمال الأتقياء المخلصين. زد على هذا أن كثيراً من المجرمين رأوا أن ينخرطوا في سلك هذه الحملات تكفيراً عن معاصيهم، والواقع ان حمل شعار الصليب عند جمهور الناس في فرنسا واللورين وإيطاليا وصقلية في ذلك الزمن، بالنسبة لحالة البؤس التي كانوا فيها وللأزمة الاقتصادية وانحطاط الحالة الاجتماعية، لم يكن تضحية من قبلهم بل تفريجاً لكربتهم»(١٦).

ويتفق مع هذا رأي أدوار عطية الذي يقول: «دفعت نوازع أخرى، بالإضافة إلى الحماس الديني، هؤلاء المسيحيين إلى المغامرة، وخاصة منها ما يتصل بالغايات التجارية وحركة أعمال المدن الإيطالية، والحاجة إلى إيجاد عمل لأولاد النبلاء الاقطاعيين. والحقيقة بأن جهداً مشتركاً ضد عدو اجنبي كان أحد الوسائل الفعالة للقضاء على الحروب المحلية بين بارونات أوروبا»(١٧).

ولعل أفضل من عدّد الدوافع المختلفة للحروب الصليبية سواء لدى الزعماء الداعين لها أو لدى المتطوعين الذين اندفعوا في غمارها، هو المستشرق جون لامونت، فقد أشار إلى خطاب البابا أوربانوس في كليرمون فيران بقوله: «ولم ينس اوربانوس ان يذكّر مستمعيه بالأرباح المادية والروحية التي سيجنيها الصليبيون. إن من يموتون في سبيل القضية سينالون المغفرة والخلاص. أما مدن «أرض الميعاد» الغنية فستكون جزاء من يحتلها من الأحياء. ولم يشر البابا إلى الفائدة العظيمة التي ستجنيها السدة البابوية من قيادة جيش فخم يسير تحت راية البابا، كما لم يشر إلى الأثر العظيم الذي سيتركه مثل هذا الجيش البابوي في نفوس الأباطرة والملوك. ولم يشر البابا إلى النكسات التي نزلت بالكنيسة على أيدي السلطات الزمنية، وإلى أن الحملة الصليبية ستذكّر عاهل الامبراطورية

---

(١٦) تاريخ العرب، الجزء الثاني ص ٧٥٣.
(١٧) العرب، ترجمة بقلي ونجا ص ٤٥.



كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس)

الرومانية المقدسة بأن خادم خدام الرب[١٨] ما زال قادراً على القيادة وإصدار الأوامر»[١٩].

وأشار لامونت إلى المتطوعة أجناداً وقادة فقال: «وبينما تطوع عدد كبير من القادة في «صليبية الأمراء» مدفوعين بدوافع دينية في جوهرها، فقد شارك آخرون في الحملة لكسب مغانم الدنيا أكثر مما فعلوا في سبيل اعلاء مجد الرب. لا شك في صدق الدوافع التي حملت غودفري على الاشتراك في الحملة للتكفير عن ذنوبه السابقة، ونيل الخلاص لنفسه. ويحتمل ان يكون روبرت أوف نورمندي وروبرت أوف فلاندرس مدفوعين إلى حد كبير، بدوافع دينية، وإن كنت أرى أنهما كانا مدفوعين بدافع آخر، إلى جانب الدوافع الدينية، ألا وهو أن الحملة الصليبية أتاحت لهما الفرصة ليصبحا بطلين. ولكن لا يستطيع احد أن يزعم بأن بوهيمند أوف تورنتو قد ذهب لسبب غير رغبته في تأسيس إمارة في الشرق. كما كان ريموند أوف سنت جيلز، بطل الحروب الاسبانية، يطمح في الاستيلاء على قطعة من أرض سورية الجميلة. وأغلب الظن أن أتباع القادة قد اشتركوا في الحملة لأسباب عديدة. فقد ذهب بعضهم مدفوعين بحماستهم الدينية المحضة، وذهب بعضهم فراراً من رتابة حياتهم المملة، أو تخلصاً من ألسنة زوجاتهم السليطة. وحمل بعضهم الصليب حباً بالمغامرة والمخاطرة. وذهب بعضهم لمجرد أن الآخرين قد فعلوا ذلك»[٢٠].

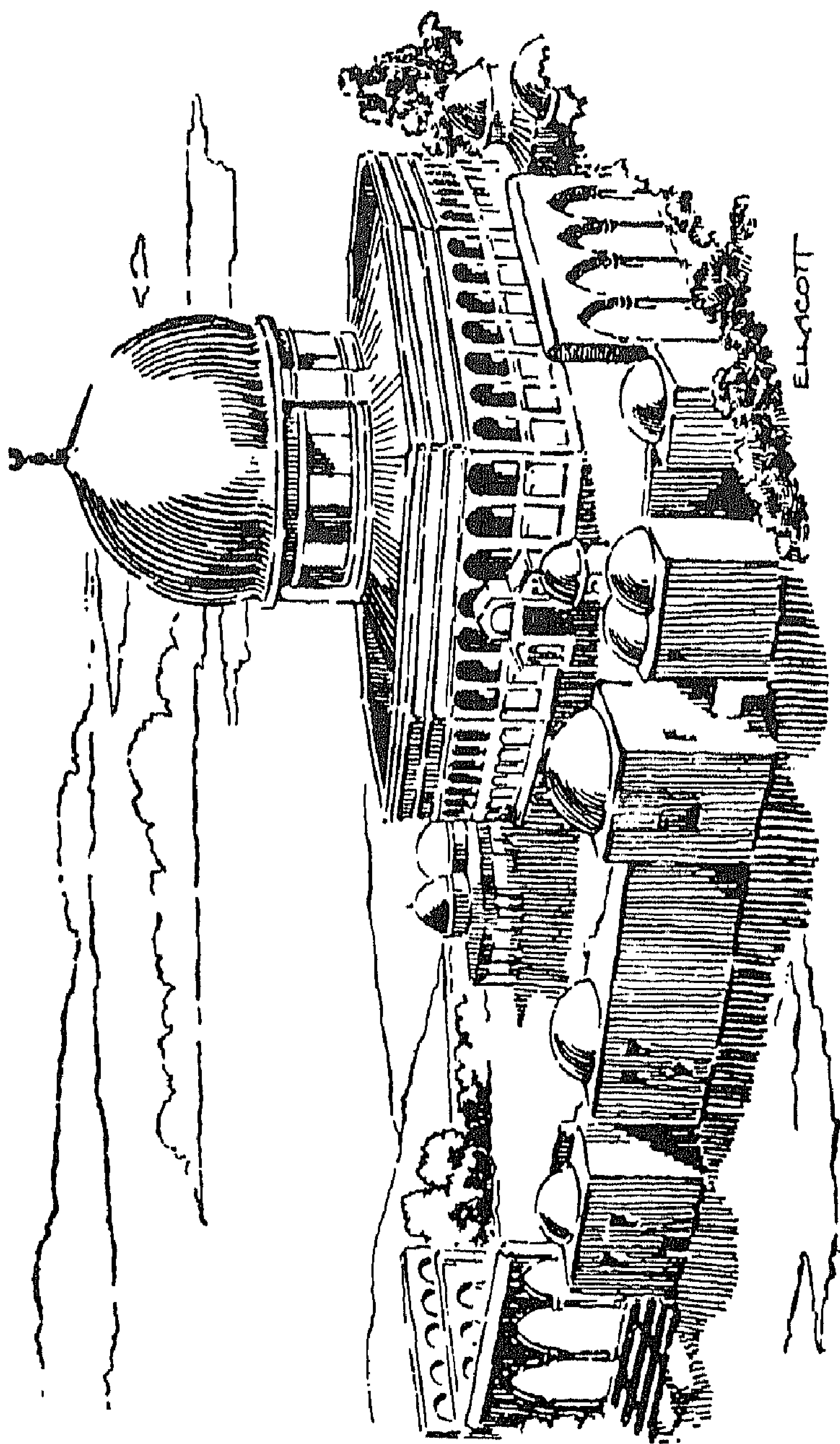
وينفذ لامونت إلى أعماق الواقع الإنساني عندما يقول: «انني لست واثقاً من أن الحماسة الدينية التي رافقت الحملة الصليبية الأولى قد استمرت طوال حياة الرجال الذين قادوها. لقد أدرك أبناء الجيل الأول أن «بينهم وبين جيرانهم كثيراً من الأمور المشتركة» على الرغم من انهم «كانوا يعتبرون كل سورية الاسلامية أرضاً للميعاد لا أصحاب لها» هذا من حيث المحاولات التي كانت تجري للاستيلاء على البلاد الاسلامية لكونها بلاداً اسلامية. فالحقيقة أن الجيل الأول من الصليبيين حملوا الصليب وخرجوا ليستولوا على البلاد ويؤسسوا فيها إمارات لهم. وكانت البلاد، بصورة عامة، بأيدي المسلمين، وعلى هذا فقد تعين عليهم أن يحاربوا المسلمين للاستيلاء على ما ملكت أيديهم. إن سيرة تنكريد

---

(١٨) البابا

(١٩) دراسات اسلامية بإشراف الدكتور نقولا زيادة ص ١٠٢.

(٢٠) المرجع السابق ص ١٠٣.



قبة الصخرة في المسجد الأقصى

(وهو أحد عظماء الصليبية الأولى، الذي أثلج قلب اغوبير بذبحه المسلمين بشكل وحشي عندما احتل القدس وانتهبها) تعطينا شواهد عديدة على أن أمراء الحملة الصليبية، عندما اندفعوا بسياستهم التوسعية، كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة، وانهم كانوا على استعداد، حين تدعو الضرورة، للتفاهم مع أعدائهم المسلمين. فكان تنكريد مصمماً على إنشاء أكبر دولة ممكنة. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية لم يجد أي بأس في أخذ البلاد من أيدي المسلمين أو اليونان أو الأرمن أو من أيدي أبناء جنسه الإفرنج.. إن الزمن والنشاط اللذين انفقهما تنكريد في محاولة الاستيلاء على اللاذقية وغيرها من المدن النصرانية من أيدي حكامها اليونان والأرمن يعدلان الزمن والنشاط اللذين انفقهما في محاربة الأتراك. أما سيرة بلدوين دي بورغ ولا سيما في أيامه بالرهاء، فلا تنقض هذه القاعدة العامة»[٢١].

أما محمد عبدالله عنان فهو يرى أن الحروب الصليبية لم تكن فورة فجائية اثارتها قصص الحجاج الناقمين أو دعوة بطرس الناسك، ولكنها كانت تتمة أو ذروة للمعركة الكبرى التي كانت تضطرم منذ أربعة قرون بين الشرق والغرب، وكان مسرح هذه المعركة حتى القرن الحادي عشر في أوروبة وفي إسبانية بنوع خاص. فنقلته الحروب الصليبية إلى آسية، ثم يقول في وصف الدوافع المباشرة والخفية لهذه الحروب:

«ولئن جاشت أنفس الزعماء والفرسان بنوع من الحماسة الدينية، فقد كانت الأطماع الدنيوية أقوى البواعث التي زجت بهم في غمار تلك المخاطرات النائية، بل لقد شق التنافس على الملك والرياسة بينهم طريقه من البداية. ولنا ما يوضح ذلك في معظم الحملات الصليبية، فقد سار جودفروا دي بويون وزملاؤه الأمراء على رأس الحملة الأولى بعد أن تعهدوا بأن يحكموا البلاد المفتوحة باسم البابوية، فلما وصلوا إلى القسطنطينية تعهدوا بأن يحكموها باسم الامبراطور مقابل اختراق الجيوش الصليبية أراضي الدولة، غير أنهم ما كادوا يصلون إلى طرسوس وإنطاكية حتى ثارت بينهم عاصفة شديدة من الخلاف والتنازع، فافترق بلدوين عن زملائه واستقر في إمارة حمص[٢٢]، واستقر بوهموند في إنطاكية وأبى السير إلى الجنوب، واشتغل ريمون دي تولوز بغزو طرابلس، واستقل جودفروا بإمارة بيت المقدس. وحكم الجميع الإمارات الجديدة باسمهم ولحسابهم،

---

(٢١) المرجع السابق ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢٢) المعروف ان بلدوين قد افتتح مدينة الرها واستقر فيها لا مدينة حمص كما سيرد في الفصل التالي.

وانشأوا القصور، وأقطعوا القطائع. وقد رأينا أن الحملة الخامسة[٢٣] لم تصل إلى الأرض المقدسة بل استقرت في قسطنطينية، وخاض أمراؤها غمار الدسائس التي كانت تعصف حينئذ بعرش القياصرة، وآثروا في النهاية أن يلتهموا أشلاء الدولة الشرقية على أن يحجوا إلى قبر المسيح»[٢٤].

إن تفرق قوات الفرنجة في كل اتجاه: وانطلاق كل أمير من أمرائها للبحث عن إمارة يحقق فيها طموحه ويبني مجده، وانصراف الكثيرين منهم عن الهدف الرئيسي للحملة والتطلع إلى بقاع من الشرق لا علاقة لها بإنقاذ بيت المقدس وحماية القبر المقدس، كانت أكبر دليل على ان هذه الحملة أبعد ما تكون عن الأغراض الدينية التي تذرعت بها، وأنها حرب استعمارية توسعية في رقعة من الأرض كان الذين يحكمونها يعتنقون الاسلام ولو كانوا يعتنقون أي مذهب آخر لما اختلف الأمر ولما توقف العدوان، وقد «أراد أموري في عهد نور الدين أن يستولي على مصر، ووصلت جنوده فعلاً إلى أرض كنانة، وكاد يستولي عليها لولا اتحاد العرب ضده. ولا يخفى على الباحث الفطن أن الاحتجاج بحماية بيت المقدس لا يستوجب غزو مصر، فيمكن درء الهجوم على بيت المقدس بإقامة الاستحكامات وإنشاء الحصون، لو كان هناك خطر حقيقي يهددها، لا بحشد الحشود، وجمع الكتائب وارسالها إلى وادي النيل وتوغلها في الصعيد ابتغاء حماية بيت المقدس! فالشقة بعيدة والمسافة شاسعة بين بلدة أطفيح في جنوبي القاهرة وبيت المقدس في فلسطين»[٢٥].

وصفوة القول إننا نخرج من أقوال المؤرخين الغربيين والشرقيين، قدماء ومحدثين، بان الحركة الصليبية قد اصطبغت من أول أمرها بصبغة اقتصادية استغلالية واضحة «فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب وحرب المسلمين، وإنما جرياً وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن العربي بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة، حقيقة ان الاستعمار بمعناه

(٢٣) لا ريب في أن الاستاذ عنان يريد الحملة الرابعة، وسترد الإشارة إليها في فصل مقبل.

(٢٤) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ٩٦.

(٢٥) صلاح الدين الأيوبي للدكتور جمال الدين الرمادي ص٢٩.

الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الاستعمار منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدامى. وفي العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق»[٢٦].

وهكذا لم تقبل السنة التالية (٤٩٠هـ ـ ١٠٩٦م) حتى كان يزحف على طرق الشرق بقيادة غودفروا دي بويون[٢٧] مائة وخمسون ألف رجل انثالوا من جميع الأقطار والأجناس، ولكن كثرتهم الغالبة كانت من الفرنسيين الذين كانوا يدعون فرنك أي فرنجة، وهو الاسم الذي أطلقه العرب يومذاك على جميع الغربيين.

لقد كانت الحملة تتألف كما يقول الدكتور حسن حبشي من جماعتين: «احداهما فئة العامة التي استجابت دون تقدير الظروف لدعوة بطرس الناسك، ولم تتسم هذه الفئة بالنظام ولا الإدراك الحقيقي لما هي قادمة عليه، ومن ثم فشلت ريحها وانتهت إلى ما يشبه الانتحار الذي ساقه اليها عدم نظامها؛ أما الجماعة الأخرى فكان قوامها الامراء الاقطاعيون سواء أكانوا فرنسيين أم إيطاليين أم نورمانديين، وطبيعي أن تكون هذه الجماعة أكثر تقديراً لخطة سيرها وإن اختلف هذا التقدير عند أمير عنه عند آخر، لكنها على وجه العموم استعدت بالسلاح والأموال والرجال والعتاد والاتصال مقدماً بأمراء وولاة النواحي التي ستمر بها بل وبالامبراطور الكسيوس كومنين أيضاً حتى يمدّ لها من المساعدة والعون ما قد تحتاجه في طريقها إلى بيت المقدس»[٢٨].

---

(٢٦) الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور، ج ١، ص ٣٦ ـ ٣٧ واستناداً إلى: Thompson; Economic and Social Hist. 1, p. 397.

(٢٧) لم يكن غودفروا دوق اللورين الأدنى القائد الوحيد للحملة ولكنه كان اول الناهضين للحرب، وابرز القادة الآخرين، وخير ممثل للفروسية المسيحية في القرون الوسطى. وكانت «حملة الدهماء» بقيادة بطرس الناسك، في حين انقسمت «حملة الأمراء» إلى اربع فرق احداها بقيادة غودفروا، والثانية بزعامة بوهيمند النورماندي، والثالثة من أهالي وسط فرنسة بقيادة ريمون دوسان جيل كونت تولوز، والرابعة مؤلفة من فرنسيي الشمال بقيادة روبرت هيوز كونت نورمانديا (انظر: الحرب الصليبية الاولى ٦٨ ـ ٦٩) فضلاً عن عدد آخر من الأمراء النورمانديين المغامرين والكونتات الطامعين بإقامة ممالك وإمارات في الشرق، وكان كل كونت أو أمير يعول الجماعة التي تقاتل تحت لوائه.

(٢٨) الحرب الصليبية الأولى ص ٦٤.



غودفروا دي بويون يجتاز نهر الاردن، لوحة من القرن الرابع عشر

ولم تكن تلك القوات «قاصرة على المشاة والفرسان ورماة النبال والسهام والعمال الذين تحتاجهم الحملة في القتال والاستعداد له، بل تعدتهم إلى طائفة غير قليلة من النساء والأطفال والشيوخ والقسس والأساقفة بل والنساء اللاتي جيء بهن لدوافع لا تمت إلى القتال بسبب ما، فكانت أشبه ما تكون بهجرات شعوبية وطّنت نفسها على الاستقرار كجاليات مستعمرة في بلاد الشرق الأدنى»(٢٩).

ويقول الدكتور نقولا زيادة اعتماداً على كثير من المصادر الغربية والشرقية: «كان في الجيوش الصليبية ومع التجار الصليبيين، الفرنسيون من مختلف المدن، واللومبارديون، من مدن إيطاليا التجارية الشمالية، والمالطيون، والاسبان، والاسكندينافيون، والانكليز، والهنغاريون، والبلغار، والجرمان من القبائل المتفرقة في أواسط أوروبا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان التوتون. وكانت قلاعهم الخاصة حصينة. وكان بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين: القاتل واللص وقاطع الطريق والمجرم والقرصان والسكير واللاعب والراهب والراهبة والرجل والمرأة والطفل والعاهرة والمحكوم عليه بالإعدام والملك والأمير والفلاح والتاجر والنبيل والغني والفقير. وباختلافهم اختلفت الغايات والأطماع، من دينية خالصة إلى مادية بحتة، والأخيرة هي التي غلبت متسترة بالأولى. وقد كان هناك من جاء يفتش عن أميرة شرقية غنية يتزوجها»(٣٠).

وكان تقدير البابا صحيحاً، فإن الحروب الصليبية قد أضعفت سلطة الامبراطور هنري الرابع واحرجت موقفه، ووضعت اصلاح الكنيسة بالشكل الذي تريده البابوية موضع التنفيذ في كل مكان. ولم تحل مسألة تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة حلاً نهائياً، لكن المقر البابوي بدا بكل أبهته وجلاله، فوق المجتمعات وفوق الملوك أنفسهم، وأصبح صوته مستجاب النداء مسموع الكلمة.

---

(٢٩) المرجع السابق ص ٨٥.

(٣٠) مجلة المقتطف عدد يوليو ١٩٣٥ ص ٩٩٦.

الفصل الثالث

قارّة تغزو قارّة

كانت الحروب الصليبية أول حرب عالمية عرفها التاريخ، ولم يسبق للقارة الأوروبية قبل هذه العاصفة الجنوبية أن اهتزت بأسرها لعاطفة واحدة وعملت لقضية واحدة، وزحفت في جيش موحد أو شبه موحد نحو هدف واحد.

وكان أوربانوس الثاني قد اتفق مع الامبراطور البيزنطي على أن تمر جيوش الفرنجة من بلاده، وكان هذا الامبراطور يطمح في أن تدين له القوات الصليبية بالولاء، وتعيد إليه ما انترعته السلاجقة من الأراضي البيزنطية، وقد جرت من أجل ذلك وقائع وأحداث ومناقشات لا نرى حاجة إلى التوسع فيها(١)، وهي تدل جميعاً على ما كان يسود علاقات الفريقين: البيزنطيين والصليبيين، من حيطة وحذر وكراهية وتربص كل فريق منهما بالآخر، كما كان كل من القادة الصليبيين يعمل في الوقت نفسه لحسابه الخاص. وكان فوج بطرس الناسك أول الأفواج التي بلغت القسطنطينية(٢).

ويقول الدكتور اسد رستم: «في أوائل تموز من السنة ١٩٠٦ وصلت الى البلقان

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: الحرب الصليبية الأولى ص ٧٠ ـ ٨٣
Grousset; Histoire des Croisades, T1, pp. 15 _ 80و
Chalandon; Hist. de la Première Croisade, pp. 135 _ 140 و

(٢) نفد صبر الذين تجمعوا حول بطرس الناسك قبل ان تتهيأ الجيوش النظامية للزحف الكبير، وطلبوا منه أن يرأسهم ويقودهم إلى الأرض المقدسة في الحال، فاقتسم القيادة مع والتر المفلس، وتبعهما جمع كبير بلغ على حد قول بعض المؤرخين ثمانين ألفاً فيهم كثير من النساء والأولاد (انظر التاريخ العام لمير ص ٢٤٧).

جموع بطرس الناسك ناهبة مُقَتّلة مُخَرِّبة[٣]. وتقدمت هذه الجموع نحو القسطنطينية، فرحب بها الفسيلفس[٤] وأكرمها، واستقبل بطرس الناسك وأوضح له وجوب الانضباط واحترام حقوق السكان. وكان اتباع بطرس قد أقاموا خارج أسوار المدينة، فعاثوا في الضواحي فساداً، وخرقوا حرمة الكنائس. فرأى اليكسيوس أن يجابههم بجيرانه الأتراك السلاجقة عبر البوسفور لعلهم يفقهون. وما إن حطت رحالهم في آسية حتى هاجموا الأتراك، فبدد هؤلاء شملهم. فارعووا وكفوا عن القبيح، ورضوا أن يعودوا إلى ضواحي القسطنطينية عُزّلاً»[٥].

وتتابعت من بعد ذلك أفواج الصليبيين، فجاء غودفروا دي بويّون بجموعه، وكان اليكسيوس قد سمع بشجاعته وثرائه وسخائه فأكرمه، ولكن غودفروا رفض مبايعة الامبراطور، فتوترت العلاقات بين الاثنين، وقلّت المؤونة لدى اتباع غودفروا خارج أسوار العاصمة، فلجأوا إلى العنف ونهبوا بلدة سيلمبر وأحرقوا بلدة بيرا[٦] وأرادوا اقتحام احد مداخل القسطنطينية، فصدّهم البيزنطيون بالقوة وتغلبوا عليهم، فأخلدوا إلى السكينة. ودعا الامبراطور الزعيم الصليبي إلى مأدبة أقيمت في القصر المقدس على شرفه، فبايع غودفروا الامبراطور على الطاعة والولاء، ومضى بجموعه إلى آسية.

وأطلّ من بعده بوهيمند النورماندي الإيطالي ابن غيسكار، وكان قد حارب اليكسيوس في ألبانية واليونان، فاعتور علاقاته مع البيرنطيين في بادىء الأمر شيء من

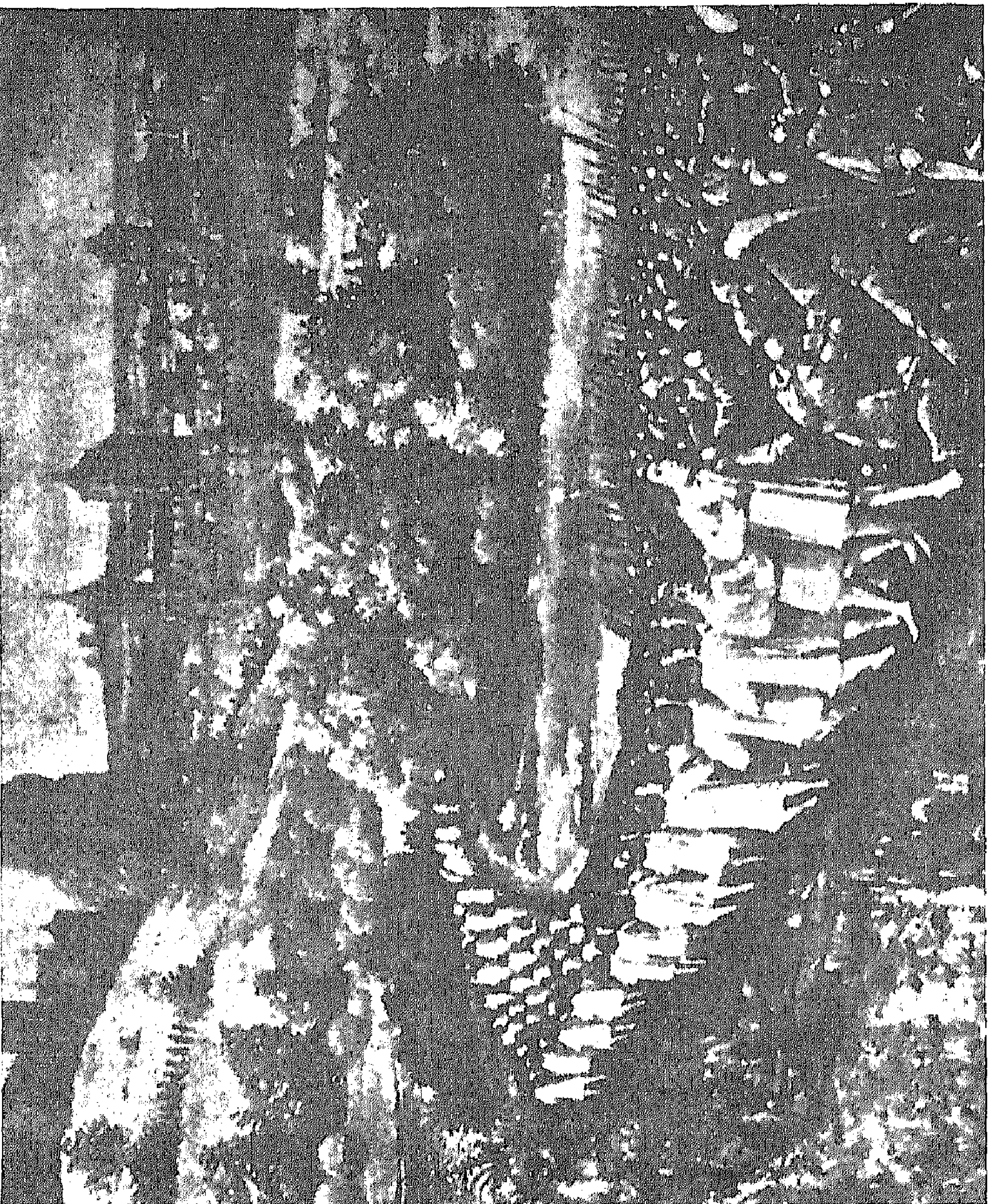
---

(٣) لم تكن الفظائع التي ارتكبها الإفرنج في انطاكية وبيت المقدس فيما بعد اكثر هولاً من الاعمال الجنونية التي أقدموا عليها في بلغارية والمجر وجميع الأراضي التي مروا بها ضد السكان المسيحيين واليهود (انظر: Michaud; Hist. des Croisades, T1,.pp. 230, 239) فقد نهبوا بلغراد وتيش وقتلوا في مدينة سملين المجرية وحدها أربعة آلاف من المسيحيين (Albert d'Aix, Hist. Occid, IV, p. 296) ويروي المؤرخ المجهول الذي رافق الحملة الصليبية الأولى ودوّن وقائعها أمثلة كثيرة عما قاموا به في القسطنطينية حيث خربوا القصور والكنائس وأضرموا النار فيها وخلعوا الرصاص الذي كانت تغطى به الكنائس وباعوه للاغريق (انظر كتاب الجستا الذي عربّه الدكتور حبشي بعنوان «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» ص١٩ ـ ٢٠ و Brehier: Vie et Mort de Byzance, p. 310) ويقول غروسّه إن حملات العامة الأخرى التي قادها فولكمار وغوتشالك واميخ لم تكن احسن حالاً من حملة بطرس الناسك و والتر المفلس، بل «كانت كلها وصمة سوداء في تاريخ الحركة الصليبية» (Hist. des Croisades, T1, pp. 9, 10).

(٤) الامبراطور البيزنطي.

(٥) الروم وصلاتهم بالعرب، ج ٢، ص١٢٦.

(٦) Albert d'Aix, pp. 299 _ 308



معركة على أبواب القسطنطينية بين الجنود البيزنطيين وجماعة بطرس الناسك، لوحة من القرن الخامس عشر

الفتور والحذر، ولكن شخصيته الجذابة ومواهبه الكبيرة، ونجاحه في التظاهر بالصدق والاخلاص، عملت على إزالة الحذر والفتور بينهما. وقد اغدق عليه الامبراطور فيضاً من الهدايا والأموال، فسرّ بوهيمند وطلب إلى الامبراطور أن يدخل في خدمته ويتولى قيادة جيشه، فوعده بالنظر في ذلك فيما بعد، ووعد باقطاعه أراضي فسيحة في منطقة انطاكية، فبادر بوهيمند حينئذ إلى الدخول في طاعة الامبراطور وأقسم يمين الولاء له.

ثم جاء روبير دو فلاندر فدخل لفوره في طاعة الامبراطور. أمّا ريموند دو سان جيل فقد رفض الدخول في الطاعة، ثم أقنعه بوهيمند بذلك ففعل. إلا أن تنكريد الصقلي نسيب بوهيمند الذي كانوا يسمونه «مرآة الفروسية» لم يرض أن يمر بالقسطنطينية أو أن يقسم يمين الولاء والطاعة لعاهل الروم.

يقول الدكتور رستم: «وكان ينقص هؤلاء جميعاً فيما يظهر الشيء الكثير من آداب السلوك وحسن المعاشرة، فكانوا يدخلون على الامبراطور في الصباح الباكر ولا يفارقونه إلا في نهاية المساء، متطلبين متطاولين، أو مسترشدين، أو متحدثين مسامرين. وكانوا في كثير من الأحيان متهتكين سفهاء، خالعين بُرقع الحياء، ضعفاء الإرادة لا يمتنعون عن شيء مما يرغبون فيه، متكلمين بما لا ينبغي، متشدقين»(٧).

وقد أيقن العاهل البيزنطي بأن هؤلاء المغامرين لا يعنيهم شيء من شؤون امبراطوريته، وأنه ليس من المستبعد ان يعملوا على تقويض البقية الباقية منها، لكن براعته الديبلوماسية كانت متكافئة مع المأزق الذي تورط فيه، وقد استطاع ان يسيّرهم جميعاً بسلام، عبر مضيق البوسفور، «دون أن تكون لديه أية نية في تسهيل عودتهم»(٨).

وعانت تلك الجيوش، بل تلك الموجة البشرية، وهي في طريقها إلى الأراضي المقدسة ألواناً شتى من الشدائد والأهوال والأمراض والثورات والغزوات والمذابح، وانشقاق بعضها على بعض، والاشتباك في معارك جانبية مع جيوش المسلمين، بحيث لم يصل منها إلى بيت المقدس في سنة ٤٩٢هـ ١٠٩٩م، بعد تلك المآزق التي دارت عليها أسوأ مدار، إلاّ خمسة عشر ألف مقاتل أو أكثر قليلاً.

---

(٧) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص١٢٨.

(٨) تاريخ العالم لهامرتن، ج٤، ص ٤٧٥.

وكان تمرد الجنود أو هربهم من الجندية في أحيان كثيرة، حرياً بأن يحول دون بلوغ الفرنجة هدفهم، لولا أن القوى التركية كانت قد هزلت بعد موت السلطان ملكشاه، لما قام بين أعضاء الأسرة السلجوقية من نزاع، ولولا أن الفوضى في صفوف العرب لم تكن تقل عن الفوضى السائدة في جيوش الإفرنج، ولولا أن هؤلاء كانوا يتلقون من الغرب نجدات مستمرة، ومن الأساطيل الإيطالية مساعدات فعّالة، فسقطت في أيديهم انطاكية وكانت في أيدي السلاجقة، وسقطت القدس وكانت في أيدي الفاطميين(٩)، كما سقطت بعض القرى والقلاع، واستعاد الامبراطور البيزنطي بمساعدتهم مدينة نيقية التي كانت كفيلة بأن تهدد مواصلاتهم وامداداتهم إذا ظلت في أيدي السلاجقة. وانتصار الصليبيين في نيقية كان أول انتصار أحرزوه في حملتهم فشحذ عزائمهم وبعث فيهم حماسة جديدة(١٠). وكان العاهل البيزنطي قد خشي أن يستأثر الصليبيون بالمدينة أو أن يعمدوا إلى نهبها وتدميرها، فأخذ يفاوض حاميتها على الاستسلام متعهداً بالحفاظ على حياة السكان، فما كادت تسقط حتى رفع رجال الحامية المسلمون الأعلام البيزنطية على الأسوار(١١). ولم يكتم الصليبيون استياءهم من حسن معاملة امبراطور الروم لأسرى المسلمين واطلاقه سراح زوجة قلج ارسلان وأولاده دون فدية.

وكانت قد انشعبت عن قوافل الحملة في آسية الوسطى جماعتان احداهما بقيادة تنكريد والثانية بقيادة بلدوين ابن كونت بولونية، سعياً وراء أمجاد شخصية لم يظفر بها الأميران في بلادهما، فاحتل الأول طرسوس بالتعاون مع سكانها الأرمن ثم تخلى عنها لبلدوين، ومضى إلى المصيصة سنة ٤٩١هـ-١٠٩٧م، فرحب به سكانها الأرمن ثم غادرها عائداً إلى صفوف الفرنجة، وانطلق بلدوين إلى الرُّها (أورفا) بعد أن اشتبك جنوده بجنود تنكريد وكاد يفني بعضهم بعضاً، فاستقبله اميرها الأرمني طوروس وأعلن تبنّيه له

(٩) كان الفاطميون قد استعادوا بيت المقدس من السلاجقة في سنة ٤٩١هـ-١٠٩٧م، بعد سقوط انطاكية في أيدي الإفرنج بشهر واحد، وعرضوا على هؤلاء ان يعقدوا حلفاً معهم، ويقول جون هامرتن انهم «بذلوا لهم من الوعود لإعادة نظام الحكم القديم المنطوي على التسامح، والذي ظل وقتاً طويلاً كافياً لإرضاء شعور الغربيين في العهود الماضية، ولكن بيت المقدس كانت قد أصبحت هدف الصليبيين، وتحتم في نظرهم انقاذها من المسلمين، سواء أكانوا من المتسامحين أم من المتعصبين، من الفاطميين أم من الأتراك»، انظر: تاريخ العالم، ج٤، ص٧٤٦ و Michaud; Hist. des Croisades, T1, pp. 362, 363

(١٠) Albert d'Aix. pp. 320, 321

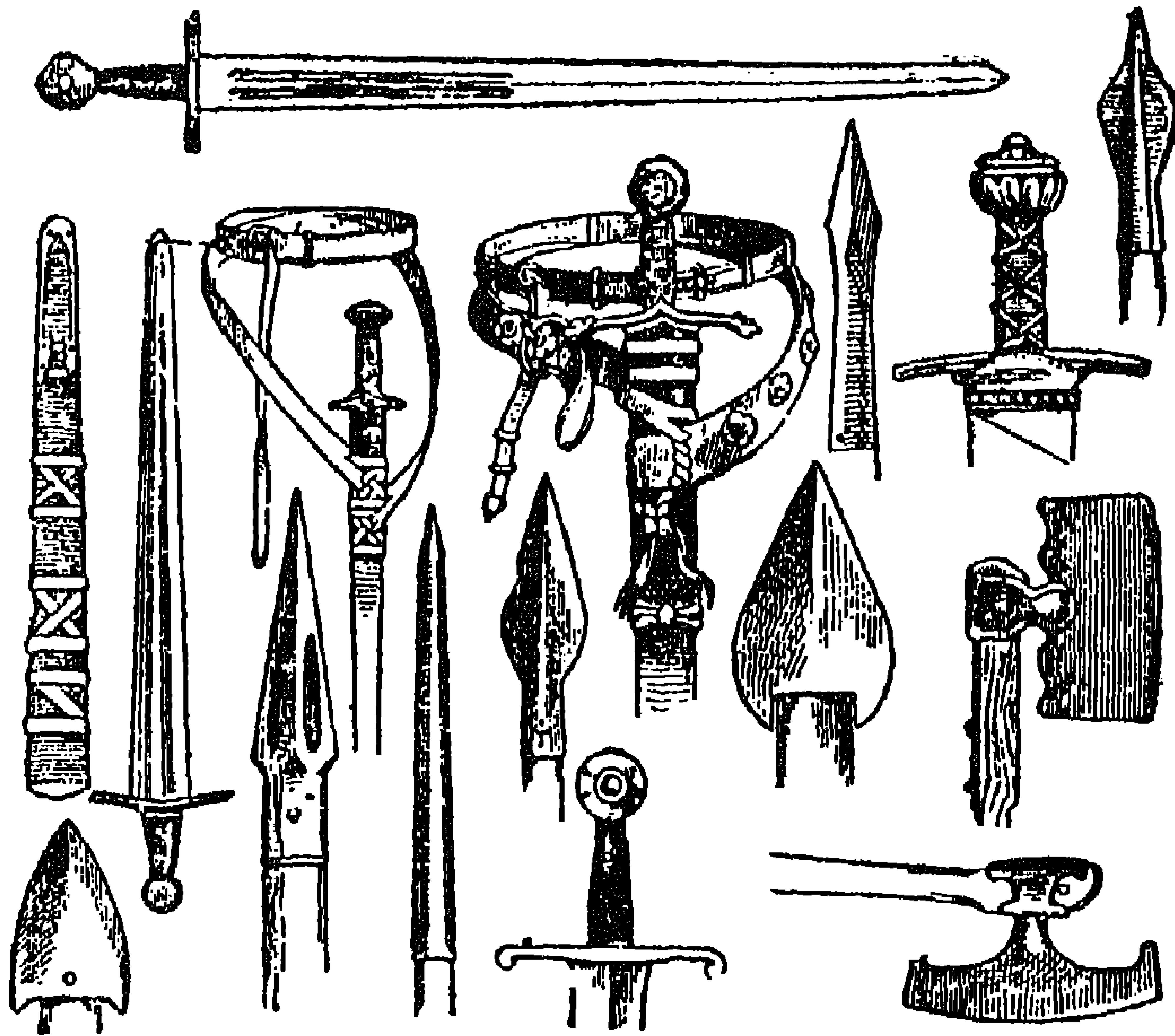
(١١) Bréhier Vie et Mort de Byzance. p. 312



الامبراطور اليكسيوس كومنينوس في لوحة قديمة تمثله في حضرة السيد المسيح

وجعله وريثاً لعرشه، فما لبث أن تآمر عليه مع خصومه الذين ثاروا على طوروس ونفوه ثم قضوا عليه لاعتناقه المذهب الارثوذكسي واعترافه بنوع من التبعية للامبراطور البيزنطي(١٢).

واستقل بلدوين بحكم الرها، وتحلل من كل ارتباط بالعرش البيزنطي، وأخذ يستولي على القرى والبقاع القريبة من ملكه، واستقدم الأفرنج لتوطينهم في الرها وتسليمهم مقاليد الإدارة، مخافة ان تستيقظ الوطنية الأرمنية، إلا أن إيثاره الفرنجة على أهل البلاد هو الذي أثار كراهية المواطنين له «وترجموا عن كراهيتهم لسياسته بتدبير مؤامرة لاغتياله(١٣) وليس أدل على هذه الكراهية من أن تاتول، أبا زوجته، التي كان قد اقترن بها



طائفة من الاسلحة التي استخدمت في الحروب الصليبية، وتشاهد بينها السيوف والسواطير والسهام والرماح والقضبان

(١٢) Michaud; Hist. des Croisades, T1. p. 233

(١٣) يروي ألبير ديكس أن الارمن قد اتصلوا بالاراتقة سراً وطلبوا مساعدتهم في تلك المؤامرة Hist. Occident, p.443

منذ بضعة أشهر ـ كان ضالعاً مع المتآمرين ـ ونمي خبر هذه المؤامرة إلى بلدوين فأخذهم أخذ جبار منتقم، فألقى القبض على المتآمرين ومثل بهم غداة عيد الميلاد سنة ١٠٩٨ وسمل أعين بعضهم وجدع أنوف آخرين، وصادر كثيراً من أملاكهم وأموالهم، وفرض على بعضهم غرامات كبيرة، فهدأت الأحوال واستقرت الأمور، أما تاتول فقد أدرك أن خيره في البعد عن الرها. وهكذا اسدل الستار على أول فصل من فصول الحملة الصليبية التي كشفت القناع عن أن الفكرة الدينية لم تكن هي التي تحرك هذه الجماعات الأوروبية التي زعمت أن تخليص بيت المقدس هو هدفها. وإن تاريخ الرها ليدل على أن أهلها المسيحيين والأرمن لم يصادفوا من الاضطهاد والقتل مثل ما صادفوه خلال العام الذي تولى شؤونهم فيه بلدوين الفارس الصليبي والمسيحي الأوروبي»[١٤].

أما إنطاكية درة الشرق يومذاك، فكان يحكمها الأمير السلجوقي ياغي سيان، وهي من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً، فلما شارفتها قوات الإفرنج امتنع ياغي داخل أسوار المدينة الحصينة ودعا كل قادر على القتال إلى الإسهام في أعمال الدفاع. يقول الاستاذ حبيب جاماتي: «وكان فريق من النصارى السوريين والأرمن ـ بخلاف ما قد يتبادر إلى الذهن ـ عوناً للحاكم السلجوقي على الجيش الصليبي. فحملوا إلى ياغي سيان كميات كبيرة من الحنطة والشعير والعلف والزيتون، واشتبك بعضهم في قتال الافرنج الذين كانوا يعتمدون على أولئك النصارى، ويعتقدون أنهم سيكونون حلفاء لهم في تلك الحرب الدينية»[١٥].

وكان في وسع القوات العربية والاسلامية لو زحفت لنجدة انطاكية من حلب ودمشق والموصل وبغداد، ان تحاصر القوات المغيرة وتقضي عليها، بعد أن طال وقوفها أمام أسوار انطاكية وفتك الجوع بكثير من أفرادها، حتى أن بطرس الناسك ووليم النجار حاولا الهرب هما وجماعة من اتباعهما فتعقبهم تنكريد وأعادهم إلى المعسكر الصليبي عنوة.

ويروي المؤرخ المجهول صاحب الجستا قصة ذلك بقوله: «أدت هذه النكبة الجسيمة

---

(١٤) الحرب الصليبية الأولى ص ١٠٨ـ١٠٩.

(١٥) غبار المعارك ص٥٨.

والضيق البالغ إلى تبسلل وليم النجار وبطرس الناسك سراً، فمضى تنكريد في آثارهما وامسكهما ورجع بهما وهما في غاية الخزي، فقطعا على نفسيهما العهد بالطاعة، وأقسما له الإيمان المغلظة بأنهما سوف يرجعان طواعية إلى المعسكر، وأنهما سيعتذران للسادة. وأقام وليم طول الليل في فسطاط بوهيمند مقيد الطرف إلى الأرض وهو أذل من المهانة، فلما تنفس صباح اليوم التالي مَثُلَ أمام بوهيمند وقد أحمر خجلاً، فخاطبه بوهيمند بقوله: «أيها الشقي، يا خزي فرنسا ويا عار جميع الغاليين وأشدهم إثماً، ويا أشقى من حملته الأرض، لماذا هربت على هذه الصورة المخزية؟ أتراك كنت تريد خيانة هؤلاء الفرسان وتسليم جيش المسيح للكفرة كما صنعت بغيرهم من قبل في إسبانية؟» فلزم وليم الصمت المطبق ولم تنفرج شفتاه قط عن أية كلمة، فاجتمع الفرنسيون جلهم تقريباً متوسلين إلى السيد بوهيمند ألا يشتد أكثر من هذا في إيلامه، فأجاب سؤالهم وقال: «إن حبي إياكم يحملني على تلبية طلبكم عن طيب خاطر إذا أقسم لي قسماً خالصاً من قلبه وروحه ألا يحيد عن طريق بيت المقدس سواء في الفرج أو الضيق، وكذلك إذا قبل تنكريد ورجاله العفو عنه» فلما سمع تنكريد هذه العبارة رضي، وسرعان ما ردّه بوهيمند، على انه حدث فيما بعد أن افترس الخزي وليم النجار فما لبث أن هرب واختفى»[١٦].

وقد وصلت النجدات الاسلامية متأخرة ومتفرقة، فالتقى جيش دقاق أمير دمشق وأتابكه طغتكين بقوات بوهيمند وروبرت كونت فلاندر على مقربة من شيزر فعانى جسيم الخسائر وارتد مذعوراً إلى حماة. وجاء رضوان أمير حلب بجيشه ومن انضم إليه من سنجار وشيزر وحماة وحمص، وعسكر في مرج دابق شرقي انطاكية، وقام بمحاولة جريئة لشق طريق له إلى قلب المدينة، وكان الفرنجة قد عملوا بمقدمه وكمنوا له، فأنزلوا به خسائر فادحة وتعقبوه حتى حارم. ثم تحركت الخلافة العباسية فأنفذت جيشاً كبيراً بقيادة قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، ولكن كربوقا لم يشخص إلى إنطاكية مباشرة بل أراد أن يمرّ بالرها فيفتتحها ثم يمضي منها إلى انطاكية، وامتنعت الرها عليه، فغادرها واتجه إلى هدفه الأول، وبينما هو في الطريق سقطت انطاكية في ٣ حزيران (يونيو) ١٠٩٨م(٤٩٢هـ) إثر خيانة أرمني يدعى فيروز كان ياغي قد وثق به وعهد إليه بحراسة حصن رئيسي من حصون المدينة يسمى «حصن الأختين» فسلّم الحصن إلى الإفرنج

(١٦) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص٥٥.

ونفذوا إليها منه بعد أن صعدوا إليه على سلم مثبت إلى أسوار المدينة تثبيتاً قوياً. وقد اختلفت الروايات في الأسباب التي حملت فيروز على ذلك، فقالت المصادر العربية(١٧) إنه كان غاضباً على ياغي لمصادرته بعض أمواله، وقالت المصادر الإفرنجية(١٨) إنه اكتشف خيانة زوجته له مع أحد أمراء الأتراك فعمل على الانتقام منهم. أما صاحب الجستا فقال إن حارس الحصن تركي يدعى بيروش وإنه كان يشرف على حراسة ثلاثة حصون لا حصن واحد(١٩).

وقد غادر ياغي المدينة هارباً بعد المذبحة التي وقعت فيها فقتل في الطريق، بينما تحصن ابنه شمس الدولة في القلعة.

ومن أطرف ما يصوّر الأحداث التي رافقت احتلال انطاكية اللوحة البارعة التي رسمها الاستاذ جاماتي بقوله: «أحاطت تلك المرحلة من مراحل الحرب الصليبية الأولى سلسلة من الخيانات، لولاها لتغير مجرى الحوادث ووجه التاريخ. فقد احتال بوهيمند على قومه للفوز بإمارة انطاكية وخان الصليبيون امبراطور بيزنطية الذي تعهدوا له بتسليمه المدينة بعد أخذها فأعطوها لرفيقهم بوهيمند. وخانت زوجة فيروز زوجها فأثارت حفيظته على ياغي سيان. وغدر ياغي سيان بصديقه فيروز فحمله على خيانته وفتح المدينة للصليبيين. وخان فيروز سيده وقومه وحالف الأعداء ومكنهم من الاستيلاء على انطاكية. وتخلى غلمان ياغي سيان عن سيدهم فاغتاله الأرمن وأرسلوا رأسه إلى أعدائه. وأخيراً خنث بوهيمند بالعهد مع فيروز فلم يعينه في المنصب الذي وعده به ثمناً لخيانته. وأما الزوجة الخائنة فقد قتلها زوجها الخائن بيده. واختفى فيروز وانقطعت أخباره عن الناس، ولم يبق على قيد الحياة من أبطال هذا الحصار، الذي كانت الخيانة محور حوادثه، غير بوهيمند أمير انطاكية»(٢٠)!

ولما وصلت قوات كربوقا بعد ثلاثة أيام حاول شمس الدولة منعه من الدخول إليها،

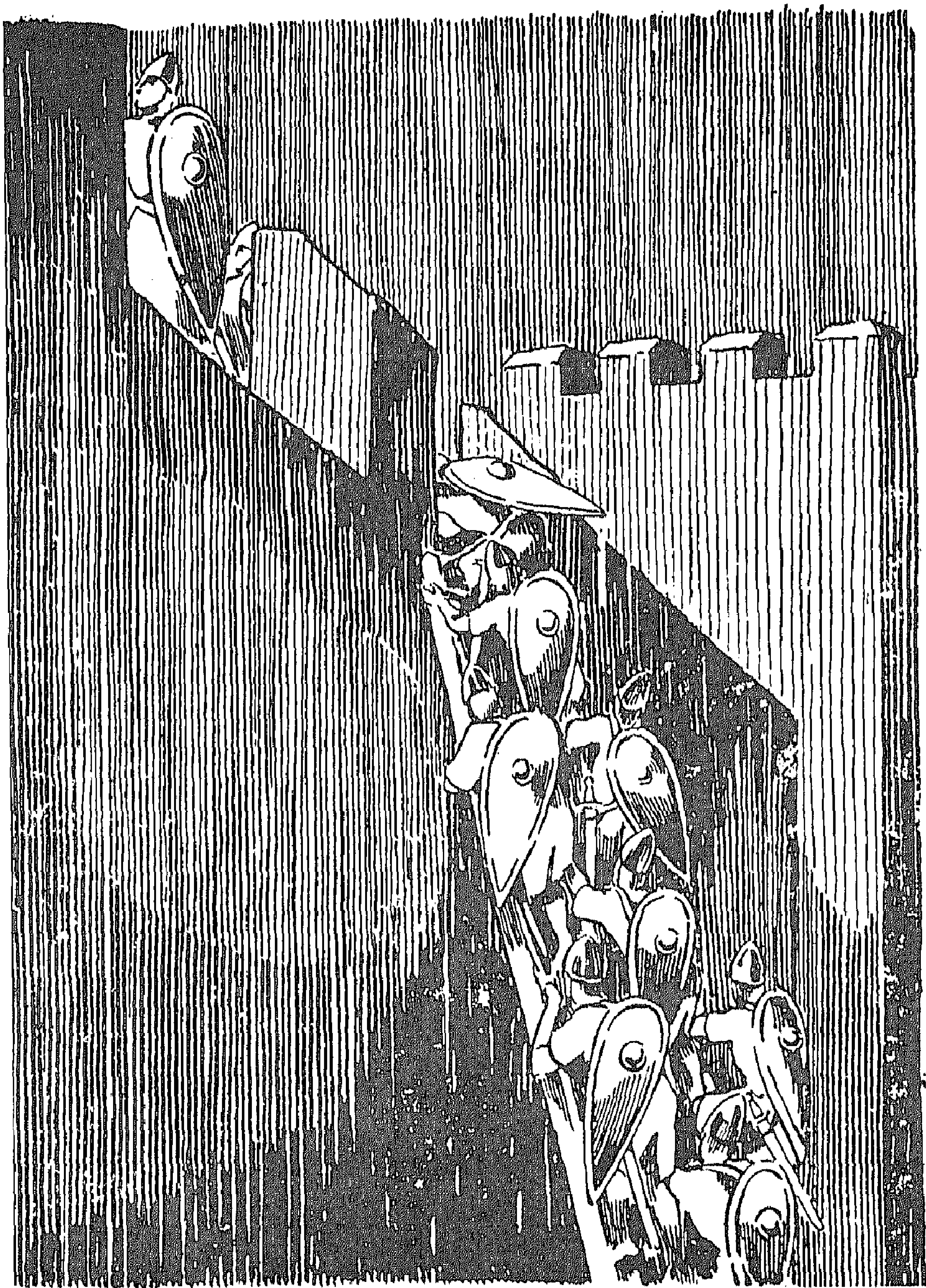
---

(١٧) ذيل تاريخ دمشق ص١٣٥ ـ ١٣٦ انظر ايضاً: الكامل، ج١٠ صفحة ١٨٧ والمختصر في تاريخ البشر، ج٢، ص٢٢٠ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥ صفحة ٢٠.

(١٨) Guillaume de Tyr (historiens des Croisades, T.I, p. 221)

(١٩) انظر: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص٦٦ ـ ٧٠ وفيه تفصيل احتلاله الفرنجة لانطاكية.

(٢٠) غبار المعارك صفحة ٦٠.



الفرنجة يتسلقون اسوار انطاكية

وأخذ يفاوضه في ذلك، فلم يصغ كربوقا إليه، وبادر إلى احتلال القلعة ومحاصرة المدينة، وشدد عليها الحصار حتى أكل الناس الميتات والكلاب[٢١] وتولى الإفرنج اليأس، وعمّت الفوضى صفوفهم، وبدأ الكثيرون منهم يتسللون هرباً من المصير المظلم، وكان بين هؤلاء الهاربين عدد من الأمراء والقادة، وتحرك الامبراطور البيزنطي لنجدتهم، إلا أنه ما لبث أن عاد بجيشه إلى القسطنطينية دون أن يلتحم مع المسلمين في قتال حين التقى بأحد الهاربين من إنطاكية فزعم له أن المسلمين قد استعادوا انطاكية وأبيد الصليبيون جميعاً.

والواقع أنه لم ينقذ الصليبيين من الإبادة إلا الفرقة التي دبت في صفوف المسلمين والتنافر الذي وقع بين الأتراك والعرب[٢٢]، وإلا رؤيا الحربة المقدسة التي طُعِن بها السيد المسيح، إذ ادّعى أحد أفراد الحملة ويدعى بطرس بارتلميو أن القديس اندراوس تجلى له في المنام مرات متعددة قائلاً له إن الحربة التي طُعِن بها السيد المسيح مدفونة في كنيسة القديس بطرس بانطاكية، وأمره بأن يمضي إلى المعسكر لينبىء الصليبيين بأن جميع القديسين سيحاربون إلى جانبهم، ولن يُغلب قوم ابداً يحملون هذه الحربة معهم.

وعلى الرغم من اعتقاد المسيحيين بأن في القسطنطينية حربة يذهبون إلى أنها الحربة المقدسة، فان مؤرخي الفرنجة يؤكدون رؤيا بارتلميو، ويقولون إن عدداً من قادة الصليبيين رافقوه بعد تردد كبير وجدل عنيف، إلى كنيسة القديس بطرس، وحفروا حيث أشار عليهم، فوجدوا الحربة أمام جمهور غفير[٢٣] ففرح الجميع وعمت البهجة المدينة.

أما مؤرخو المسلمين فيذهبون إلى أن دهاء ريموند الصنجيلي هو الذي تفتق عن اسطورة الحربة ليُنهض بها من عزائم الصليبيين «فرتب مع راهب حيلة، وقال له: إذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا، ثم قل للفرنج بعد ذلك: رأيت المسيح في منامي وهو يقول: في المكان الفلاني حربة فاطلبوها، فان وجدتموها فالظفر لكم فهي حربتي...»[٢٤].

ومهما يكن من أمر، فان ظهور الحربة قد جدد حماسة الصليبيين وألهب خيالهم،

---

(٢١) منتخبات من تاريخ حلب صفحة ٥٨٢.

(٢٢) العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج ص ٢١.

(٢٣) Chalandon: Hist. de la première Croisade, pp. 216 _ 218 وأعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٨٢ـ٨٣.

(٢٤) النجوم الزاهرة لابي المحاسن، ج٥، ص ١٤٧ـ١٤٨.

فكثرت الرؤى بينهم وتعددت الأساطير، فرأى أحدهم السيد المسيح يقول له: «اذهب إلى شعبي وقل له أن يعود لي وسأرجع أنا إليه، ودونه خمسة أيام سأبعث إليه بعدها بنجدة عظمى» وشاهد بعضهم ناراً سماوية تقبل من الغرب وتدنو حتى تسقط بين جيوش المسلمين. فأعاد ذلك الاطمئنان إلى نفوسهم، وتنادوا إلى القتال من جديد، وانتهزوا ما ذكرناه آنفاً من خلاف أمراء المسلمين وقادتهم، وخرجوا لقتالهم تتقدمهم الحربة المقدسة.

ويروي ابن العديم وابن الأثير ان بعض القادة اشاروا على كربوقا بألا يمكّن الافرنج من الخروج بأجمعهم، وان يقتلهم متفرقين كلما غادر المدينة نفر منهم، فان امرهم وهم متفرقون سهل، إلا انه لم يلق إليهم سمعاً، وقال: امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم(٢٥).

ويقول الدكتور حبشي ان كربوقا «حال بين عسكره وبين الوثوب على الصليبيين حين خروجهم فرادى، مؤثراً أن يلقاهم جمعاً رتيباً كأنه في حفل فروسية»(٢٦)، فكان ذلك سبباً في انكساره وهزيمة جيوشه(٢٧). أما صاحب الجستا فانه يؤكد ان سبب النصر الذي أحرزه الإفرنج في ذلك اليوم المشهود هو ان السيد المسيح قد انجدهم بقوات لا تُحصى انطلقت من ناحية الجبل بقيادة القديسين جرجس ومرغوريوس وديمتري وهي تمتطي صهوات جياد بيضاء وفي أيديها رايات بيض(٢٨).

واختلف قادة الحملة في مصير انطاكية، فقد أراد الاستئثار بها كل من بوهيمند وريموند دو صنجيل، ودعا غيرهما إلى تسليمها لامبراطور بيزنطية وفاءً بالعهد الذي قُطع له، واشتد النزاع بين الأمراء والكونتات، وأدى ذلك إلى تأخر مسيرة الحملة الى بيت

---

(٢٥) منتخبات من تاريخ حلب، ص٥٨٣، الكامل، ج١٠، ص١٨٨.

(٢٦) الحرب الصليبية الأولى ص١٤٤، انظر أيضاً: الكامل، ج١٠، ص١٨٨ والمختصر في تاريخ البشر، ج٢، ص٢٢١.

(٢٧) لم تكن هذه هي الهفوة الاولى التي يقع كربوقا فيها أمام أسوار انطاكية، فقد روى ابن القلانسي وابن العبري انه لما اشتد الحصار على الصليبيين داخل المدينة أخذوا يفكرون في الاستسلام، ولكن كربوقا رفض ان يعطيهم الأمان ليخرجوا من انطاكية، وقال لهم: لا تخرجون إلا بالسيف. (ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٦، تاريخ مختصر الدول، ص١٩٦).

(٢٨) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص٩٢ ـ ٩٤.

المقدس تسعة أشهر كان الإفرنج خلالها يمكنون لأنفسهم في أنحاء سورية، ويحتلون القرى والمواقع القريبة منهم، ويغيرون على المناطق الشمالية.

وقد استطاع بوهيمند ان يفرض سلطانه على معظم أنحاء انطاكية وحصونها، واستقدم إليها لهذا الغرض جالية كبيرة من جنوة، وكان قد استعد لهذا الأمر واحتاط له منذ بدء المعركة، وعمل على استفزاز تاتكيوس القائد البيزنطي وحمله على مغادرة تلك المنطقة متهماً إياه بالتآمر مع الأتراك وخيانة القضية الصليبية في الخفاء(٢٩)، بقصد التحرر من العهود التي قطعت للعامل البيزنطي بإعادة انطاكية له بعد الاستيلاء عليها.

وتولى غودفروا باسم أخيه بلدوين، أمير الرها، بعض المدن التي تمّ لبلدوين فتحها مثل تل باشر وراوندان، وقد استعان به عمر امير عزاز ضد مولاه رضوان صاحب حلب، ويقول ابن العديم ان السبب في ذلك هو ان احد قواد عمر أحب أرملة من اللورين فلما نشب الخلاف بين عمر ورضوان طلبت منه أن يحمل عمر على نشدان المعونة من أميرها غودفروا، ففعل ذلك(٣٠)، وانجده غودفروا وريموند الصنجيلي لما في ذلك من توطيد لدعائم الحكم الصليبي في الأرض السورية و«الاعتراف الصريح بخطورة شأن الصليبيين في بلاد الشام وتفكك القرى الاسلامية، وهو ما يهدف اليه الصليبيون»(٣١).

واحتل ريموند خلال ذلك مدينة البارة وأسكن فيها جماعة من الأوروبيين، ثم هاجم معرة النعمان وناصره في ذلك بوهيمند وروبرت كونت فلاندر، وبعد حصار دام عدة أسابيع «عمد بوهيمند إلى انفراده بالعمل في دخول المدينة المغلوبة كما فعل من قبل في إنطاكية(٣٢)، فبعث من ينادي بين أهل معرة النعمان بالأمان إن هم استسلموا إليه دون غيره من القادة، وقطع على نفسه العهد ببسط حمايته عليهم وأمّنهم على أرواحهم وأموالهم، ودلهم على مكان يلوذون به فلا ينالهم ضرّ ولا يمسهم أذى، فصدق البعض قوله، وذهبوا إلى حيث أشار، إلاّ أن بوهيمند ما لبث أن نكث بعهده وقتلهم، غير مستثن سوى النساء والأطفال حيث بيعوا أسرى»(٣٣).

---

(٢٩) الحركة الصليبية، ج ١، ص١٩٦.

(٣٠) منتخبات من تاريخ حلب، ص ٥٨٦.

(٣١) الحرب الصليبية الأولى ص١٥٤.

(٣٢) كان بوهيمند هو الذي اتصل به فيروز لتسليمه حصن الأختين.

(٣٣) الحرب الصليبية الأولى ص١٥٩ ـ ١٦٠. انظر ايضاً: الكامل، ج ١٠، ص١٩٠.

ويقول الدكتور سعيد عاشور: «ان الشيء الذي يسترعي العجب حقاً، هو أن المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها، بدليل ان الفاطميين في مصر فكروا في مشروع للتحالف مع تلك القوة الجديدة التي ظهرت في بلاد الشام، ضد خصومهم من أهل السنة، اعني الخلافة العباسية في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام وكان صاحب السلطة الفعلية في مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي الذي ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ـ ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من حكم الآمر، أي حتى سنة ١١٢١م. ويبدو عدم إدراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية من انه عندما رأى الصليبيين يهاجمون الاتراك السلاجقة ـ أعداء الدولة الفاطمية الألداء ـ فكر في ان يقيم تحالفاً بينه وبين الصليبيين، بحيث تكون انطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين. ولم يشأ الأفضل ان يضيع الوقت، وإنما انتهز فرصة الفوضى التي أصابت العالم الإسلامي في الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر نتيجة لوصول الصليبيين، وأرسل جيشاً تمكن من فتح بيت المقدس. وفي تلك الأثناء، كانت سفارة فاطمية من قبل الأفضل قد وصلت إلى معسكر الصليبيين أمام انطاكية. ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الإسلامي على نفسه في ذلك الحين بن سُنّة وشيعة، وتُرك وعرب، وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعاً، الأمر الذي مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع. وتصور لنا المراجع اللاتينية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدي الصليبيين. ومهما يكن من أمر، فقد صح حساب الأفضل في أول الأمر، لأن الاتراك كانوا مشغولين بالغزو الصليبي وإقامة جبهة في الشمال ضد الفرنجة الغزاة، فلم يتمكنوا من إرسال نجدة لأقربائهم في بيت المقدس ترد عادية الفاطميين. وفي الوقت نفسه، استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التي اتخذها الفاطميون، لأن تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب ارتباكاً للاتراك السلاجقة في أشد الأوقات حرجاً. هذا فضلاً عن أن السفارة التي أرسلها الفاطميون إلى الصليبيين عند انطاكية اكسبت أولئك الأخيرين وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من أركان العالم الإسلامي»[٣٤].

---

(٣٤) الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٩٧ ـ ١٩٩.

وكان الحجاج المسلحون قد بدأوا يتذمرون من طول لبثهم في انطاكية وضواحيها، ويستحثون قادتهم على معاودة المسيرة إلى بيت المقدس، والقادة غارقون في الخلافات الشخصية يحاول كل منهم الاستئثار بما وضع يده عليه، وقد تجلت حقيقة بوهيمند بنوع خاص لجميع أفراد الحملة فأدركوا أنهم انما يبذلون دماءهم في سبيل تحقيق أطماعه، وتحولوا عنه إلى ريموند دو صنجيل كونت تولوز، وولّوه قيادتهم في الزحف إلى بيت المقدس. ولما خرج ريموند من معرة النعمان يوم ١٧ صفر ٤٩٢ هـ، ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٠٩٩، حافي القدمين، تمثلاً بالسيد المسيح، في طريقه الى القبر المقدس، تخلّف عنه جميع أمراء الحملة، مؤثراً كل منهم أن يتولى الحكم في إحدى المناطق التي دانت لهم، مما عزز مكانته لدى الصليبيين وزاد من التفافهم حوله، وحين بدأ بعض الأمراء يلحقون به وهو على أبواب فلسطين، كان قد انتزع حقه في زعامة الحملة.

ولم تتعرض الحملة في طريقها لمقاومة تذكر، وقد استولت على جميع المدن والقرى الساحلية، وكان الأمراء والولاة المسلمون يتجنبون الاصطدام بها ويلجأون معها إلى المداورة والمصانعة، حتى أن أبا علي فخر الملوك ابن عمار صاحب طرابلس لم يتردد في إهداء ريموند دو صنجيل عشرة جياد وأربعة بغال وبعض الذهب، ودعوته إلى الموادعة والاتفاق والارتباط برباط المودة إذا أحب(٣٥)، ولكن هذا الموقف لم ينقذ طرابلس حين علم الإفرنج بما هي عليه من ازدهار وثراء، فاحتلوها بعد حصار طويل، ويقول محمد كرد علي إن السبب الذي دعا أهل طرابلس إلى التسليم هو أنهم بينما كانوا ينتظرون وصول النجدة بحراً من مصر جاءهم رسول منهم على مركب يطلب منهم باسم الخليفة الفاطمي جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لصنع آلات الطرب(٣٦). ثم احتل الفرنجة بيروت، ولم يلقوا مقاومة إلا من أهل صيدا(٣٧)، إلاّ انهم سرعان ما قضوا على هذه المقاومة وتابعوا مسيرتهم إلى بيت المقدس مروراً بصور وعكا واللد والرملة.

---

(٣٥) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص١٠٧، ونحن لا نعتقد بان موقف ابن عمار هذا يمكن ان يوصف بالتخاذل كما رأى الدكتور حبشي (الحرب الصليبية الاولى ص١٧٠) ولكننا نرى راي محمد كرد علي الذي قال: «كان لابن عمار البلاء الحسن بل الأحسن في دفع عادية الصليبيين عن بلده، ولم يترك باباً من ابواب الخلاص ليصدهم عن طرابلس إلا طرقه حتى دفعهم بعقله وحسن إدارته عن تملكها عشر سنين. وكان في طريق رجعتهم كالحسكة في الحلق، وفي معاملة ملوك الأطراف نموذج الدهاء السياسي، وهو على صغر جرم مملكته يطاول ويحاول وينازل ويصاول ويلين ويقسو» ـ خطط الشام ١، ص٢٩٢ ـ ٢٩٤.

(٣٦) خطط الشام، ج ١، ص٢٩٢.

(٣٧) Guillaume de Tyr, pp. 311 _ 312.

وقد كان غودفروا دي بويّون اسبق زملائه إلى بلوغ المحجة التي إليها يهدفون، فشارفها يوم الثلاثاء في ٢ رجب ٤٩٢هـ ٧ ايار(مايو) ١٠٩٩م. وضرب الحصار عليها، ولحق به الأمراء الآخرون فأحاطوا بالمدينة من كل جانب، وأخذوا يضيّقون الخناق على حاميتها ويرمونها بالمنجنيق.

وعهد افتخار الدولة الحاكم الفاطمي في القدس، بحراستها إلى جماعة من العرب والسودان[٣٨]، فتفانى الفريقان في القتال، ثم وافى إلى يافا اسطول جنوي لنجدة الإفرنج، حاملاً معه ما هم في حاجة إليه من الذخائر والأقوات والعمال، فأنشأوا المزيد من آلات الحصار والأبراج المتحركة، وجددوا الهجوم على المدينة الصامدة.

ويروي ابو المحاسن ان الإفرنج صنعوا برجين متحركين للوصول بهما إلى أسوار المدينة، وقد زحفوا بالأول إلى باب صهيون فأحرقه المسلمون، ثم انطلقوا بالثاني نحو باب العمود فألصقوه بالسور وحكموا به البلد وكشفوا من كان على السوار من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون[٣٩].

وقد اقتحم الفرنجة القدس في ١١ رمضان ٤٩٢هـ ١٤ تموز (يوليو) ١٠٩٩م، وأعملوا في أهلها السيف، في وقائع لا نحب ان نروي تفاصيلها وقد استنكرها مؤرخو الفرنجة أنفسهم[٤٠].

ويقول الاستاذ نقولا زيادة: «والحملة الصليبية الأولى، والفظائع التي ارتكبتها في طريقها وفي احتلال القدس ليس مما يُشرّف. وقد تظهر لنا رغبات الصليبيين من خلال تصرفهم السيء مع مسيحيي فلسطين أنفسهم، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت، فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين وشرق الأردن، وكان بطريركهم يقيم في القسطنطينية أو في القاهرة تحت حماية الخلفاء الفاطميين»[٤١].

---

(٣٨) الكامل ج١٠، ص١٩٤.

(٣٩) النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٨.

(٤٠) انظر: Matthieu: Chronique, Grousset; Hist. des Croisades. T.1, p. 165

Lavisse et ,Rambaud: Hist. Générale II, p. 359, Guillaume de Tyr, pp. 334 _357 & p.226

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص١١٨ ـ ١١٩، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ج١، ص١١٤، تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس، ص٣٣ والانسكلوبيديا البريطانية مادة الحروب الصليبية بقلم باركر.

(٤١) مجلة المقتطف، عدد تموز (يوليو) ١٩٣٥، ص ١٩٥.



احتلال بيت المقدس

وكان يتنازع على حكم القدس: البابوية التي تأمل السيطرة على الكنيسة الشرقية بالإضافة إلى سيطرتها على الكنيسة الغربية، والمدن الإيطالية التي قامت بنقل الجنود والأمداد على سفنها، وبيزنطية التي كانت تريد استعادة مستعمراتها في الشرق[٤٢]، وهكذا اختلف الصليبيون أولاً على شكل الحكم هل يكون دينياً أو مدنياً؟ ثم اتفقوا على أنها وإن كانت «مدينة الرب» فلا بدّ لها من رئيس يدير شؤونها. واختلفوا ثانياً عمن يكون ذلك الرئيس الذي تُسلّم إليه مقاليد الحكم، وكان التنافس على أشده بين غودفروا وريموند الصنجيلي، وقد فضل الأمراء غودفروا على منافسه، لأنهم كانوا يريدون ملكاً لا يطغى عليهم ويستأثر بالسلطان من دونهم. وتولى غودفروا دي بويّون عرش بيت المقدس، ولكنه رفض ان يعتمر بتاج من الذهب حيث اعتمر السيد المسيح بتاج من الشوك[٤٣]، وأصر على أن يكون لقبه «حامي بيت المقدس». ثم اجتمع رجال الكنيسة واختاروا ارنولف مالكورن بطريركاً، فوجه اهتمامه إلى إضفاء صبغة كاثوليكية لاتينية على كرسي بيت المقدس، واستبعد القساوسة الارثوذكس من كنيسة القيامة مما أثار استياء المسيحيين المحليين[٤٤].

وتحركت الخلافة الفاطمية بعد هزيمة عاملها في القدس، وشعورها بخطورة المركز الذي أسسه الإفرنج لأنفسهم في الشرق، واحتمال تحوله في المستقبل إلى قاعدة عسكرية للزحف إلى مصر وغيرها من البلدان المجاورة. ولكن تحركها جاء متأخراً، وقد تسربت إلى الفرنجة أنباء تجمع قواتها في عسقلان بقيادة سعد الدولة النواسي[٤٥]، فتنادى أمراؤهم لدرء الخطر، وباغتوا تلك القوات في معسكراتها قبل ان تستعد للقتال وتأخذ أهبتها له، فتمزقت وتشتتت وهرب قادتها إلى مصر[٤٦]، ولاذ من بقي بإحدى الغابات فأضرم الإفرنج النار فيها فأتت عليهم[٤٧].

وفي عسقلان سقطت الأقنعة عن الخصومة الدفينة بين ريموند الصنجيلي وغودفروا، فقد أراد ريموند الاستيلاء على المدينة لينشىء فيها إمارة خاصة به، فصارحه

---

(٤٢) الناصر صلاح الدين الايوبي للدكتور عبد المنعم ماجد صفحة ٢٨
(٤٣) Michaud; Hist. des Croisades T.1, p. 436
(٤٤) الحركة الصليبية ج ١، ص٢٥٢ نقلاً عن Runciman, T.1, p. 294
(٤٥) النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٦ـ١٤٨.
(٤٦) ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧.
(٤٧) أخبار مصر لابن ميسر ص ٤٦٤.

غودفروا بأن هذه المدينة لن تكون إلا تابعة لبيت المقدس، وقد ساعد هذا الخلاف على نجاة عسقلان من الاحتلال الصليبي، لأن غودفروا فضل التخلي عن المعركة على ان يستولي ريموند على المدينة، كما ان ريموند آثر بقاءها في أيدي المسلمين على ان تدخل في ممتلكات غودفروا.

ولم تنقض فترة قصيرة بعد عودة غودفروا الى القدس، حتى ساءت صحته ولفظ أنفاسه الأخيرة متأثراً بجرح كان قد أصابه أمام مدينة عكا، ونهض كل أمير يبغي أن يخلفه في الحكم، كما حاول البطريرك دايمبرت الذي خلف مالكورن أن يحوّل السلطة المدنية إلى سلطة دينية، وكاد النزاع بين الفرقاء المتعددين يؤدي إلى الصدام المسلح، لولا أن حسم هذا النزاع بلدوين، أمير الرها وشقيق غودفروا الراحل، الذي قدم إلى القدس على رأس جيش كبير، بعد أن عهد بشؤون الرها إلى قريبه بلدوين دو بورج، ففر الزعماء المتنازعون وأعلن بلدوين نفسه ملكاً على بيت المقدس، وجاء الأمراء والبطاركة بعد ذلك فأعلنوا ولاءهم له. وكان بلدوين يقلد ملوك الشرق، فيرتدي الثياب العربية، ويرسل لحيته، ويتناول طعامه على الأرض(٤٨)، كما فعل زميله تنكريد الانطاكي فيما بعد، إذ كان يسك النقود وعليها صورته وهو في زي عربي(٤٩).

وهكذا غدت بيت المقدس في سنة ٤٩٤هـ ١١٠٠م، مملكة لاتينية، بالإضافة إلى إمارات الفرنجة في انطاكية وطرابلس والرها، «وكان لملكة بيت المقدس الرئاسة على تلك الإمارات، وإنما تزيد هذه الرئاسة أو تنقص تبعاً لشخصية المهيمن على شؤون تلك المملكة»(٥٠)، إلاّ أن النزاع بين الفكرتين العلمانية والاكليركية استمر حتى سنة ٤٩٧هـ ١١٠٣م، حين عزل بلدوين نائب البابا، ثم بُعِث في عهد بلدوين الثاني (٥٢٢ ـ ٥٢٥هـ ١١٢٨ ـ ١١٣٠م)، «غير انه خُتِم بموت النائب البابوي الثالث، وانتهت القضية بتغلب العلمانية على الاكليركية. وهكذا دلت هذه القضية على مدى الخلاف في الحقيقة بين رجال الحملة من الصليبيين رغم دعوى قيام الوحدة الدينية بينهم»(٥١) كما ان النزاع والتنافس الناشئين عن تعدد العناصر التي تحكم تلك الدويلات، لم يختف أثرهما قط من مسرح

(٤٨) الناصر صلاح الدين الأيوبي ص٢٨.

(٤٩) حضارة الإسلام لجروينباوم ترجمة جاويد وعبادي ص٨٢.

(٥٠) نور الدين والصليبيون للدكتور حسن حبشي ص٩.

(٥١) العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج، ص٢٤.



غودفروا دي بويون أول ملوك الفرنجة في الشرق وقد وضع على رأسه اكليلاً من الشوك

الأحداث، فقد كانت القدس والرها في أيدي البرغنديين، بينما كانت انطاكية في أيدي النورمانديين، وطرابلس في أيدي البروفنسيين، فكان ذلك من عوامل انهيارها فيما بعد.

أما بقية المدن الساحلية فقد ظلت تقاوم مدة أطول، معتصمة وراء أسوارها، ومعتمدة على معاونة الفاطميين لها من البحر، وقد استعان الصليبيون عليها «بالسفن الإيطالية التي كانت تنقل الحجاج، وقد أدرك أصحابها أن امتلاك تلك المدن الساحلية يفتح أسواقاً جديدة وموانىء حرة لبضائعهم»(٥٢) ولما انهارت مقاومة تلك المدن أخيراً، تحولت إلى مستعمرات أوروبية أنشأت فيها مرسيليا والمدن الإيطالية أحياء برمتها(٥٣). وكانت جنوة وبيزة تبعثان كل سنة بمراكب جديدة إلى ثغور الشام(٥٤) تحمل السلاح والرجال.

وقد سجلت الاقطاعية الأوروبية بتلك الأحداث الخطيرة أعظم انتصاراتها، ولم يمض وقت قصير حتى تأسست حول بيت المقدس إمارات افرنجية عديدة، وبنيت قصور محصنة على الطراز الفرنسي، وبدأ الفرنجة يتطلعون إلى افتتاح دمشق لأن طريق الحرير والأفاويه تمر بها.

ومرت الأعوام والحروب مستمرة بين الفرنجة والبيزنطيين والأتراك والعرب. «وفي معمعان الفوضى والاضطرابات السائدة اعتاد الناس على سرعة تبدل الحكام والأسياد، الروم والأتراك والعرب والإفرنج، ولم يعودوا يهتمون بجنسية من يحكمهم»(٥٥) ومما لا شك فيه «ان عدد الحروب والمناوشات بين الدول الاسلامية المتنازعة كان يعادل عدد الحروب بين الدول الاسلامية والدول النصرانية، وربما كان عدد الحروب الأهلية بين الأمراء النصارى لا يقل عن عدد الحروب بينهم وبين المسلمين»(٥٦). إلاّ أن الإمارات الإفرنجية كانت تتحالف فيما بينها أحياناً، ضد تحالف اسلامي «ولكن لم يقم بين الدول الاسلامية تعاون تام لطرد الغربيين، ولم تستطع خلافتا بغداد والقاهرة المتنافستان ان تتفاهما بتاتاً، وكانت المحالفات والحروب كثيراً ما تتعارض مع المصلحة الدينية»(٥٧).

---

(٥٢) تاريخ العرب لحتي وجرجي وجبور ج٢، ص٧٥٧.

(٥٣) خطط الشام، ج١، ص ٢٧٨.

(٥٤) المرجع السابق. ج١، ص ٢٨٤.

(٥٥) دراسات اسلامية بإشراف الدكتور نقولا زيادة صفحة ١٠٦.

(٥٦) المرجع السابق ص١٠٧.

(٥٧) المرجع السابق ص١١٢.

وقد شغفت هذه الحروب الاقطاعية الأوروبية، ووجدت الفروسية فيها مجالاً واسعاً للمغامرات والبطولات والغنائم. وكان طبيعياً أن انشاء الدولة اللاتينية في القدس لن يضع حداً لتلك الحروب، فالأتراك لم يلقوا سلاحهم بل كانوا ما يفتأون يهاجمون هذه الدولة، يناصرهم في ذلك العرب سكان البلاد، وكثيراً ما كان النصر يكلل الهجمات التي يقومون بها، والفرنجة لم يكتفوا بما اصابوا من نجاح، بل ظلت المطامع التوسعية تراودهم فيزحفون تارة نحو الشرق ويغيرون تارة على الجنوب، حتى لم تبق مدينة أو قرية في بلاد الشام إلا أصيب بعض اهلها وتجارها بأرواحهم وأموالهم. والبيزنطيون يصرون على المطالبة بما يسمونه الممتلكات البيزنطية الشرقية، فيتابعون حروبهم مع الأتراك ويشتبكون أحياناً مع الفرنجة.

قال باشوليه ودزبوري في قاموسهما الجغرافي التاريخي: «وقد عوضت الخسارة المادية التي اصابت المسيحيين بانتصارات باهرة في النظام السياسي والأدبي.. وكذلك نال القنّ الذي حمل الصليب حريته الشخصية، وانتشرت الملاحة وارتفع شأنها فزادت قوة بيزة وجنوة والبندقية التي أكثرت من مراكزها التجارية في البحر المتوسط(٥٨)، وقد حصلت هذه المدن على أرباح تجارية عظيمة بتوطين جماعات من أهلها في موانئ سورية وفلسطين وكان لها أحياء خاصة فيها(٥٩)، واستفادت الصناعة والزراعة أيضاً بما عرفه أهل اوروبة من وسائل جديدة ومحصولات كانت مجهولة لديهم كالحرير وصناعته والصباغة والزعفران وأشغال المينا والمعادن والأحجار الكريمة، وانتقلت زراعة قصب السكر إلى صقلية، وتمكن السياح الاوروبيون من دخول بعض مجاهل آسية.

وفي الواقع أن التفاعل ـ والتداخل إذا جازه هذا التعبير ـ قد اشتد بين الشرق والغرب خلال هذه الحروب، وأصبحت مدن الشاطئ في سورية ولبنان وفلسطين مستعمرات إفرنجية حقيقية، وعكفت المعامل الاوروبية على انتاج العتاد والذخيرة لفرسان الفرنجة، حتى اصبحت المدن الايطالية والفرنسية اشبه بخلايا النحل لحركتها الدائمة.

وقد تعلمت جيوش الإفرنج التي اصطبغت بحضارة العرب حين اقامتها في البلاد

---

(٥٨) حياة صلاح الدين الايوبي للدكتور البيلي ص٥٠.

(٥٩) تاريخ العالم لهامرتن، ج٤، ص٧٤٧.

العربية، أساليب الحرب العربية «واقتبست السلاح العربي وأنواع الصيد بالبازي والسلوقيات وأخذت أساليب العيش في العمار واللباس (القميص والجوارب والقفاز والبابيوش وأساليب المأكل وحفظ الصحة من المغطس واستعمال المنديل) كما نقلوا الصناعات التقليدية من الزجاج المذهب وأنواع العقود والصابون وصنوف الأدوية والجلد المطرز والسروج المذهبة والمفضضة والخشب المطعم بالصدف والعاج والنحاس المدمشق الى غير ذلك»(٦٠). وبلغ تأثر الفرنجة بحياة الشرق ان المؤرخين بدأوا يتحدثون عن اختلاف الطبع بين الصليبيين القادمين حديثاً، والفرنج المقيمين ـ وكانوا يدعونهم في الغرب: «الأمهار» ويعنون بذلك الشرقيين ـ كما كان الحجاج الجدد يتجنبون التعاطي معهم لأنهم في رأيهم «أنصاف مسلمين»(٦١).

والى جانب ذلك كله، كانت ترد من الشرق طرف الفن والصناعة، وكان الفرنجة يحملون الى بلادهم، مع ذكرياتهم، ما رأوه،وما تعوّدوه خلال اتصالهم ببيزنطية والعرب والعالم الاسلامي من ألوان الزينة والحياة المترفة، فقدمت الفنون والصناعات، وازدهرت مدن جديدة، وامتد نطاق التجارة البحرية الى القارة الاوروبية كلها، ولكن المراكز الصناعية التي كان ينشئها أصحاب المراكب الإيطالية، كانت السباقة إلى العمل الدائب والانتاج في ظل الاحتكار البحري الذي تتمتع به مدن الشاطىء، هذه المدن التي اثرت ثراء طائلاً، حتى أن بعثاتها التجارية لم تعد تقف عند أبواب المحيط الأطلسي، بل امتدت إلى أفريقية ووصلت إلى مناجم تاغازا وأسواق العبيد في تومبوكتو. ،من أجل تأمين النقد الذي تحتاجه هذه التجارة المتسعة النطاق، ازداد البحث عن الذهب والفضة(٦٢).

وقد دفعت هذه الحركة الاقتصادية الصاعدة، الغرب في طريق تحرر اجتماعي جديد، لأن بعض الأسياد الذين كانوا حتى ذلك الوقت يفرضون على الفلاحين العمل المسخر في مزارعهم مقابل حمايتهم إياهم والسماح لهم باستثمار جزء من أراضيهم، أصبحوا يطلبون منهم عملاً أقل مقابل أجر أوفر، فنشط بذلك قسم من الفلاحين إلى العمل أكثر من قبل واستطاعوا الانعتاق من نظام القنانة.

---

(٦٠) الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط لعثمان الكعاك ص٧.

(٦١) انظر: رصيد التاريخ لرينه غروسه، ج٢، ص١٢٧.

(٦٢) La prodigieuse histoire de l'humanité, pp. 252 _ 253.

إلا أن نزعة الحرية بدت على أشدها في المدن الناشطة التي كان يسكنها التجار والصنّاع، فان الطبقة البورجوازية الفتية التي نشأت نتيجة لتطور حاجات النظام الإقطاعي، والتي نمت وازدهرت في حمايته، أصبح هذا النظام نفسه عبئاً ثقيلاً عليها، لأن مدنها قد استقلت اقتصادياً عن السيد الإقطاعي ولكنها ظلت خاضعة له من الناحية القانونية، يفرض عليها سلطته ويطالبها بحقوقه ويجبي منها الرسوم والمكوس المختلفة، فطفقت هذه المدن تناضل في سبيل استقلالها وتحررها، يناصرها في هذا النضال الملوك الذين أدركوا أن الحكم لا يتاح له النجاح إلا حيث يُنظم الشعب تنظيماً مدنيًا.

ورافق تلك النهضة الاقتصادية والاجتماعية، نهضة فكرية عظيمة. وشاعت قراءة شيشرون وافلاطون وارسطو. وبدأ التمييز بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية، والاعتقاد بانه ليس محتماً ان يمتزج الإيمان والمعرفة ويؤلفا كلا متحداً.

ولشد ما كانت المدارس الفكرية في هذه البيئة المتطلعة إلى المعرفة، تقبل على ما كان الصليبيون أو الإسبان يحملونه من النصوص الاغريقية التي حفظها العرب ونقلها إلى لغتهم. وقد مثل التراث العربي حينذاك، دون قصد من أبنائه، دوراً كبيراً في توجيه الحضارة الأوروبية.

ولم يضعف انهيار الخلافة الاموية في الاندلس من مكانة الفكر العربي، فظلت اللغة العربية لغة العلم والتجارة في مراكز ثقافية كبرى مثل طليطلة، واحتضنت برشلونة رهطاً من المعلمين العرب، واقتبست بلنسية عن العرب صنع الورق، وأنشأ الاسبانيون مجمعاً لترجمة النصوص العربية إلى اللاتينية.

ولم تنقض فترة قصيرة من الزمن حتى اغتنت العلوم الأوروبية الناشئة وازدهر الفكر الأوروبي، لإقبال الأطباء والرياضيين والفلكيين على تلك الكنوز الثمينة من المخطوطات العربية التي كانت تتدفق على أوروبة من سورية ومصر وصقلية.

وكان النزاع ما يزال يشتد بين الفئات الإقطاعية في كل قطر أوروبي متّحدة مع الفئات الإقطاعية في الأقطار الأخرى لما بينها جميعاً من قرابة في النظام الحقوقي والشعور الطبقي - وبين كل مجتمع قومي يطمح إلى السلام والرخاء والاتحاد في ظل إحدى الأسر المالكة التي أصبحت في ذلك العهد رمزاً للوحدة القومية وكانت وحدها القادرة على إقرار النظام محل الفوضى الإقطاعية السائدة. وقد انتهى هذا النزاع أخيراً إلى توطيد دعائم

الملكية، إذ استعان الملوك بالمدن، ورغبتها في التحرر، لفرض سلطتهم المطلقة، وكان هذا التطور حدثاً تقدمياً كبيراً لانه ركز السلطة التي كانت موزعة في أيدي عشرات الاقطاعيين.

بتلك الإقطاعية المسلحة، والتجارة النشيطة، والصناعة الناشئة، والمدن المزدهرة، وقف الغرب على رأس الحضارة العالمية، بينما كانت بيزنطية، امبراطورية الشرق، تتداعى شيئاً فشيئاً، فيتضاءل نفوذها وتضعف قوتها، والبندقية تقف في وجهها تريد الثأر منها لعملائها الذين ذبحتهم القسطنطينية حسداً وحقداً كما تذبح المواشي، ويهب البلغار والأفلاق والمجر والصرب ثائرين عليها مطالبين بالانفصال عنها. وما ان كان النور يخبو في بغداد، وتزداد الخلافة العباسية ضعفاً بعد انهيار دولة السلاجقة وقيام الأسر الإقطاعية في أنحاء البلاد العربية تتقاسم الأرضين وتتنازع على الحكم، حتى اختل النظام وفقد الأمن وانحطت التجارة.

وبتداعي الدولة البيزنطية التي كان الغرب يقلدها ويخشاها، وبانهيار دولة السلاجقة التي كانت تقف أمام حملات الغرب المستمرة، انفتح أمام أوروبة الطريق إلى استعمار البلاد العربية وتوطيد أقدامها في الشرق.

الفصل الرابع

إفاقة القوى العربيّة والاسلامية

استمر حكم الإفرنج في البلاد العربية بضع سنوات وطوفان المغيرين يتسع ويمتد، دون أن يلقوا مقاومة جدية من أمراء المسلمين، لانه لم يكن لدى هؤلاء «عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد»[1] .. وكانت التفرقة السائدة بينهم أول العوامل التي أدت إلى انتصار الفاتحين، ومكّنت لهم في الأرض العربية الكريمة.. فما زالوا يدحرون هؤلاء الأمراء المشتتين المتخاذلين، ويمدون سلطانهم من بقعة إلى أخرى، والأمراء المسلمون لاهون عن ذلك الخطر الداهم، لا يتورع الواحد منهم عن محاربة إخوانه أو محالفة خصومهم، وكثيراً ما قاتل أولئك جرياً وراء مطمع أو مغنم، أو صافح هؤلاء حفاظاً على إمارته من عدوان المعتدين. وفي ذلك يقول رينه غروسه: «وبدلاً من ان يتحد أمراء المسلمون ضد الصليبية، واجهوها فُرادَى، وفُرادَى سُحِقُوا، الواحد تلو الآخر، وتغلغلت الصليبية بينهم»[2].

ولما بدأ الزحف الصليبي كان ألب أرسلان قد اقطع ابن عمه سليمان آسية الصغرى، وكان الصراع قائماً على تركة ملكشاه بين أخيه تتش الملقب بتاج الدولة الذي كان يحكم الشام، وزوجته تركان خاتون الوصية على ابنها محمود، وبركياروق الذي ما لبث ان اعتُرف له بالسيادة العليا على الدولة السلجوقية، وأنعم عليه الخليفة المتقي بلقب

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص١٧٥.

(٢) رصيد التاريخ، ج٢، ص١١٥.

السلطان. ثم تلى ذلك صراع بين بركياروق وعمه تتش الذي كان يطمح هو أيضاً إلى تسلم السلطة العليا، ولم تجلب هزيمة تتش وموته السلام للامبراطورية المضطربة، لأن بركياروق لم يلبث أن اشتبك مع أخيه محمد في حرب دامت عدة سنوات[٣].

وحين استولى الصليبيون على القدس «تدفقت جموع الهاربين من وجه الصليبيين على بغداد، وكان ذلك في شهر رمضان، وأخذوا يسردون على مسامع أهلها حوادث الفتك وأعمال الإضطهاد التي ارتكبها الغزاة، فعم الأسى المدينة ونسي المسلمون صيامهم وتجمعوا في المسجد الجامع وبكوا، فأرسل الخليفة المستظهر بالله على جناح السرعة ثلاثة من رجال بلاطه البارزين إلى بركياروق ومحمد اللذين كانا معسكرين في حلوان كي يحثوهما على تسوية خلافاتهما والزحف على العدو المشترك، ولكن نداء الخليفة لم يلق أذناً صاغية لدى الأخوين اللذين سرعان ما عادا إلى الاقتتال بسبب اغتيال وزير بركياروق، ويضيف المؤرخون إلى ذلك قولهم إن الخلاف بين السلطانين مكّن الإفرنج من توطيد أقدامهم في البلاد الإسلامية.

وعندما توفي السلطان بركياروق في سنة ٤٩٨هـ ١١٠٤م، خلفه أخوه محمد ودام حكمه أربع عشرة سنة، ويصفه المؤرخون بانه كان عادلاً فاضلاً كريماً أشاد شعراء عصره بعطفه على الفقراء وبرِّه باليتامى. ولكن حالة الامبراطورية السياسية لم تكن مؤاتية للقيام بأي عمل موحد ضد العدو المشترك، إذ كان التحاسد سبباً في انقسام رؤساء الإقطاع في الشام والجزيرة، وكان أمير حلب رضوان بن تتش خائناً، بينما كان الآخرون، مع رغبتهم بإطاعة السلطان، منصرفين إلى تحقيق مآربهم الشخصية أكثر منهم إلى خدمة القضية العامة، فضلاً عن أن الفوضى التي عمت الخلافة الفاطمية التي كانت مدن الشام الساحلية وفلسطين تابعة لها في ذلك الحين، قد جعلت من العسير أو المستحيل مساعدة المدن التي تعرضت لهجوم الأعداء»[٤].

ولم ينتبه العالم العربي والإسلامي إلى حقيقة وضعه الأليم، ويسترد وعيه الذي أذهلته الصدمة المفاجئة، إلا في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، إذ بدأت الشعوب الاسلامية تقدر أهمية الخطر الأجنبي المتعاظم وتتنادى لوقف طغيانه «وليس أدل على تلك

(٣) مختصر تاريخ العرب، ص ٢٩١.

(٤) المرجع السابق، ص٢٩٢.

الإفاقة من تسرب فكرة الجهاد إلى نفوس العامة، في البلدان المستظلة بظل الخلافة العباسية، واعتناقها إياها، إلى حد انذر الخليفة العباسي بوجوب الانتباه إلى الروح الجديدة التي تمثلت في قدوم جماعة من أشراف حلب وصوفييها وتجارها إلى بغداد: مستغيثين من إفساد الصليبيين في بلادهم»(٥).

وقد كان لهذه الاستغاثة صداها لدى جماهير الشعب في بغداد، فاجتمع الناس وقت صلاة الجمعة في شعبان سنة ٥٠٤هـ ١١١٠م، وحطموا المنبر، وانزلوا الخطيب عنه، ونادوا بوجوب القيام بالجهاد، وزادوا فمنعوا الناس من الصلاة، وتكرر هذا الحادث مرة أخرى في مسجد الخليفة المستظهر نفسه(٦).

ويروي ابن القلانسي ان العداء كان قد بلغ أشده بين البيزنطيين والصليبيين، فأوفد الامبراطور البيزنطي رسولاً إلى السلطان محمد السلجوقي يحضه على محاربة الفرنجة وطردهم من البلاد(٧) وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم، وقد وصل رسول العاهل البيزنطي إلى بغداد قبل وصول وفد حلب، الأمر الذي جعل الناس في بغداد يصيحون في السلطان: «أما تتقي الله تعالى ان يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل إليك في جهادهم»!(٨).

وكأن تلك المظاهرة القومية الصاخبة التي اشتركت فيها وفود حلب وجماهير بغداد، إنما كانت تعلن غضبة العالم العربي والاسلامي على الخليفة العباسي الثامن والعشرين الذي احتل الفرنجة في عهده بيت المقدس، دون ان ينهض لمقاومة أو يدعو لجهاد، مكتفياً من مظاهر السلطان بالخطبة له على المنابر، ومن مظاهر الإسلام بالصلاة، في حين كان السلطان الحقيقي ملك قواده ومماليكه، وكان الإسلام يُطعن في دياره ويُهزم في جواره!.

وكان أول الأمراء الذين تجاوبوا مع هذه الإفاقة العربية، ومهدوا الطريق إلى حركة التجمع الإسلامي في وجه الخطر الهاجم من الغرب، الأمير مودود اتابك الموصل الذي أعلن الجهاد في تلك السنة ذاتها، وخرج بجيش كبير فحاصر الرها سنة ٥٠٥هـ ١١١١م،

---

(٥) نور الدين والصليبيون ص١٤.
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص١٧٢.
(٧) المرجع السابق، ص١٧٣.
(٨) الحركة الصليبية، ج ١، ص ٤٦١

محاولاً استخلاصها من أيدي الفرنجة بمساعدة الأرمن الذين استغاثوا به طالبين منه انقاذهم من الصليبيين، ثم رجع عن محاولته ليتولى قيادة عدد من القوى الاسلامية المتحالفة في مصاولاتها مع قوى الفرنجة، وبذلك «ظهرت أول بادرة للاتحاد بين الأمراء المسلمين بشمال العراق وبلاد الشام لأول مرة منذ مقدم الصليبيين إلى الشرق»(٩) بينما فتك بلدوين دو بورج صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر بالأرمن فتكاً ذريعاً فذبحا وأحرقا عدداً كبيراً منهم وطردا من الرها عدداً آخر(١٠)، وقد جدد الأرمن من محاولتهم لتسليم الرها إلى المسلمين فتعرضوا لمذبحة جديدة بأمر من بلدوين.

ولما قتل مودود بيد الحشاشين(١١)، برز على مسرح النضال نجم الدين ايلغازي صاحب ماردين الذي اتحد معه كل من دبيس بن صدقة، أمير الحلة، وسلطان بن منقذ، أمير شيزر، وطغتكين اتابك دمشق، وقد أنجد ايلغازي حلب حين حاول روجر، أمير انطاكية، الاستيلاء عليها. وقُتل روجر في إحدى معاركه مع ايلغازي، ويروي أسامة بن منقذ من أخباره «ان انطاكية كانت لشيطان من الافرنج يقال له روجار، فمضى يحج إلى بيت المقدس، وصاحب البيت المقدس بغدوين البرونس(١٢)، وهو رجل شيخ وروجار شاب، فقال لبغدوين: «اجعل بيني وبينك شرطاً، إن متّ قبلك كانت انطاكية لك، وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي» فتعاقدا وتواثقا على ذلك. وقدّر الله تعالى أن نجم الدين ايلغازي بن أرتق، رحمه الله، لقي روجار بدانيث يوم الخميس في الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة(١٣) فقتله وقتل جميع عسكره(١٤) ولم يدخل انطاكية منهم إلا دون العشرين رجلاً، وسار بغدوين إلى انطاكية فتسلمها، وضرب مع نجم الدين

---

(٩) نور الدين والصليبيون ص١٧، انظر ايضاً ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ و١٨٤ـ١٨٥.

(١٠) Matthieu d'Edesse, pp. 102 _ 105

(١١) كان الاسماعيليون يدينون بالولاء للخلافة الفاطمية في مصر، فكانت فرقتهم الفدائية التي عرفت باسم «الحشاشين» تعمل على نشر الفوضى والاضطرابات في بلاد الشام التي يحكمها السلاجقة باسم الخلافة العباسية في بغداد، كما كان بعض الأمراء يستعينون بهم للقضاء على خصومهم لما اشتهروا به من البراعة في أساليب الاغتيال.

(١٢) هو بلدوين الثاني (البرنس).

(١٣) ويقابل ذلك ١٤ آب (اغسطس) ١١١٩م.

(١٤) سبق لأسامة بن منقذ ان روى ان روجر قد قتل في موقعة البلاط وهذا هو الصحيح (انظر كتاب الاعتبار ص ٤٠).

مصافاً بعد اربعين يوماً. وكان ايلغازي إذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوماً، فشرب بعد كسر الإفرنج وقتلهم، ودخل في الخُمار فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين البرونس إلى انطاكية بعسكره. فكان المصاف الثاني بينهما على السواء: كسر بعض الفرنج بعض المسلمين، وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج، وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة، وأسر المسلمون روبرت صاحب صهيون(١٥) وبلاطنس وتلك الناحية، وكان صديقاً لأتابك طغتكين صاحب دمشق ذلك الوقت، وكان مع نجم الدين ايلغازي لما اجتمع بالإفرنج في افامية حين وصل عساكر دمشق مع برسق بن برسق. فقال روبرت الأبرص لاتابك طغتكين: «ما أدري بأي شيء أضيفك، ولكن قد ابحتك بلادي، أنفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كل ما وجدوه. بلى لا يسبوا ولا يقتلوا. الدواب والمال والغلة لهم، يأخذون ذلك مباحاً لهم» فلما أسر روبرت وأتابك طغتكين حاضر المصافّ في معونة ايلغازي، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار، فقال ايلغازي: «امضوا به إلى اتابك لعله يفزّعه فيزيدنا في القطيعة» فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب. فلما رآه مقبلاً قام شمّر أذيال قبائه في البند وأخذ سيفه وخرج إليه وضرب رقبته. فنفذ إليه ايلغازي يعتب عليه وقال: «نحن محتاجون إلى دينار واحد للتركمان، وهذا قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار نفّذته إليك تفزّعه لعله يزيدنا في القطيعة، قتلته!» قال: «أنا ما أحسن أفزّع إلا كذا»(١٦).

وحمل اللواء بعد ايلغازي نور الدولة بلك بن ارتق صاحب قلعة خربوط وقد أسر جوسلين الأول الذي تولى إمارة الرها، ثم أسر بلدوين الثاني ملك بيت المقدس وهو في طريقه إلى حلب في محاولة للاستيلاء عليها، وتضعضع بذلك أمر الفرنجة «وأخذ المسيحيون المحليون ـ السريان والأرمن والأرثوذكس ـ يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين»(١٧)، إلا ان جوسلين فر من الأسر في قلعة خربوط وسيّر جيشاً لاستخلاص ملك بيت المقدس، فلم يظفر ببغيته برغم الأعمال الانتقامية الرهيبة التي قام بها، ولم يُطلق سراح بلدوين الثاني إلاّ عندما توفي بلك سنة ٥٠٨هـ ١١١٤م، وهو قائم

---

(١٥) حصن بين اللاذقية وحماة وتقع بلاطنس في جنوبه.

(١٦) كتاب الاعتبار ص ١١٨ ـ ١٢٠ وقد سبق لطغتكين أن أسر ابن أخت ملك القدس في معركة دارت على ضفاف طبرية فبذل هذا في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار واطلاق خمسمائة أسير، فرفض طغتكين عرضه وقتله بيده (انظر خطط الشام، ج ١، ص٢٩٣).

(١٧) الحركة الصليبية، ج ١، ص ٥٠٦ نقلاً عن Stevenson; The Crusades in the East, p. 104.

على حصار منبج التابعة لإمارة طرابلس الصليبية[18]، إثر اصابته بسهم طائش، وآلت حلب إلى حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي فقبل وساطة أمير شيزر سلطان بن منقذ لاطلاق سراح ملك بيت المقدس مقابل مائة ألف بيزانت وإعادة بعض المناطق المحتلة إلى حلب[19].

وكان رابع الشخصيات الاسلامية التي خالجتها فكرة الجهاد ضد الفرنجة، اقسنقر البرسقي اتابك الموصل الذي انقذ حلب من عدوان بلدوين الثاني إذ عاد لافتتاحها بعد ان عانى طويل الأسر فيها، وحاول البرسقي انشاء محور قوي لمواجهة الخطر الأجنبي، وقد قتله جماعة من الحشاشين[20] سنة ٥١٠هـ ١١١٦م قبل ان يحقق حلمه.

ثم برز على المسرح السياسي عماد الدين زنكي احد عظماء عصره، وقد خلف البرسقي في إمارة الموصل، إلا ان مطامحه تجاوزت حدود امارته، فاستولى على جزيرة ابن عمر شمالي الموصل، وعلى نصيبين والخابور وحران، ومضى في فتوحاته معتمداً القوة حيناً والدهاء حيناً آخر، حتى بسط سلطانه على حلب وحماة وحمص، واخذ يتطلع إلى احتلال دمشق «لايمانه بأن قيام وحدة بين الإمارات الاسلامية يجب ان يسبق أية خطوة ضد الصليبيين»[21]، إلا ان الصليبيين كانوا يتابعون تحركاته بقلق شديد، وقد انتهز فولك فرصة انشغال عماد الدين بمحاصرة حمص فزحف مع ريموند الثاني صاحب طرابلس للقضاء عليه، وعلم عماد الدين بالزحف الإفرنجي فتخلى عن حمص واتجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة بعرين، فأسر ريموند وحاصر ملك بيت المقدس في القلعة، ولم يطلق سراحه مع بقية الأسرى إلا مقابل خمسين ألف دينار.

وقد اعد عماد الدين الوسائل للاستيلاء على دمشق في عهد أميرها بوري تاج الملوك، ثم في عهد ولديه اسماعيل ومحمود اللذين تعاقبا على حكمها من بعده، ولم ينفعه في ذلك زواجه من زمرد خاتون ارملة بوري التي كانت ذات بأس ونفوذ في دمشق، كما تزوج من قبل بابنة رضوان صاحب حلب لتكون له شرعية الحكم فيها[22]. ثم قتل محمود بأيدي

---

(١٨) نور الدين والصليبيون ص ١٠ـ ٢٠.
(١٩) كتاب الاعتبار ص ١٢٠.
(٢٠) شذرات الذهب، ج٤، ص ٦١.
(٢١) الحركة الصليبية ج ١، ص ٥٧٤.
(٢٢) منتخبات من تاريخ حلب، ص ٦٥٨.



عماد الدين زنكي محرر الرها

ثلاثة من غلمانه، وأرسلت زمرد الى عماد الدين تستغيث به وتطلب منه الثأر لولدها القتيل. فوجدها فرصة سانحة للاستيلاء على دمشق، محتجاً برغبته في معاقبة القتلة وحماية المدينة من مطامع الإفرنج، ولكن الأمير معين الدين انر، صاحب بعرين وبعلبك، كان أسبق إليها منه، فأسقط في يديه، إلا أنه أبى ان يتراجع عن غايته، ورأى ان يبدأ خطته الجديدة باحتلال بعلبك، فضرب عليها الحصار وما لبثت ان سلّمت له.

وقد تمخضت هذه الأحداث عن مفاجأة ذهل لها العرب والمسلمون، فان معين الدين انر ما كاد يشعر بأن جيش عماد الدين بات على مقربة منه حتى فكر في التحالف مع الصليبيين(٢٣) حفاظاً على حكمه في دمشق، وأوفد إلى ملك بيت المقدس، فولك الخامس، رسولاً من قبله هو أسامة بن منقذ(٢٤)، فوجد الرسول العربي من الملك الصليبي تقبلاً واضحاً لفكرة الحلف بين دمشق والصليبيين(٢٥).

لقد كان أخشى ما يخشاه الفرنجة ان يتحد أمراء المسلمين، أو أن يظهر من بينهم أمير فذ يوحد البلاد العربية ويركز في يديه القوى التي تزخر بها. وكان فولك يتابع باهتمام وتهيب تعاظم قوة عماد الدين التي باتت تؤلف خطراً على الصليبيين، وسرعان ما لبى دعوة انر إلى التحالف، واتفق مع ريمون دو بواتييه، أمير انطاكية، على مساعدة أمير دمشق، لأنها في اعتقاده تضع حداً لمقاومة هذه العاصمة العربية العريقة للاحتلال الصليبي، وتحطم من عنفوان عماد الدين ومطامحه التي لا بد من أن تصطدم بمطامع الفرنجة.

وكان العرض الذي تقدم به أسامة بن منقذ إلى فولك باسم معين الدين انر، مقابل العون الذي يبتغيه، إعادة بانياس الى الفرنجة(٢٦) بعد استخلاصها من يد عماد الدين،

---

(٢٣) مفرج الكروب لابن واصل، ج ١، ص ٥١.

(٢٤) الكامل، ج ١١، ص ٣٤.

(٢٥) نور الدين والصليبيون ص ٢٩.

(٢٦) كان بوري أمير دمشق قد شعر باستفحال خطر الاسماعيليين يوم تولى أمرهم إسماعيل العجمي واتخذ بانياس مقراً له، فقرر تجريد حملة عليهم، فلم يكن منهم إلاّ ان سلموا بانياس للصليبيين وانتقلوا إلى المناطق التي يسيطرون عليها (انظر: الدول والملوك، ج٣، ص١٨) ثم استعاد اسماعيل بن بوري حصن بانياس وانتقل منه إلى يد عماد الدين، فغادره الاسماعيليون إلى وطن جديد لهم فيه دعاتهم هو جبال البهرة المحيطة بمصياف (انظر تاريخ قلعة مصياف تأليف ميشيل لباد ص٥).



صورة خيالية لأسامة بن منقذ

ودفع نفقات الحملة التي يقومون بها لمساعدته، وتسليم عدد من الرهائن توكيداً لصدق تعهده(٢٧).

وقد ضلل عماد الدين جيوش فولك وتظاهر بانه يهرب من أمامها، ثم انقض عليها وهزمها شر هزيمة، وتتابعت بعد ذلك الأحداث، وأهمها سقوط بانياس بعد حصارها من القوات الصليبية والدمشقية، وإعادتها الى الصليبيين، وإغارة عماد الدين على المواقع الصليبية دون ان يقابل قواتها الأساسية في معارك حاسمة، وهجومه على أطراف دمشق دون ان يستطيع الوصول إليها والاستيلاء عليها، لقوة الحلف الدمشقي الصليبي. وقد ازداد هذا الحلف صلابة حين تحقق الفرنجة من صدق أنر ووفائه بوعوده، فقام أنر وأسامة بن منقذ بزيارة الصليبيين في بيت المقدس.

وكان أسامة بن منقذ(٢٨) قد خاض عدداً من المعارك مع الإفرنج في أيام الحرب، كما زارهم واجتمع بهم في أيام السلم، وقد سجل في كتابه «الاعتبار» وقائعه معهم ومشاهداته في المناطق التي يحكمونها، ولهذا الكتاب أهمية كبيرة في وصف الحياة الإجتماعية في المناطق المحتلة من قبل الإفرنج، وأبرز ما أثار اهتمامه تقاليد الفروسية التي كانت شائعة بينهم يومذاك، ومما قاله في هذا الصدد:

«والإفرنج، خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم

---

(٢٧) الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٤.

(٢٨) كان أسامة بن منقذ (٤٨٨ ـ ٥٨٤هـ ١٠٩٥ ـ ١١٨٨م) أحد أمراء بني منقذ، الأسرة العربية المعروفة التي كانت تحكم شيزر في عهد الحروب الصليبية، وكان كل من أفرادها فارساً وبطلاً صنديداً، وقد جمع اسامة بين الأدب والفروسية، نشأ على ضفاف العاصي بجوار حماة، وقضى حياته متنقلاً بين البلاط الفاطمي في القاهرة وبلاط نور الدين في دمشق، فعانى الشدائد والأهوال ونعم باللذائذ والمتارف، وخاض مع الإفرنج معارك عدة أظهر فيها بطولة نادرة وشجاعة فائقة، كما كانت مجاورة أملاك أسرته لاملاك الصليبيين سبباً في اتصاله الوثيق بهم، في عهود الحروب وعهود السلم، فعرفهم عن كثب وزار ممتلكاتهم غير مرة، ودوّن مشاهداته ووقائعه في كتاب «الاعتبار» الذي يوليه الباحثون أهمية كبرى لأنه شهادة مؤرخ معاصر ثاقب النظر نافذ البصيرة في مناقب الإفرنج ومثالبهم على السواء. وقد قال العقاد فيه: كان صلاح الدين مثلاً في اتزانه واعتداله وتعدد جوانبه بين الشجاعة والروية، وكان أسامة مثله في كل خصلة من تلك الخصال، شجاعاً حازماً مقتصداً في الهجوم متثبتاً في الحذر وعدواً بمقدار (انظر: اسامة بن منقذ لمحمد حسين، والحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام لمحمد سيد كيلاني ص ٢٠٢ ـ ٢٠٧ و ٢٩٠ ـ ٢٩٧، وأسامة بن منقذ بقلم العقاد في مجلة العربي العدد ٢، وكتاب الاعتبار بقلم يوسف الشاروني في مجلة العربي العدد ١٦).

تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم. وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس(٢٩) من الشعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك(٣٠): «هذا تعدّى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردّها علينا بعد ان اتلفها» فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: «قوموا اعملوا له حكماً» فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك، فقالوا: «قد حكمنا ان صاحب بانياس عليه غرامة ما اتلف من غنمهم» فأمره الملك بالغرامة، فتوسل إليّ وثقل عليّ وسألني حتى أخذت منه اربعمائة دينار. وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدّمي الإفرنج يغيّره ولا ينقضه. فالفارس أمر عظيم عندهم.

«ولقد قال لي الملك: «يا فلان، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً» قلت: «الله يفرّح الملك، بماذا فرحت؟» قال: «قالوا لي إنك فارس عظيم، وما كنت اعتقد انك فارس!» قلت: «يا مولاي، انا فارس من جنسي وقومي»(٣١).

ولكن إذا كان من أبرز صفات الفروسية الصدق والوفاء بالوعد، فقد روى أسامة بن منقذ ما ينفي تلك الصفة عن فرسان الفرنجة، ومن ذلك هذه القصة الطريفة التي رواها عن تنكريد صاحب انطاكية:

«وكان نزل علينا دنكري(٣٢) وهو أول أصحاب انطاكية بعد ميمون(٣٣)، فقاتلنا ثم اصطلحنا، فنفّذ يطلب حصاناً لغلام لعمي عز الدين رحمه الله، وكان فرساً جواداً. فنفّذه له عمي تحتِ رجل من أصحابنا كردي يقال له حسنون، وكان من الفرسان الشجعان وهو شاب مقبول الصورة دقيق، ليسابق بالحصان بين يدي دنكري. فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها. وحضر بين يدي دنكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه، وقد عرفوا انه فارس شجاع. فخلع عليه دنكري، فقال له حسنون: «يا

---

(٢٩) واسمه رنيه.

(٣٠) هو فولك الخامس الذي تتوج ملكاً على بيت المقدس سنة ١١٣١ (٥٢٦)هـ.

(٣١) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٣٢) يعني تنكريد.

(٣٣) هو بوهيمند وقد خلفه تنكريد سنة ١١٠٤ (٤٩٨هـ).

مولاي، أريدك تعطيني أمانك إنك إن ظفرت بي في القتال تصطنعني وتطلقني» فأعطاه أمانه على ما توهم حسنون، فانهم لا يتكلمون إلا بالأفرنجي ما ندري ما يقولون.

«ومضى على هذا سنة أو أكثر، وانقضت مدة الصلح. وجاءنا دنكري في عسكر انطاكية، فقاتلنا عند سور المدينة. وكانت خيلنا لقيت أوائلهم. فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا كرديّ، وهو وحسنون نظراء في الشجاعة، وحسنون واقف مع والدي، رحمه الله، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار ويأتيه كزاغنده. فأبطأ عليه وأقلقه طعن كامل المشطوب فقال لوالدي: «يا مولاي، أءمر لي بلباس خفيف» فقال: «هذه البغال عليها السلاح واقفة، مهما صلح لك ألبسه» وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي وأنا صبي، وهو أول يوم رأيت فيه القتال. فنظر الكزاغندات في عيبها على البغال فما وافقته، وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب. فتقدم على حجرته، وهو معرّى، فاعترضه فارس منهم، فطعن الفرس في قطأتها فعضّت على فاس اللجام وحملت به حتى رمته في وسط موكب الإفرنج. فأخذوه أسيراً وعذبوه أنواع العذاب، وأرادوا قلع عينه اليسرى، فقال لهم دنكري لعنه الله: «اقلعوا عينه اليمنى، حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبصر شيئاً» فقلعوا عينه اليمين كما أمرهم، وطلبوا منه ألف دينار وحصاناً أدهم كان لوالدي من خيل خفاجة جواداً من أحسن الخيل، فاشتراه بالحصان رحمه الله»[٣٤].

وإلى جانب هذا المثل عن «فروسية» تنكريد، يروي ابن منقذ في معرض اقاصيصه ونوادره الكثيرة قصة رائعة عن وفاء بدوي رواها ابن والي الطور وهي ولاية لمصر قريبة من بلاد الإفرنج كان الخليفة الفاطمي إذا أراد ابعاد بعض الأمراء ولاه إياها، فقال: «وليها والدي وخرجت انا معه إلى الولاية وكنت مُغرى بالصيد، فخرجت أتصيد، فوقع بي قوم من الإفرنج فأخذوني ومضوا بي إلى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي، وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينار، فبقيت في الجب سنة لا يسأل عني أحد. فأنا في بعض الأيام في الجب، وإذ قد رفع عنه الغطاء ودُلّي إليّ رجل بدوي. فقلت: «من أين اخذوك؟»قال: «من الطريق» فأقام عند يُويمات وقطعوا عليه خمسين ديناراً. فقال لي يوماً من الأيام: «تريد تعلم أن ما يخلصك من هذا الجب إلا أنا؟ فخلصني حتى أخلصك» فقلت في

---

(٣٤) كتاب الاعتبار ص ٦٥ ـ ٦٧.

نفسي: «رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص» فما جاوبته. ثم بعد أيام أعاد عليّ ذلك القول. فقلت في نفسي: «والله لأسعين في خلاصه لعل الله يخلصني بثوابه» فصحت بالسجان فقلت له: «قل للصاحب اشتهي اتحدث معك» فعاد وأطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب، فقلت له: «لي في حبسك سنة ما سأل احد عني ولا يدري انا حي أو ميت. وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين ديناراً اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني أسيّره إلى أبي حتى يفكني» قال: «أفعل» فرجعت عرّفت البدوي وخرج ودّعني ومضى. فانتظرت ما يكون منه شهرين فما رأيت له أثراً ولا سمعت له خبراً، فيئست منه. فما راعني ليلة من الليالي إلا وهو قد خرج عليّ من نقب في جانب الجب، وقال: «قم والله لي خمسة أشهر أحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت إليك» فقمت معه وخرجنا من ذلك السرب، وكسر قيدي وأوصلني الى بيتي. فما أدري مم أعجب: من حسن وفائه أو من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب!...»(٣٥).

وكان أسامة يمضي في عهود السلم إلى مناطق الإفرنج فيشتري الأسرى ويطلق سراحهم، ومن أطرف ما وقع له في ذلك ان مغامراً صليبياً يسميه اسامة «كليام جيبا» استولى على مركب كان يسافر عليه أربعمائة من حجاج المغرب رجالاً ونساء، فأسرهم وأراد بيعهم، فاشترى أسامة عدداً منهم واشترى عدداً آخر للأمير معين الدين، قال: «وجئت إلى دمشق فقلت للأمير معين الدين رحمه الله: «قد اشتريت لله أسارى اخصّك بهم، وما كان معي ثمنهم، والآن قد وصلت إلى بيتي، إن اردتهم وزنت ثمنهم، وإلا وزنتهم أنا» قال: «لا بل أنا أزن، والله، ثمنهم، وأنا أرغب الناس في ثوابهم». وكان رحمه الله أسرع الناس الى فعل خير وكسب مثوبة. ووزن ثمنهم. وعدت بعد أيام إلى عكا. وقد بقي عند كليام جيبا ثمانية واربعون أسيراً وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله على يدي. فاشتريتها منه وما وزنت ثمنها. فركبت إلى داره لعنه الله، وقلت: «تبيعني منهم عشرة؟» قال: «وحق ديني ما أبيع إلاّ الجميع» قلت: «ما معي ثمن الجميع، وانا اشتري بعضهم، والنوبة الأخرى اشتري الباقي» قال: «ما أبيعك إلا الجميع» فانصرفت وقدّر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم، وسكان ضيع عكا كلهم من المسلمين إذا وصل اليهم الأسير اخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام. وتطلّبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم باحد، وأحسن الله سبحانه

---

(٣٥) المرجع السابق ص ٨٠ ـ ٨١.

خلاصهم. وأصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت اشتريتها وما وزنت ثمنها وقد هربت في من هرب. فقلت: «سلّمها إليّ وخذ ثمنها» قال: «ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب» وألزمني بوزن ثمنها فوزنته وهان ذلك عليّ لمسرّتي بخلاص أولئك المساكين»[٣٦].

ومن أطرف ما وقع له خلال زياراته للمناطق التي يحكمها الإفرنج - وهو في الوقت نفسه يدل على توثق عرى الصداقة بينه وبين فرسان الفرنجة وما كان يلقاه بينهم من احترام وتسامح، كما يبين الفرق الكبير بين الفرنجي القادم حديثاً من الغرب والفرنجي الذي أقام في الشرق فعرف أهله وتحرر من تعصبه عليهم وقامت بينه وبينهم أواصر الود - ما رواه بقوله: «كنت إذا زرت البيت المقدس، دخلت إلى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الدّاوية[٣٧]، وهم أصدقائي، يُخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه، فدخلته يوماً فكبّرت ووقفت في الصلاة. فهجم عليّ واحد من الإفرنج مسكني وردّ وجهي الى الشرق وقال: «كذا صلِّ!» فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد هجم عليّ ذلك بعينه، وردّ وجهي إلى الشرق وقال: «كذا صلِّ!» فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه، واعتذروا إليّ، وقالوا: «هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام، وما رأى من يصلي الى غير الشرق» فقلت: «حسبي من الصلاة!» فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة..[٣٨]».

ومن ذلك أيضاً قوله: «ومن الإفرنج قوم قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه، فمن ذلك اني نفذّت صاحباً الى انطاكية في شغل، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفّي[٣٩] وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في انطاكية. فقال لصاحبي يوماً: «قد دعاني صديق لي من الإفرنج، تجيء معي حتى ترى زيهم» قال: «فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بانطاكية ملك يعيش منه. فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة، ورآني متوقفاً عن الأكل فقال: «كل طيب

---

(٣٦) المرجع السابق ص ٨١ـ٨٢.

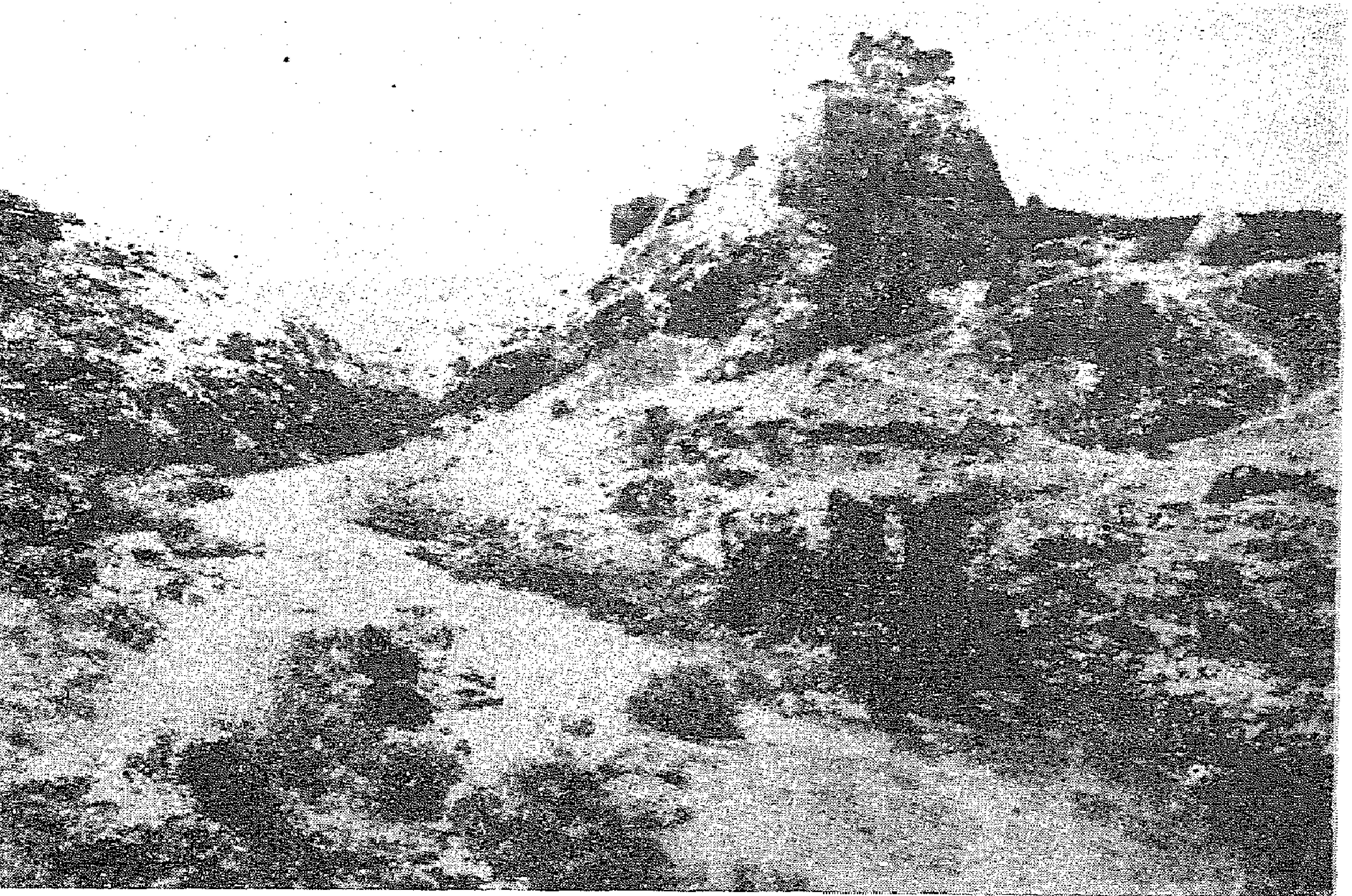
(٣٧) فرسان الهيكل.

(٣٨) المرجع السابق ص ١٣٤ـ١٣٥.

(٣٩) هو تيودور صوفيانوس.



احد فرسان الهيكل



قلعة شيزر كما هي اليوم وتبدو آثار الجسر القديم ظاهرة على ضفة العاصي

النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهنّ، ولا يدخل داري لحم خنزير» فأكلت وأنا محترز وانصرفنا. فأنا بعد مجتازاً في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما أدري ما تقول. فاجتمع عليّ خلق من الإفرنج، فأيقنت بالهلاك. وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني، فجاء فقال لتلك المرأة: «مالك ولهذا المسلم؟» قالت: «هذا قتل اخي عرس[٤٠]» وكان هذا عرس فارساً بافامية قتله بعض جند حماة. فصاح عليها وقال: «هذا رجل برجاسي (أي تاجر[٤١]) لا يقاتل ولا يحضر القتال» وصاح على أولئك المجتمعين، فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى، فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل»[٤٢].

ولعل أمتع ما رواه أسامة بن منقذ في حديثه عن طبائع الإفرنج وأخلاقهم بأسلوبه الفكه قوله: «ومن عجب طبهم ان صاحب المنيطرة[٤٣] كتب إلى عمي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: «ما أسرع ما داويت المرضى!» قال: «احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم: «هذا ما يعرف شي يداويهم» وقال للفارس: «أيما أحب إليك: تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟» قال: «أعيش برجل واحدة!» قال: «أحضروا إليّ فارساً قوياً وفأساً قاطعاً، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه علي قرمة خشب وقال للفارس: «اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة، اقطعها» فضربه وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: «هذه المرأة في رأسها شيطان، قد عشقها.. أحلقوا شعرها» فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال: «الشيطان قد دخل في رأسها» فأخذ الموس وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس، وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: «بقي لكم إليّ حاجة؟» قالوا: «لا..»، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه!»[٤٤].

---

(٤٠) Hurso

(٤١) بورجوازي.

(٤٢) المرجع السابق ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٤٣) قرب افقة عند منبع نهر إبراهيم في شمالي لبنان.

(٤٤) المرجع السابق ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

ولا ريب في ان عماد الدين قد تهيب ذلك الحلف الدمشقي الصليبي الذي حال بينه وبين احتلال دمشق، توطئة لتحقيق أهدافه البعيدة في مهاجمة الفرنجة في المناطق التي بسطوا سلطانهم عليها ومكنوا لأنفسهم فيها، كما ان أحداث فارس والعراق قد شغلته وقتاً غير قصير عن متابعة أهدافه في بلاد الشام، إلا انه لم يكد يغمض عينيه الاغماضة الأخيرة في السادس من ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ ٤ ايلول (سبتمبر) ١١٤٦، عندما خرّ صريعاً بيد خادمه يرتقش فيما كان يحاصر قلعة جعبر[٤٥] حتى كانت إفاقة القوى العربية والاسلامية قد بدأت تعطي ثمارها، وطرأ تغير كبير على الأوضاع السائدة في البلاد.

والواقع ان أواخر النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، شهدت ثلاثة أحداث مهمة كان لها أثرها في تطور ذلك الصراع التاريخي بين الشرق والغرب، أولها زحف حنا كومنينوس سنة ٥٣٢هـ ١١٣٧م، على انطاكية وإرغام أميرها ريموند دو بواتيه على ان تبعيته للامبراطور البيزنطي، واتفاقهما معاً سنة ٥٣٣هـ ١١٣٨م، على القيام بحملة كبرى على البلاد الاسلامية لتحطيم قوة عماد الدين زنكي في حلب، وامارة بني منقذ في شيزر، وانتزاع حمص من أتابكة دمشق، وإقامة إمارة صليبية في هذه البقاع يتولاها ريموند دو بواتيه مقابل تخليه عن إمارة انطاكية للبيزنطيين. الا ان هذه الحملة باءت بالاخفاق، نتيجة لمقاومة عماد الدين، والخلاف الذي شجر بين الصليبيين والبيزنطيين، وفي ما بين الصليبيين أنفسهم. بيد ان جيش العاهل البيزنطي عاد من هذه الحملة الى انطاكية فاحتلها، «فتنادى الصليبيون الى مقاومة البيزنطيين الأرثوذكس[٤٦]» فشبت ثورة عارمة في انطاكية على حنا كومنينوس ورجاله «فتجمع الناس في الطرقات واعتدوا على الجيش البيزنطي الذي أخذ على غرة، ولم يستطع الامبراطور عندئذ سوى ان يغلق على نفسه أبواب قصره ليحمي نفسه من غضب الجماهير الثائرة[٤٧]» وما لبث حنا كومنينوس ان غادر انطاكية ليعود إليها سنة ٥٣٧هـ ١١٤٢م، بجيش أكبر عدداً وأكثر استعداداً، غير ان الشتاء أدركه فقرر المسير الى بيت المقدس للحج، فأبلغه فولك ان الاوضاع الاقتصادية لا تسمح بنزول جيشه اللجب في الأراضي المقدسة، وانه اذا كان لا بد من ان يحج الامبراطور فيجب ألا يرافقه اكثر من عشرة آلاف جندي، فغضب العاهل البيزنطي وقرر القيام بحملة كبرى على الصليبيين في الشام، ولكن وفاته المفاجئة سنة ٥٣٨هـ ١١٤٣م، حالت دون ذلك.

---

(٤٥) يرجح بعض المؤرخين ان يرتقش كان على صلة بخصوم عماد الدين وهم الذين دفعوه الى قتله (انظر: تاريخ الاسلام للذهبي ص ٩٥) وقد هال الناس مصرع عماد الدين حتى لقد صاح اهل قلعة جعبر انفسهم في القاتل: «لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله».

(٤٦) Bréhier; L'Eglise et l'Orient au Moyen Age. Les Croisades, p. 324

(٤٧) الحركة الصليبية، ج ١، ص ٥٨٩.



الامبراطور حنا كومنينوس عن لوحة بالفسيفساء

وثاني تلك الأحداث هو وفاة فولك الخامس ملك بيت المقدس سنة ٥٣٨هـ ـ ١١٤٣م، وقيام زوجته مليزاند بالوصاية على ولدها بلدوين الثالث الذي تولى الملك إثر موت ابيه وهو في الثالثة عشرة من عمره، إذ فقد الفرنجة بغياب فولك شخصية قوية كانت تفرض سلطانها على جميع الامارات الصليبية، وحلت محله مليزاند التي كانت تعمل بوحي أهوائها ومصالحها الشخصية، فغدا بعض أمراء الفرنجة يستعْدون عماد الدين على أمراء آخرين من الفرنجة، كما سبق لأليكس، زوجة بوهيمند أمير انطاكية، ان استعانت به على أبيها بلدوين الثاني بعد وفاة زوجها كي ترث الامارة من بعده ولا ينازعها في الحكم منازع(٤٨).

اما الحدث الآخر فهو استيلاء عماد الدين سنة ٥٣٩هـ ـ ١١٤٤م، على الرها بعد ان حكمها الفرنجة ستة واربعين عاماً، رغم «ما هي عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على طالبيها(٤٩)»، إثر الجفوة التي ظهرت بين ريموند دو بواتيه، صاحب انطاكية(٥٠) وجوسلين الثاني، صاحب الرها، «وهي جفوة اشتدت بين الأميرين الصليبيين، حتى كان كل منهما يفرح اذا ألمت بالآخر نكبة»(٥١).

وقد سمي هذا النصر «فتح الفتوح» وكان مصدر إلهام وإبداع لكثير من الكتاب والشعراء، وما قاله في ذلك ابن القيسراني من قصيدة طويلة:

هو السيف لا يغنيك إلا جلادُهُ ... وهل طوّق الأملاك إلا نجادُهُ
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ... سناها وإن فات العيون اتقاده
فيا ظفراً عم البلاد صلاحه ... بمن كان قد عم البلاد فساده
سمت قبةُ الاسلام فخراً بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عماده

---

(٤٨) الحركة الصليبية، ج ١، ص ٥٣٢ نقلاً عن Runciman; Hist. of the Crusades, T.II, p. 133.

(٤٩) مفرج الكروب، ج ١، ص ٩٤.

(٥٠) كان فولك دوق انجو الذي خلف بلدوين الثاني على عرش بيت المقدس قد رأى ان يتخلص من مؤامرات اليكس أرملة بوهيمند بزفها إلى ريموند دو بواتيه، وهكذا غدا ريموند أميراً على انطاكية.

(٥١) نور الدين والصليبيون ص ٣٤ نقلاً عن Stevenson; Crusades, p. 149 & G. T. p. 709

وأراد عماد الدين ان يصب جام غضبه على أهل المدينة «ليثأر للفظائع التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس وانطاكية، ولكن مروءته تغلبت على سخطه(٥٢) فعامل السكان خير معاملة، وشمل المسيحيين بحمايته، فأحاطهم بعطفه ورعايته، وشعر السريان والأرمن الأرثوذكس الذين كانوا قد غادروها قبلاً، بالاطمئنان فعادوا الى مدينتهم(٥٣) .

وقد استقبل العالم العربي والاسلامي بالابتهاج هذا الانتصار الذي أحدث ثغرة في صرح الاحتلال الفرنجي وكان حافزاً جديداً على تجمع قوى المقاومة في وجه العدوان الأجنبي.

---

(٥٢) مختصر تاريخ العرب ص ٢٩٧.

(٥٣) Michel Le Syrien, III. pp. 262 _ 268

الفصل الخامس

نور الدِّين محمود والحملة الصّليبية الثانية

حدد القدر لكل من الأميرين نور الدين محمود وسيف الدين غازي، ولدي عماد زنكي الأرشدين، هدفه في الحياة، إذ اقتسما دولة أبيهما، فآلت حلب والرُّها للأول، وغدت الموصل وما يليها للثاني، فانصرف سيف الدين وهو أكبرهما إلى حماية أملاكه من جيرانه المسلمين في الشرق، واتجه اهتمام نور الدين إلى مقاومة الإفرنج الذين يحيطون بأطراف ملكه.

وكان اتجاه نور الدين يتلاقى مع يقظة الشعوب الإسلامية التي بدأت تُقدّر أهمية الخطر الأجنبي المتعاظم. وسرعان ما برز الأمير الشاب في حياة بلاده كشخصية فذة ذات أثر فعّال في سير التاريخ، واستطاع ان يفرض حبه واحترامه على أصدقائه وأعدائه جميعاً، لما امتاز به من فضائل ومكارم، وما كان يهدف له من آمال كبار تهون عندها صغار الأهواء.

ويبدي بروكلمان إعجاباً خاصاً بشخصية نور الدين فيقول عنه:

«انه ورث عن أبيه صفات الحاكم الفاضل إلى حد بعيد جداً[1]، فبينا كانت الكثرة

(١) كان عماد الدين زنكي مهيباً شديد الوطأة على خصومه وأهل الفساد، وصفه العماد الأصفهاني بقوله: «كان جباراً عسوفاً، بنكباء النكبات عصوفاً، نمري الخلق، أسدي الحنق، لا ينكر العنف ولا يعرف العرف» ويقول محمد كرد علي: «وبعض هذه الصفات تنزهت منها نفس ابنه نور الدين محمود، فانه جمع الصفات الحسنة في أبيه وتجرد عن الصفات الرديئة فيه ـ انظر خطط الشام، ج٢، ص١٧».

المطلقة من الحكام الذين تصدوا لسياسة المسلمين، طوال أجيال عدة، يعتبرون ممالكهم اقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة، كان أول من استشعر أنه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته. ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة، التي تمت له بالإدارة البارعة والتي لم تُثقل كاهل رعيته على كل حال، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالأعداء ـ وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة ـ فحسب، بل أنفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا الدراويش وخانات المسافرين والمستشفيات ودور العلم»(٢).

وقد تمكن نور الدين بهذه الروح الطيبة الصافية من أن ينزع الغل والحقد من قلوب مجاوريه من الأمراء، وأن يوفق بينهم إلى حد كبير، وكان يأبى محاربتهم حتى وان اعتدى بعضهم عليه، وإنما يشتد في مقاتلة الفرنجة ليعوّض عن خسائره لدى المسلمين بمكاسب يحرزها لدى أعداء البلاد.

وهذه السياسة التي اتبعها في محاسنة أمراء المسلمين، قد ذللت له ما استعصى على أبيه. فقد عرفنا ان عماد الدين فارق الحياة وفي نفسه شيء كبير من دمشق، لأن صاحبها معين الدين أنر كان يرهبه ويخشى إن هو تقرب منه أو استسلم له، ان يقتله او ينتزع ملكه منه، فأزال نور الدين ذلك الجفاء القديم، واتخذ مع أنر سبيل الملاينة، وتزوج من ابنته توطيداً لأواصر المودة بينهما.

إلا ان أنر ما فتيء يحاذر من نور الدين، ويصانع الصليبيين ويوادعهم، حتى أسفر هؤلاء عن مطامعهم، ومزقوا الحلف القائم بينه وبينهم، في محاولة قاموا بها للاستيلاء على حوران، استجابة لدعوة واليها التونتاش الذي أعلن انفصاله عن دمشق، وأملاً في اتخاذ هذه المنطقة قاعدة لهم يتوغلون منها في بلاد الشام ويحتلون عاصمتها، مما اضطر أنر إلى الاستعانة بنور الدين فأعانه بجيش كثيف، واحتل الأميران المنطقة قبل وصول القوات الصليبية الطامعة بها. ولما وصلت هذه القوات وهي على أسوأ حال من الإعياء والظمأ، رأت ان الجيوش الإسلامية قد سبقتها إلى مراكز المياه، فاشتبكت معها في السابع والعشرين من محرم سنة ٥٤٢هـ ١١٤٧م في موقعة خاسرة، وحينئذ لم تجد بداً من

---

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ج٢، ص٢١٩ ـ ٢٢٠.

العودة إلى بيت المقدس، مخافة أن تنتقل الجيوش الإسلامية الى الهجوم على المملكة الصليبية وقد شارفت حدودها.

ولم يشأ أنر تعقب تلك الحملة وهي على تلك الحال من التضعضع والانهيار، إلا أنها لم تسلم من تعرض المواطنين والجنود لها في معارج الطرق. «ولم ير الصليبيون بداً من أن يبعثوا بمبعوث من قبلهم يتقن اللسان العربي، ليسأل أنر ونور الدين أن يأذنا لهم بهدنة يتمكنون خلالها من دفن قتلاهم ثم العودة إلى بيت المقدس، فلم يُقدّر لهذا الرسول تأدية رسالته، إذ عوجل في الطريق على يد نفر من المسلمين أردوه قتيلاً، واضطر الصليبيون لمتابعة السير رغم أخطار الطريق، وبعد الشقة، وتربص العصابات لهم، وقلة ما بيدهم من الزاد. وهنا تظهر حادثة تتجلى فيها روح الفروسية التي امتاز بها العصر الوسيط، فقد وصل إلى الصليبيين مبعوث من قبل أنر يمدهم بالمؤونة اللازمة حتى يعودوا إلى بلادهم، كما جاء فارس عربي يبصّرهم مسالك الطريق»(٣).

وهكذا حل محل الحلف الصليبي الدمشقي، الحلف بين نور الدين وأنر، هذا الحلف الذي فرضته الأحداث وسياسة نور الدين الرشيدة، وهو الأمر الذي كان الإفرنج يتهيبونه وقد مهدوا له بجشعهم وسوء تصرفهم. فلما بلغت الحملة الصليبية الثانية بلاد المشرق، وجدت أمامها هذا الحلف القوي الذي يؤلف سداً فولاذياً في وجوه المعتدين.

ذلك أن سقوط الرُّها سنة ٥٣٩هـ ١١٤٤م، في يد عماد الدين، قد أثار في الغرب موجة جديدة من الحماسة والفزع، فنهض البابا اوجاتيوس الثالث يحاول تمثيل الدور الذي لعبه أوربانوس الثاني، داعياً الدول الأوروبية إلى حملة صليبية جديدة، ووجد في القديس برناردوس داعية له فأخذ يطوف أوروبة الغربية مستنهضاً العزائم مستثيراً الهمم، فلبى النداء هذه المرة ملكان عظيمان هما كونراد الثالث، امبراطور المانية، ولويس السابع، ملك فرنسة، وكان جيش كل منهما يتألف من حوالى سبعين الف رجل. وكان السبب في استجابة لويس السابع للنداء كما يقول فيليب مير أن ضميره كان يؤنبه على القسوة التي عامل بها نفراً من رعيته خرجوا عليه، فأراد ان يكفر عن ذنبه باشتراكه في تلك الحملة(٤).

---

(٣) نور الدين والصليبيون ص٤٨، ويذهب الدكتور حبشي إلى أن هذه البادرة تدل على ان أنر كان مرغماً على مصالحة نور الدين، وانه كان يخشى ان تنجو دمشق من الخطر الصليبي لتقع فريسة الخطر النوري.

(٤) التاريخ العام، ص٢٤٨.

وقد أثارت الحملة الصليبية الجديدة مخاوف عمانوئيل الأول، امبراطور بيزنطية وحفيد الكسيوس كومنينوس، فأخذ ينتظرها في قلق شديد. يقول الدكتور اسد رستم: «ووصل الألمان أولاً وكانوا قد نهبوا ذات اليمن وذات الشمال في أثناء مرورهم في أراضي الروم، فطلب عمانوئيل إلى كونراد ان يعبر جنوده الدردنيل لا البوسفور في طريقهم إلى آسية. ولكن كونراد رفض وتابع سيره نحو القسطنطينية. وحطت رحال جنوده خارج أسوارها وسلبوا ونهبوا وأحرقوا. ولم يرض كونراد عن التقاليد المتبعة في التشريفات في القصر المقدس، فساءت العلاقات بين الكبيرين. ولكن عمانوئيل تمكن من اقناع ضيفه الكبير بوجوب الانتقال إلى آسية الصغرى ومتابعة السير نحو الأراضي المقدسة. وبعد هذا بقليل في خريف السنة ٥٤٢هـ ١١٤٧م، أطل لويس السابع بجموعه فحلّ ضيفاً مكرماً على الفسيلفس[٥]. واشترك الضيف والمضيف في عيد القديس دنيس في التاسع من تشرين الأول. وساد الحب والتفاهم الأحاديث والعلاقات كلها. ثم طلب عمانوئيل إلى لويس السابع وأمرائه وأشرافه ان يقسموا يمين الطاعة والولاء كما فعل أمراء الحملة الأولى. فلم يرض الملك الإفرنسي بذلك، وشاركه في الرفض جميع حاشيته من كبار الرجال. وارتأى أحد الأساقفة الإفرنسيين أن يُصار إلى احتلال القسطنطينية، ولكن لويس أبى مذكراً الأسقف وغيره بالنذر الصليبي»[٦].

وقد بادر عمانوئيل الأول إلى مصالحة الأمير مسعود سلطان قونية نكاية بالصليبيين، ومن المؤرخين من يقول انه «بعث بالرسائل إلى مسعود يحثه على النهوض لقتال الألمان في الوقت الذي كان يعد العدة لاستقبالهم ويتظاهر بالاخلاص لهم»[٧]. ولما وافت الامبراطور البيزنطي أنباء الهزيمة التي ألحقها الأتراك السلاجقة بالألمان عند دوريلة، زعم للفرنسيين، الذين كانوا لا يزالون في القسطنطينية، أن الألمان قد أحرزوا نصراً مبيناً، فسارعوا إلى مغادرة القسطنطينية للمشاركة في هذا النصر!.

وحين وصل لويس السابع إلى انطاكية في ١٩ آذار (مارس) ١١٤٨م (٥٤٣هـ)، حاول أميرها ريموند دو بواتيه اقناعه بالزحف على حلب وحماة، لتوجيه ضربة قاصمة إلى نور

---

(٥) لقب أباطرة بيزنطية.

(٦) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢. ص١٤٨ ـ ١٤٩.

(٧) نور الدين والصليبيون ص ٥١ (انظر أيضاً: Dictionnaire des Croisades; p. 285)

الدين تقضي عليه أو تحدّ من مطامحه، لأن مملكته التي ما تفتأ تتسع على حساب المستعمرات الإفرنجية، باتت تؤلف خطراً شديداً على مشاريع الصليبيين. ولكن عوامل متعددة دفعت الملك لويس السابع إلى رفض هذه الفكرة، والإصرار على مغادرة انطاكية للالتحاق بكونراد الثالث إلى بيت المقدس. ومن هذه العوامل العلاقة المريبة التي نشأت بين اليانور، زوجة الملك لويس السابع وعمها ريموند دو بواتيه أمير انطاكية[٨]، ولما أصر لويس السابع على عزمه، رفضت اليانور مرافقته، وهددته بالطلاق ان هو أبى مرافقة عمها في الحملة على نور الدين، فأصر على الرفض وغادر انطاكية تحت جنح الظلام.

وفي ٢٨صفر ٥٤٣هـ ٢٤ حزيران(يونيو) ١١٤٨م، عقد قادة الحملة الصليبية الثانية من الملوك والأمراء والنبلاء ورجال الدين، مؤتمراً في بيت المقدس[٩]، ليقرروا وجهة الجيوش التي جاؤوا بها من الغرب، وقد عرضوا وجوه الرأي كلها إلا ما يتعلق منها بمهاجمة نور الدين، ثم انتهوا إلى أسوأ الآراء وهو مهاجمة دمشق التي كان أميرها أنر ما زال يوادعهم ويطمع بتجديد التحالف معهم، فقد كان كما يقول غروسه، «الحليف الوحيد للصليبيين بين أمراء المسلمين في بلاد الشام»[١٠].

ويقول المستشرق لامونت في ذلك: «وعندما جاءت الحملة الصليبية إلى الشرق، وكان هدفها الوحيد استرجاع الرها، انحرفت عن هذا الهدف نتيجة للخلافات الداخلية وللسياسة الأنانية التي اتبعها إفرنج القدس الذين عارضوا الحرب في الشمال، ووجهت للهجوم على دمشق مع أنه كان بين دمشق واللاتينيين حلف وثيق دام عدة سنوات»[١١].

وسرعان ما زحفت على دمشق الجيوش الفرنسية والألمانية وجيوش بلدوين الثالث ملك بيت المقدس، واحتلت القرى القريبة منها، وضربت الحصار عليها في السادس من ربيع الأول ٥٤٣هـ الثاني من تموز(يوليو) ١١٤٨م.

لكن أبناء دمشق استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم، ولم يتأخر منهم عن القتال حتى

---

(٨) Lavisse; Hist. de France, Vol III, pp. 17 _ 18 & Rey; Hist. des princes d'Antioche, p. 367.

(٩) نور الدين والصليبيون ص٥٥.

(١٠) Hist. des Croisades, T2, p. 255.

(١١) دراسات إسلامية ص١١٥.



الحملة الصليبية الثانية في شعاب آسية الصغرى

الكهول والزهاد والأئمة والفقهاء[١٢]، وأرسل أنر في الوقت نفسه يستصرخ سيف الدين ونور الدين وغيرهما من أمراء المسلمين، ثم اجتمع بنور الدين عند حمص في أواخر ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ ١١٤٨م، واتفق معه على ان يحتل قلعة دمشق فريق من جند حلب لدفع الخطر الصليبي، شريطة أن يغادرها متى زال الخطر.

وبينما كانت الجبهة الإسلامية آخذة سبيل القوة، كانت الجبهة الصليبية تنحدر إلى الضعف، بسبب التنافس الذي نشب بين أمرائها حول مصير دمشق، إذ كان كل منهم يطمع في امتلاكها، وأخذوا يتبايعون ضياعها وجهاتها[١٣]، ويذهب مؤرخو تلك الحملة الفرنجة إلى أن أنر استطاع ان يرشو فريقاً من أمراء الحملة فأنشأوا يثبطون همة كونراد ولويس ويصعّبون أمامهما الموقف الحربي، وأشاروا عليهما بإخلاء ناحية الغوطة، وجاز الأمر على العاهلين الأوروبيين فانتقلا بجيوشهما إلى باب كيسان حيث أخذوا يلاقون أكبر المشقة في الحصول على الماء والذخيرة[١٤]، وهكذا اضطربت صفوف الحملة، وبدا عجزها، وقرر ملكا فرنسة والمانية العودة من حيث أتيا.

ويتفق رأي ابن الأثير مع رأي ميشال السوري[١٥] في الدور الذي لعبه معين الدين أنر في التفريق بين «فرنج الشام» وقادة الحملة الصليبية الثانية، سالكاً طريق الترهيب والترغيب معاً، قائلاً لهم: «إنكم لتعلمون أنهم إن ملكوا دمشق، أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية» وانه ان شعر بأي عجز عن حفظها سلّمها إلى سيف الدين، وعندئذ لا يبقى لهم معه مقام في الشام، فأجابوه إلى التخلي عن الأوروبيين، واجتمعوا إلى الامبراطور والملك، وخوفوهما من سيف الدين وكثرة عساكره مع تتابع الإمداد إليه، وأنه ربما مَلَك دمشق وضعفوا هم عن مقاومته، وما زالوا بهما حتى رحلا بعساكرهما عن المدينة، فتسلموا هم قلعة بانياس من أنر كما كان وعدهم وارتدوا من حيث أتوا[١٦].

ويحمل الدكتور حسن حبشي العوامل التي أدت إلى هذه النتيجة بقوله: «والخلاصة

---

(١٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ وكتاب الروضتين، ج ١، ٥٦.

(١٣) ذيل تاريخ دمشق ص٢٩٨ ـ ٣٠٠

(١٤) نور الدين والصليبيون ص ٥٧ ـ ٥٩.

(١٥) Michel Le Syrien, p. 276

(١٦) الكامل، ج ١١، ص٥٨ ـ ٥٩.

انه إذا استعرضنا موقف الصليبيين الحربي، وتضعضع قوتهم ونفسيتهم، واستيلاء اليأس على قلوبهم، ونهوض نور الدين وأخيه سيف الدين لنجدة أنر، ومجيء القوات الإسلامية لمعونة دمشق، وذكرنا النزاع الذي دب بين قواد الحملة الصليبية وأشرافها، وتحرك الأطماع في صدورهم، ونظرة فرنجة الشام إلى الألمان نظرتهم للغريب، أمكننا أن نحكم بفشل الحملة الصليبية الثانية، بل إن هذا الفشل تأكد منذ قدومها إلى الشرق حين وقف الامبراطور عمانوئيل منها موقفه الملتوي، ثم نشوب النزاع بين ريموند دو بواتيه وبين لويس السابع، وعدم مهاجمة حلب رأساً، مما أتاح الفرصة للقوات النورية أن تتأهب للدفاع، بل وان تتحول من الدفاع إلى الهجوم استجابة لاستغاثة أنر. لذلك كان لا بد لتلك الجماعات الوافدة من الغرب ان تتلمس السبيل لخروجها سليمة من هذا المأزق الحرج، فاتفق رأي ملك فرنسا وامبراطور المانية على الرجوع إلى بلديهما»[١٧].

أما الدكتور اسد رستم فقد أجمل مسيرة الحملة بقوله: «ولما وصل ملوك الفرنجة إلى سورية الشمالية، رأى ملك القدس ان يتجه الملوك المجاهدون نحو دمشق، فوصلوا إليها في تموز السنة ١١٤٨، وأحاطوا بها وخربوا غوطتها، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة. وأخفقت الحملة الصليبية الثانية، وعزا أمراؤها هذا الاخفاق إلى عمانوئيل وحكومته. وعادوا إلى الغرب يعدون العدة لحملة ثالثة توجه ضد الروم أنفسهم»[١٨].

والواقع ان موقف الحذر والمباغضة وإساءة الظن الذي وقفه الامبراطور الكسيوس وخلفاؤه من الصليبيين وبادلهم إياه هؤلاء مبادلة تامة، لم يتغير في وقت من الأوقات. ويقول هامرتن: «ومما كان يزيد في تلك المباغضة ان الفرنجة في فلسطين ذاتها، كانوا يفرقون في المعاملة بين رعاياهم من الكاثوليك ورعاياهم من الارثوذكس (والآخرون يتفقون في مذهبهم مع أبناء الامبراطورية الشرقية) ففرضوا على الارثوذكس الضرائب وأعفوا الكاثوليك منها»[١٩].

غادرت القوات الصليبية منطقة دمشق، بعد ان شقت أمام نور الدين طريقاً معبدة

---

(١٧) نور الدين والصليبيون ص٦٠.

(١٨) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص ١٤٩.

(١٩) تاريخ العالم، المجلد الرابع، ص٧٥٥.



الامبراطور عمانوئيل كومنينوس وزوجته ماري الانطاكية

لتوسيع ملكه وتوطيد سلطانه. والحق ان نور الدين قد اعتبر نفسه بعد تلك الحملة، القائد المسؤول عن حماية البلاد الإسلامية، ورأى ان احتلال دمشق ضرورة لا بد منها لتحقيق هذه الغاية على وجهها الأكمل، مردداً في مجلسه قول أبي بكر: «أيها الناس لا يقعدن بكم عن درء المنكر ان يقول أحدكم: عليّ نفسي، فتكونوا كركب في سفينة خرقها أحدهم فلم يحجزوه فهلكوا جميعاً!..» وأدرك أنر أهداف نور الدين، كما أدرك الإفرنج الخطر الذي تنطوي عليه تلك الأهداف، فعاد التعاطف إلى سابق عهده بينهم وبين أنر، ثم بينهم وبين مؤيد الدين الرئيس[20] الذي خلفه بعد وفاته سنة ٥٤٤هـ ـ ١١٤٩م. وقد استغل نور الدين ذلك للطعن في مؤيد الدين وجماعته وتشويه سمعتهم أمام المواطنين وأمام الدماشقة أنفسهم. وأخذ يعمل على استثارة الهمم واستنهاض العزائم، منتدباً نفسه للدفاع عن حوران وهي من أعمال دمشق، ولانقاذ عسقلان وهي من أعمال مصر، معلناً أسفه لان الصليبيين يهاجمون هذه المدينة وهو لا يستطيع «الوصول إليهم ودفعهم عنها، بسبب توسط دمشق بينه وبينهم»[21] موجهاً إلى حكام دمشق أعنف اللوم والتأنيب:

«انني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان الفلاحين الذين أخذت أموالهم، وشتتت نساؤهم وأطفالهم بين الإفرنج، وعدم الناصر لهم، لا يسعني مع ما أعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجل، ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين[22]...».

وما لبث نور الدين أن أعلن عزمه على احتلال دمشق، إلا انه عاد فتخلى عن هدفه هذا

---

(٢٠) كان أهل الرأي قد اجتمعوا في منزل معين الدين أنر بعد وفاته ليتداولوا فيمن يخلفه، وقد انتهى رأيهم إلى أن يكون مؤيد الدين الصوفي خلفاً للأتابك الراحل، ومجير الدين أبق أميراً على دمشق.

(٢١) مفرج الكروب، ج ١، ص١٢٦.

(٢٢) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٦٠.

لينصرف إلى صد هجوم جوسلين على الرها. فعقد مع أبق صلحاً وافق صاحب دمشق بموجبه على إقامة الخطبة لنور الدين من منابر المدينة بعد السلطان وكتابة اسمه على السكة(٢٣). ثم انتقل إلى الرها ليدفع عنها جيوش جوسلين ويأسره (٥٤٥هـ ١١٥٠م) وعاد لفوره إلى دمشق مجدداً عزمه على احتلالها، ولكنه أراد إحراج صاحبها أمام الرأي العام الإسلامي فكتب إليه قائلاً: «أنا ما أوثر إلا صلاح المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فان ظهرتم معي في عسكر دمشق، وتعاضدنا على الجهاد، وجرى الأمر على الوفاق والسداد، فذلك غاية الإيثار والمراد»(٢٤).

ولم يجب مجير الدين أبق على كتاب نور الدين، ولكنه أرسل إلى ملك بيت المقدس يستنجد به، وكان بلدوين الثالث «بلدوين» بعد ان تحرر من وصاية أمه مليزاند(٢٥) قد عرض عليه العودة إلى الحلف القديم، ورأى أبق ان نور الدين أشد خطراً عليه لان ملك الإفرنج كان يتجه باطماعه إلى مصر. واتفق الحليفان على أن يخرجا بجيوشهما إلى بصرى في منطقة حوران، لاستدراج نور الدين إلى هناك وإبعاده عن دمشق. وكان نور الدين قد بعث بقسم من جنده إلى حوران لنجدة سرجال عامله في بصرى وقطع الطريق على الإفرنج إذا ما قصد جيشهم تلك الناحية. وجاء جيش الفرنجة لتلبية طلب صاحب دمشق ولتنفيذ خطته، ولكن جيش أبق لم يوافه إلى حيث دعاه. فاصطدم الصليبيون مرة بجند نور الدين ومرةً بجند سرجال، وهزموا في كلتا الموقعتين، فجمعوا فلولهم وعادوا إلى بيت المقدس خائبين ناقمين على صاحب دمشق.

وتقدمت جيوش نور الدين شطر دمشق حتى شارفتها دون أن يحرك أبق ساكناً، ولا ريب في انه كان على يقين بأنه أضعف من ان يقاوم خصمه، ولا سيما أن هذا الخصم كان

---

(٢٣) ذيل تاريخ دمشق ص٣٠٩.

(٢٤) المرجع السابق ص ٣١٢.

(٢٥) رفضت مليزاند ان تتنازل لابنها بلدوين الثالث عن العرش بالرغم من بلوغه سن الثانية والعشرين، ثم وافقت على ذلك بضغط من الرأي العام، إلا انها طلبت من بطريرك القدس ان تتوج مع ولدها دلالة على مشاطرتها له أعباء الملك، ودعا بعض أنصار الملك إلى ان تقتسم المملكة معه، إلا أن بلدوين رفض ذلك وأجل موعد تتويجه، ثم فاجأ البطريرك بدخوله إلى كنيسة القيامة منفرداً وطلب منه تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس، فاضطر البطريرك إلى تنفيذ طلبه، وانقسمت البلاد إثر ذلك بين مؤيد للملك الشاب ونصير لأمه مليزاند، واصطدم الفريقان في حرب أهلية انتهت بانتصار بلدوين وإقرار الصلح بين الفريقين.

قد ظفر بمكانة لا تضاهى في قلوب المسلمين ومنهم أبناء دمشق الذين أخذوا ينظرون إليه كبطل من أبطال الإسلام وولي من أولياء الله الصالحين ويتناقلون عنه رائع القصص والأساطير. وهكذا نرى أبق يسارع إلى عقد صلح مع نور الدين (٥٤٦هـ ١١٥١م) ويدخل نور الدين دمشق دون قتال، ويغدو أبق تابعاً له.

لقد خطا نور الدين بذلك الصلح الخطوة الأولى نحو ضم دمشق، قلب البلاد الإسلامية ومفتاح طرقها، وكانت الخطوة التالية انه أنشأ يكاتب أبق من حلب متظاهراً بانه يخصه بالحب والرعاية، موغراً صدره في الوقت نفسه على كل من توسم فيه التمسك باستقلال دمشق ومقاومة ضمها إلى مملكته، حتى قضى عليهم جميعاً. وحينئذ عاد نور الدين إلى قطع المؤونة عن دمشق حتى جاع الناس ونقموا على أبق، ثم بادر إلى محاصرتها متخذاً من اضطراب المدينة ذريعة لاحتلالها. وأدرك مجير الدين أبق الخطأ الذي ارتكبه حين وثق بنور الدين واطمأن إليه وقضى على خصومه في دمشق، فبادر إلى الاستغاثة مرة جديدة ببلدوين الثالث، متعهداً بأن يتخلى له عن بعلبك وبعض نواحي البقاع إن هو ردّ الخطر النوري عن دمشق.

لكن نور الدين لم ينتظر وصول الإفرنج، بل سارع إلى مهاجمة المدينة، وما لبث ان دخلها بمساعدة أنصار له في الداخل فتحوا له الباب الشرقي وباب توما، دون ان يضطر إلى إراقة الدماء. «ولما دخل نور الدين صاح أصحابه: «نور الدين يا منصور» وامتنع الأجناد والرعية عن القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه وعسفه للرعية ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره»[٢٦].

كان ذلك في ربيع الأول سنة ٥٤٩هـ ١١٥٤م ايار (مايو)، وقد استقبل نور الدين بالتهليل والتكبير ومنحه لقب الخليفة العباسي لقب الملك العادل. وخشي مجير الدين أبق على حياته فاعتصم بالقلعة، ثم فاوض نور الدين على الاستسلام له مقابل ان يقطعه مدينة حمص، فوعده بذلك، ولكنه ما لبث ان غادر بلاد الشام إلى بغداد وبقي فيها حتى مات سنة ٥٦٤هـ ١١٦٨م.

---

(٢٦) خطط الشام، ج٢، ص ٣١.

وهكذا «صفت الممالك بالشام لنور الدين»[27]، وحقق حلم أبيه عماد الدين زنكي، بل حقق إرادة الشعوب العربية والإسلامية التي عرفت النتائج الأليمة التي أدى إليها الخلاف والفرقة بعد تمزق الامبراطورية العباسية إلى عشرات الإمارات والدويلات. وأصبحت مملكته تمتد من دمشق إلى الرُّها، وتؤلف سداً منيعاً أمام عدوان الفرنجة، وبدأ في ملحمة الصراع بين الشرق والغرب تحوّل خطير، ويمكن القول ان سيرة نور الدين محمود كانت حداً فاصلاً بين مرحلتين من مراحل ذلك الصراع العنيف بالنسبة لأبناء الشرق: مرحلة التقهقر والتخاذل والاستسلام، ومرحلة القوة والعزيمة والثبات التي بدأت مع صعوده إلى ذرى المجد.

وقد أطرى الشعراء نور الدين وتغنوا بمآثره وأثنوا على شجاعته وبلائه، ومن قصائد العماد الأصفهاني فيه قوله:

عُقدت بنصرك راية الإيمان ... وبدت لعصرك آية الإحسان
يا غالب الغلب الملوك وصائد الصيد الليوث وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابها ... حزت الفخار على ذوي التيجان.
أحلى أمانيك الجهاد وإنه ... لك مؤذن أبداً بكل أمان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها ... قد سار في الآفاق والبلدان
قمّصت قومصهم رداءً من ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم ... بالذل في الأقياد والأشجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم ... وسحبتهم هوناً على الأذقان

على ان وجوه العظمة في شخصية نور الدين لم تقتصر على انه ظل عشرات السنين

(27) مفرج الكروب، ج ١، ص ١٢٨.

من حياته الحافلة مرابطاً للعدو ملازماً للجهاد، يأبى أن يستظل بجدار حتى يثأر لبلاده وقومه، فان مجده في السلم فاق مجده في الحرب، وكان مثال الحاكم العادل الذي يتحرى الحق والإنصاف، وقد أنشأ دار العدل في دمشق فصارت ملجأ المظلومين من أقاصي البلاد، وقرّب العلماء وأكرمهم وأحسن إليهم، وما تزال المدارس والمساجد والخانات والبيمارستانات التي بناها وأوقف لها الأموال قائمة في بلاد الشام حتى الآن.

الفصل السادس

الملك العادل والإمارات الصّليبية في المشرق

كان بين نور الدين وجوسلين الثاني الفارس الصليبي الشهير، عداء قديم لا تخبو ناره حتى تشتعل وتضطرم من جديد. فمنذ وفاة أبيه عماد الدين سنة ٥٤١هـ ١١٤٦م واقتسام مملكته بينه وبين أخيه، اعتقد جوسلين الذي كان ما يزال يحتفظ ببعض أعمال الرها، أن الفرصة سانحة لاستعادة هذه المدينة من أيدي المسلمين، فقام بمحاولة جريئة للاستيلاء عليها، لكن نور الدين نهد له من حلب واضطره إلى الفرار.

وانتظر جوسلين الثاني أربع سنوات، ثم انتهز فرصة اهتمام نور الدين بأمر دمشق سنة ٥٤٥هـ ١١٥٠م، ليهاجم الرها من جديد، مما دفع نور الدين إلى مصالحة أبق كما رأينا، والانطلاق إلى الرّها لصدّ عدوان جوسلين الثاني وأسره وساقه إلى حلب حيث ظل في الأسر تسع سنوات. وقد قال ابن القيسراني في ذلك قصيدة طويلة:

دعى ما ادعى مَنْ غرّه الأمر والنهى ... فما الملك إلا ما حباك به الأمر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها ... تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
ومن راهن الأقدار في صهوة العلى ... فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر

ومنها:

أتـى رأسـه ركـضـاً وغـودرشـلـوه   ولـيس سوى عـافـي الـنـسـور له قـبـر

وقـد كـان فـي اسـتـبـقـائـه لـك منـة   هي الفتك لو لم تغضب البيض والسمر

وتولت بياتريس زوجة جوسلين الثاني - بعد أسره - حكم ما تبقى من إمارة الرها، إلا أن نور الدين بادر إلى انتزاع عزاز وحارم منها، وكأنه أراد ان يقيم على طول الحدود حاميات تحول دون تقدم النجدات الصليبية إذا ما اشتبك مع بياتريس في حرب فاصلة لاستخلاص بقية الإمارة. وهرع بلدوين الثالث لنجدة بياتريس، ولكنه أدرك ان قواته أضعف من ان تنتصر على قوات نور الدين، فكتب إلى عمانوئيل الأول امبراطور بيزنطية يطلب مساعدته في نصرة الأميرة المهددة. ورحبت الدولة البيزنطية بهذا الطلب بغية ان تقوّي حدودها وتخومها «عساها تتمكن من القضاء على الصليبيين والمسلمين معاً في هذه المنطقة يوما ما»(١). وما لبث عمانوئيل الأول ان عرض على بياتريس التي هربت إلى تل باشر، ان تبيعه ما تبقى من إمارة الرها، وأغدق عليها ألوان الهدايا والوعود، فأثار هذا العرض جدلاً كبيراً بين قادة الصليبيين، إذ استنكر بعضهم بيع الإمارة الصليبية إلى العاهل الذي كان في اعتقادهم سبباً في إخفاق الحملة الصليبية الثانية، كما كان ابوه ألكسيوس كومنينوس مبعث قلق شديد ومصدر خوف دائم للحملة الصليبية الأولى. إلا أنهم لم يجدوا بداً آخر الأمر من إقناع الأميرة بالموافقة على بيع تل باشر وسميساط وروم قلعة والبيرة ودلوك وعنتاب وراوندان - بالاضافة إلى «حقوقها» في البقاع التي كانت تابعة لإمارة الرها واستولى المسلمون عليها، لامبراطور بيزنطية للتخلص من عبء الدفاع عنها(٢).

وكان الخصم الثاني لنور الدين ريموند دو بواتيه، أمير انطاكية، الذي شد ما حاول اقناع لويس السابع بتوجيه الحملة الصليبية الثانية إلى حلب بدلاً من ان تتجه إلى دمشق حيث اخفقت وهزمت. وقد اشتبك هذان الخصمان في القتال مرتين، فكان القتال سجالاً

---

(١) نور الدين والصليبيون ص٧٧.

(٢) كان الامبراطور البيزنطي قد اعتقد بأن شراءه تلك البقية الباقية من إمارة الرها سيتيح له التوسع في الأطراف الشرقية من مملكته، لكنه سرعان ما تم التحالف بين مسعود سلطان سلاجقة الروم، وزوج ابنته نور الدين محمود، وتمرتاش الارتقي صاحب ماردين، على اقتسام تلك المنطقة، فاستولى كل منهم على قسم منها، وذلك قبل مضي عام واحد على شرائها من قبل الامبراطور.


الرها
انطاكية
طرابلس
بيت المقدس

بينهما، ثم اشتبكا سنة ٥٤٤هـ ١١٤٩م في معرثة، وكانت قوات ريموند دو بواتيه قليلة العدد، فنصحه أحد الاسماعيليين [٣] بانتظار المدد قبل ان يلتحم مع نور الدين في قتال، إلا انه لم يعمل بهذه النصيحة ونازل قوات نور الدين اللجبة بقواته القليلة، فهُزم جنوده وقتل في المعركة بيد اسد الدين شيركوه[٤] وقتل معه رينو صاحب مرعش وكيسوم، وعلي بن وفا، الزعيم الاسماعيلي الذي كان يرافق الصليبيين في تلك المعركة[٥].

لقد حدث ذلك كله قبل ان يستولي نور الدين على دمشق سنة ٥٤٥هـ ١١٥٠م، أما بعد هذه السنة الفاصلة في مجرى التاريخ، فقد اشتد التنافس بين امبراطور بيزنطية وملك بيت المقدس على رعاية كونستانس ارملة ريموند دو بواتيه التي آلت إليها إمارة انطاكية، فبادر الأول إلى خطبتها لأمير من أقربائه، بينما عقد الثاني مجمعاً في طرابلس بحضور كونستانس ضم قادة الصليبيين لاستعراض أسماء الأشخاص الطامحين إلى الزواج منها، أما هي فقد رفضت جميع هؤلاء، كما اعتذرت من عمانوئيل الأول عن الزواج من قريبه، واختارت فارساً جميلاً هو رينو دو شاتيون (ارناط) الذي عقد له عليها سنة ٥٤٨هـ ١١٥٣م.

وحكمت كونستانس انطاكية باعتبارها وصية على ابنها بوهيمند الثالث، وكان زوجها رينو دو شاتيون يشاركها في الحكم، وقد أدت أعماله المعادية للدولة البيزنطية إلى غضب الامبراطور عمانوئيل الأول، ولا سيما حين تعرض لرجال الدين الارثوذكس في انطاكية وقبرص وأطراف آسية الصغرى في حملات متعددة قام بها ضد الممتلكات البيزنطية، وقد «أفاضت المراجع فيما فعله بأهل قبرص من قتل وتخريب، حتى انه جدع أنوف رجال الكنيسة وصلم آذانهم وقطع ألسنتهم إمعاناً في التشفي والانتقام»[٦]، فخرج الامبراطور سنة ٥٥٣هـ ١١٥٨م، لتأديبه في جيش لجب بعث الذعر في قلبي الزوجين الطائشين، فأرسلا يستنجدان ببلدوين الثالث، ولكن ملك بيت المقدس تردد في انجادهما، ولم يجد رينو دو شاتيون سبيلاً لإنقاذ نفسه من الأسر أو القتل فيما لو اشتبك مع الجيش البيزنطي

---

(٣) كان الاسماعيليون ينقمون على نور الدين انه أبطل من الاذان «حي على خير العمل» ومنع التظاهر بسبب الصحابة، ويتحينون الفرص للقضاء عليه (انظر النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٨٢).

(٤) هو عم صلاح الدين الأيوبي كما سيرى في الفصول الآتية.

(٥) Chroniques de Michel, TIII, p. 289

(٦) الحركة الصليبية، ج٢، ص ٦٥١.

في القتال سوى أن يعلن خضوعه لعاهل بيزنطية ويلتمس منه العفو والغفران، فخرج إلى المصيصة حيث عسكر الجيش البيزنطي، حافياً حاسر الرأس، وركع أمامه خاضعاً، وقبل يده مستغفراً، معلناً قبوله ان يكون تابعاً اقطاعياً للامبراطور، مبدياً استعداده لخلع البطريرك الكاثوليكي في انطاكية وتنصيب بطريرك ارثوذكسي[7] مكانه، ويضيف الدكتور أسد رستم ان رينو رضي بتسليم قلعة انطاكية للعاهل البيزنطي[8].

ويبدو ان هذا الاستسلام الصليبي أو بالأحرى الكاثوليكي أمام عاهل بيزنطية، أي أمام الارثوذكسية، الذي شهدته كما يقول وليم الصوري وفود عديدة بينها وفد من قبل نور الدين محمود وآخر من قبل الخليفة العباسي[9]، لم يرق لبلدوين الثالث، فشخص من بيت المقدس إلى المصيصة، ودخل فسطاط عمانوئيل الأول وهو ممتط جواده، فاستقبله عمانوئيل مرحبا، وبادره بلدوين بالدعوة إلى التكاتف مع الدولة البيزنطية والإمارات الصليبية في وجه نور الدين ومطامحه الخطرة.

إلا ان الامبراطور البيزنطي قد خيب آمال بلدوين والصليبيين جميعاً، إذ ما لبث أثناء إقامته في انطاكية محاطاً بكل مظاهر العظمة والمجد، ان عقد في جمادى الأولى سنة ٥٥٤هـ ـ ١١٥٩م، حلفاً مع نور الدين، وأرسل إليه الهدايا النفيسة من الجواهر والخيول وأثواب الحرير والديباج. وبالرغم من القوة التي يتمتع بها الملك العادل، فانه «آثر الصلح مع مانويل حتى لا يجعل مملكته بين عدوين»[10]، وبادر إلى اطلاق سراح ستة آلاف من أسرى الإفرنج[11]. أما عمانوئيل فكان «يجري على السياسة التقليدية التي رمت دائماً إلى توازن القوتين الإسلامية والصليبية في الشام، بحيث لا تطغى احداهما على الأخرى طغياناً يهدد مصالح الامبراطورية البيزنطية ومطامعها»[12]، ولا شك كما يقول الدكتور سعيد عاشور: «ان تجارب الامبراطورية البيزنطية مع الصليبيين علّمت اباطرة

---

(٧) شغل البطريرك الارثوذكسي اثناس الثاني كرسي انطاكية من سنة ١١٦٥ إلى سنة ١١٧١، وقد أغضب ذلك رجال الدين الكاثوليك وأثار فتنة وقلقاً لدى عامة الصليبيين استمرا طوال تلك الفترة ـ انظر Michel Le Syrien, pp. 326 - 332

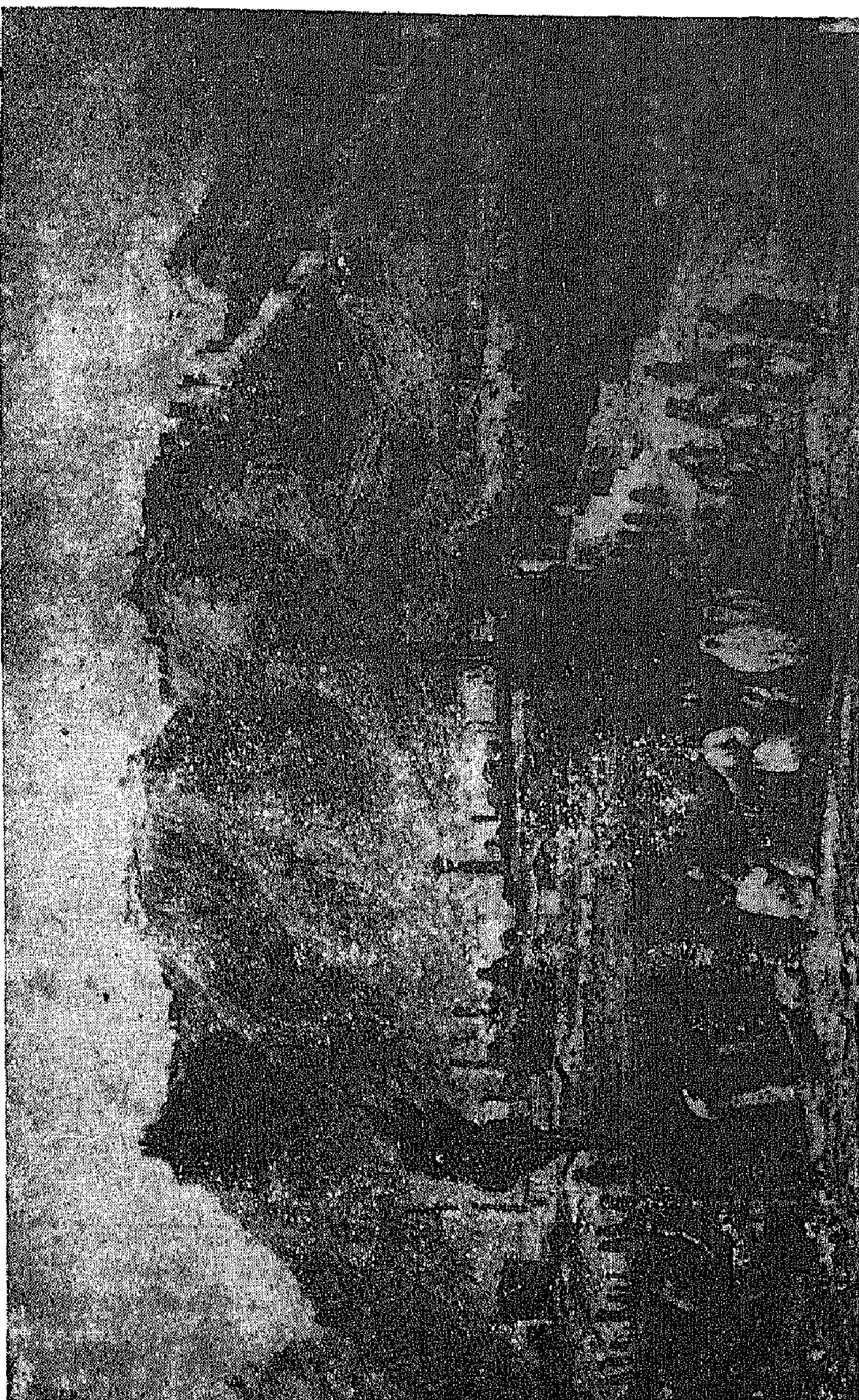
(٨) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص ١٥٢.

(٩) Guillaume de Tyr, p. 860

(١٠) نور الدين والصليبيون، ص٨٦.

(١١) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ١٥٣.

(١٢) نور الدين والصليبيون ص ٨٧.



انطاكية في عهد الحروب الصليبية عن لوحة قديمة

القسطنطينية أن الصليبيين عدو خطير للامبراطورية، وانهم لا يتجهون إليها إلا في أوقات الحاجة والشدة»[١٣]. ويرى شالاندون ان امبراطور الروم وجد نور الدين خير كابح لجماح اللاتينيين الذين كانوا يرغبون بالاعتراف بسلطانه حينما يتهددهم خطر من الشرق. وعلى هذا الأساس قرر الامبراطور عدم محاربة نور الدين. وعلى كل حال، فقد عقدت هدنة بين الفريقين، وأصبح نور الدين متحرراً من مشاغله فسار إلى مكة لأداء فريضة الحج التي كان ينوي القيام بها منذ سنوات[١٤].

يقول الدكتور حسن حبشي: «وقد كان معنى الاتفاق بين نور الدين ومانويل كومنين اطلاق يد المسلمين في الأعمال الصليبية ومكايدة صليبيي الشام، ولعل الاتفاق قد تم بينهما على ان يقوم سلطان حلب ودمشق بمراقبة شاتيون نيابة عن الامبراطور. ومن الدليل على ذلك انه حدث ان علم رينو بوجود عدد من الماشية والأغنام لبعض المسلمين في ما بين مرعش ودلوك من أعمال إمارة الرها، فقام في نوفمبر ١١٦٠م، وخرج في شرذمة ضئيلة للاستيلاء عليها، وقد تربص مجد الدين بن الداية عامل نور الدين على حلب لرينو في الطريق وهاجمه وأحاط به وبمن معه، واستطاع اخذه أسيراً حيث بقي في سجن حلب إلى سنة ١١٨٦م، أي إلى ما بعد موت نور الدين، دون أن يتحرك الامبراطور بحركة ما لانقاذ تابعه الاقطاعي، وهكذا أدت رعونة شاتيون إلى جلب الخطر على نفسه وعلى الإمارة المنكوبة به، إذ أوقع البلاد في يد الوصية، لا سيما وان ابنها بوهيمند الثالث لم يزل غلاماً حدثاً لا يستطيع ان يأخذ مقاليد الأمور في يديه أو يدبر شؤون الإمارة كما ينبغي. وعند ذلك خشي بلدوين الثالث ان يُقدم نور الدين على ضرب إمارة انطاكية والاستيلاء عليها بعد ان تمكن من أسر أميرها وإذلاله، كما انه خشي تدخل مانويل في أمورها بحجة تعيين من يقوم مقام شاتيون، ولذا ذهب بلدوين إلى بيت المقدس وجعل الوصاية في يدي البطريرك ايمري ليمجوس»[١٥].

ورأى الملك العادل ان مهاجمة انطاكية وقد غدت في حماية بلدوين الثالث، ستؤلب عليه القوى الافرنجية كلها، فتخلى عن ذلك منتظراً حتى توفي بلدوين الثالث واعتزم

---

(١٣) الحركة الصليبية، ج٢، ص ٦٧٦ استناداً إلى Runciman; Hist. of the Crusades, T2, p..355

(١٤) دراسات اسلامية، ص١١٦.

(١٥) نور الدين والصليبيون ص٨٧ ـ ٨٨.

الامارات الصليبية وما جاورها

شقيقه أموري الأول (املريك) الذي خلفه في الملك، القيام بحملة على مصر، وخرج في تلك الحملة على رأس جيش لجب، كي ينهض بدوره للجهاد في شمال سورية، بعد ان دعا سائر الأمراء لمؤازرته في تلك المهمة، واتجه سنة ٥٦٠هـ ١١٦٤م، بتلك القوات الكثيفة إلى حارم المؤدية إلى انطاكية، فسرى الذعر في القوات الإفرنجية بإمارة انطاكية والإمارات المحالفة لها، وتنادى قادتها إلى الدفاع عن انفسهم دفاع المستميت، وخرجوا للقاء نور الدين يتقدمهم بوهيمند الثالث، الأمير الشاب.

ولما بلغت أنباء الزحف النوري قسطنطين كولمان، حاكم قيليقية البيزنطي، اعتبر الهجوم على انطاكية اعتداء على الدولة البيزنطية التي اعترف رينو دو شاتيون بتابعيته لها، فسار إلى ملاقاة نور الدين في حارم، فانكفأ هذا الى ارتاح، وظن بوهيمند ان نور الدين قد تهيب منازلته فلحق به للقضاء عليه، ونصحه قواده بألا يفعل ذلك، لكنه أصر على مطاردة نور الدين ليهزمه ويسحق جيوشه، وإذا بالقوات الإسلامية ترتد عليه شمال شرقي حارم قرب بلدة عم، فتأسره وتأسر معه عامل بيزنطية على أرمينية وريموند الثالث، أمير طرابلس، وتنزل بالقوات الإفرنجية هزيمة منكرة، ثم تنقضّ على حارم فتستولي عليها وتصبح الطريق الى انطاكية ممهدة أمامها خالية من كل عائق.

ولكن على الرغم من ذلك، ومع ان أموري الأول كان ما يزال في مصر، فان الملك العادل لم يشأ متابعة الطريق إلى انطاكية لاحتلالها منتهزاً فقدان العائق وغياب العدو، لأنه كان على يقين بأن أموري لن يلبث حتى ينجد انطاكية، ولأنه كان يتجنب تحالف الصليبيين والبيزنطيين لقتاله، وقد التفت إلى من معه من الأمراء والقواد الذين كانوا يزينون له متابعة الزحف المظفر قائلاً: «أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة فمنيعة، وربما سلموها إلى ملك الروم، ومجاورة بيمند أحب إليّ من مجاورة صاحب قسطنطينية»[١٦].

والواقع أن أموري ما لبث ان عاد من مصر وشخص لفوره إلى انطاكية بعد ان ضم إليه قوات كونت فلاندرز أخي زوجته، وأخذ يراسل نور الدين بشأن الأسرى، فبادر الملك العادل إلى إطلاق سراح بوهيمند الثالث لأن بقاءه أميراً على انطاكية أخف وطأة من وصاية أموري على الإمارة. غير ان بوهيمند كان على يقين بأن نور الدين لم يوقف زحفه عند أبواب انطاكية، ولم يبادر إلى اطلاق سراح الأمير الشاب، إلا تجنباً لاغضاب امبراطور

(١٦) الكامل، ج ١١. ص ١٣٦.

بيزنطية، ورغبة في مهادنته وموادعته، بدليل ان رينو دو شاتيون الذي غاضب الامبراطور ظل يرسف في قيود الأسر. على ان الدكتور اسد رستم يذهب إلى أن عمانوئيل وليس أموري هو الذي تدخل لدى نور الدين لاطلاق سراح الأمير الشاب(١٧). ومهما يكن من أمر، فان بوهيمند الثالث ما كاد يستعيد حريته حتى نهد إلى القسطنطينية كي يعرب للعاهل عن شكره وخضوعه، ويربط مصير إمارته بالدولة البيزنطية، وقد ساعدت على ذلك العلاقة الودية التي نشأت بينه وبين الأميرة تيودورا ابنة أخي الامبراطور، وكان من نتائج هذا التقارب ان بوهيمند الثالث اسند الزعامة الدينية في انطاكية إلى البطريرك الارثوذكسي اثناس الثاني الرومي الملكاني، وان البطريرك الكاثوليكي ليمجوس غادر انطاكية غاضباً.

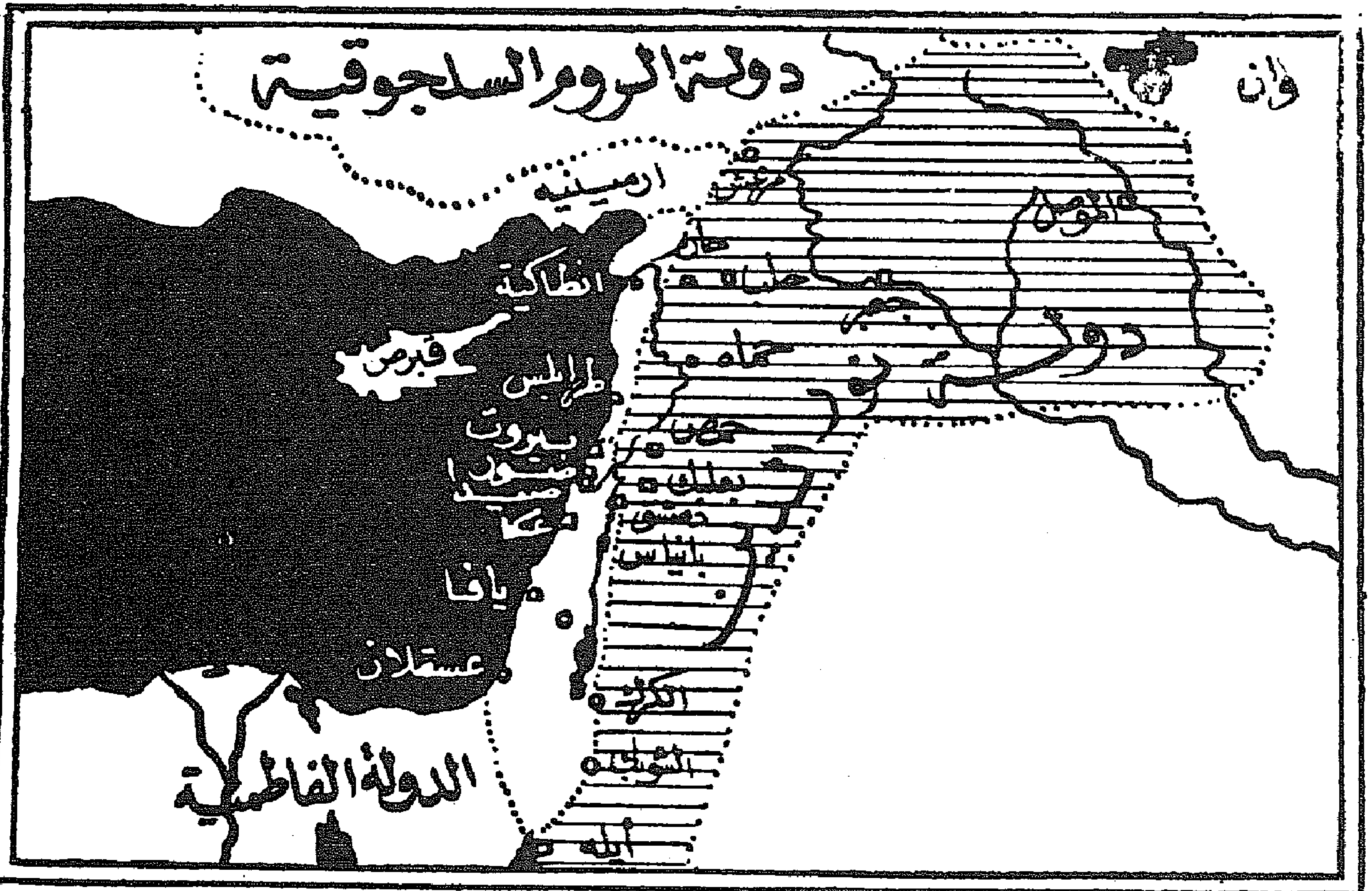
ذلك هو الموقف الذي اتخذه نور الدين من امارتي الرها وانطاكية، اما طرابلس فقد كان له مع أميرها حادث طريف رواه بروكلمان بقوله: «استشعر ريموند قومص (كونت) طرابلس، الخطر يتهدده من حصن عَريمة الذي في حوزة القومص برتراند دو تولوز، فاستعدى عليه كلاً من نور الدين ومعين الدين اللذين هرعا لنجدته، فدكت جيوشهما حصن عريمة دكاً، وحملت ريموند أسيراً إلى حلب»(١٨). ولعل نجدة نور الدين لأمير طرابلس وأسره لخصمه، هي التي اقامت بين الرجلين تلك الهدنة الطويلة. وقد قتل ريموند بأيدي جماعة من الباطنية الاسماعيلية وتولت زوجته هوديرن شؤون الإمارة من بعده باعتبارها وصية على ولدها ريموند الثاني الذي كان يوم مصرع والده في الحادية عشرة من عمره، ومن المؤرخين من يتهم هوديرن بأن لها يداً في مقتل زوجها(١٩).

بيد ان موقف الملك العادل من مملكة بيت المقدس كان يتميز بالدقة والحذر، لأنه يخشى إن هو ابتدرها بهجوم مباشر ان تتألب عليه القوات الصليبية والبيزنطية معاً، وان تجتاح الدول الأوروبية موجة حماسية جديدة تتجسد في حملة عدوانية ثالثة. وكانت أبرز مواقعه مع بلدوين الثالث، المعركة التي خاضها لاستخلاص حصن بانياس سنة ٥٥٢هـ ١١٥٧م، وكان في يد همفري (الهنفري) وهو من القلاع الاستراتيجية الحصينة، فزحف إليه وشدد الضغط على حاميته، فهرع بلدوين لنجدة صاحبه وانقذ الحصن من السقوط، إلا أن نور

(١٧) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص١٥٣.

(١٨) تاريخ الشعوب الاسلامية، ج٢، ص ٢٢١.

(١٩) Guillaume de Tyr, TI, pp. 789 _ 792، انظر ايضاً: الجنة في ظلال السيوف لجاماتي ص ٦٣ ـ ٧١.



دولة نور الدين وما جاورها

الدين ما لبث ان تصدى له وهو في طريق عودته إلى القدس فهزمه وأسر طائفة كبيرة من قادة جيشه وفرسانه المشهورين، وهرب بلدوين الى قلعة صفد واختبأ فيها عدة أيام ثم خلص منها إلى عكا فبيت المقدس، بينما جدد نور الدين هجومه على حصن بانياس، فتألبت عليه القوات الصليبية من كل مكان وردّته عنه.

وفي تلك السنة نفسها، تعرضت بلاد الشام لعدد من الزلازل، ونشبت فتنة طائفية أثارها الشيعة في حلب مطالبين «بإعادة رسمهم في الأذان: «حيّ على خير العمل، محمد وعلي خير البشر[٢٠]»، وساءت صحة نور الدين حتى حُمل إلى قلعة حلب على محفة وهو في حالة تدعو إلى القلق، وأوصى بأن يخلفه أخوه نصر الدين في حلب وبأن يكون أسد الدين شيركوه نائباً له في دمشق،[٢١]» وقد قلقت من جراء ذلك النفوس وجزعت القلوب واضطربت الأعمال، فحاول بلدوين الإفادة من هذا الوضع، وهاجم حصن شيزر بالتعاون مع أمراء انطاكية وطرابلس وقيليقية، ولم يكن هذا الحصن قد دخل بعد في طاعة نور الدين، فانتهز الملك العادل هذه الفرصة حين شفي من مرضه واستولى على الحصن وصدّ العدوان الصليبي عنه. وكان بلدوين يتوهم بان الاسماعيليين في تلك المنطقة سيناصرونه ويحاربون إلى جانبه لما بينهم وبين نور الدين من عداء مستحكم بسبب تعصبه لمذهبه السني، ولكنهم أخلفوا ظنه وقاوموا عدوانه مقاومة ضارية[٢٢].

ويروى انه لما بلغ نعي الملك بلدوين مسامع القادة المسلمين، وهم يعدون العدة لغارات جديدة، عقدوا مجلساً للمداولة في ما بينهم، وقالوا لنور الدين: «اننا نستعد لمهاجمة ميناء عسقلان التي هي من المملكة بمثابة الرئة من الجسد. فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف على المدينة، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانىء الأخرى ونحو بيت المقدس والحصون الجبلية، للاستيلاء عليها قبل ان تجف دموع الصليبيين، وقبل ان يصحوا من ذهولهم، فلنضربهم ضربة قاضية وهم في هذه الحالة من التضعضع والضعف. ان حزنهم وحدادهم حليفان لنا في هذه الحرب!». فلم يشاطرهم نور الدين الرأي، وقال لهم: «ان مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق، عمل لا يليق بي وبكم، بل يلحق

(٢٠) نور الدين والصليبيون ص ٩٧.

(٢١) كتاب الروضتين، ج ١، ص ١٠٩.

(٢٢) ذيل تاريخ دمشق ٣٤٩.

بنا جميعاً وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة. فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده مثخناً بالجراح! ان أعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن أنفسهم، وقد أحاط قوادهم بجثة مليكهم يبكونه ويترحمون عليه، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجم ونخرجهم من أرض نعدّها ملكاً لنا، ونرفع عليها أعلامنا. أما اليوم، فاني سأبعث إليهم بوفد من أبطالنا، لا للتحدي ولكن للتعزية!» وما لبث أن أرسل إلى القدس وفداً من خيرة فرسانه فقابل الملكة الأرملة[٢٣] معزياً إياها بوفاة العاهل الراحل، وقدم إليها رسول نور الدين عقداً ثميناً كان الامبراطور البيزنطي قد أرسله هدية لها فوقع في يد نور الدين مع غنائم أخرى فحزنت على ضياعه كثيراً، وأكد لها الرسول ان نور الدين لن يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً، ما دامت مملكة القدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائد، فتأثرت الملكة الحزينة لشهامة نور الدين وبعثت إليه مع رسوله منديلها الحريري مبللاً بدموعها اعترافاً بجميله ومروءته[٢٤].

أما النزاع بين نور الدين وأموري، خليفة بلدوين الثالث، فقد تجلى في تنافس العاهلين على مصر وتسابقهما إلى احتلالها، كما سنرى في فصل مقبل. ذلك ان احتلال أموري لعسقلان، واحتلال نور الدين لدمشق. فتح أمام كل منهما الطريق إلى القاهرة، فضلاً عن أن الخلافة الفاطمية كانت تمر بدور الاحتضار، وكان كل منهما يخشى ان يؤدي سقوطها إلى احتلال خصمه لمصر فيحاول ان يسبقه إليها.

وصفوة القول ان مهمة الملك العادل قد اقتصرت على توحيد الدويلات الإسلامية المتاخمة للصليبيين في مملكة قوية كبرى باتت تؤلف سداً منيعاً في وجه العدوان الفرنجي، وتقي الشرق العربي شر الحملات الأجنبية التي كانت تتدفق عليه كالسيل الهادر، إلا انها لم تتعد ذلك، برغم معاركه الجانبية الكثيرة مع الصليبيين، إلى مهاجمة الغزاة في الأراضي التي يحتلونها، والعمل على تحريرها من قبضتهم، تاركاً هذه المهمة المجيدة لبطل آخر كمل سيرة نور الدين وحقق ما عجز عنه.

ذلك البطل الذي تمخض به الشرق العربي، في تلك الفترة العصيبة من التاريخ، هو

---

(٢٣) هي الأميرة البيزنطية تيودورا وكانت قد زفت إلى بلدوين الثالث سنة ٥٥٣هـ ـ ١١٥٨م وهي في الثالثة عشرة من عمرها، وقد بلغت يوم وفاة زوجها سن السابعة عشرة.

(٢٤) الجنة في ظلال السيوف لحبيب جاماتي ص٧٥ ـ ٧٧.

صلاح الدين الأيوبي الذي نشأ في كنف نور الدين، فقبس من هديه، وتثقف في مدرسته، وما كاد يبلغ سن الشباب حتى لمع اسمه ونبه شأنه وأصبح رجل الشرق وبطل المسلمين.



الملكة تيودورا ورسول نور الدين

الجزء الثاني

عهد صَلاح الدِّين

● كان صلاح الدين الأيوبي أعظم رجال عصره، وفريد دهره شجاعة وبسالة وشهامة.

الامبراطور غليوم

● ولقد كان صلاح الدين شريف النفس، هماماً وشجاعاً، حليماً ورحيماً، وفياً وكريماً، طاهر القلب ناصع الحياة، وهو بحق مثال البطولة في الإسلام.

ستانلي لينبول

● كان صلاح الدين نبأ في الشرق العربي، وما زلنا نستعيد ذكرياتنا عن حروبه فنحسّ الفخر والعزة والشرف.

سلامة موسى

الفصل السابع

مولد في الشَدائد

في ليلة داجية من شتاء سنة ٥٣٢هـ ـ ١١٣٧م، وفي برية مقفرة ليس فيها أي أثر لإنسان أو حيوان أو نبات، كان يسري رجلان طويلا القامة شديدا البأس، يتبعهما بضع نساء وأطفال، ودابة هزيلة أبهظها ما تحمل من أثاث، واجهدها طول السرى في ذلك الطريق الوعر، يجرها شيخ بدين كأنه مثال للرضى والقناعة والصبر العجيب.

كان أحد هؤلاء الرجلين، وهو أطولهما قامة وأكبرهما سناً، يدعى نجم الدين أيوب، وأما الثاني، وهو أكثر امتلاء وأوفر قوة، فيدعى اسد الدين شيركوه، وكلاهما ولد شادي ابن مروان أحد زعماء الأكراد في دوين، وهي بلدة في أطراف أذربيجان من جهة إيران وبلاد الكرج على ما قال ابن خلّكان(١). وكانت الأقدار قد حملت هذا الزعيم من بلاده إلى

---

(١) وفيات الأعيان، ج٣، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١، ومن المؤرخين من يرجع بأسرة صلاح الدين إلى أصل عربي، لأن قبائل العرب كانت تنزل عند الأكراد وتتزوج منهم، وهم يذهبون إلى أن هذه الأسرة من نسل المروانيين فرع بني أمية، مستدلين على ذلك بأن صلاح الدين هو يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي (أو شاذي) بن مروان الكردي، وإن ربط هذه الأسرة بمروان الكردي لا يقصد به اتصالها بجد حقيقي عرف بهذا الإسم، أكثر مما يقصد به إلى أنها من سلالة مروان بن محمد آخر الأمويين الذين كانت أمه كردية (انظر: الناصر صلاح الدين الأيوبي للدكتور عبد المنعم ماجد، ص٤٤ ووفيات الأعيان، ج٣، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ والكامل، ج٤، ص٣٢٢ والخطط للمقريزي، ج٣، ص٣٧٨) ويقول ابن خلكان انه اطلع على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك هذه الأسرة فلم يجد لها جداً بعد شادي، أما المقريزي فيرى ان نسبة صلاح الدين إلى أصل عربي هو من أقوال الفقهاء الذين أرادوا التقرب منه والحظوة لديه، والذي نرجح أن أسرة صلاح الدين كردية الأصل وقد استعربت يوم نزلت إلى العراق كما استعرب كثير غيرها من الأسر الكردية والتركية والفارسية في مختلف أنحاء الوطن العربي.

بغداد، فرحب به حاكمها بهروز لصداقة قديمة بينهما، واقطعه قلعة تكريت القائمة بين بغداد والموصل، ولما مات عَهِدَ بالقلعة إلى ابنه نجم الدين وجعله حاكماً لها فظل على ذلك أعواماً طويلة.

ثم أخذ بهروز يتنكر لنجم الدين شيئاً فشيئاً، حتى بلغه أن أخاه أسد الدين شيركوه قد قتل احد الضباط لملاحاة جرت بينهما، وان المدينة ثائرة على الحاكم وأخيه، فأرسل إليه يأمره بتسليم القلعة إلى عامل آخر والخروج مع أهله من تكريت.

وكان نجم الدين قد ألف القلعة وصارت أشبه بوطن له، فعظم عليه الخروج منها شريداً طريداً، ناهيك بما في ذلك من خزي وعار. وبينما هو يطيل التفكير في أمره، ورسول بهروز لم يبارح مجلسه بعد، إذا برسول آخر يقبل من بيته ويبلغه ان زوجه تبشره بأنها قد وضعت غلاماً، وانها سمته كما اتفقا: يوسف صلاح الدين. فتشاءم الرجل من هذا الاتفاق، وتطيّر بالوليد الصغير، ثم ما لبث ان التفت إلى أخيه وقال له:

-إني خارج منذ الآن متستراً بجنح الظلام، كي لا اشمت بي الناس في وضح النهار.

ونهض فنهض أخوه، وسار فتبعه. وما هي إلا ساعة حتى كانا خارج القلعة مع نسائهما وأولادهما، وشيخ نصراني من بغداد كان يكتب لهما، وأخذوا يضربون على غير هدى في جوف الليل.

ظلت القافلة الصغيرة تتابع السرى حتى بلغت بقعة من الأرض لا يميزها وسط تلك القفار سوى عدد من أشجار النخيل. وكان الصبح يوشك ان يطلع، وقد مسح بيده عتمة الليل، فأخذت الأشياء يتميز بعضها عن بعض. فوقف نجم الدين يفكر، ووقف أخوه إلى جانبه منكس الرأس مثقل الضمير، لا يجرؤ ان يرفع إليه عيناً، لاعتقاده بانه سبب الكارثة التي حلت بأخيه، وإذا بالوليد الصغير ينفجر باكياً على يدي أمه، فازداد نجم الدين حنقاً وتطيراً، وهمّ في ثورة غضبه أن يبطش به، ليريح نفسه من عبئه ويريحه من حياة ليس من يدري أين تفضي بها هذه البداية المخوفة، فصرخت الأم باكية متوسلة، وهرع نحوه أخوه مهدئاً من روعه، وأمسك كاتبه النصراني بيده وهو يقول له بصوت متضرع شفيق:

- الا ناشدتك أن تستبقيه، فهو طفل ليس له ذنب ولا يعرف ما أنت فيه من كدر وغم، ولعل الله جاعل له شأناً.



مولد بطل في ليلة عابسة

فأجاب الأب الحانق: «وأي شأن عساه يكون له؟ ألا ترى بانه نذير شؤم وبؤس؟.. ألا ترى في أي يوم جاء؟.. فما عسى ينتظره من الحياة وما عساني انتظر منه؟»

فقال الشيخ: «رويدك يا نجم.. اشفق عليه وعلى نفسك، فلعل فيه الخير وانتم لا تعلمون!..».

وانه لحائر لا يدري أيتجه إلى يمين أم إلى يسار، وهل ينكفىء صوب الشمال أم يضرب في البادية نحو الجنوب، إذ أضاء في ظلمة حيرته ويأسه شعاع من أمل: لماذا لا يذهب إلى عماد الدين زنكي؟ لقد جاءه هذا الرجل منذ سنوات في ليلة تشبه هذه الليلة بجوها العاصف وظلمتها الداجية، وفي حالة تشبه حالته الآن بقلقها العنيف وحيرتها الطاغية، وكان قد سار بجيشه لمظاهرة السلطان مسعود على الخليفة المسترشد فانهزم في المعركة التي خاضها، وارتد راجعاً إلى الموصل، ومر في طريقه بتكريت، وهو وفلول جيشه المهزوم على حالة مروعة من اليأس والاعياء والجوع، فلاذوا بنجم الدين ووضعوا مصيرهم بين يديه، ان شاء أبقى على حياتهم وساعدهم على متابعة طريق العودة إلى بلدهم، وان شاء أسرهم وقضى عليهم، فآثر المكرمة والمعروف، وآواهم وموّنهم، ثم ساعدهم على اجتياز دجلة بما اعطاهم من قوارب وبما وفر لهم من سبل النجاة، بالرغم مما في ذلك من تحد للخليفة وتعرض للخطر[٢]. ولا ريب في أن عماد الدين يذكر له هذه اليد ويعرف له تلك الصنيعة[٣]، ويودّ لو يجزيه على جميله خير الجزاء. فلماذا لا يلجأ إليه وهو اليوم أحوج ما يكون إلى المعين والناصر.

وقد صدق ظن نجم الدين أيوب، فانه ما كاد يبلغ وأخوه الموصل حتى أحسن صاحبها عماد الدين زنكي وفادتهما، وأكرم مثواهما، وأقطعهما أرضاً يعيشان فيها.

وقابل الأخوان هذه المكرمة بما تستحقه من عرفان الجميل، فخدما في جيش عماد

---

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل، ج ١، ص٨.

(٣) عاد عماد الدين إلى مركزه في الموصل حينما قتل السلطان مسعود الخليفة المسترشد في ١٦ ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ ٢٨ آب (اغسطس) ١١٣٥م، وخلفه ابنه الراشد بالله. والراجح ان الباطنيين هم الذين اغتالوا المسترشد وهو أسير في معسكر مسعود (انظر مختصر تاريخ العرب ص٢٩٤ والنظم الإسلامية ص٩٨ والفخري ص ٢٧١).

الدين، وأخلصا له الخدمة، واحرزا انتصارات عديدة زادت في حبه لهما وتقديره اياهما، فلما سقطت بعلبك في يده سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) عهد بإدارتها إلى نجم الدين[٤].

وحين توفي عماد الدين زنكي، وآل ملكه إلى ولديه الأرشدين، هبت دمشق التي كانت في أيدي أسرة توغتكين، لاسترجاع بعلبك من ابنه نور الدين. وأدرك نجم الدين أيوب ان هذه المدينة لا بد من أن تسقط في أيدي الدمشقيين لضعف حاميتها، فسلمهم إياها مقابل تعهدهم باقطاعه عشر قرى في جوار دمشق[٥]. وما لبث ان رحل إلى هذه المدينة فأقام فيها والتحق بخدمة أبيك أكبر أولاد توغتكين. وما زال هذا يقربه منه ويجازيه على خدماته حتى جعله قائد قواد الشاد. بينا بقي أخوه اسد الدين شيركوه في خدمة نور الدين فكان سيفاً من سيوفه، ما عهد إليه بغزو إلا كان النصر على يديه، وأبدى من ضروب الإخلاص والشجاعة ما جعله قائداً لقوّاد حلب.

وكان مُلك نور الدين يتسع، ونفوذه يتعاظم، حتى طمع بضم الشام إلى إمارته ووجه إليها في أواخر سنة ٥٤٧هـ ١١٥٤م، جيشاً بقيادة شيركوه، وأقبل أسد الدين بجيشه اللجب فحاصر دمشق، ووقف أخوه نجم الدين أيوب على رأس جيش توغتكين مدافعاً عنها.

وحار الأخوان في ما يصنعان. وكانت تساور نجم الدين عواطف قوية متضاربة، فهو لا يريد ان يحارب أخاه ويخشى أن يصيبه من هذه الحرب سوء، ثم إن الجيش الذي يقوده أخوه هو جيش نور الدين بن عماد الدين زنكي الذي أحسن إليه لما هاجر من تكريت وأكرم مثواه، وهو إلى ذلك على يقين من أن جيش دمشق أضعف من أن يثبت في وجه الجيش المهاجم إلى النهاية.

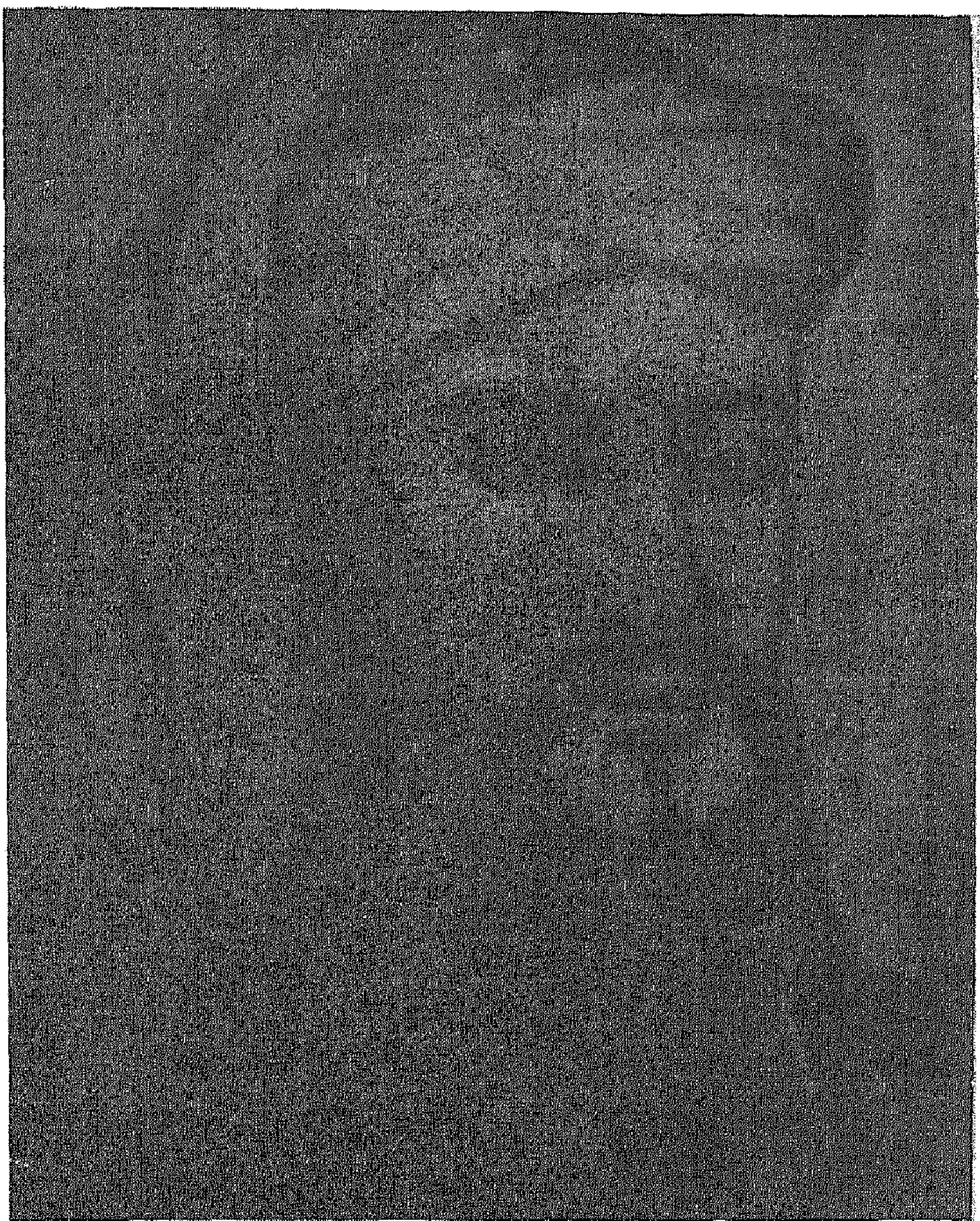
وما لبث ان عمد إلى مفاوضة أخيه على إبرام الصلح بينهما، واستمرت هذه المفاوضة ستة أيام انتهت بتسليم دمشق[٦] وانتقالها إلى يد أقوى أمير في سورية عهد ذاك. وعرف هذا الأمير لنجم الدين أيوب حسن مسعاه فعينه حاكماً لدمشق، وأدناه من مجلسه حتى أصبح من أخص المقربين إليه.

---

(٤) وفيات الأعيان، ج٣ ص٤٧٤، وخطط المقريزي، ج٣، ص٣٧٨.

(٥) الكامل، ج٩، ص١٦.

(٦) خطط المقريزي، ج٣، ص٣٧٨.



صلاح الدين في شبابه كما تخيله احد الفنانين

وحياة صلاح الدين في هذه الحقبة يحيط بها الغموض، لم تعرف تفاصيلها على وجه التدقيق. ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان خلالها شاباً ناسكاً بلغ من تقاه انه كان ينزوي في أركان المساجد وزوايا البيوت. والراجح انهم يبالغون في ذلك بعض الشيء، مدفوعين بالرغبة في التوفيق بين حياة صلاح الدين في مراحلها المختلفة، أو ليرفعوه فوق حياة الناس العادية.

وفي وسعنا ان نتخيل حياة صلاح الدين في هذه الحقبة فنراه يدرج في المغاني الفيحاء والبساتين المطردة بين بعلبك ودمشق، محاطاً بعناية موفورة، متمتعاً برغد العيش، ثم نراه يختلف إلى كتاتيب دمشق فيتلقّى العلوم والآداب المعروفة في ذلك العهد، ولا بد من أن نرافقه إلى فلواتها الفيح وسهولها الممتدة على تخوم البادية العربية حيث مَرِن على ركوب الخيل ولعب الكرة(٧) والقنص ومنازلة الأبطال وغير ذلك من أعمال الفروسية التي برع فيها؛ وربما شهدناه بين حين وآخر في مجلس من مجالس الأدب والظرف أو في حلقات الجامع الأموي يستمع إلى محاضرات عبدالله بن عصرون، فلا ريب في انه قد عرف هذا كله وخبره خبرة طويلة، وعرف كبار القادة والفرسان وعايشهم وتأثر بهم، كما تأثر بشخصية نور الدين الفذة التي افتتن بها كل من أحاط به وعرفه من الكبراء والشعراء وأهل العلم والرأي، حتى اكتملت له تلك الرجولة العارمة والشخصية الجليلة، وتوافرت له صفات الفروسية العربية من شجاعة وشهامة ونبل ومروءة أكثر مما توافرت لأي فارس من فرسان العرب والمسلمين.

أما ابن شداد الذي رافق صلاح الدين وكانت ترجمته له أوسع التراجم العربية القديمة، فهو يجمل حياته في هذه الحقبة بقوله: «واتفق لوالده الانتقال إلى الشام، ثم أعطى بعلبك وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه، حتى بدت منه إمارات السعادة ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، فقدمه الملك العادل نور الدين حمود بن زنكي رحمه الله تعالى، وعوّل عليه ونظر إليه وقدمه وخصصه، ولم يزل كلما تقدم قدماً تبدو منه أسباب تقضي تقديمه إلى ما هو أعلى منه»(٨).

---

(٧) يذهب الأستاذ جمال الدين الشيال إلى ان صلاح الدين كان أمهر اللاعبين بالكرة والصولجان بين جنود نور الدين وقواده، وان نور الدين كان يحب هذه اللعبة ويتقنها ولا يغلبه فيها إلا صلاح الدين، لذلك كثيراً ما كان يدعوه ليشاركه اللعب (انظر: مصر والشام بين دولتين ص٤٧).

(٨) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٥.

الفصل الثامن

صِراع على أرض الكنانة

كانت الخلافة الفاطمية المتهالكة في مصر تسير نحو الانهيار شأن الخلافة العباسية العجوز في العراق. وقد شاع الانحلال في الخلفاء لانغماسهم في المتارف، فاكتفوا بما يتمتعون به من رغد العيش، وتركوا حكم البلاد إلى خدمهم ومواليهم، فجعل هؤلاء الموالي يقبضون على أزمة الأمور ويستأثرون بها، حتى أصبح السلطان الحقيقي في أيديهم. وغدا الخليفة الفاطمي في القاهرة وهو على عرشه الباذخ، كزميله العباسي في بغداد، طيفاً من الوهم لا يملك من الوجود إلا لقب الخلافة:

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

وباتت الدولة من الضعف بحيث كان يسهل على أي مُغير فتحها والإستيلاء عليها من غير عناء. ولم يكن بقاؤها في أيدي الفاطميين إلا لفقدان الفاتحين الأقوياء في ما يجاورهم من البلدان، لأن السلاجقة كانوا قد ضعفوا هم أيضاً لانقسامهم وتفرقهم. أما الفرنجة في القدس، فكان الفاطميون يسدون أفواههم بالذهب فيدفعون به شرهم عن مصر.

على أن وادي النيل كان قد أصبح مطمح أنظار الفرنجة منذ استيلائهم على عسقلان التي كانت القاعدة التي تخرج منها القوات الفاطمية لغزو المواقع الصليبية القريبة في

جنوب فلسطين[1]، قبل أن تنحدر الخلافة الفاطمية إلى بؤرة من المؤامرات والانقلابات والدسائس لا يتورع الأب فيها عن قتل ابنه[2].

كما غدا مطمح أنظار نور الدين محمود الذي اتسع ملكه وقوي نفوذه بعد استيلائه على دمشق وانتصاره على الفرنجة في عدة معارك نشبت بينه وبينهم. وكان كل من نور الدين وحكام الفرنجة، يرى في الاستيلاء على مصر سبيلاً لترجيح كفته على الآخر في ميزان القوى والحروب في الشرق الأوسط، ويعدّ العدة لاقتحامها والظفر بها.

وكان طبيعياً ان يتنازع أمراء الدولة الفاطمية وقوادها على منصب الوزارة، وقد غدا المنصب الأول في الدولة، لما لصاحبه من نفوذ على الخليفة نفسه[3]. وكان هذا النزاع الداخلي يمزق مصر ويشتت قوى شعبها، والفرنجة على الحدود يزدادون كل يوم قوة وملكاً.

وقد شهدت سنة ٥٥٧هـ ١١٦٢م، صراعاً عنيفاً على هذا المنصب بين أميرين عنيدين، أولهما ابو شجاع شاور بن مجير السعدي الذي كان والياً على أعمال الصعيد، فخافه الخليفة لتعاظم نفوذه فأمر بعزله، فإذا به يجمع الجموع ويزحف إلى القاهرة فيحتل قصر العادل ويقتله، ويتولى الوزارة مكانه في ولاية العاضد الذي تولى الخلافة وهو لا يتجاوز التاسعة من عمره[4]، وكان يومذاك دون العشرين عاماً. وثانيهما أبو الأشبال ضرغام بن

---

(١) قام الفاطميون بعدة حملات برية وبحرية على المواقع الصليبية لعل أهمها تلك التي جرت في عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، قبل ان تمزق مصر الحروب الأهلية والمؤامرات الداخلية.

(٢) قتل الخليفة الفاطمي الحافظ ابنه حسين عندما علم انه يتآمر عليه فدس له السم ليتخلص منه: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٤٤-٢٤٥.

(٣) بدأ تسلط الوزراء الفاطميين في عهد الخليفة المستنصر بالله حين اشتدت الفتن وكثرت المجاعات - بعد فترة ازدهار امتد سلطان الفاطميين خلالها على بلاد الشام والموصل وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالي أفريقية - حتى تزعزع مركز الخلافة الفاطمية واوشكت على الزوال، فلجأ إلى واليه في عكا بدر الجمالي لانقاذ العرش المهدد، فأقبل بدر الى مصر سنة ٤٦٧هـ ١٠٧٤م، وقبض على زمام الأمور بيد من حديد، وغدا رئيس الدولة الفعلي أو ما عرف بوزير التفويض، وقد جاء في سجل تولية بدر: وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره (انظر: الخطط المقريزية، ج٢، ص٣٠٤، تاريخ الدولة الفاطمية ص١٦٩-٢٧٩).

(٤) تولى الفائز بنصر الله الخلافة وهو في سن الرابعة وحكم بين سنتي ٥٤٩ - ٥٥٥هـ ١١٥٤-١١٦٠م، والسبب في ذلك ان اختيار الخليفة الفاطمي لم يكن يتم بمبايعة الأمة الإسلامية، كما هي الحال في اختيار الخلفاء السنيين، ولكن بما عرف بالتنصيص أو النص، لأن الإمام هو الذي ينص على من يخلفه، وليس لهذا النص نظام معين، فقد يكون تحريرياً أو شفوياً أو حتى بالتلميح بالعطف، كما انه ليس ثمة شروط خاصة بعمر الإمام أو حالته الجسمية والنفسية كما في تقاليد السنّة، غير إرادة الإمام التي هي في اعتقادهم من إرادة الله (انظر فصل الإمامة في كتاب «نظم الفاطميين ورسومهم في مصر» للدكتور عبد المنعم ماجد).

سواد ويلقب بالمنصور، وقد أنشأ ينازع شاور فظهر أمره وعلت كلمته، حتى استولى على الوزارة، وأرغم شاور على الهرب، فانطلق من مصر إلى الشام يستنجد بنور الدين ويتعهد له بثلث خراج مصر(٥)، وبأن يكون نائبه فيها(٦) ويتصرف على أمره ونهيه واختياره(٧)، إن هو أنجده وأمده بجيش لاستعادة منصبه، بينما لجأ ضرغام إلى آموري الأول ملك الدولة اللاتينية في القدس، فعقد معه حلفاً، وطلب منه إرسال جيوشه إلى مصر، وكانت هذه الجيوش الإفرنجية قد اقبلت لافتتاحها منذ أمد يسير ثم ارتدت عنها لأن ضرغام قطع الجسور، وكان النيل مرتفعاً، فأغرق البلاد من ناحية بلبيس التي أقبلوا منها(٨).

إلا أن بعض المؤرخين ينزهون ضرغام من جريمة الاستغاثة بالفرنج، ويذهبون إلى أن الخليفة العاضد هو الذي أشار بذلك فأباه ضرغام، فلما لم يجد عنده ما يريد «رأى ان يستقل من ورائه بتدبير ما يراه، فعرض الأمر على دهاقين السياسة في القصر، ويقال لهم الاستاذون، وهؤلاء هم الذين يحفظون أسرار السياسة التي يجري عليها القصر منذ زمن قديم ويتوارثونها استاذاً عن استاذ، وهم دائماً موضع ثقة الخليفة، لا يقطع في أمر دون مشورتهم، ولا يتصرف في شأن من الشؤون العامة إلا بعد موافقتهم، وبفضل هؤلاء أطردت سياسة القصر منذ عهد الحاكم بأمر الله الذي كان أمة وحده، على سنن واحد لا يختلف إلا باختلاف الظروف والأحوال، على تعاقب الخلفاء الذين يجلسون على العرش، واختلافهم في الكفاية والسن، فقد كان بعضهم أطفالاً لم يبلغوا الحلم أو لم يصلوا إلى سن الرشد، وهذا العاضد نفسه كان عمره حين ولي الخلافة دون العاشرة ولم يزل حتى اليوم دون العشرين، فما كان في الامكان أن يبدي ما أبدى من الدهاء وبُعد النظر، وسعة الحيلة والبراعة في تدبير الأمور وإحكام الخطط، وفي التلاعب بأقدار الرجال ـ لو لم يكن هؤلاء الاستاذون من ورائه يبصرونه ويسددونه، وكان عنده ذكاء خارق فأعانه ذلك على ان يعي عنهم من أسرار السياسة المتوارثة في القصر ما جعله وهو فتى دون العشرين يتصرف تصرف الكهول بل يناطحهم دهاء وحكمة، وكأنما كان يشعر في أعماقه بقرب نهاية حكمه

---

(٥) الكامل، ج ١١، ص ١٣٣.

(٦) النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٦.

(٧) كتاب الروضتين، ج ١، ص ١٣٠.

(٨) Schlumberger; Les campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 38.

وحكم أسرته، فتجمع فيه ما تفرق من مواهب آبائه وأسلافه، كاللمعة الأخيرة قبل انطفاء السراج !...

وبعد ان انتهى العاضد من التشاور مع دهاقينه المحنكين، استقر رأيه على ان يكتب سراً إلى الفرنج ليمنعوا نور الدين عنه، ويكتب في الوقت نفسه إلى نور الدين يستنجد به ليخلص البلاد من بغي ضرغام وطغيانه»(٩).

وقد وجد طلب شاور هوى في نفس أسد الدين شيركوه قائد قواد الشام وعم صلاح الدين، وحثَّ مليكه نور الدين على نجدته، فقبل هذا بعد تردد يسير، وكان سبب تردده أن آموري كان شديد العداوة له ومملكته تفصل بين أملاك نور الدين ومصر، فخاف أول الأمر على جنده واتباعه لوعورة المسلك وبُعد المطلب. كما وجد آموري في تحالفه مع مصر سبباً قد يمهد له طريق الاستيلاء عليها(١٠).

وهكذا تسابقت جيوش نور الدين محمود وجيوش الفرنجة إلى أرض الكنانة، فكانت الأولى هي السابقة في الدخول إليها. وكان على رأس هذه الحملة أسد الدين شيركوه، وقد اصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين وكان يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً «وكان جيش أسد الدين أقل من جيش مصر عدداً وعدة، ولكنه أقوى روحاً وأشد إقداماً، كما كان يمتاز بشجاعة قواده»(١١) وقد أبدى هذا الجيش مهارة كبرى وبسالة عظيمة، فاستطاع دحر الجيوش المصرية في بلبيس والفسطاط ومحاصرة ضرغام في القاهرة ٥٦٠هـ ١١٦٤م(١٢).

---

(٩) سيرة شجاع لعلي أحمد باكثير، ص٤٧ ـ ٤٨.

(١٠) سبق لابن السلام وزير الخليفة الفاطمي الظافر (٥٤٤ ـ ٥٤٩هـ ١١٤٩ ـ ١١٥٤م)، أن أرسل أسامة بن منقذ في بعثة إلى الشام ليطلب من نور الدين العون في غزو مدينة طبرية، فيمنع بذلك غزو الصليبيين مصر، وفي تلك الأثناء يسير الوزير بنفسه إلى غزة وعسقلان، وعلى الرغم من أن نور الدين لم يستجب لتلك الدعوة أو أنه أرجأها ريثما يمكن لنفسه في سورية ويوطد مركزه فيها، فقد كان معنى هذا الرجاء كما يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن، تدخل نور الدين في شؤون مصر، أو على الأقل إفهامه أن مصر لم تعد قادرة على ان تقف وحدها في وجه الصليبيين، وذلك ما أتاح أخيراً الفرصة لنور الدين لغزو هذه البلاد (انظر: تاريخ الدولة الفاطمية ص١٨٢ وكتاب الإعتبار ص٧).

(١١) مصر والشام بين دولتين ص ٥١.

(١٢) كتاب الروضتين، ج ١، ص١٣٤ ـ ١٤٤، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٧٦.

وتختلف الروايات بشأن ضرغام، بعضها ينسب إليه الظلم والطغيان، وبعضها يبرئه من كل سوء، أما الاستاذ علي أحمد باكثير فيصف موقفه في حصار القاهرة بقوله:

«وقف العاضد في أول الأمر يتفرج كأن الأمر لا يعنيه، لقد اطمأن انه باق على العرش مهما تكن النتيجة، أليس قد كتب إلى نور الدين يستغيث به هو أيضاً من طغيان ضرغام؟ بل لعله الآن يميل إلى انتصار شاور لأنه لم يفقد الأمل فيه، كما فقده في ضرغام. هل بلغ شاور قط من الجرأة عليه بعض ما بلغه ضرغام؟ ولكنه لم يجاهر بميله إلى فريق شاور وأسد الدين، إلا حين أيقن ان الدائرة ستدور على ضرغام!

أما ضرغام فقد أحس انه يقاتل في المعركة وحده، فالقصر يكرهه ويضيق به، والناس يكرهونه لظنهم انه في صف القصر، وأسد الدين لم يستجب إلى ما دعاه (١٣) لأنه لا يثق بغير شاور، والجند قد انشقوا عليه كعادتهم حين يظهر في الميدان منافس جديد، فامتلأت نفسه يأساً وتنزى قلبه ألماً، ولكنه لم يجد بداً من المضي في القتال، فقاتل مستبسلاً وهو يرى جنوده يتفرقون عنه ويتسللون، ويرى الناس يلقون عليه وعلى رجاله الطوب والحجارة والماء الساخن من سطوح منازلهم، ثم اجترأوا عليه بعد ذلك وقد تفرق عنه رجاله جميعاً «فأدركوه في الحس الأعظم بين القاهرة والفسطاط، فأردوه عن فرسه(١٤)» ثم قتلوه وقطعوا رأسه وساروا به مهللين في شوارع القاهرة، وهم يصرخون: هذا جزاء الخائنين(١٥).

يقول لينبول: «وهكذا كانت النهاية المحزنة لذلك السيد الشجاع المقدام، والشاعر البطل الحسن الخَلق والخُلق، الكامل العقل، الجامع محاسن الرجال، الذي كان فارس عصره، وأحسن من نَبَل بالقوس في مصر»(١٦).

وتداعى بذلك حصار المدينة، فدخلها جند شيركوه، وجلس شاور على سرير الوزارة

---

(١٣) كان ضرغام قد فاوض اسد الدين على التحالف معاً لمحاربة الفرنج ولكن نور الدين كان قد وعد شاور بالمساعدة فلم يلق بالاً لرسائل ضرغام (انظر: مصر والشام بين دولتين، ص ٥١ وسيرة شجاع، ص٥٧ ـ ٥٩).

(١٤) سيرة شجاع ص٦٣.

(١٥) صلاح الدين تأليف الدكتور مصطفى الوكيل ص ٤١.

(١٦) تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٩١.

المصرية، وكتب له العاضد تفويضاً بذلك ذكر فيه أنه ما اختاره إلا لحنكته في السياسة والتدبير، ودعاه إلى المحافظة على الدعوة الفاطمية(١٧).

ولكن لم تكن الأمور تستقيم لهذا الوزير وتستتب، حتى انقلب على حلفائه ومغيثي لهفته وأصحاب الفضل عليه، فاحتال على أسد الدين شيركوه وجنده حتى جعلهم خارج القاهرة وأغلق أبوابها استعداداً للحصار، ثم امتنع عن تنفيذ الوعود التي قطعها لهم، وأرسل إلى شيركوه يطلب منه العودة إلى الشام، فشق ذلك على شيركوه وامتنع عن تلبية الطلب، وبادر إلى احتلال بلبيس حيث التفّ من حوله عرب كنانة. ومنْ المؤرخين من يذهب إلى انه قد تحصّن بهذه المدينة عملاً بنصيحة صلاح الدين الذي تجلت عبقريته العسكرية منذ تلك المعارك التي خاضها في مصر(١٨).

ولجأ شاور حينئذ إلى آموري ملك الفرنجة يستنجد به ويخوفه من نور الدين إن هو مَلك مصر، وضاعف الوعود التي قطعت له في عهد ضرغام(١٩)، فإذا بالنجدة الفرنجية التي كان زعيم الدولة اللاتينية قد أعدّها لمقاومة شاور تقبل لنصرته، وتحاصر شيركوه وجنده في بلبيس، بعد ان عقد آموري مؤتمراً في بيت المقدس استعرض فيه وجوه الرأي مع أمراء الصليبيين، فاتفقت كلمتهم على ضرورة المسارعة لنجدة شاور لما في امتداد النفوذ النوري إلى مصر من خطر على الوجود الفرنجي في المشرق. إلا أن آموري كان يستعجل شاور في الوقت نفسه دفع ما تعهد به من نفقات الحملة، فيتسلم منه في كل مرحلة يجتازها الف دينار حتى بلغ ما تسلمه سبعة وعشرين الفاً(٢٠).

واستعر القتال بين الفريقين، واستمر شهوراً ثلاثة، وشيركوه ممتنع في بلبيس يغادي الفرنجة القتال ويراوحهم حتى أعياهم دون ان يبلغوا منه غرضاً، «وذلك بفضل مؤازرة أهلها له في الكنانية، وبفضل صاحب رأيه صلاح الدين»(٢١).

---

(١٧) صبح الأعشى، ج١٠، ص ٣١٠ ـ ٣١٨.

(١٨) النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٧، وتاريخ العالم لهامرتن المجلد الخامس ص١٠٨.

(١٩) الكامل، ج١١، ص١٣٤.

(٢٠) كتاب الروضتين، ج١، ص١٢٥، ومفرج الكروب ج١، ص١٣٩.

(٢١) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي للدكتور نظير سعداوي، ص٨ نقلاً عن مخطوطة قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر لابن مخرمة.

وعبثاً حاول آموري اقتحام أسوار المدينة، بسهامه ومجانيقه أولاً، وبالترويع والتجويع أخيراً، فان المدينة قد صمدت ببسالة رائعة وتضامن أهلها مع جند الشام دفاعاً عن الوطن والدين، كما كان بعض الفدائيين المصريين يتسللون من القرى القريبة إلى خيام الفرنج فينزلون بهم خسائر فادحة في الأرواح والأموال ثم يهربون تحت ستار الليل، بعد أن هال الكثيرين موقف شاور وتركه أسد الدين «يقاتل الأعداء دفاعاً عن أرض مصرية، وأهل مصر واقفون يتفرجون[٢٢]». ثم اتفق الفريقان على الصلح بأن يتخلى كل منهما عن أرض مصر. وقد اضطر آموري إلى قبول الصلح والإسراع في العودة إلى بلاده، حين وافته الأنباء بان نور الدين ما كاد يعلم بالحصار الذي ضربه الفرنجة حول جنده في بلبيس حتى أخذ يغير على أطراف أملاكهم في بانياس وحارم والقدس غارات عنيفة مظفرة أسر في إحداها جميع أمراء الصليبيين الذين اشتركوا في المعركة، كما روينا في فصل سابق، وتعاظم هلع العاهل الصليبي حين أرسل نور الدين أعلام الفرنجة التي غنمها في تلك الغارات لتنشر على أسوار بلبيس[٢٣].

وغادرت جيوش الشام مصر في زهو واعتداد وتحد وكأنها تغادر المعركة وهي في أوج انتصارها. وقال ابن الأثير:

«حدثني من رأى أسد الدين شيركوه حين خرج من بلبيس قال: أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم، وبيده لب من حديد يحميهم، والمُسلمون والإفرنج ينظرون إليه. فأتاه إفرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر وقال له: «أما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والإفرنج، وقد احاطوا بك وبأصحابك، فلا تبقى لكم بقية؟»، فقال شيركوه: «ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما أفعله. كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني شجعانهم، فنملك بلادهم ونهلك من بقي. والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا!...»[٢٤].

عاد قائد نور الدين إلى دمشق، وعاد مليك الفرنجة إلى القدس، وظلت الأماني تجيش

---

(٢٢) سيرة شجاع ص١٣٨.

(٢٣) مفرج الكروب ص١٤٠، والخطط المقريزية ج٢، ص١٧٤.

(٢٤) الكامل، ج١١، ص١٣٦.

في قلب كل منهما، ولم ينقض وقت قصير حتى كان أسد الدين شيركوه يستعد لمهاجمة مصر بعد ان اقنع نور الدين بأنها بلاد بلا رجال تحميها[٢٥]، وان حكومتها قلقة على الدوام، وان تربتها من أخصب بقاع العالم، واتفق معه على محاربة مصر إنما هي جهاد ديني «فهو بفتحه إياها ـ كما يزعم ـ إنما يحارب عدوين للإسلام أحدهما الخلافة الفاطمية وثانيهما الصليبيون، وبذلك ينقذ الإسلام وهذا البلد ـ كما يدعي ـ من الفوضى السياسية وغيرها»[٢٦]، وقد أقر الخليفة العباسي في بغداد هذه الحملة لمحو الخلافة الفاطمية[٢٧]، وتوحيد البلاد تحت راية بني العباس.

ومرة أخرى استنجد شاور بآموري، وبادر ملك الفرنجة إلى الزحف على مصر على رأس جيش لجب، بغية طرد جيش نور الدين منها وتمكين أقدامه في هذه البلاد الجميلة الوافرة الثراء، بعد ان اتفق على ذلك مع اشراف الصليبيين.

سار شيركوه إلى البلاد المصرية بألفي فارس من خيرة رجال نور الدين ٥٦٢هـ ـ ١١٦٧م، واتخذ طريق الصحراء مؤثراً مجابهة رياحها المتناوحة ورمالها السوافي على انتهاج طريق الساحل والاصطدام فيها بجيش الملك آموري. بيد ان هذا الاصطدام لم يلبث ان وقع في مصر، بعد ان عقد ملك الفرنجة مع الخليفة الفاطمي العاضد، تلبية لطلب شاور، معاهدة تقضي بأن تدفع مصر خراجاً سنوياً للقدس وتكون تحت حمايتها. وقد طلب آموري من شاور ان يتعهد بدفع اربعمائة ألف دينار ثمناً لمجيئه في تلك الحملة، وأصرّ على أخذ نصف المبلغ مقدماً، فقبل شاور هذا الطلب مشترطاً ألا يغادر آموري أرض مصر قبل أن يؤدي المهمة التي جاء من أجلها.

---

(٢٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٢٩.

(٢٦) نور الدين والصليبيون ص١٠٩.

(٢٧) كان ظهور الخلافة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧هـ ٩٠٩م، على يد عبيد الله من سلالة فاطمة بنت الإمام علي، وقد تلقب بالمهدي وتسمى بأمير المؤمنين، وعرف خلفاء الفاطميين من بعده بالعبيديين نسبة إليه، واستولوا على مصر والشام ولم يستطيعوا الاستيلاء على بغداد للقضاء على الخلافة العباسية، فتحول العداء بينها وبينهم إلى صراع سياسي كان مسرحه في أكثر الأحيان بلاد الشام. وقد توالى على مصر من الفاطميين أحد عشر خليفة حكموا مائتي عام ونيفاً من سنة ٣٥٨ حتى ٥٦٧هـ (٩٦٨ ـ ١١٧١م)، أولهم المعز لدين الله وآخرهم العاضد لدين الله، وقد بنيت القاهرة في عهد المعز إثر افتتاح مصر على يد قائده جوهر، وقد أمر جوهر ببنائها لاستقبال المعز فيها ولتكون عاصمة للدولة الفاطمية، وكانت الفسطاط عاصمة مصر من قبل.

وقد وصف مؤرخو الفرنجة اللقاء التاريخي الذي تم بين الخليفة الفاطمي ورسولي ملك بيت المقدس على الشكل الطريف التالي:

«اختير هيو حاكم قيصرية وجوفري فارس المعبد رسولين من الملك آموري، وقد سار بهم الوزير بنفسه (شاور) وجعل يقتحم بهم كل رسوم الأوضاع السرية. فسار بهم في ممرات خفية وأبواب عليها حراس من أقوياء السودان، وكانوا يحيونهم بسيوفهم المجردة، حتى بلغوا صحناً فسيحاً لا سقف له إلا السماء وحوله اقبية قائمة على عمد من الرخام، وكان السقف المزخرف مرصعاً بالذهب مزيناً ببديع الألوان، وأما الأرض فكانت من الفسيفساء البديعة، وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين اللذين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال، فكانا يريان هنا فوارة من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التي ليس مثلها في بلاد الغرب، ثم يريان هناك أنواعاً من الحيوان لا مثيل لها إلاّ ان يصور ألوانها مصور بارع أو يخترع صورتها شاعر ماهر، أو يحلم بها حالم في عالم الخيال. وهكذا كانا يريان أشياء لا يريان مثلها في بلادهما إذ هي مما لا يوجد إلا في بلاد الشرق والجنوب.

وبعد سير طويل في تعاريج وتلافيف وصلا إلى مكان العرش، فأعلن قدومهما عدد عظيم من الحشم يلبسون حللاً بهية، ثم تقدم الوزير خالعاً سيفه وقبّل الأرض ثلاث مرات كأنما يسجد لله، ثم أعقب ذلك أن انكشفت الستائر الثقيلة فجأة وهي تلمع بما عليها من ذهب ولؤلؤ، ولاح من خلفهما الخليفة وعليه حلل وزينة تزري بما يتحلى به الملوك. فقدم إليه الوزير بخشوع الرسولين الفارسين، وبيّن بصوت منخفض ما كانت عليه البلاد من خطر، وما كان من شأن صداقة ملك بيت المقدس له. وكان الخليفة شاباً أسمر اللون قد خطا الخطوات الأولى خارجاً من عهد الصبا، فقال انه يرغب ان يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس، ولكنه تردد في أن يمد يده عندما طلب الرسول منه ان يمدّ يده دليلاً على صدق عهده، وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب، غير ان الخليفة مد يده بعد قليل إلى السير هيو، ولكن هذا وجد عليها قفازاً فقال: «مولاي ان الحق لا غطاء له، وان كل شيء مكشوف في عهود الأمراء» فتبسم الخليفة برغمه وخلع قفازه كارهاً، ثم مد يده إلى هيو وحلف اليمين على إنقاذ المعاهدة بصدق وإخلاص»(٢٨).

---

(٢٨) صلاح الدين الأيوبي تأليف محمد فريد أبو حديد، ص٦٨ ـ ٦٩ نقلاً عن ستانلي لينبول.

وما هي إلا أيام حتى ذاع نبأ وصول أسد الدين «ففرح الناس بهذا النبأ وإن اشفقوا ان تكون هذه النجدة من نور الدين قد وصلت متأخرة بعد ما تمكن الفرنج من العاصمة وتوثق التعاون بينهم وبين شاور»[٢٩].

عسكر جيش الشام في الجيزة بالقاهرة على الضفة اليسرى من النيل وعسكر جيش الفرنجة على الضفة اليمنى، بحيث كان كل منهما على مرأى البصر من عدوّه لا يفصلهما سوى الماء[٣٠] «وكأن هذا النهر العظيم باعتراضه بينهم، وفصله بين جند الحق وجند الباطل، قد أراد أن يُشهد الله ويشهد الناس ويشهد التاريخ إلى أي الفريقين انحاز شاور بجند مصر»[٣١].

ويبدو أن أسد الدين قد هالته كثرة جند العدو ووفرة استعداده، فاجتمع بقادة جيشه وتداول الأمر معهم، فأشار بعضهم بوجوب المبادرة بالرحيل إلى الشام، ولكن القادة المقربين منه هاجموا هذا الرأي وأصروا على وجوب القتال[٣٢]، ثم اجمعت الكلمة على ضرورة الصمود والاستماتة في مواجهة العدو فإما نصر مؤزر أو شهادة كريمة.

بيد أن أسد الدين أراد ان يبذل مسعى أخيراً لكسب شاور إلى جانبه، والحيلولة دون إراقة دماء المسلمين بأيدي المسلمين، فأرسل إليه كتاباً يدعوه إلى التعاون معه للقضاء على العدو الباغي، ومما جاء في هذا الكتاب:

«أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، انني لا أقيم ببلاد مصر، ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكن أحداً من التعرض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن العدو وقد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة، وخلاصُه عسر، وأريد منك ان نجتمع أنا وأنت عليه. وننتهز فيه الفرصة التي قد امكنت، والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته، وما أظن به يعود ويتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً»[٣٣].

---

(٢٩) سيرة شجاع، ص١٥٢.
(٣٠)نور الدين والصليبيون، ص ١٢١.
(٣١)سيرة شجاع، ص١٥٣.
(٣٢) الكامل، ج ١١، ص١٤٥ـ١٤٦.
(٣٣) كتاب الروضتين، ج ١، ص١٦٨.

القاهرة
في عهد الفاطميين

شمال

سور جوهر القائد ٩٧٠
,, بدر الجمالي ١٠٨٧

المقس
بستان كافور
القصر الشرقي الكبير
ميدان
باب الفتوح
باب النصر
حارة الريحانية
باب البرقية
باب زويلة
ضواحي القاهرة

مقياس الرسم ١ : ٦٢٥ و١٣

ولكن جواب شاور كان أشنع جواب يمكن ان يخطر على بال، إذ عمد إلى قتل الرسول الذي يحمل الكتاب وأبلغ الصليبيين ما جاء فيه، وأخذ ملك الفرنج وشاور «يستعدان للقاء اسد الدين، ويرتبان جنودهما، ويعدان العُدد، ويدبران الخطط، متعاونين متكافلين كأنهما فريق واحد»(٣٤)، فثار اسد الدين حينذاك وثار من معه من فرسان المسلمين، وقرروا خوض المعركة والاستماتة فيها، وعمد آموري إلى إقامة جسر ليعبر عليه وجنده، فاستعد لهم جيش الشام، ولكن حالت دون التحام الفريقين عاصفة هوجاء أرغمت الصليبيين على الالتجاء إلى إحدى الجزر، فانتهز شيركوه الفرصة ورحل بجيشه إلى الجنوب، ثم لحق به الجيشان الصليبي والفاطمي، والتحم الفريقان عند «البابين».

وقد عمد أسد الدين الى تقسيم جيشه الى يمنة ويسرة وقلب «وجعل الاثقال في القلب وعليه صلا ح الدين ابن أخيه، وأمره ان لا يصدقهم في القتال، بل يتظاهر بالانهزام حتى يعبر آموري فيتبعه. واما أسد الدين فقد اختار جماعة ممن يثق بصدق عزيمتهم وصبرهم في اللقاء، ووقف بينهم في الميمنة، والتحم الخصمان، وكر الصليبيون على قلب العسكر النوري، وصلاح الدين يتقهقر متظاهراً بالهزيمة، حتى قام أسد الدين بمهاجمة من تخلف من عسكر الصليبيين وشاور، وأسر العدد الجم، ففر الباقون على وجوههم، فكان هذا من «أعجب ما يؤرخ، ان ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل(٣٥)».

ولكن فلول الصليبيين عادت فاجتمعت بجند شاور، وانضمت إليها نجدة وفدت بقيادة جيران دو بوجي وكانت قد سبقتها نجدة بقيادة الهنفري صاحب شقيف تيرون وفيليب النابلسي، واحتشدت جميعاً في القاهرة استعداداً للقاء جند الشام، الا ان أسد الدين شيركوه انتقل بجيشه الى الاسكندرية بدلاً من تعقب الفلول المهزومة، ويقال ان أهل الاسكندرية نقموا على شاور استعانته بأعداء دينهم ووطنهم، فكاتبوا أسد الدين، وبعثوا اليه برسالة حملها رجل يدعى الأدريسي(٣٦) اتبعوها بخزانة من السلاح، فسار الى

---

(٣٤) سيرة شجاع، ص٩٥٣.
(٣٥) نور الدين والصليبيون ص١١٤.
(٣٦) كتاب الروضتين، ج ١، ص١٦٨.

الاسكندرية واحتلها وترك فيها ابن أخيه صلاح الدين في ألف فارس[٣٧] وعاد هو الى الصعيد ليشتت قوى اعدائه[٣٨] ويجمع المؤن والأموال، فانتهز الصليبيون وشاور هذه الفرصة وحاصروا الاسكندرية من البر والبحر[٣٩] وشاركهم في هذا الحصار اسطول بيزة وقراصنتها، فاشتد بذلك الضغط على سكان الاسكندرية، وخافوا من المجاعة، وأثرت فيهم دسائس شاور، فشعر صلاح الدين بالحرج ، فهو في قلة من الجند وكل ما في وسعه «ان يبث ما في نفسه من ثبات في قلوب من في المدينة من تجار وصنّاع وعامة، فكان حيناً يعدهم بقدوم شيركوه بالزاد والثروة، وحيناً يخيفهم من ايقاع الفرنج وقسوتهم، وحيناً يرغبهم في الصبر والثبات في سبيل نصر الدين[٤٠] » وقد كتب الى عمه يشرح له موقفه[٤١] فسار أسد الدين الى بركة الحبش وفي عزمه ان يحتل القاهرة ولكنه وجد نفسه امام مقاومة ضارية.

وقد بلغت آموري خلال ذلك أنباء الحملات التي يقوم بها نور الدين على حصن المنيطرة وحصن الأكراد وحصن العريمة وحصن هونين في سائر الانحاء التي يسودها الصليبيون، فساوره القلق على مملكته في القدس، كما بدأ جنوده الذين طال حصارهم للاسكندرية على غير طائل، يعلنون تذمرهم ورغبتهم في وضع حد لهذه الحرب المجهولة النتائج. «ولكن شاور كان يرى ان الفرصة مؤاتية، وان أسد الدين خطر عليه وعلى حياته فلا بد ان ينزل به وبجيشه هزيمة نكراء تودي به أو تردعه فلا يعود يفكر في مصر، فظل يماطل الفرنج ويراوغهم ويمدهم بالمال كسباً للوقت، ولكن الملل كان قد بلغ بهم منتهاه، كما كان الخوف على بلادهم من نور الدين يملك عليهم افئدتهم ويقضّ مضاجعهم فلا يحسون طعم الراحة في اقامتهم في مصر، فاضطر شاور ان يذعن، وسارت الرسل بين المعسكرين تعرض شروط الصلح وتتناولها بالتعديل والتبديل، حتى اتفق الفريقان أن يرحلا عن

---

(٣٧) من المؤرخين من يرى ان تسليم الاسكندرية إلى شيركوه راجع أيضاً إلى ان أهلها كانوا من السنّة الذين يكرهون التشيع وكان كل ثائر على الخلافة الفاطمية يلتجيء إليها (انظر: الناصر صلاح الدين الأيوبي للدكتور عبد المنعم ماجد ص٤٥ استناداً إلى السجلات المستنصرية).

(٣٨) الناصر صلاح الدين الأيوبي ص٥٤.

(٣٩) درر التيجان ص٣٦٧.

(٤٠) صلاح الدين الأيوبي تأليف محمد فريد أبو حديد ص ٧١.

(٤١) الكامل ج ١١، ص١٤٦.

مصر على أن يقدم شاور لأسد الدين جميع ما غرّمه في هذه الحملة وثلاثين الف دينار أخرى، وان يقدم ملك الفرنج لصلاح الدين السفن لتحمل الضعفاء من جنده عبر البحر الى الشام»[٤٢] وقد رفع الحصار عن القاهرة والاسكندرية في وقت واحد.

وغادر صلاح الدين مصر وقد تلقى فيها الكثير من الدروس والعبر، وخاض أولى المعارك الكبيرة التي قادها منفرداً وأظهر فيها ألواناً رائعة من المهارة والشجاعة كما عانى كثيراً من الأخطار والأهوال» وكان أعظم ما عاناه وبعثه على التأمل في ما صار إليه وضع الشعوب العربية والإسلامية يومذاك انه قد حاربه في الاسكندرية وهو يحميها من الفرنجة جند وزير يزعم انه عربي وانه مسلم وقد كان أولى به لو صح ذلك ان يناصره ويشد أزره في مقاومة المعتدين الغاصبين.

وقد كره صلاح الدين من أجل ذلك النزال والقتال، وقرر ألا يعود إلى مصر أبداً..

هذا ما قرره صلاح الدين وعزم أمره عليه، أما القدر فكان يُعد للبطل الشاب طريقاً مغايراً ومصيراً آخر.

(٤٢) مصر والشام بين دولتين ص: ١١ـ ١٠١، أنظر أيضاً التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ص١٢ـ١٣.

الفصل التاسع

فتح مصر

كان من شروط الصلح الذي عقد بين أسد الدين شيركوه وملك الفرنجة ان يكون أسد الدين هو البادىء بمغادرة الأراضي المصرية، فما كاد يغادرها حتى عقد آموري اتفاقاً خاصاً بينه وبين شاور يقضي ببقاء حامية صليبية في مصر، وأن تكون أبواب العاصمة في أيدي فرسان الفرنجة لتدرأ جيوش نور الدين إن هي عاودت الهجوم، كما اتفق الفريقان المصري والصليبي على أن يكون للصليبيين من دخل مصر مائة ألف دينار في كل عام(١).

ولكن سرعان ما تغير ما بين شاور وقادة الحامية الفرنجية في مصر «فمالوا عنه إلى العاضد منذ تردد شاور في الموافقة على ما طالب به ملكهم آموري قبل رحيله، ولم يرحل حتى رسم لهم سياسة التقرب إلى العاضد والاعتماد عليه، ومساعدته في المستقبل على إزاحة شاور عن كرسي الحكم ليجلس عليه من يرشحه العاضد لذلك، كما كان ديدنه من قبل»(٢)، وكان عدد أفراد الحامية مائتين وخمسين فارساً فازدادوا إلى ألف، وقد بذلوا كل جهد ولجأوا إلى كل وسيلة، لإشاعة البلبلة والفرقة في صفوف المصريين، وركزوا مساعيهم على التفريق «بين المسلمين وإخوانهم الأقباط، وإيثارهم بالمصالح والمنافع، وإيغار صدورهم على إخوانهم المسلمين، وتذكيرهم بأنهم وإياهم على دين واحد، وأن المسلمين جميعاً أعداؤهم، وأنهم قد جاءوا من بلادهم لانقاذ الأرض المقدسة من أيدي

---

(١) نور الدين والصليبيون، ص١٢٧ـ١١٨.

(٢) سيرة شجاع ص١٩١.

المسلمين ورفع لواء المسيحية في ربوع الشرق، فعليهم ان يكونوا إلباً واحداً على أعدائهم المسلمين. ولكنهم كانوا يُقابلون ممن اتصلوا بهم من الأقباط بالاعراض والازورار، وربما جادلهم بعضهم كما وقع من زكريا بن أبي المليح أحد وجهاء الأقباط وشعرائهم، إذ تصدى لهم يوماً، فلما حاوروه قال لهم: «نحن جميعاً مصريون، وهؤلاء إخواننا وبلادهم بلادنا، والدين لا يفرقنا إذ نحترم دينهم ويحترمون ديننا، وما أنتم بأحق منا منهم، حتى الدين لا يجمعنا وإياكم، فان مذهبكم يختلف عن مذهبنا، فليس يجمعنا بكم شيء»(٣).

وكان معنى ذلك كله ان الفرنجة قد احتلوا مصر احتلالاً جزئياً، تمهيداً لتحقيق مطامعهم في هذه البلاد الباذخة الغنى التي طالما تاقوا للاستيلاء عليها. وقد بدأ الفرسان الصليبيون المقيمون في القاهرة يكتبون إلى آموري يستحثونه على العودة، ويدعونه إلى الاستغاثة بملوك أوروبة لفتح مصر، ويهونون عليه أمرها لما في أيديهم منها، ولا سيما انهم قد تمكنوا «من معرفة مواقع الحصون والأماكن التي يمكن أن يغزوا البلاد المصرية منها»(٤).

إلا أن ملك بيت المقدس لم يشأ دعوة ملوك أوروبة لما يعرف من مطامع قادتهم إلى إنشاء إمارات خاصة بهم في الشرق، وآثر الاستعانة بعاهل القسطنطينية، ومهد لذلك بخطبة الأميرة ماري ابنة أخي الامبراطور في صور ٥٦٣هـ-١١٦٧م، وعلى أثر هذا الزواج اتفق الملكان في أيلول (سبتمبر) من تلك السنة، على توجيه حملة مشتركة من البيزنطيين والصليبيين لاحتلال مصر احتلالاً كاملاً، على ان تكون رئاسة الحملة لآموري وقيادتها العسكرية لقائد الجيش البيزنطي.

بيد إن هذا الاتفاق لم يرض الفرسان الصليبيين، لأنه يحمل إليهم شريكاً يقاسمهم خيرات مصر، فألحّوا على آموري بالشروع في الحملة منفرداً، وعقد قادة الجند مؤتمراً فلبّوا فيه وجوه الرأي، وشرح آموري مزايا الحملة على مصر ومضارها فقال ولعله أراد ان يعرف حقيقة ما يضمرون:

---

(٣) المرجع السابق ص١٩٣، وفي الصفحات ١٩٣ - ١٩٧ من هذا الكتاب أمثلة مروعة عن الأساليب التي لجأ إليها الفرنج لإثارة التعصب الديني بين المسلمين والأقباط، ومواقف رائعة من تضامن هؤلاء الاخوة في الحفاظ على وحدتهم أمام المعتدين الغاصبين.

(٤) صلاح الدين الأيوبي للدكتور جمال الدين الرمادي ص١٧.

ـ أيها الأمراء، الرأي عندي بعد ان سمعت أقوالكم أن لا نقصد مصر فهي طعمة لنا وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وان نحن قصدناها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا، ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين، ولئن أخذها نور الدين وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام.

وما كاد ينتهي من حديثه حتى علت أصوات القواد والأمراء تعارضه بشدة، وقال كبير الاسبتارية[٥]:

ـ أيها الملك، اننا لا نعبأ بمن في مصر من جنود، وسيكون لنا النصر عليهم، أما ما يرد إليك من مال مصر فهو قليل من كثير، ولأن تحوز الكثير خير من أن تحوز القليل، وإن أنت لم تسر لُمْلك مصر، فوالله لنسيرنّ نحن إليها قبل ان يقصدها أسد الدين مرة أخرى[٦].

فأعلن آموري حينئذ الموافقة على ما قرره فرسانه وأمراؤه، وسار في شهر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١١٦٨م ٥٦٤هـ، على رأس جيش ضخم، قاصداً أرض كنانة، بينما أعلن أنه زاحف على حمص ليشغل نور الدين عن التطلع إلى مصر.

وسرعان ما أدرك شاور ان آموري لم يعد إلى وادي النيل حليفاً وإنما عاد غازياً فاتحاً على أسوأ ما يكون الغزاة الفاتحون، وإنه قَدِمَ في عدة وعتاد لا قِبَل لمصر بهما. قال بيرانت وبالميرفي في كتابهما «القدس»: «سار فتيان القدس وما حولها من المدن واستولوا على بلبيس بعد مسيرة عشرة أيام في الصحراء، في طريق قد عرفوه من قبل، ولم يقاوم أهل

---

(٥) كان فرسان الصليبيين ينتمون إلى منطقتين كبيرتين: فرسان المستشفى وهم فرسان القديس حنا وقد سموا كذلك لانهم نظموا فرقتهم في بدء أمرهم بين رهبان مستشفى القديس حنا في القدس ويسميهم العرب: (الاسبتارية) وفرسان الهيكل وقد سموا كذلك لان بناء منظمتهم قد شيد حيث كان يقوم من قبل هيكل سليمان (ويسميهم العرب: الداوية) وقد أضاف فرسان القديس حنا إلى نذورهم الدينية نذور الفروسية، وأضاف الهيكليون إلى نذورهم العسكرية نذور الدين، فتوحدت بذلك الغايتان المتخالفتان في الظاهر: غاية الراهب وغاية الفارس. وكانت هاتان المنظمتان تملكان الحصون والاساطيل ولهما حق عقد المعاهدات وجباية الضرائب. (انظر: التاريخ العام لفيليب فان نس مير، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ والنجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢ والناصر صلاح الدين للدكتور ماجد، ص٢٩ والعلاقات بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية للدكتور النقاش، ص٣٥).

(٦) مصر والشام بين دولتين لجمال الدين الشيال، ص١٠٥.



فرسان الهيكل، عن لوحة قديمة

بلبيس إلا مقاومة ضعيفة استمرت ثلاثة أيام استولى الفرنج عليها، وذبحوا كل طفل وإمرأة ورجل وقع في قبضتهم»[٧]. وكان آموري قد طلب من طي بن شاور وهو في بلبيس أن يسمح له بدخولها فقال له: «أتحسب ان بلبيس جبنة تأكلها؟» فأجابه: «نعم هي جبنة والقاهرة زبدة!»[٨].

ثم أغار الإفرنج على الريف يقتلون وينهبون، لا يتركون شيئاً إلا استباحوه منتقمين متشفين «ومما ضاعف حقدهم وحنقهم أنهم وجدوا في هذه المرة مقاومة من الناس في كل مكان، فصاروا يقتلون كل من بلغته أيديهم: فلم يتركوا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال، وارتكبوا من الفظائع ما تقشعر له الأبدان وتنخلع له القلوب»[٩].

وقد اضطرب شاور لهذا الأمر اضطراباً عظيماً، وأرسل إلى آموري يسأله عن سبب حملته، فأجابه ان المال الذي تدفعه مصر قليل، فأنظره إلى أجل قريب: «وقرر مقاومته»[١٠]، وبادر إلى إحراق الفسطاط[١١] كي لا يحتلها الفرنجة، فظلت النيران متأججة فيها أربعة وخمسين يوماً[١٢]، ثم صارت تخبو بعد أن أصبحت رماداً.

وأخذ الوزير الطاغية يفكر في الاستنجاد بنور الدين، ولكنه لم يجرؤ على الكتابة إليه

---

(٧) حياة صلاح الدين الأيوبي للدكتور أحمد بيلي، ص ٩١، انظر ايضاً: الكامل، ج ١١، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٨) كتاب الروضتين، ج ١، ص ١٧٠.

(٩) سيرة شجاع ص ٢٠٢، انظر ايضاً: الفاطميون في مصر لحسن ابراهيم حسن ص ٣٠٥.

(١٠) الخطط المقريزية، ج ٢، ص ١٤٣، وذيل النوادر ص ٢٥١.

(١١) هي العاصمة القديمة التي أنشأها عمرو بن العاص لما فتح العرب مصر، ويرى معظم المؤرخين ان إحراق هذه المدينة التاريخية زلة لا تغتفر لشاور، وانه قد أقدم عليها إما نتيجة خطأ في التخطيط الحربي حين اعتقد بأن إحراق الفسطاط هو الخطة المثلى لصد عدوه، أو قصد القضاء على القوة الشعبية التي تركزت في الفسطاط خشية ان تغلبه على أمره في المستقبل أو تكون عوناً لجيش نور الدين عليه كما كانت من قبل، وقد عانى أبناء الفسطاط في هجرتهم إلى القاهرة وإقامتهم فيها ألواناً مروعة من الشقاء والهول، وقال المقريزي في وصفهم: «كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر لا يعبأ والد بولده ولا يلتفت أخ إلى أخيه (انظر: سيرة شجاع، ص ٢٠٨، مصر والشام بين دولتين، ص ١٣٥، الخطط المقريزية، ج ٣، ص ٣١٤) وقد سفه أسد الدين شيركوه رأي شاور في إحراق المدينة، وأخذ يساعد أهلها ويأسو جراحهم، ويعمل على تأمين المسكن والمؤونة لهم، ويدعوهم للعودة إلى الفسطاط وتعميرها (انظر: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ص ١٤).

(١٢) الكامل، ج ١١، ص ١٥١، وكتاب الروضتين، ج ١، ص ١٥٤ ـ ١٧٠.

بنفسه بعد ان مكر به وأخلف عهده له، وجرّأ الإفرنج على بلاده واستعداهم على قومه، واطلعهم على خفايا مصر وعوراتها. فكتب الخليفة الفاطمي إلى نور الدين كتاباً مؤثراً «سخّم أعلاه بالمداد الأسود»(١٣)، وأرسل معه شيئاً من شعور نسائه وقال فيه:

«هذه شعور نسائي يستغثن بك لتنقذهن من الإفرنج!...»

وما كادت إستغاثة العاضد تصل إلى نور الدين وهو في حلب، حتى بادر إلى إعداد حملة كبيرة من خيرة جنده لانقاذ مصر من المعتدين، وكان من الطبيعي ان يسند قيادتها إلى أسد الدين شيركوه وهو أمضى سيوفه وأشجع رجاله وبطل الحملتين السابقتين، وقد أعطاه مائتي ألف دينار، وزوده بالكثير من الثياب والدواب والأسلحة، وأعطى كل فارس معه عشرين ديناراً عدا الاعطيات المقررة له.

وأراد أسد الدين أن يصطحب معه في هذه الحملة ابن أخيه فأبى وهو غافل عن الدور الذي يُعدّه له القدر والمستقبل الذي يهيئه له التاريخ.

وروى ابن شداد ان صلاح الدين قال له: «كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة، وما خرجت مع عمي باختياري، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾»(١٤).

أما تاج الدين شاهنشاه بن أيوب فقد وصف هذا الموقف التاريخي على لسان صلاح الدين بقوله:

«أمرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه، وكان قد قال لي شيركوه بحضرته: «يا يوسف تجهز للمسير» فقلت «والله لو أعطيت ملك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية ما لا أنساه أبداً» فقال عمي لنور الدين: «لا بدَّ من سيره معي!» فأمرني نور الدين وأنا أستقيل. فقال نور الدين: «لا بد من مسيرك مع عمك!» فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، فكأنما كنت أساق إلى الموت!...»(١٥).

(١٣) مصر والشام بين دولتين، ص١٢٣.

(١٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٣١.

(١٥) ذيل النوادر ص ٢٦١، انظر أيضاً: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٥٠.

وبينما جيش الشام يغذ السير في طريقه إلى مصر، كان شاور يماطل آموري ويرسل له الرسل والكتب، ويفاوضه على مقادير من المال، وهو يطلب المزيد، فيعده بإجابة طلبه، ويبعث إليه بقسم منه مؤكداً له أنه جاد في جمع القسم الآخر، ويرسل جباته إلى أنحاء البلاد تجمع من الفلاحين المزيد من المال تحت لسع السياط، وآموري مستسلم لتلك الوعود وما تثيره في نفسه من الأحلام، فلا يجيب قواده وجنوده إلى ما يريدون من الإسراع في الهجوم على القاهرة، بل يزحف إليها متباطئاً منتظراً لأنه يريد الاستيلاء على كنوز مصر من أهون سبيل، ثم يقف في ضواحيها فلا يتقدم ولا يهاجم ولا يحاصر لأن شاور قد انذره بأنه إن فعل ذلك كفّ الناس عن دفع المال، ولا يدري انه قد وضع نفسه بذلك حيث أراد شاور ان يكون، ليضعه بين نارين فيطوّقه إذ تصل جيوش نور الدين ويقضي عليه.

وكان آموري يتوهم ان فتح مصر لن يقتضيه جهداً كبيراً، ولكنه فوجيء بتلك المقاومة الضارية التي كان من بعض مظاهرها إحراق المدن والقرى لئلا تسقط في يده فينتفع بخيراتها ويمتنع فيها. وكان يعتقد بأن جيش الشام لن يصل إلى أرض الكنانة إلا وقد استتب الأمر له فيها، فيتسنى له طرد هذا الجيش منها بأيسر السبل، فإذا بأسد الدين يصل إلى القاهرة في ٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ ٨ كانون الثاني (يناير) ١١٦٩م، «وعدته ثمانية آلاف رجل[١٦]»، فتفتح له أبوابها مهللة مرحبة، وهو ما يزال ينظر إليها من وراء الحصون نظر المتلهف اليائس!..

وأدرك ملك بيت المقدس خطر مواقعه بعد وصول ذلك الجيش الذي كثر جمعاً وتكامل قوة، فبدأ بمغادرة الأراضي المصرية وهو يلوم نفسه على هذه المغامرة التي افقدته مصر إلى الأبد بعد أن غدت أو كادت تغدو محمية تابعة له.

وإذا كان آموري لم ينتظر حتى يقع في الفخ الذي نصب له، بل سارع إلى مغادرة مصر منذ دخلها جيش الشام ورأى شاور يتنكر له، فانه قد خسر مصر على كل حال، وخسرها إلى الأبد، وألحقت به هزيمته العار أمام جنده وقواده وحلفائه، لأن طمعه الذي حمله على تلك الحملة الجنونية وعلى سوء التصرف فيها، هو الذي أفضى به إلى تلك النهاية الخاسرة التي افقدتهم صداقة مصر ونقلت هذه البلاد إلى حكم قوي جديد.

---

(١٦) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، ص١٣.

ويذهب غليوم الصوري المؤرخ الصليبي الشهير إلى أن هذا الحادث كان المعول الأول الذي هدم حكم الفرنجة في القدس ويعلق على ذلك بقوله: «إيه أيها الجشع الإنساني والشره الآدمي!.. قد كانت كنوز مصر كلها تحت أقدامنا، وكانت أسباب الأمان والسلامة والهدوء متوفرة لأولئك الذين يفدون علينا من أوروبة عن طريق البحر، وكان باب التجارة مفتوحاً لمن يرغبون في ثروة مصر، ولم يكن لنا عدو في جهاتنا الجنوبية بل كان المصريون دائبين على جلب بضائعهم وخيرات بلادهم إلى أسواقنا وإنفاق ذهبهم في بلادنا. على ان هذا كله قد ذهب وضاع، بل تبدل وتغير، فحل الحزن والشقاء محل السرور والنعمة، وأصبح البحر يأبى علينا ملاحة مطمئنة، وصارت البلاد التي تحيط بنا تطيع عدونا، وتسلحت كل مملكة لحربنا وتدميرنا، وجميع هذه النتائج المحزنة السيئة إنما جاءت من وراء جشع رجل واحد وطمع فرد من أفرادنا»(١٧).

لقد شاء القدر أن يدفع بالعاهل الصليبي إلى تلك المغامرة الحمقاء، لتكون فاتحة عهد جديد في تاريخ ذلك الصراع العنيف، ينجز فيه نور الدين رسالة الوحدة بين بلدان الشرق العربي، ويسلمها إلى بطل جديد ينتقل ببلاد العرب والإسلام من طور الدفاع إلى طور التحرير.

ولقد حاول شاور ان يعرقل تلك المسيرة المجيدة بدسائسه ومؤامراته حين رأى الشعب المصري يستقبل أجناد الشام استقبال المنقذين، والخليفة الفاطمي يقرب أسد الدين ويلاطفه وينعم عليه، والناس ينقطعون عن ديوانه ليغص بهم ديوان الأمير الجديد الذي جعل ينتزع شيئاً فشيئاً كل مظاهر الحكم والسلطان، وحين لم يعد يسمع في كل مكان سوى تلك الدعوى التي يرى أصحابها أنه خير لمصر أن يملكها العرب والمسلمون بدلاً من أن تقع في أيدي الفرنج، فهي خير مهد لقوة عظيمة يعتز بها العرب والإسلام. ولكن القدر كان لشاور بالمرصاد، وبعث ولداً من صلبه لفضح تلك الدسائس وإحباط هاتيك المؤامرات.

فقد أراد أن يفتك بأسد الدين وقادة الجيش النوري، خلال مأدبة يعدها لهم، فيتخلص

---

(١٧) Guillaume de Tyr. pp. 953 _ 960



اموري الاول ملك بيت المقدس

بذلك منهم[18]، ويغدو جند الشام تحت إمرته، لكن ولده الكامل شجاع وقف في وجهه مهدداً وقال له:

- «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن شيركوه!»

فقال أبوه: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلنّ جميعاً..»

فقال: «صدقت، ولئن نُقتل ونحن مسلمون، والبلاد إسلامية، خير من ان نُقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عَوْدهم إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه.. وحينئذ لو مشى العاضد بنفسه إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً، ويملك الفرنج البلاد، وتزول دولة الإسلام!..»

ثم قال: «لأن يكون لنا أمير مسلم خير من أن يكون لنا صديق إفرنجي، فإن هذا لا يلبث أن يصير عدواً، أما ذاك فلا يكون إلا صديقاً حميماً ومخلصاً أميناً وفياً»[19].

ويبدو أن أسد الدين قد عرف ما يبيّته له الوزير المخادع، فسبقه إلى تدبير مكيدة قضت عليه، إذ جاء يوماً لزيارة أسد الدين في معسكره بأرض اللوق، كعادته في مداهنته والتودد إليه، فقيل له انه قد غادره إلى ضريح الإمام الشافعي، فلحق به إلى هناك والطبول والأبواق تسبق موكبه الضخم، وإذا بصلاح الدين وعز الدين جرديك يخرجان إليه ويقبضان عليه ويسوقانه إلى حيث ينتظر أسد الدين.

ويقال إن أسد الدين لم يكن يرغب في قتل شاور، وإنه أنهى صلاح الدين وعز الدين عن ذلك، ولكنه اضطر بعد تورطهما في اعتقاله إلى الموافقة على خطتهما[20]، فأبلغا الخليفة بما صنعا، فأمر بأن يقطع رأسه. ثم تابع الرسل خشية أن يتردد القابضون عليه في قتله، فقُتل وجيء برأسه إليه[21]. فملئت نفسه فرحاً، وأحس كأن كابوساً كان يجثم

---

(18) وفيات الأعيان، ج٢، ص١٧٤.

(19) الكامل، ج١١، ص١٥٢؛ وكتاب الروضتين، ج١ ص١٥٦ - ١٥٧.

(20) الكامل، ج١١، ص١٦١.

(21) صلاح الدين للدكتور مصطفى الوكيل، ص٥٣.

على صدره فرفع عنه، وشاع الخبر بين أهل القاهرة وعامة الشعب فخرجوا جماعات وتجمهروا فرحين، يحمدون الله أن نجاهم من شر ذلك الرجل وظلمه(٢٢).

إلا أن معظم المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد بان مصرع شاور إنما تم بموافقة أسد الدين ونور الدين نفسه، بعد أن عرض الخليفة العاضد على شيركوه التخلص من الوزير المستبد فهو لا يثق به ولا يطمئن إليه، فوجوده بلاء وشر على البلد وأهله، ومن الخير أن يقضى عليه، على أن يستوزر الخليفة أسد الدين مكانه(٢٣).

وقد اعتبر نور الدين خروج الصليبيين من مصر فتحاً جديداً للبلد بعد فتح عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب، ومنعة لسائر بلاد الشام، وحمد الله على أن هذا الفتح قد تمَّ في عهده وعلى يده(٢٤)، وأرسل ابن عصرون ليحمل هذه البشرى إلى الخليفة العباسي، فابتهجت بغداد مثلما ابتهجت دمشق، وطغت عليهما موجة صاخبة من الفرح والأمل، كما ابتهجت القاهرة لهذا التلاقي بين الأشقاء المتباعدين.

أما أسد الدين فقد رحب به الخليفة العاضد بعد مصرع شاور، وقلده الوزارة، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش. وقد جاء في وثيقة التولية:

«هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجلّ المنصور سلطان الجيوش وليّ الأئمة مجير الأمة، الأمير أبي الحارث أسد الدين شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلام عليك فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين، وسلّم تسليماً، تقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى نبوة النبوة، واتخذه للفوز سبيلاً».

وقد انتقل أسد الدين إلى قصر شاور في دار الوزارة، وأطلق يده في شؤون مصر،

(٢٢) مصر والشام بين دولتين، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢٣) الكامل، ج ١١، ص ١٥٢ ـ ١٥٤؛ وكتاب الروضتين، ج ١، ص ١٧١؛ ومصر والشام بين دولتين ص ١٥٩.

(٢٤) أتابكة الموصل ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

فأقطع جنوده الاقطاعات الواسعة، وعين على البلاد من الولاة من يثق بهم من أصحابه والمقربين إليه(٢٥)، وتمت له بذلك السيطرة على مصر دون عناء.

إلا أن هذا المجد الذي دان له لم يستمر سوى شهرين وخمسة أيام، إذ ما لبث أن توفي في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ-٢٣ آذار ١١٦٩م، وخلفه في منصب الوزارة يوسف صلاح الدين ابن أخيه ومساعده الأول وهو في سن الثانية والثلاثين.

(٢٥) كتاب الروضتين، ج١، ص١٧٤-١٧٥.

الفصل العاشر

سقوط الدولة الفاطمية

اذا كانت الأحداث هي التي صاغت حياة صلاح الدين في طفولته وشبابه، ودفعت به إلى معترك النضال في مصر وهو كاره لذلك، ومهدت له السبيل إلى بلوغ منصب الوزارة في الدولة الفاطمية، وهو المنصب الخطير الذي رفعه الى ذرى المجد، وأوضح أمامه معالم الطريق، ووضعه على قدم المساواة والمنافسة مع الخليفة العاضد في القاهرة والملك العادل في دمشق، فإن الأحداث التي تلت ذلك، في غمرة صعاب من فوقها صعاب، إنما كانت من صنع يديه ونسج عبقريته، بقدر ما يستطيع الرجل الفذّ أن يُسهم في صنع الأحداث إذا عرف طبيعتها، وسبر غورها، وخبر وجوه الخير والشر فيها، فأخذ لكل أمر عدّته، وأعدّ لكل موقف أهبته، واستطاع ان يسلك في دروب الحياة المتشابكة المتشعبة المسلك الذي يتلاءم وحاجات الناس ويتفق مع سير التاريخ.

وقد طمع معظم مقدمي الجيش الشامي في مصر، بأن يخلفوا أسد الدين شيركوه في منصب الوزارة، وهم أترابه وأقرانه الذين لا يقلون عنه معرفة في شؤون الإدارة وخبرة في أمور الحرب، وكلهم أشد اعتداداً بنفسه من صلاح الدين، وأكثر أعواناً وأنصاراً منه، ومع ذلك فان الخليفة العاضد لم يختر شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين، أو قطب الدين ينال المعروف بالقوة والصلف، أو عين الدولة الباروقي وهو أكثر القادة طمعاً في المنصب الشاغر، وإنما اختار القائد الشاب دون غيره، لاعتقاده بأنه أصغرهم سناً وأضعفهم شأناً، فهو يستطيع أن يصطنعه لنفسه ويوحي إليه برأيه، وقد قام في وهمه ان الفرصة قد سنحت له لاسترداد سلطانه المفقود ومجده المسلوب، والعودة بالخلافة الفاطمية إلى سابق عزها وازدهارها.



الخليفة العاضد على صهوة جواده في موكبه وبجانبه حامل المظلة

يقول ابن الأثير: «وكان الذي حمل العاضد على اختياره، ما كان يظنه فيه من الضعف لقلة رجاله وضعف عسكره، فظن أنه إذا ولاه يكون مستضعفاً ولا يجسر على مخالفته»[1]، على ان بين المؤرخين من يعتقد بأنه لم يكن بين أمراء نور الدين من هو أقوى شخصية من صلاح الدين، وأن العاضد قد أُلزم بتوليته، ولعل هؤلاء المؤرخين يعنون بذلك المساعي التي بذلها في هذا الشأن كل من عيسى الهكاري الفقيه الذي جمع قلوب الجند من حوله وأرضى عنه الطامعين فيه والمزاحمين له، وبهاء الدين قراقوش الذي كان قد عين في آخر أيام أسد الدين استاذاً في القصر. ولكن المتفق عليه أن صلاح الدين لم يسع لمنصب الوزارة بل هناك من يؤكد انه قد تعفف عنه[2]، وإن كان ثمة من يرى ان تمنّعه لم يكن إلا أمراً ظاهراً وقد يكون الغرض منه أن يزيد العاضد ثقة واطمئناناً حتى إذا استوى على الأمر نفذ خطته واصلاحه الذي صمم عليه[3].

وقد ألبسه العاضد حلة الوزارة في حفل كبير، وهي جميعها بيضاء شعار الفاطميين، وتتكوّن من عمامة لها طرف (ذؤابة) زي امراء مصر (القواد) وثوب مطرز بالذهب ـ لعله درّاعة وهي ثوب قصير مشقوق من أمامه ومحلى بعرى وأزرار ـ وجبة بطراز من الذهب، وعقد جوهر من زي وزراء مصر، ورداء يلقى على الكتف (طيلسان) زي القضاة الفاطميين[4]. ثم عاد في موكبه وأفراد الشعب يتبارون في إعلان فرحهم وسرورهم، وقد انتشروا جماعات يغنون ويرقصون ويلعبون، وهو ينثر عليهم الدراهم والدنانير ليزيدهم فرحاً ويدخل السرور على قلوبهم بعد أن ران عليها الحزن، وطال بهم الضنك أياماً وسنين[5].

وكانت العادة قد جرت بأن يُطلق على الوزير لقب كبير يُعرف به، فسمي الوزير الجديد «الملك الناصر أو المظفر صلاح الدنيا والدين ويوسف بن أيوب» ولكن غلب عليه اسم السلطان دون ان يتلقب به[6]، والسلطان هو لقب أمثاله من القادة في بلاد الشام. وفي صبح الأعشى أن العاضد كتب اليه في طغراء العهد بالوزارة: «هذا عهد أمير المؤمنين اليك،

---

(١) الكامل ج ١١، ص٤٥ ١، وأتابكة الموصل ص٢٥٥.
(٢) مفرج الكروب، ج ١، ص١٦٩.
(٣) أيام صلاح الدين ص٧٨.
(٤) الناصر صلاح الدين الأيوبي، ص٦٠.
(٥) مصر والشام بين دولتين، ص١٩٢.
(٦) الناصر صلاح الدين الايوبي ص ٦٠

وحجته عند الله عليك، فأوفِ بعهدك، وخذ كتاب امير المؤمنين بيمينك. ولمن مضى بجدنا رسول الله ﷺ أحسن إسوة، ولمن بقي بقربنا أعظم سلوة، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، ولاعاقبة للمتقين»(٧).

تولى الوزير الشاب ذلك المنصب الذي تحيط به الفتن ويتطلع إليه كل أمير على شيء من القوة والبأس، على انه عبء ينهض به ورسالة يؤديها وليس متعة ولهواً، وقد رأى بحكمته المشرقة وخلقه الرفيع، ان خير ما يثبّت به دعائم حكمه العدلُ بين الناس فعاملهم بما عرف به من كريم السجايا ونبيل الصفات، وكان له من كرمه كما يقول ابن شداد، ما أكسبه قلوبهم وما جعل الناس من كل الأرجاء يسارعون إلى طاعته، ولم يخيب رجاء قاصد له، وبذلك نجح في اكتساب محبة الشعب له(٨)، ولم يتعرض لمن اعتنق المذهب الشيعي في عهد الفاطميين وقد استمر نحواً من قرنين، واكتفى بذكر اسم نور الدين زنكي على المنابر بعد اسم العاضد، موازناً بحكمته وكياسته بين المجاهد السني والخليفة الفاطمي.

على ان احترام عقائد الناس شيعيين كانوا أم سنيين، ومسيحيين أم مسلمين، كان نزعة أصيلة في نفسه، وسجية رفيعة من سجاياه، فعرفت الطوائف المختلفة في عهده أقصى الحرية، وأحبه الأقباط محبة شديدة، حتى ليذهب أحمد زكي باشا إلى انهم قد وضعوا صورته في كنائسهم(٩)، ويستشهد على ذلك بأدلة كثيرة منها ان الشاعر عبد المنعم الاندلسي زار مصر في ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين فنظم قصيدة طويلة في هذا المعنى منها هذا البيت:

فحطوا بأرجاء الهياكل صورة   لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم

وقد رفع الملك الناصر المظالم عن المصريين، وخفف أعباء الضرائب التي كانت ترهقهم، وأصدر بهذا الصدد مرسوماً قرىء على المنابر دلالة واضحة على الشدة التي كان يستعملها الولاة في جباية المكوس، ومما جاء فيه قوله: «وخرج أمرنا بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم (المقس) والمنية،

---

(٧) صبح الأعشى، ج ١٠، ص٣٠٨.

(٨) النوادر السلطانية، ص٣٢.

(٩) مجلة رعمسيس، السنة الخامسة، العدد التاسع.

بأبواب المكوس، صادرها وواردها. فيرد التاجر ويسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارض ويتجر، براً وبحراً، مركباً وظهراً، سراً وجهراً، لا يُحل ما شده، ولا يحاول ما عنده، ولا يُكشف ما ستَره، ولا يُسأل عما أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه، ولا يؤخذ منه طعمة، ولا يستباح له حرمة».

وقد اكتسبت هذه السيرة السمحة العادلة صلاح الدين محبة الشعب وايثارهم إياه، ولكنها لم تصرف عنه كيد الأمراء الموتورين والقواد الطامعين الذين ما فتئوا منذ اللحظة الأولى يتآمرون على حياته، كل منهم يريد أن يقصيه عن كرسي الحكم ليحل محله فيه. وما لبث مؤتمن الخلافة جناح كبير الخصيان السود[10]، أن خرج بفكرة التخلص منه إلى حيز العمل، فكتب إلى الفرنجة بالزحف إلى مصر، ووعدهم بأنهم ان وصلوا وخرج صلاح الدين إليهم، قام بجموعه فضربه من خلف، بينا تناجزه جيوشهم وجهاً لوجه، وفي هذا القضاء الحتم[11].

وقد وضع مؤتمن الخلافة هذا الكتاب داخل حذاء جديد وأعطاه إلى أحد رجاله لينطلق به إلى مملكة الفرنجة، فاشتبه رجل من اتباع صلاح الدين بأمر الرسول لما كان عليه من هيئة رثة وثياب بالية وهو ينتعل خفين جديدين ثمينين، ففحص الحذاء ووجد الرسالة وسلمها إلى صلاح الدين، فتجاهل الأمر ولبث يتحين الفرص للإيقاع بخصمه، حتى خرج يوماً إلى قصر له خارج القاهرة فأرسل إليه من قتله.

فهاج السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً[12]، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه. فهب صلاح الدين يردّهم عن قصره بجيش يترأسه أخوه شمس الدولة تورانشاه، واجتمع الجيشان في الميدان بين القصرين، ودارت رحى الحرب بينهما يومين كاملين. وكان الخليفة العاضد يشرف على الجيشين من إحدى مناظر القصر وهو موزع القلب والعواطف، لا يدري إلى أيّ الفريقين يميل، ولمن منهما يتمنى

(١٠) ورد في بعض المصادر ان اسمه «جوهر» وفي ذلك يقول المقريزي ان فتح مصر للفاطميين كان على يد جوهر وخراب الفاطميين كان بسبب جوهر (الخطط، ج٣، ص٤).

(١١) يشك بعض المؤرخين في المؤامرة التي نسبت إلى جناح ويرى ان صلاح الدين إنما تذرع بهذه التهمة للتخلص من خصومه (انظر: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص٦٨).

(١٢) كثر السودانيون في الجيش الفاطمي في عهد الخليفة المستنصر لأن أمه كانت نوبية (انظر: الخطط المقريزية، ج٣ ص٣ ـ ٤ و٢٩ وفصل الجيش في نظم الفاطميين).

النصر، وكلاهما قذى في عينيه وشجى في حلقه، ولم يلبث أن رأى السهام والحجارة تترامى وتندفع من نوافذ القصر، فاضطرب وخشي ان يثير هذا العداء جنود صلاح الدين، وقد تحقق ظنه فان شمس الدولة تورانشاه أثاره الغضب وأسرع فأمر أحد الزراقين بإحراق منظرة العاضد، وهمّ الرجل بتنفيذ أمر قائده، وإذا بالأمير شمس الخلافة يخرج من القصر ويقول: «أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب فاقتلوهم او اخرجوهم من البلد!» وكان السودانيون يهاجمون في شدة وحماسة إذ كانوا يعتقدون، بعد أن رأوا السهام والحجارة تلقى من القصر، ان الخليفة يؤيدهم ويشد أزرهم، فلما سمعوا هذا القول فت في اعضادهم، وتخاذلوا وأدبروا، وانتهت المعركة بهزيمتهم، وطارد تورانشاه من بقي منهم إلى الصعيد(١٣)، فظل الوجه القبلي من مصر ست سنوات مسرحاً لفتن متواصلة يدبرها أعداء صلاح الدين من أمراء الفاطميين ويذهب ضحيتها السودانيون الناقمون عليه.

وعيّن الملك الناصر مؤتمناً للخلافة جديداً من اتباعه هو بهاء الدين قراقوش(١٤)، وكان خصياً أبيض اللون قد اعتقه عمه أسد الدين، فسيطر بذلك على حاشية القصر التي كانت تؤلف فرقة كبيرة ذات نفوذ قوي في شؤون الدولة لم يُعرف لها مثيل في قصر إسلامي من قبل، إذ يقول المقريزي ان عددها عند سقوط دولة الفاطميين بلغ ثمانية عشر ألفاً(١٥)، وهي تتكون كما يقول الدكتور عبد المنعم ماجد من موظفين من كل نوع ولون ودين، يقومون بأعمال القصر المختلفة، وان تميّزت بينهم طبقة من العبيد البيض والسود على السواء، أغلبها من أصل أجنبي من الصقالبة الأوروبيين أو السودانيين، خصيان وغير خصيان، يُعرفون بالاستاذين جمع استاذ، وهي كلمة من أصل فارسي تعني عبيد القصر. وقد كان يُشرف على هذا الجهاز الضخم في القصر رؤساء لهم يُعرفون بالاستاذين المحنكين، لتمييزهم عن غيرهم بزي الحنك، وهو ان يمر طرف العمامة تحت

---

(١٣) الخطط المقريزية، ج٣، ص٣ وما بعدها؛ وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٥ـ١٧٧؛ الكامل، ج١١، ص ١٣٩ ـ ١٤٠؛ مفرج الكروب، ج١، ص١٧٦ـ١٧٧؛ مصر والشام بين دولتين ص٢٠٧ـ٢٠٨.

(١٤) يخلط بعض المؤرخين بين بهاء الدين قراقوش هذا وشرف الدين قراقوش الذي خدم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وكانت حياته سلسلة مغامرات وقلاقل ومؤامرات ومذابح ألقت في قلوب الناس الهلع الذي لا تزال ذكراه باقية إلى اليوم (انظر: تاريخ الدولة الفاطمية ص٢٠٠).

(١٥) الخطط، ج٢، ص٢٩٦.

الحنك ليصعد من الجهة المقابلة ويلتف من جديد حول الرأس فكان هؤلاء يكوّنون الخاصة للخليفة، ولهم نفوذ كبير، إذ كان الواحد منهم له حق اللقب بلقب الأمير، كما ان الخليفة والوزير يشتركان معهم - أحياناً - في لبس زيهم مما يدل على خطورة مناصبهم.

ولم يكن مركز صلاح الدين من ناحية نور الدين محمود، بأقل اضطراباً وحرجاً مما كان عليه من ناحية الأمراء الفاطميين، فقد كان الحاكم الشاب يريد الاستقلال بمصر، وكان نور الدين يستشعر منه ذلك ويخشاه، فيطلب منه ان يغيّر خطبة الجمعة في المساجد ويجعلها باسم الخليفة العباسي بدل الخليفة الفاطمي، لتكون له عليه سلطة شرعية واضحة، فيستمهله في ذلك لأنه لا يريد اغضاب المصريين، ويؤكد له ان اسمه يُذكر على منابر مصر مقروناً باسم الخليفة الفاطمي وتلك خطوة كبرى نحو هدفه، فكان يأمن بذلك جانب نور الدين، ويجمع في الوقت نفسه كلمة المصريين حوله ليكونوا عدّته في تحقيق الأحلام التي يريد.

وقد خدم الحظ صلاح الدين مرة أخرى، بعد أن خدمه بالاستيلاء على مصر من أهون سبيل ووفاة عمه الذي وطّد له أسباب حكمها، إذ لم يكد يخمد ثورة السودانيين، ويتخذ ذلك مبرراً لإبعاد خصومه عن مناصب الدولة وإحلال قومه ورجال بيته محلهم، حتى هب آموري ملك القدس، وقد هاله أن يمتد ملك نور الدين إلى مصر، فاستنجد ببيزنطية «بعد أن يئس من نجدة أوروبة لانشغالها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية[١٦]»، وزحف بجيشه إلى دمياط يريد احتلالها. واتخذ الفرنجة لأنفسهم موقعاً بين البحر والمدينة، في انتظار الاسطول البيزنطي. وكان الملك آموري قد أراد ان يغري فرسان الاسبتارية بمساندته في احتلال مصر «فأصدر بتاريخ ١١ اكتوبر سنة ١١٦٨م، مرسوماً يقضي بمِنح الاسبتارية جزءاً هاماً من إيراد مصر، ونصيباً كبيراً من دخل أهم المدن المصرية مثل الفسطاط وتانيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم... مما يدل على عزم آموري على الاستيلاء على مصر من ناحية، وعلى اعتقاده في إمكان تحقيق ذلك من ناحية أخرى»[١٧].

---

(١٦) Guillaume de Tyr, p. 961

(١٧) الحركة الصليبية، ج٢ ص ٧١١ نقلاً عن: King: the knights Hospitallers, pp. 100 _ 101

وكانت دمياط كما يقول ابن واصل: «عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية»[١٨]، وعليها من جانبيها برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس، ولا يخرج مركب إلى البحر ولا يدخل إلا بإذن، ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تانيس، وعلى سورها محارس ورباطات[١٩]. فلما علم صلاح الدين بنبأ الحملة، أنفذ إلى دمياط الرجال والميرة وآلات السلاح، عن طريق النيل، بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين الحارمي، فصدت قوات الفرنجة، ولم ينفع هذه ما حملت معها من المجانيق والدبابات وآلات الحصار، ومنها أبراج متحركة ذات سبع طبقات تجري على عجل وتقي جوانبها جلود غير مدبوغة لتقيها من النار[٢٠]. وكان المسلمون والأقباط يداً واحدة في مدافعة المغيرين[٢١].

ثم وصل الاسطول البيزنطي إلى الشواطىء المصرية وقد عانى في الطريق إليها من المصاعب ما أضعف من قوته وساعد في القضاء عليه. يضاف إلى ذلك أن الخلافات عادت فتجددت في ما بين البيزنطيين والصليبيين مما أضعف قوتهم جميعاً، وهكذا بدأ الانقسام في معسكر العدو، فكان البادرة الأولى من بوادر الهزيمة، والحقيقة ان كل حليف منهما كان يشك في حليفه ويخشى ان ينفرد بالهجوم ليتمكن من الاستيلاء على مصر وحده، ولهذا أخذ الصليبيون يعملون على الاتصال بالمصريين ليفسدوا على البيزنطيين خطتهم.. وقد انتهت الحملة إلى الإخفاق بعد هذا الانقسام، وعُقِد نوع من الهدنة بين الفريقين[٢٢].

ويقول ستانلي لينبول: «ان زوبعة بحرية شديدة هبت فحطمت ما بقي من اسطول البيزنطيين فمات كل من كان عليها، وطفت جثثهم على شواطىء البلاد التي كانوا قد جاءوا لفتحها»[٢٣]، فكان شأنهم كما قال ابن الأثير كالنعامة التي خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين!...[٢٤].

---

(١٨) مفرج الكروب، ج ١، ص ٣٧٤.

(١٩) المآصر في بلاد الروم والإسلام لمخائيل عواد، ص٣٨.

(٢٠) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص ١٨.

(٢١) نور الدين والصليبيون، ص١٣٧.

(٢٢) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار للعريان والشيال ص١٥.

(٢٣) حياة صلاح الدين الأيوبي للبيلي، ص١٠٩.

(٢٤) الكامل. ج ١١، ص١٤٧.

وإنما قلنا ان الحظ قد خدم صلاح الدين في هذه المرة أيضاً لأن هذه الموقعة إنما كانت برهاناً قوياً على كفايته وجدارته، فوطدت مركزه وعززت مكانته لدى المصريين، إذ رأوه يخرج منها مكللاً بالظفر وقد رد خطر الفرنجة عن وطنهم، ثم تعقبهم إلى تخوم مملكتهم رغبة في إزالة الخوف الذي كان يسيطر على الجنود المصريين من الإفرنج. ثم استولى على مدينة العقبة مفتاح البحر الأحمر وطريق الحجاج المسلمين إلى مكة(٢٥)، بحيث ايقنوا بأنهم سيكونون آمنين على أنفسهم وأرزاقهم في عهد هذا الوزير الباسل لقدرته على صد العدوان عن بلادهم بحكمته وشجاعته الفريدتين.

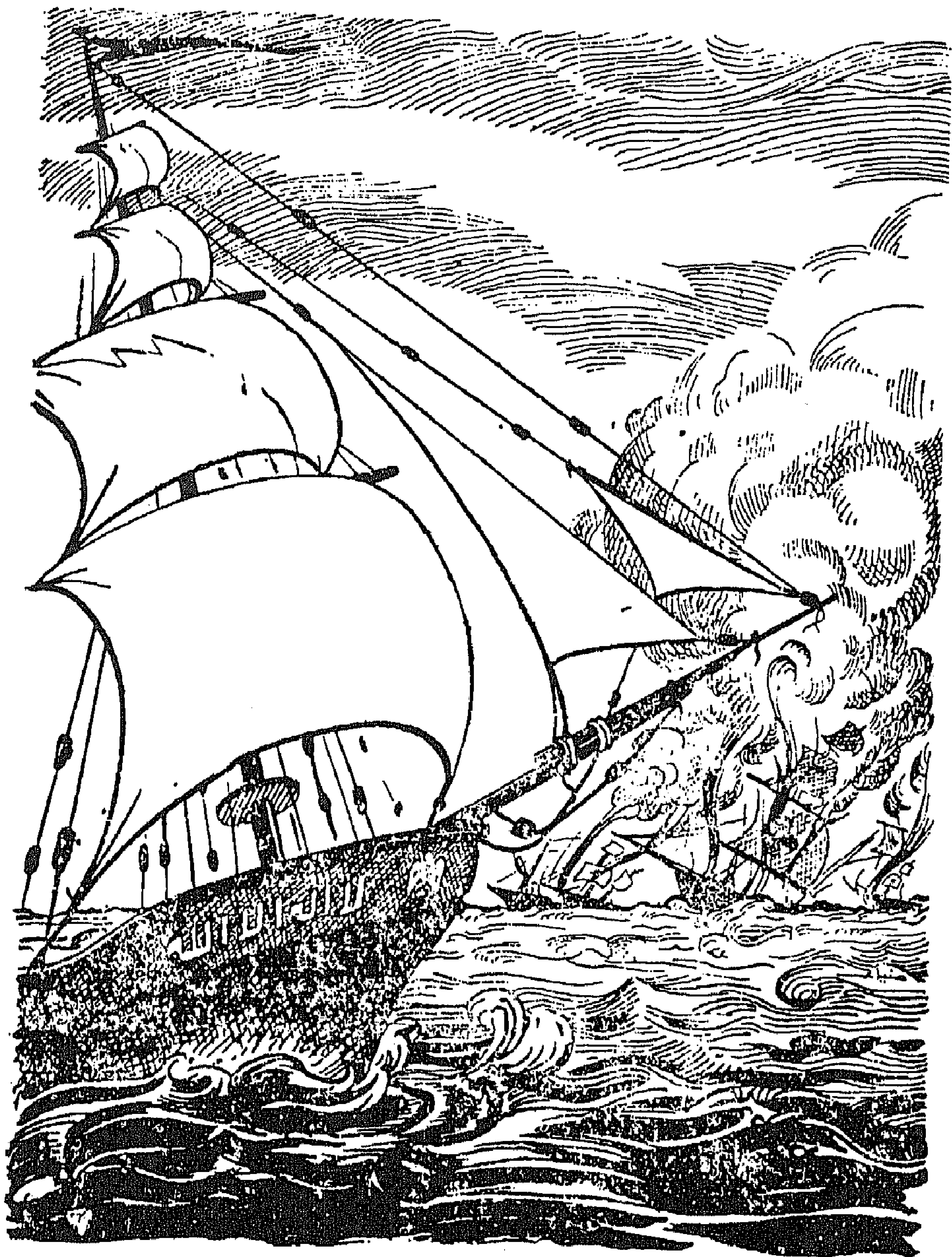
بيد إن المؤرخ المنصف لا يسعه إلا أن يذكر بإعجاب ما كان لنور الدين محمود من فضل كبير في المصير الذي انتهت إليه هذه الحملة الصليبية على مصر، سواء بالنجدات العسكرية التي كان يمد صلاح الدين بها ارسالاً يتلو بعضها بعضاً، أو في الحملات الضارية التي شنها على مراكز الفرنجة في بلاد الشام والحصار الذي ضربه على الكرك(٢٦)، وقد بلغ من اهتمامه بحصار دمياط انه حضر مجلساً دينياً وكان في ما ذكره العالم الفقيه حديث عن تبسم المؤمن، فاستعبر نور الدين وقال: «إني لأستحيي من الله ان يراني متبسماً في حين أن المسلمين يحاصرهم الفرنجة في دمياط!» وإذا كان لنور الدين نصيب في أمجاد معركة دمياط، فان للعاضد ولا شك نصيباً آخر إذ آزر صلاح الدين في معركته وسانده في موقفه وأرسل إليه على ما قيل ألف دينار سوى الثياب والذخيرة.

أراد صلاح الدين أن يتقدم بعد ذلك خطوة جديدة نحو تثبيت حكمه في مصر، ونحو تحقيق الأحلام التي بدأت تراوده في توحيد بلاد العرب وجمع كلمة المسلمين، فأخذ يعمل على تحويل الناس شيئاً فشيئاً عن المذهب الشيعي إلى مذهبه، وهو مذهب السُّنَّة، «كي

---

(٢٥) يقول الدكتور نظير سعداوي ان السبب في احتلال صلاح الدين العقبة هو انه ما كاد يعود إلى القاهرة من غزوته في فلسطين حتى جاءه الخبر بتلبية نور الدين رغبته في إرسال أبيه نجم الدين وأهله إليه، وبخروج القافلة بهم جميعاً من دمشق، فخاف عليهم من الصليبيين، فخرج قاصداً العقبة وكانت بها قلعة في البحر حصنها الصليبيون عقب احتلال بلدوين لها بقصد السيطرة على طريق القوافل، فأنشأ صلاح الدين مراكب مفصلة وحملها على الجمال، وأرسلها من القاهرة في عسكر كبير، وعلى مقربة من العقبة أمر بتركيب المراكب وشحنها بالمقاتلة، وزحف بها إلى القلعة براً وبحراً وما زال حتى استولى عليها وأفنى حاميتها وأسكن بها جماعة من ثقاته (التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص١٩ ـ ٢٠).

(٢٦) النوادر السلطانية ص٥٠.



يتمكن المسلمون في الشرق من توحيد صفوفهم أمام الصليبيين الذين استفادوا من هذا التشتت»[٢٧]، فعزل قضاة الشيعة، وألغى مجالس الدعوة، وأزال أصول المذهب الشيعي مثل الأذان بحيّ على خير العمل، بدلاً من الأذان بحيّ على الفلاح، وحذف من النقش الديني على العملة المتداولة بين الناس صيغة العقيدة الشيعية: «عليّ وليّ الله»[٢٨].

ثم أقام قاضياً شافعياً في القاهرة فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد، وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السُّنِّية، وكان في القاهرة دار للشرطة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يراد حبسه، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية، ثم ابتنى المدرسة القمحية وجعلها خاصة بالمالكية، وأنشأ مدرسة للحنفية في دار الوزير البطائحي[٢٩].

وكان نور الدين ما يفتأ يلح عليه بتغيير خطبة الجمعة وجعلها باسم الخليفة العباسي المستنجد بالله إعلاناً لإلغاء الخلافة الفاطمية، ولكن صلاح الدين لم يكن يريد ان يتعجل الأمور قبل أوانها، فظل يرجيء ذلك من شهر إلى شهر ومن يوم إلى آخر، على الرغم من إلحاح نور الدين[٣٠] وعتاب الخليفة، تجنباً لفتنة لا تُعرف نتائجها[٣١]، وهو في الوقت نفسه يضيّق الخناق على العاضد، فيلغي مخصصاته، ويحرمه من المال والخيل والرقيق، ويمنع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة!.. وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش، فأخذ يحدّ من نفوذهم شيئاً فشيئاً ثم قبض عليهم في ليلة واحدة، وأنزل أصحابه في دورهم، وفرّق اقطاعاتهم عليهم[٣٢].

وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة، وقد خابت الآمال التي عقدها

---

(٢٧) الناصر صلاح الدين الأيوبي ص٦٢.

(٢٨) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٢٠١.

(٢٩) الخطط المقريزية، ج ٤، ص١٩٢ ـ ١٩٣، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٥٤ ـ ٥٥، مفرج الكروب، ج ١، ص١٩٨.

(٣٠) الكامل، ج ١١، ص١٤٧.

(٣١) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧؛ مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٠٠.

(٣٢) الخطط المقريزية، ج٢، ص١٧٥؛ وج٣، ص ٣٧٩.

على ما توهمه من ضعف صلاح الدين، وما ظنه خضوعاً واستكانة منه، فاحتجب في قصره، وانزوى في مخدعه، فريسة للهمّ والمرض.

وأدرك صلاح الدين ان الفرصة باتت مؤاتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة، فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُّنَّة ومتصوفوها، وسألهم الرأي والنصيحة، وهي بادرة تحولت فيما بعد إلى سُنَّة كان يلجأ إليها كلما تشعبت به السبل أو أظلم الطريق. وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد، واقترحوا ان يتولى ذلك نجم الدين أيوب حتى إذا أخفق الأب بادر الإبن إلى تدارك الأمر والاعتذار عما بدر من أبيه.

وفي يوم الجمعة الأول من محرم سنة ٥٦٧هـ - ١٠ ايلول(سبتمبر) ١١٧١م، ذهب نجم الدين أيوب ومعه جماعة من أصحابه إلى المسجد الجامع بالفسطاط واستدعى إليه خطيب المسجد فقال له: «إن أنت ذكرت هذا المقيم بالقصر في خطبتك ضربت عنقك!» فشده الخطيب وعجب، ثم سأل: «فلمن أخطب إذن؟» فقال نجم الدين: «لمولانا الخليفة العباسي المستضيء بالله»[٣٣]، وصعد الخطيب المنبر وقد استولت عليه الحيرة، ونال منه الذعر. انه ان أطاع أمر نجم الدين فلربما ثار به المصلون وقضوا عليه، وان لم يطعه عرّض نفسه للقتل. فألقى خطبته مضطرباً مرتبكاً على غير عادة، وهو لا يدري ما يقول، وأخيراً هداه الموقف الشائك إلى ان دعا للأئمة المهديين ثم للسلطان الملك الناصر صلاح الدين، ونزل فصلى بالناس وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الخوف، فلما انفض الناس دعاه إليه نجم الدين وسأله: «لِمَ لمْ تفعل كما أمرت؟» فقال الخطيب معتذراً: «انني لم أعرف اسم المستضيء ولا نعوته، فإذا علمتها دعوت له في الجمعة القادمة ان شاء الله» وآثر نجم الدين العفو، وخرج فجمع في داره جماعة من الفقهاء وطلب إليهم أن يختاروا من بينهم واحداً يتولى الخطبة للخليفة العباسي في الجمعة القادمة، فتقدم منهم رجل موصلي كفيف البصر اسمه الأمين العالم وقال: «أنا لها أيها الأمير»[٣٤].

وقام الأمين العالم يوم الجمعة التالي بالخطبة للخليفة العباسي، وكتب صلاح الدين

---

(٣٣) كان المستضيء بالله قد خلف أباه المستنجد بالله منذ ستة شهور.

(٣٤) مصر والشام بين دولتين، ص ٢٢١ و ٢٢٢.

بذلك إلى سائر البلاد المصرية، وقال ابن الأثير ان الناس قد قابلوا هذا الحدث الخطير بهدوء عجيب «ولم ينتطح فيه عنزان»(٣٥).

يقول جون لامونت: «وهكذا انتهى الشقاق الديني بين الخليفتين الشيعي والسُّنّي الذي ساعد الصليبيين مساعدة مادية في حروبهم الأولى»(٣٦).

وكان مرض العاضد يشتد، فأمر صلاح الدين اتباعه أن يكتموا الأمر عنه قائلاً لهم: «ان عوفي فهو يعلم، وان توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته» ويقال ان صلاح الدين حين علم بوفاة العاضد الفاطمي بعد أيام، ندم على انه تعجل في قطع خطبته وقال: «ليتني صبرت حتى يموت»(٣٧). فأجاب القاضي الفاضل: «لو علم انكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت(٣٨) وفي بعض الروايات ان العاضد علم بالخطبة لغيره فاغتَّم ومات، وقيل انه ابتلع فص الماس فمات من يومه»(٣٩).

ومهما يكن من أمر، فإن الخليفة قد توفي في ذلك الشهر، وسقطت بموته الدولة الفاطمية التي اشتهرت بفنونها ونظمها وجيوشها وأساطيلها وتركت آثاراً عظمى في الحضارة الإسلامية، دون أن يتعجلها صلاح بضربة حاسمة، وغدت مصر تابعة للخلافة العباسية تبعية اسمية، في حين أضحى صلاح الدين السيد المطلق فيها.

ولا ريب في ان الأحداث التي سبقت عهد صلاح الدين، قد مهدت لسقوط الفاطميين، إذ «أضحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية، لما سادها من الأحوال السيئة دهراً طويلاً، وما مُنيت به من التطاحن الحزبي والمنافسات بين الوزراء الفاطميين، حتى غدت في مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون على يد جوهر القائد»(٤٠).

---

(٣٥) الكامل، ج ١١، ص١٤٩.

(٣٦) دراسات إسلامية، ص١١٨.

(٣٧) النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٥٦.

(٣٨) صلاح الدين بطل حطين، ص٥٥.

(٣٩) بدائع الزهور، ج ١، ص٥٥.

(٤٠) تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٩٦.

وقد بكى الدولة الفاطمية بعض الذين تقبلوا في أعطاف نعمتها وذاقوا الخير على يديها، كالشاعر عمارة اليمني الذي رثاها بقصيدة مؤثرة نذكر منها هذه الأبيات:

رميتَ يا دهر كفَّ المجد بالشلل   وجيدَه بعد حسن الحلي بالعطل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل   شقيتَ، مهلاً، أما تمشي على مهل؟

لهفي ولهف بني الآمال قاطبة   على فجيعتها في أكرم الدول

الفصل الحادي عشر

الاستقلال بمصر

أقام صلاح الدين مأتماً للعاضد استمر ثلاثة أيام، ثم شيع جثمانه ودفنه في موكب عظيم، وأمر عامله قراقوش بفتح خزائن القصر وكانت تضم كل ما اكتنزه خلفاء الفاطميين وتوارثوه خلال مائتي عام من الجواهر والتحف والنفائس والرياش، فأهدى الخليفة العباسي والملك العادل بعضها، ووزع بعضها على قادة جنده وأمراء مملكته، وباع الباقي وضم ثمنه للخزانة العامة، وقد استمر هذا البيع عشر سنوات، ولم يحتفظ لنفسه من كل ذلك كثيراً أو قليلاً.

أما أولاد الخليفة ونساؤه وأقاربه وكان عددهم ١٥٢ شخصاً، فقد أخرجهم من القصر واسكنهم داراً فسيحة أحسن معاملتهم فيها وأجرى عليهم النعم والخيرات، ولكنه فرّق بين الرجال والنساء منهم كي لا يتناسلوا. كما اعتق قسماً من الجواري والعبيد، ووهب القسم الآخر(١).

وكان في القصر مكتبة حافلة بالمؤلفات الثمينة، فوكل إلى القاضي الفاضل مهمة اختيار الصالح منها للاحتفاظ به.. قيل فتسلم القاضي الفاضل منها ١٢٠ ألف مجلد، وأحرق ما يدعو إلى التشيع، وباع الباقي وأدخل ثمنه إلى بيت المال.

---

(١) يقول المقريزي انه كان في القصور الفاطمية عشرة آلاف شريف وشريفة ـ أي من العلويين ـ ومن الخدم ثمانية آلاف بين خادمة وأمة ومولدة (الخطط، ج٢، س٣٩٦).

وكان قصر الخليفة الفاطمي يتألف من مجموعة قصور من أروع آثار الحضارة الاسلامية، منها قصر الزمرد وقصر المظفر وقصر الأقبال وقصر البحر وقصر الحريم وقصر الشوك، ودار الوزارة ودار الضيافة ودار الضرب، وخزانة البنود وخزانة الكتب وحجر الصبيان، وتسمى كلها القصر الشرقي تمييزاً لها من قصر آخر غربي أصغر منه وهو يقوم إلى جانبه، وبينهما ساحة يقال لها الميدان، ووراءهما منتزه كبير يسمى البستان الكافوري يحده من الغرب خليج القاهرة الذي تمتد عليه منتزهات الخلفاء الفاطميين الحافلة بالأشجار والرياحين.

وقد استقبلت دمشق وبغداد العاصمتان السنيتان سقوط الدولة الفاطمية بابتهاج عظيم، فازينت الشوارع وأغلقت الأسواق وأقيمت الاحتفالات، ونصبت القباب والأقواس، وأرسل الخليفة المستضيء الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين، وكلها سوداء شعار العباسيين بدلاً من البياض شعار الفاطميين، فاحتفل صلاح الدين بوصولها وارتدائها رسمياً، وكان قد بدأ منذ الجمعة التالية للالغاء بنصب الأعلام السوداء على منابر المساجد المصرية، وألبس الخطباء ثياباً سوداء، فكانوا يخطبون له بعد الخليفة العباسي ونور الدين(٢).

ولم ينتقل صلاح الدين إلى قصر الخلافة، بل بقي في دار الوزارة على ضآلة شأنها بالنسبة لفخامة القصر. ولكنه ما لبث ان أخذ يفكر في ان ينشىء على قمة المقطم قلعة كبيرة على غرار القلاع الحصينة في مدن الشام، ليجعل مقامه ودواوينه فيها، ويمتنع بها ان عرض له خطر مداهم. كما فكر في بناء سور حول المدن الأربع التي تألفت منها مدينة القاهرة، وهي الفسطاط التي أنشأها عمرو بن العاص، والعسكر التي أنشئت في عهد العباسيين، والقطائع التي أنشأها احمد بن طولون، والقاهرة التي أنشأها جوهر الصقلي.

وقد عزز الناصر مقام أقاربه وأبناء عشيرته في الجيش والحكومة، وأحاط نفسه بسور منهم. ولم تكن هذه الحيطة التي يحتاط بها لتدل على شيء بقدر ما تدل على تخوفه من ان يزحف نور الدين زنكي بجيوشه إلى مصر لانتزاعها من يده، أو ان يحاول اغتياله أو الانتقاص عليه قائد ذو بأس أو أمير فاطمي ناقم.

---

(٢) النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٥٧؛ وفيات الأعيان، ج٦، ص١٥٧.

وفي الحق ان نور الدين كان واغر الصدر عليه منذ قبل وزارة العاضد وأخذ منه خلعة الوزارة قبل أن يأتيه منه إذن بهذا القبول، وكان يعتقد بان صلاح الدين إنما يعمل للاستقلال بحكم مصر من دونه، وان كان الملك الناصر لم يدع عملاً يدل على ولائه له إلا قام به، فأمر بالخطبة له بعد الخليفة العباسي، وضرب النقود باسمه، وأرسل إليه الهدايا الثمينة من كنوز القصر الفاطمي. ولكن ذلك كله لم يكن ليخدع نور الدين عما يجري في مصر، وعن الهدف الذي ينزع صلاح الدين إليه.

وكان بين رجال نور الدين من لا يفتأون يوغرون صدره على صلاح الدين بما شاءت لهم نفوسهم المغضبة، وفي مقدمتهم عين الدين الياروقي الذي غادر مصر غاضباً إثر إسناد الوزارة إلى صلاح الدين، وكان يعتقد بأنه أحق بها منه، ولا ريب في ان غضبه قد تعاظم حين رأى ان منافسه يغدو حاكم مصر وصاحب الأمر فيها.

وقد بلغ صلاح الدين ان نور الدين عازم على القدوم إلى مصر وإخراجه منها، فجمع أهله والمخلصين له، وعرض عليهم الأمر، فنهض ابن أخيه تقي الدين عمر وقال: «إذا جاء نور الدين قابلناه كلنا وصددناه عن البلاد»(٣) وأيده في ذلك نفر من الحاضرين، فاستولى الغضب على نجم الدين أيوب وصرخ فيهم: «قوموا عنا، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد» وأمر صلاح الدين ان يكتب إلى نور الدين بأنه خاضع له منفذ لأمره «فانه إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج والله عز وجل كل يوم في شأن»(٤). فعمل صلاح الدين بنصيحة أبيه، وأرسل إلى نور الدين هدايا ثمينة، ونهض لغزو بعض الحصون الصليبية القريبة لاثبات حسن نيته(٥). وان كان يعلم من خلق ذلك الرجل الكبير انه لا يُسرّ بهدية من هذا القبيل.

هذا ما رواه بعض المؤرخين، وهو أمر لا نطمئن إلى صحته، ولا سيما ان هؤلاء المؤرخين أضافوا إليه حديثاً خاصاً جرى بين الإبن وأبيه عاتب فيه الأب ابنه على بحث مثل هذا الأمر في مجلس يضم عدداً من القادة والأمراء، ثم قال له: «ألا فاعلم اننا لا نسلم

---

(٣) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٢٠٤؛ الكامل، ج ١١، ص ٢٤٤.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٤٩.

(٥) مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

البلاد له، ولو أراد قصبة من قصب السكر لحاربناه عليها» ولا بد للباحث المدقق من ان يتساءل كيف يمكن ان يتسرب حديث خاص من هذا النوع وبهذه الخطورة إلى بعض المؤرخين ولا يبلغ مسامع نور الدين. أما ابن شداد المؤرخ الذي لازم صلاح الدين في سنواته الأخيرة فقد اقتصرت اشارته إلى هذا الموضوع على قوله: «ولقد حكى لي السلطان قال كان بلغنا عن نور الدين انه قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك»(٦).

وكان استيلاء الفرنجة على مدينة الشوبك في فلسطين قد عرقل سير التجارة بين مصر والشام وأضرّ بها ضرراً كبيراً. فجهز صلاح الدين حملة لغزوها والاستيلاء عليها. على انه ما كاد يهاجمها وينال منها، حتى علم ان نور الدين قد أقبل لمساعدته والاجتماع به هناك، فخوّفه أصحابه وخواصه من الاجتماع بنور الدين وحملوه على الرجوع إلى مصر(٧) قائلين له انه إذا اجتمع به «يكون هو المتحكم فيك ان شاء تركك وان شاءعزلك»(٨)، فغادر الكرك زاعماً لنور الدين انه اضطر إلى العودة لمصر لمساعدة أخيه في القضاء على بقايا الفاطميين(٩).

وقد اغضب ذلك السلطان نور الدين غضباً شديداً ذهب بكل حلمه، ورأى فيه دليلاً صارخاً على تهرب عامله منه، ولم يجد لذلك إلا تفسيراً واحداً هو ان صلاح الدين قد انفصل نهائياً عنه. فقرر الزحف إلى مصر والاستيلاء عليها. على انه ما كاد يستريح من الفتن التي كانت تشغله في ناحية الجزيرة، ويعتزم الشروع في الحملة على مصر، حتى وافته من صلاح الدين كتب تؤكد له طاعته وولاءه.

اسقط في يد نور الدين، واعوزته بعد هذه الكتب الحجة التي يبرر بها حملته على مصر، فأراد تجربة صلاح الدين، فكتب إليه ان يخرج لغزو الفرنجة في الكرك، على ان ينهد هو أيضاً إلى هناك، فأيهما سبق صاحبه أقام إلى ان يوافيه الآخر. فذهب الناصر

---

(٦) النوادر السلطانية ص ٢٧.

(٧) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٤ ـ ٥٠.

(٨) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٢.

(٩) مفرج الكروب، ج١، ص ٢٢١.

بجيشه إلى الكرك فحاصرها، ولكنه ما كاد يعلم باقتراب نور الدين وجيوشه لمشاركته في فتحها، حتى عاوده الخوف منه.

واتفق أن بلغه في ذلك الحين ان أباه نجم الدين هوى عن جواده فمرض مرضاً شديداً، فاحتجّ بمرض أبيه وعاد إلى مصر قبل وصول جيوش الشام إلى الكرك. وكان أبوه يعاني سكرات النزاع، وقد توفي قبل وصول صلاح الدين إلى القاهرة في ذي الحجة سنة ٥٦٨هـ[١٠] ١١٧٤م، فحزن عليه حزناً عظيماً لأنه فقد فيه الأب الحادب والمعلم الراشد والصديق المعين.

وأخذ صلاح الدين يسعى دائباً لتوسيع ملكه وتقوية سلطانه، فأرسل أخاه تورانشاه إلى الشواطىء الافريقية فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس التي أعطته موقعاً استراتيجياً دفاعياً مهماً. ثم أرسله إلى بلاد النوبة، فاستولى على ابريم وعيّن على حاميتها إبراهيم الكردي. ثم بعث به إلى اليمن كي يخضعها لحكمه ويضمها إلى ملكه، فسار بعسكره عن طريق النيل حتى قبرص، ثم عن طريق البر حتى عيذاب، ثم عن طريق البحر حتى جدة، ثم عن طريق البر مرة أخرى حتى مكة حيث زار الكعبة صحبة أحد أشرافها، ثم وصل براً إلى زبيد في شوال سنة ٥٦٩هـ ايار (مايو) سنة ١١٧٤م، وتسلمها بما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي، ثم رحل إلى عدن فصنعاء وعاد إلى زبيد بعد أن تملك جميع الحصون. ويقال انه فتح وحده ثمانين حصناً ومدينة باليمن، وإن نواب القلاع ارسلوا مفاتيحها إليه دون قتال وهي واحد وأربعون حصناً. وبعد ان استتب له أمر الفتح، عهد إلى أطباء الحملة ان يتخيّروا مكاناً صحيح الهواء والماء ليتخذ فيه سكناً، فوقع اختيارهم على مكان تعز، فاختطّ به تورانشاه المدينة ونزلها بعسكره وبقيت كرسياً لمملكته[١١]. وقد استقام أمر الأيوبيين في اليمن نحواً من خمسين سنة.

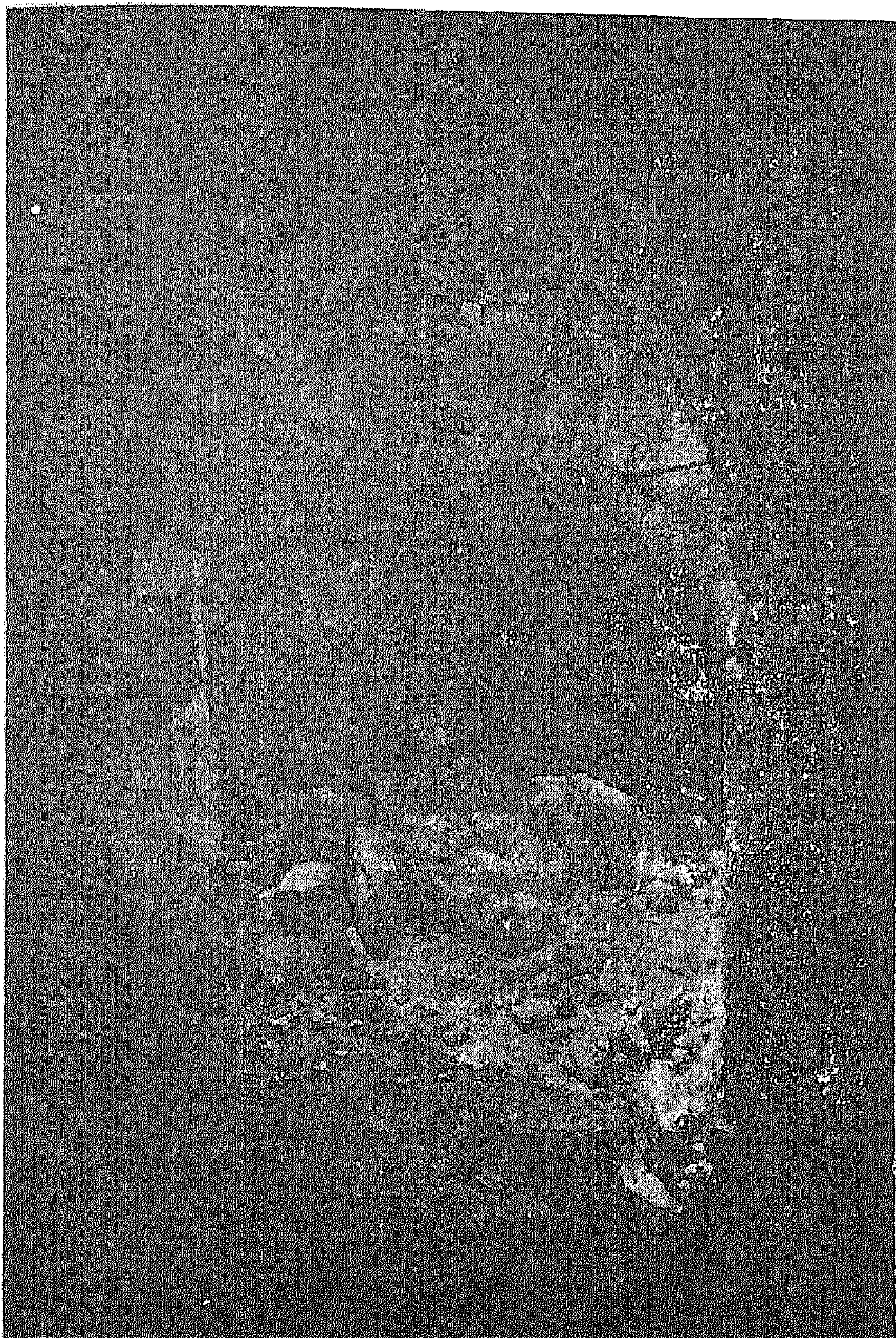
وقد شجعه على مهاجمة اليمن وأغراه بها وهوّن عليه أمر فتحها[١٢]، عمارة اليمني الشاعر الذي أراد الخروج على صلاح الدين وجماعة من شيعة العلويين أصحاب الخلافة المنقرضة، فزينوا لأخيه تورانشاه غزو اليمن لإبعاده عن مصر مع قسم كبير من الجيش،

---

(١٠) النوادر السلطانية، ص٧٦.

(١١) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص٤٤.

(١٢) الكامل، ج ١١، ص١٦٠، كتاب الروضتين، ج ١، ص٢١٦.



بعض انقاض حصن الكرك كما تبدو اليوم

وكتبوا إلى راشد الدين سنان رئيس الاسماعيلية بالشام يقولون له «ان الدعوة واحدة والكلمة جامعة، وانه ما بين أهلها خلاف، إلا فيما لا تفترق به كلمة، ولا يجب به قعود عن نصرة»، واستدعوا منه من يتمم على الملوك غيلة، أو يبيّت له مكيدة وحيلة[١٣]. وأرسلوا إلى آموري، ملك بيت المقدس، ووليم الثاني، ملك صقلية، للوثوب على صلاح الدين، ووعدوهما بأن يثوروا عليه متى وصلت جيوشهم إلى مصر[١٤]، ولكن كما يسَّر القدر لصلاح الدين في كل مرة ما ينقذه كلما أحدق به الخطر فيأخذ بيده صعداً نحو ذرى المجد، لقد كشف له عن تلك المؤامرة قبل تنفيذ خطتها المحكمة بسعي الفقيه زين الدين بن نجا، فعاجل المتآمرين وبطش بهم في شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ نيسان (ابريل) سنة ١١٧٤م، وصلب عمارة الشاعر وثمانية من زعمائها[١٥]. واكتفى بأن نفى من اشترك فيها من أجناد المصريين، وتحفّظ على من بالقصر من سلالة الفاطميين.

ومن عجائب القدر أن عمارة الشاعر، كان قد وصف منذ سنوات إنساناً صُلب في عهد ابن رزيك لخروجه عليه، فقال فيه وكأنه كان يصف نهايته الأليمة:

أراد علـوّ مـرتـبـة وقـدر ... فأصبح فوق جذع وهو عالِ

ومُدَّ على صليب الجذع منه ... يمينٌ لا تطول على الشمال

ونكّس رأسه لعتاب قلب ... دعاه إلى الغواية والضلال

وقد أقبل اسطول صقلية إلى الاسكندرية وهو لا يعلم باخفاق المؤامرة وكانت عدته «مائتي شيتي في كل شيتي مائة وخمسون راجلاً، وستاً وثلاثين طريدة تحمل ألف وخمسمائة رأس من الخيل، وست سفن كبار تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها، وأربعين مركباً لحمل الأزواد والرجال. وفيه من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتم خمسين ألف راجل»[١٦]، فخف صلاح الدين لنجدة الاسكندرية بنفسه، ورد الغزاة من حيث أتوا بعد ان

(١٣) مفرج الكروب، ج ١، ص٢٤٣.
(١٤) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٢٢١.
(١٥) المختصر في تاريخ البشر، ج٣، ص٥٤.
(١٦) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص٤٦ .

كبدهم خسائر كبيرة[17]. أما تورانشاه فتابع مسيره إلى بلاد اليمن فاحتلها كما ذكرنا، وضمها إلى مملكة أخيه، وأعاد فيها الخطبة للخليفة العباسي.

ولم يكد صلاح الدين يعود من انتصاره في الاسكندرية، حتى وافته الأنباء بواسطة الحمام الزاجل الذي كان أول من استخدمه في مصر، بثورة الأمير السوداني، كنز الدولة والي أسوان وعباس بن شادي والي قوص، وكانا من الموالين للفاطميين، وظلا على هذا الولاء برغم إحسان صلاح الدين عليهما وحسنِ معاملته لهما، فجرد لهما جيشاً كبيراً بقيادة أخيه العادل سيف الدين أبي بكر فقضى على الفتنة وقتل قائديها. وقد عرفت هذه الثورة بثورة الكنز[18].

وكان نور الدين زنكي قد استقر يقينه بعد حادثة الكرك، على ان صلاح الدين قد خرج عليه وخلع طاعته. فتأجج غضبه وشقّ الأمر عليه، وأقسم لينتقمنّ منه أشنع انتقام.

ولكن الحظ خدم صلاح الدين مرة أخرى. فان نور الدين ما كاد يعدّ العدة للحملة على مصر، حتى فاجأه الموت في ٢١ شوّال سنة ٥٦٩هـ ١٥ ايار (مايو) ١١٧٤م، وخلفه في الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل وليس له من العمر إلا أحد عشر عاماً، فنسي صلاح الدين لما بلغه نعيه، ما كان بينهما من جفاء، وذكر وجهه الوسيم وخلقه الكريم، وذكر نزاهته وعدله، وجهاده وفضله، وشجاعته التي ليس بعدها مزيد، وسيرته العمرية في رد المظالم وتخفيف المغارم، فحزن عليه حزناً عظيماً:

ومن مراثي الشعراء لنور الدين محمود قول العماد الاصفهاني:

الدينُ في ظُلمٍ لغيبة نوره	والدهرُ في غمٍّ لفقد أميره
فليندب الإسلام حامي أهله،	والشامُ حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في اخطاره	إذ كان هذا الخطب في مقدوره
من ينصر الإسلام في غزواته،	فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها،	من للهدى يبغي فكاك أسيره

(١٧) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٢٣٥.

(١٨) الكامل، ج ١٢، ص ٢٨٧؛ النوادر السلطانية ص ٣٨، المختصر في تاريخ البشر، ج ٣، ص ٥٦.

من للخطوب مذللاً لجماحها، من للـزمـان مـسـهـلاً لـوعـوره
من كاشف للمعضلات برأيه، من مشرق في الداجيات بنوره
يا حاملين سريره، مهلاً فمن عجب نهوضكمُ بحمل ثبيره
يا عابرين بنعشه، أنشقتُم من مصالح الأعمال نشر عبيره

ثم ما لبث الموت ان أنقذ الناصر من خصم قوي آخر، هو الملك آموري الذي توفي في ذلك الشهر نفسه تاركاً الملك من بعده لولده الصغير بلدوين الرابع الذي عُرف في التاريخ بلقب بلدوين المجذوم لأنه أصيب بمرض الجذام في صغره.

وعلى أثر ذلك، اتسع أمام صلاح الدين الأمل لتحقيق الأحلام التي تراوده، إذ لم يبق ثمة من يستطيع الوقوف في طريقه إليها.

الفصل الثاني عشر

في سبيل حلُم عظيم

اضطرب الأمن في ديار الشام بعد موت نور الدين زنكي، وتصدعت الوحدة التي نذر نفسه لها وقضى حياته في بنائها وتوطيد دعائمها، وكثرت الفتن والحروب بين أمراء الأنحاء الذين استقل كل منهم بما يملكه، أو طمع في ضمّ ملك جاره إليه، واحتلال مقام السلطان الراحل. وقد اشتد بذلك الخطرُ من توغل الفرنجة في البلاد، ولا سيما انهم كانوا الملجأ الذي يلجأ إليه كل أمير مغلوب أو أمير طامع، للاستعانة بهم على خصومه من الأمراء الأقوياء. وكان أبرز هؤلاء الأمراء وأعظمهم شأناً، شمس الدين محمد بن عبدالله المقدم الذي تولى رعاية الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وخليفته في الحكم، وسيف الدين ابن عم الملك وصاحب الموصل في عهد أبيه الذي سارع إلى الاستيلاء على أرض الجزيرة، وشمس الدين ابن الداية صاحب حلب مركز الدولة النورية منذ نشأتها والدولة الزنكية قبلاً وقد أراد أن يأخذ الملك الصغير إلى كنفه فأحضره إلى قصره من دمشق على كره من أمرائها ليتخذه ترساً ودرءاً وإذا بكمشتكين، وهو القائد الذي أرسله لخطف اسماعيل من دمشق، يثور عليه فيودعه في السجن مع عدد كبير من الأمراء وبينهم ابن الخشاب رئيس الشيعة بحلب، و«انفرد هو بأتابكية الملك الصالح اسماعيل واستبد بتدبير أموره»[1]، وهكذا غدت الوصاية على الملك القاهر موضع نزاع بين دمشق وحلب.

---

(١) مفرج الكروب، ج٢، ص٨ـ ١٠.

وأمام هذه الفوضى العاصفة، أخذ الحلم الذي كان يراود صلاح الدين يعاوده بإلحاح، بل تحوّل في نظره إلى واجب ينبغي له القيام به ورسالةٍ من الحتم عليه أداؤها، فهو يعتقد بأنه الوارث الحقيقي لمملكة نور الدين ولسياسته في الجهاد، وقد انشقت أمامه الطريق لإنشاء امبراطورية كبرى يبعث بها امبراطورية بغداد، بتوحيد البلاد الناطقة بالضاد، وانتزاع أراضيها من أيدي الفرنجة.

ولقد كان واثقاً من أن ملايين العرب سيناصرونه في تحقيق هذا الحلم العظيم، وأنهم سيشعرون كما يشعر هو، بانه واحد منهم ليس غريباً عن الأرض العربية التي وُلد عليها وتغذّى منها ودرج في فلواتها، أو عن التقاليد العربية التي نشأ عليها وتأصلت في نفسه مذ كان في المهد صبياً، أو عن اللغة والآداب العربية التي ازدهرت في قصره وعهده إيما ازدهار، ومن ثم فليس هو غريباً أيضاً عما يشجي العرب وعما يطمحون إليه، ولا بدع في ان يتخذ الأمل الذي تجيش به نفوسهم هدفاً ينزع إليه مع جنوده المتعددي القوميات ولكنهم في كثرتهم عرب وسكان البلاد، واللغة العربية هي اللغة الجامعة لهم، والثقافة العربية والشريعة الإسلامية هي البوتقة التي صهرتهم والرابطة التي وحدتهم، فغدوا يُعرفون بها وفي ظلها يجاهدون.

وكان أول ما فكر فيه، وأراد أن يخطو به الخطوة الأولى نحو تحقيق هدفه، الانتصار للملك الصالح اسماعيل بن نور الدين، ووضعه تحت كنفه، ليتسنى له بذلك توحيد بلاد الشام وضمها إلى مملكته في مصر. فكتب إليه وإلى الأمراء الذين يحيطون به ويتنازعون على ملكه، كتاباً أعلن فيه ولاءه له وعزمه على نصرته والانتصاف له من كل من يناوئه، لانقاذ البلاد من التفرقة ودفعاً لخطر الفرنجة، وقد قال فيه: «تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى ان أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفاً يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان». إلى ان يقول بصدد الملك الراحل وولده القاصر: «ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه. وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت، بان ولده القائم على الأمر، وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه، فان كانت الوصية ظهرت وقُبلت والطاعة في الغيبة والحاضر اديت وفعلت، وإلا

فنحن لهذا الولد يدٌ على من ناوأه وسيفٌ على من عاداه[٢]..الخ»، ولم يقتصر صلاح الدين على هذا بل ضرب النقود المصرية باسم الملك الصالح، وأمر بأن يُخطب له على المنابر بعد الخليفة العباسي، ولم يدع مناسبة إلا اغتنمها كيما يبين فيها للسوريين غيرته على الملك الصغير، واهتمامه بأمره واستعداده لبذل وسعه في سبيله.

ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله كتاباً يوغر صدره فيه على ما آلت إليه الحال في بلاد الشام، ويعلن استعداده للعمل على تغييرها بتحرير البلاد وتوحيدها في ظل خلافته، مذكراً إياه من طرف خفي بانه هو الذي جعل منابر مصر واليمن والمغرب تتجاوب باسم الخليفة العباسي مع منابر الشام وبغداد، بعد ان انقطعت عن ذلك نحواً من مئتي سنة، وقد بدأ هذه الرسالة، وهي من إنشاء القاضي الفاضل وبخطّه[٣]، بذكر ما كان لأفراد أسرته من أثر في جهاد الصليبيين وتأسيس المملكة النورية، فقال: «كان أول أمرنا أنّا كنا بالشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فُتحت، أو معقل مُلك، أو عسكر للعدو كسر، أو مصاف للإسلام معه ضُرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدونا أنّا نصطلي الجمرة، ونملك الكرّة، ونتقدم الجماعة، ونرتب المقاتلة، وندبر التعبية، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرُها، ولا يضرنا ان يكون لغيرنا ذكرُها».

ثم ذكر رحيله إلى مصر وما تم من فتحها وإبعاد الخطر الإفرنجي عنها وإلغاء الخلافة الفاطمية فيها: «فهنالك تمت لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء السواد الأعظم، والجمع لكلمة السواد الأعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بفنائه، وبرّأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم بقائه، إلا انه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته»، وانتقل إلى فتح العقبة وحملة النوبة واليمن والاستيلاء على قسم كبير من شمال

---

(٢) مفرج الكروب، ج٢، ص٧.

(٣) كان عبد الرحيم بن علي البيساني اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل (٥٢٥ ـ ٥٩٦هـ ـ ١١٣٥ ـ ١٢٠٠م) من أشهر وزراء صلاح الدين في مصر، وكان السلطان يستشيره ويستصحبه ويأخذ برأيه ويعهد إليه بتدبير شؤون البلاد أثناء تغيبه في الشام، وقد عرف بالإخلاص لصلاح الدين، والسهر على مصلحة البلاد، والحض على الجهاد. أما مواهبه في الكتابة والإنشاء فقد تغنى بها كثيرون، وهي قائمة على التزام السجع والإفراط في المحسنات اللفظية التي شاعت في عصره، وكان صلاح الدين يقول لأعوانه: «لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل!» «انظر: النجوم الزاهرة٦: ١٥٦؛ ابن خلكان ١: ٢٨٤؛ كتاب الروضتين٢: ٢٤١؛ الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ١٥٨ ـ ١٧٠».

افريقية «ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: لك، وبرقة، وقفصة، وقسطيلية، وتوزر. كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلام الله عليه».

وينتقل إلى وصف الأوضاع المؤسفة التي سادت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين، قائلاً: «.. وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وان كل قلعة حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمع إليه طالب، والإفرنج قد بنوا قلاعاً يتخوّفون بها الأطراف الاسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية، وأمراء الدولة النورية قد سُجن كبارهم وعوقبوا وصودروا، وان المماليك قدّموا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر المنكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الإفرنج يداً ويجعلهم لنظره سنداً».

ثم يقول بعد أن يشير إلى مطامع الفرنجة واستعدادهم المتواصل: «وعلمنا ان البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر ان لم يتجه العزم في قلعه، وإلا نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة، وإنّا لا نتمكن بمصر منه، مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة. فإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة وأمور مختلة، وآراء فاسدة، وأمراء متحاسدة، وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه».

ويصرّح صلاح الدين أخيراً بطلبه، معتبراً إياه مطلباً قومياً وليس مطلباً شخصياً: «والمراد الآن هو كل ما يقوّي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الإلفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد» إلى ان يقول مفصحاً عما يريد: «وهو تقليد جامع مصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا»(٤).

ويقول الدكتور نظير سعداوي في التعليق على هذه الرسالة انها تبرهن أوضح برهان

---

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١، ص ٦٠؛ صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٨١ ـ ٩٠؛ كتاب الروضتين، ج ١، ص ٣٤١ ـ ٣٤٤.

«على سعة أطماع صلاح الدين، كما تشرح موقفه من مشروع توحيد القوى الإسلامية استعداداً للجهاد ضد الصليبيين، فضلاً عما فيها من شرح لحقيقة القوى الأوروبية، وما فيها من إشارة إلى ما سوف يقوم به من حركات استراتيجية عندما يقتطف ثمار الحوادث بتلبية دعوة الدماشقة إلى نجدتهم. وكيفما كان الأمر من تلك الرسالة، فمن العسير على الباحث الحربي أن يدرك تماماً كيف فكر صلاح الدين تلك السنة (١١٧٤) في ضرورة الاستيلاء على دمشق وحلب والموصل جميعاً للقضاء على الصليبيين، إلا أن يرجع الباحث البصر إلى كاتب الرسالة، وهو القاضي الفاضل العارف بخطة تطويق الصليبيين من ناحيتين، وهي الخطة التي وضعها بدر الجمالي الوزير الفاطمي، واتبعها من بعده نور الدين نفسه بالاستيلاء على دمشق والقاهرة، ومن ذلك يتضح أن اهتمام صلاح الدين بدمشق وحلب والموصل، لم يكن للاستيلاء على أملاك نور الدين والبيت الزنكي فحسب، بل لتطويق الصليبيين بالشام من جميع الجهات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً»[٥].

ولبث الملك الناصر يترقب الفرص ولا يقدم على أي أمر يثير غضب الشام عليه ومخاوفها منه، حتى دعاه أبناؤها أنفسهم للزحف إليها.

ذلك ان ابن المقدم ومن يواليه من أمراء دمشق، لما رأوا كمشتكين قد تغلب على ابن الداية وأنصاره وسجنهم، تخوفوا منه وأرسلوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ان يقبل إلى دمشق ليحميهم من عدوانه، فأبى سيف الدين ان يجيبهم إلى طلبهم ظناً منه أنهم يمكرون به ويتآمرون مع كمشتكين على قتله، ثم بادر إلى إعلان طاعته لابن عمه الملك الصالح وأقرّه هذا على ما بيده من البلاد، فاشتد حينئذ خوف أمراء دمشق، واتجهوا شطر صلاح الدين، فكتبوا إليه أن يسرع لانقاذهم من خطر أحدق بهم. وكأن الملك الناصر كان في انتظار هذه الدعوة، فلم يكد يتلقاها حتى أقام أخاه الملك العادل أبا بكر حاكماً بمصر مدة غيابه، ثم انطلق على رأس سبعمائة فارس فقط، فاخترق عباب الصحراء وبلغ تخوم سورية.

أقبل صلاح الدين إلى الشام مدعواً من أهلها، مؤيداً من الخليفة العباسي، قوياً بجيشه وخبرته، وبُعد نظره، تتقدمه شهرة واسعة باذخة واسم مقترن في الأذهان بالبأس والنبل

---

(٥) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص٥٦.

والمروءة، وشعاره جمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم أمام العدوان الصليبي، فكانت المدن التي مر بها تستقبله بمجالي الفرح والزينة، والأمداد تلتحق به من كل صوب، حتى بلغ دمشق في آخر ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ أواخر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١١٧٤م، وملكها كما يقول ابن العماد «من غير مُدافع وبلا ضربة ولا طعنة»(٦)، بينما امتنع ريحان في القلعة، فنزل صلاح الدين في دار أبيه التي قضى فيها سني شبابه، ثم زار قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فرحب به وقال له: «طب نفساً فالأمر أمرك، والبلد بلدك»(٧). ثم أرسل صلاح الدين قاضي القضاة إلى ريحان يطلب منه تسليم القلعة ويؤكد له انه ما جاء إلى الشام إلا لتربية السلطان الطفل والإنابة عنه في تدبير دولته، فما لبث ريحان حتى أرسل إلى صلاح الدين رسولاً يدعوه لاستلام القلعة، فمضى إليها وأخذ ما فيها من الأموال والكنوز ففرقها على الأهالي وأمر بالمناداة بإزالة المكوس وإبطال القبائح والمنكرات والضرائب المستحدثة بعد نور الدين(٨)، فاستبشر الناس بهذه البادرة الكريمة، ومدحه الشعراء بالقصائد الغراء. وكان ما يفتأ يؤكد في كل مناسبة وكل مجلس بانه في طاعة الملك الصالح، وانه إنما قدم لرعايته وحفظ وحدة البلاد وحمايتها من الفرنجة، فعزز ذلك من مكانته وجمع حوله القلوب المتفرقة.

ودهش السلطان اسماعيل ووزراؤه حين بلغهم في حلب، نبأ استيلاء صلاح الدين على دمشق دون أية مقاومة، وكتب إليه ينذره ويتهدده ويدعوه للعودة من حيث أتى، وحمل الرسالة إلى الملك الناصر الأمير قطب الدين بن حسّان، فقرأها بهدوء وقال لرسول السلطان: «اعلم يا هذا أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسد الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكفّ عادية المعتدين»، فأجاب قطب الدين: «إنك وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، ودون ما ترومه خرط القتاد وفتّ الأكباد»(٩).

وظل صلاح الدين محافظاً على رباطة جأشه، فأمر بإكرام الرسول وسلمه كتاباً إلى

---

(٦) شذرات الذهب، ج٤، ص٢٣٦.

(٧) المرجع السابق، ج٤، ص٢٤٣.

(٨) كتاب الروضتين، ج١، ص٢٣٦؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٥٨.

(٩) كتاب الروضتين، ج١، ص٢٣٨.

السلطان الطفل قال فيه: «إنما جئت من مصر خدمة لك، ليؤدى ما يجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك، وتختل أمورك، وما قصدي إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج»[١٠].

ولما اطمأن إلى تأييد دمشق له والتفافها من حوله، عهد بها إلى أخيه سيف الإسلام، وشخص إلى حمص فاستولى عليها دون قتال، ولكن قلعتها امتنعت عليه فأمر فريقاً من جيشه بمحاصرتها وسار إلى حماة، وكان الوالي عليها الأمير عز الدين جرديك أحد الأمراء الذين عارضوا أسناد الوزارة إليه بعد وفاة عمه أسد الدين، ولكن عز الدين آثر تناسي الماضي والتعاون مع صلاح الدين بدلاً من مخاصمته، بعد أن رأى الحظ يسير في ركابه والمجد ينقاد له، فسلمه مدينة حماة، وقبل ان يكون رسوله إلى كمشتكين صاحب حلب، فلم يصغ هذا إليه بل قبض عليه وزجه في السجن مع غيره من الأمراء المعتقلين.

وصل صلاح الدين إلى حلب في الثالث من جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١١٧٤م، وفيها الملك الصالح ووزيره كمشتكين، فإذا بها قد أغلقت أبوابها في وجهه، فأقام الحصار عليها بعد أن أعلن أهلها انه لم يأت إليها معادياً وإنما أتى لانقاذ سيده الملك الصالح من الأمراء المستبدين وعلى رأسهم كمشتكين. ولم يكن الملك الفتى مطمئناً لوزيره، ولكن قلبه لم يطمئن أيضاً لصلاح الدين لشدة ما حرضه كمشتكين عليه وخوّفه منه، وقد خشي ان تؤثر أقواله في الناس فيسلموه المدينة كما فعل أهل دمشق، فطاف بهم قائلاً: «قد عرفتم إحسان أبي إليكم، ومحبته لكم وسيرته فيكم، وأنا ربيبكم ونزيلكم واللاجيء إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم بمنزلة الأخ، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه، يأخذ بلدي ولا يخشى الله تعالى»[١١]، وأخذ يبكي فأبكى الناس معه، وتحمسوا له وقاوموا صلاح الدين بكل ما يملكون من قوة.

ولكن ضغط الهجوم وأثر الحصار كانا يشتدان على المدينة يوماً فيوماً، حتى أدرك كمشتكين ومن معه أنها لن تستطيع الصمود طويلاً إذا ظلت معتمدة على قواها الخاصة، وانهم أقل خطراً وأضعف شأناً من أن يقفوا في وجه الملك الناصر، فراسل كمشتكين راشد الدين سنان رئيس الطائفة الاسماعيلية المعتصم بقلعة مصياف ليبعث من يفتك

---

(١٠) مرآة الزمان، ص٢٠٧.

(١١) كتاب الروضتين، ج ١، ص٢٣٨.

بصلاح الدين لما يعرف من كراهيته له، لأنه ألغى الخلافة الفاطمية في مصر، وضمن له على ذلك أموالاً جمة وعدة من القرى، واستنجد بأمير طرابلس ريمون الثالث (القومص) الذي كان نور الدين قد أسره عدة سنوات فأطلق كمشتكين سبيله لما تولى حكم حلب. فأما رئيس الطائفة الاسماعيلية فقد أرسل إلى صلاح الدين جماعة من اتباعه الفتاكين المعروفين بالحشاشين لاغتياله، فجاؤوا إلى جبل الجوشن[١٢] بضواحي حلب فوق مشهد الدكة حيث نزل جيش الملك الناصر، واختلطوا بالجنود، فعُرفوا ونشبت بينهم وبين بعض رجال صلاح الدين معركة عنيفة، ثم وثب أحدهم إلى خباء صلاح الدين وقد شهر بيده سكينه ليقتله بها، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه احد الأمراء فقتله وطلب الباقين فقُتلوا بعد ان قتلوا عدداً من الجنود[١٣].

وأما ريمون الثالث وكان في ذلك الحين القيّم على بلدوين الرابع ملك القدس، فقد وجدت دعوة كمشتكين كل التجاوب في نفسه، فأسرع بجيشه إلى حمص ليستولي عليها في غفلة من صلاح الدين ثم يزحف إلى حلب فيهدد مؤخرته، ويضعه بين قوتين معاديتين، لكن ما كاد الملك الناصر يعلم بذلك حتى فك حصاره عن حلب وهرع إلى ملاقاة الفرنجة فإذا بهم يعودون من حيث أتوا تجنباً لمنازلته، ولا سيما انهم قد حققوا مهمتهم وهي رفع الحصار عن حلب، وقد رد كمشتكين جميلهم بأن أطلق سراح أسرى الفرنجة في حلب وبينهم رينو دو شاتيون وجوسلين دو كورتناي[١٤]. فتابع صلاح الدين حينئذ سيره إلى دمشق، واستولى وهو في طريقه إليها على قلعة حمص وعلى مدينة بعلبك التي قضى فيها سني طفولته الأولى.

ولما رأى كمشتكين وصحبه في حلب، ما صار إليه صلاح الدين من نفوذ وقوة في بلاد الشام، تخوّفوا من عاقبة ذلك، واتفقوا مع سيف الدين غازي صاحب الموصل على مهاجمة دمشق، وزحفوا إلى هذه المدينة في جموع غفيرة، فأرسل صلاح الدين إليهم ينصحهم بحقن دماء الأبرياء ويحذّرهم من عدوان الفرنجة، ويرغّبهم في الصلح مقابل تسليمه إياهم جميع المدن التي استولى عليها في سورية، على ان يبقى نائباً للملك الصالح

---

(١٢) موقع مدينة سيف الدولة غربي حلب الحالية.

(١٣) كتاب الروضتين، ج ١، ص٢٣٩.

(١٤) Schlumberger: Renaud de Chatillon, p. 144



في دمشق مبرهناً بذلك للرأي العام الإسلامي «انه لم يقصد محاربة أحد من المسلمين البتة، بل أراد توحيد كلمتهم بالتفاهم الودي والاتفاق السياسي أولاً، حتى إذا أخفق في الاتفاق بالمفاوضة عمد إلى القتال في غير هوادة»(١٥).

وقال رسول سيف الدين إلى صلاح الدين انه رآه في خيمة صغيرة على بساط وتحته سجادة، وبين يديه مصحف، وهو مستقبل القبلة وإلى جانبه زرديته وسيفه وقوسه، وجعبته معلقة في عمود الخيمة «فلما رأيته وقع في خاطري انه المنصور لأنني فارقت سيف الدين والأمراء وهم على طنافس الحرير، والخمور تراق والطبول تعمل، وليس في خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع المحرمات»(١٦).

وكان هذا الرسول قد حمل إلى صلاح الدين رفض قادة الجيش المهاجم ان يصالحوه إلا إذا سلَّمهم كل ما بيده وعاد إلى مصر وليس له من الأمر في الشام شيء، معتقدين بأن دعوته إلى الصلح مبعثها الضعف والخوف. فعمد الناصر حينئذ إلى جيشه فجهزه وخرج به لملاقاتهم، واشتبك معهم عند قرون حماة في معارك طاحنة، حتى إذا ما وصل جيشه من مصر، انتصر عليهم في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٧٠هـ-١٣ نيسان (ابريل) سنة ١١٧٥م، انتصاراً عظيماً، حتى غدا الواحد منهم لا يلوي على أخيه من شدة فزعه وخوفه، وما زالوا في فرارهم وهو من ورائهم يستولي على أثقالهم، حتى دخلوا حلب فحاصرها للمرة الثانية، واشتد على الحلبيين الحصار، فراسلوه في الصلح على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام، مضافاً إليها المعرة وكفرطاب وبارين، ولهم ما بأيديهم منها، واشترطوا ان يكون الدعاء للملك الصالح اسماعيل في جميع منابر البلاد التابعة لصلاح الدين، وان تكون السكة باسمه، وان ينجده بنفسه وجيشه كلما قصده عدو، فأجابهم إلى جميع ما طلبوه، وعقد الصلح وقفل عائداً إلى حماة بعد هذا النصر المؤزر(١٧)، وفي ذلك يقول العماد الأصفهاني:

وتحطمت عند القرون قرونهم ... بل كلَّت الأنيابُ والأظفار

عبروا المعرّة مالكين معرّةً ... والعار يُملك تارة ويُعار

(١٥) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٦٥.

(١٦) خطط الشام، ج٢، ص٥٢.

(١٧) كتاب الروضتين، ج١، ص٢٥٠.

وعاد سيف الدين إلى الموصل يتأهب لخوض معركة جديدة، وفي اعتقاده ان صلاح الدين لا بد من أن يهاجمه في غقر داره فخير له ان يسبقه إلى الهجوم. وما لبث ان حشد جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف مقاتل، وخرج إلى ملاقاة جيوش صلاح الدين.

وكان سيف الدين قد أرسل إلى الشام رسولاً حمّله كتابين أحدهما إلى صلاح الدين يطلب فيه الموادعة تضليلاً له، والثاني إلى أمراء حلب يلومهم فيه على مصالحة صلاح الدين، ويدعوهم إلى الانتقاض عليه، ومشاركته في المعركة التي يُعدها له. فدخل الرسول على صلاح الدين أولاً، وأخطأ فسلمه كتاب غازي إلى أمراء حلب، فقرأه وعرف ما يبيته الموصليون والحلبيون، فأعاده إلى الرسول قائلاً: «لعلك قد تبدلت» فعرف الرسول غلطته، ولم يكن في قدرته أن يتدارك ما فات[١٨].

ولم يكتف سيف الدين بذلك وإنما راسل ريموند الثالث، صاحب طرابلس والوصي على بيت المقدس، يطلب محالفته ومساعدته في الخطوة التالية التي سيقوم بها الزنكيون ضد صلاح الدين. ولكي يثبت حسن نيته، أرسل لريموند جميع من لديه من أسرى الصليبيين[١٩].

وشرع الملك الناصر يستعد لمقابلة غازي وحلفائه، واستقدم لهذا الغرض قسماً من جيشه بمصر، ثم تلاقى مع خصمه في مكان يقال له تل السلطان على الطريق بين حلب وحماة[٢٠]، فمزق جيشه شر ممزّق، وغنم مؤونته وعتاده، وأسر عدداً كبيراً من أفراده، وهرب الباقون إلى حلب، وواصل هو سيره الظافر إلى شمال حلب فاحتل بزاعة ومنبج وعزاز.

وخلال حصار صلاح الدين لقلعة عزاز، اندسّ بين جنوده أربعة من الحشاشين تزيوا بزيهم وحاربوا في صفوفهم، وأبدوا بسالة عظيمة، وفي ليلة الأحد ١١ ذي القعدة سنة ٥٧١هـ ١١٧٦م، بينما كان جالساً في خباء الأمير جاولي الأسدي الذي اعتاد الاختلاف إليه كل يوم للنظر في الخطط الحربية، وثب عليه أحدهم فضرب رأسه بسكين، فأصابت

---

(١٨) مفرج الكروب، ج ١، ص١٨٦.

(١٩) الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٤٧

(٢٠) النوادر السلطانية ص٨٥-٨٦.

الزردية التي كان يرتديها دائماً فلم تؤثر فيها، وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأسه فمد يده بالسكين إلى خده يريد ان يطعنه بها، فلم يصبه إلا بخدش صغير، لان صلاح الدين أسرع فقبض على رأس الحشيشي وجذبه فألقى به على الأرض ثم جاء أعوانه فقتلوه. ثم تتابع على الخباء الحشاشون الثلاثة الآخرون، وكل منهم يريد قتل صلاح الدين فيلقى حتفه(٢١).

وقد اضطرب صلاح الدين لهذا الحادث الرهيب، «وضرب حول سرادقه برجاً من الخشب، ثم اعتبر جنده فمن انكره أبعده، ومن عرفه أقره على خدمته»(٢٢)، وشاع في البلاد ان صلاح الدين قد قُتل، فأرسل القاضي الفاضل كتاباً إلى الملك العادل أخي صلاح الدين يطمئنه فيه ويروي له حقيقة الحادث وقد جاء فيه: «السلامة شاملة والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها واندملت لساعتها، والركب على رسمه، والحصار لعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً ولا ما يشغل سراً»(٢٣).

وقام في ذهن صلاح الدين ان كمشتكين هو الذي أغرى به أولئك المتآمرين وحرضهم على اغتياله، فعاد بعد استيلائه على عزاز إلى حلب وشدد الحصار عليها وهاجمها هجوماً قوياً، فخرجت إليه ابنة نور الدين زنكي وهي بنت صغيرة(٢٤)، فاستقبلها أحسن استقبال وقدم إليها المال والهدايا، وسألها عما يطلبه أهلها فأجابت إنهم يريدون عزاز فوهبها إياها، ثم أوصلها إلى باب المدينة بنفسه وقدم لها من الجواهر والمال شيئاً كثيراً(٢٥). وعمد بعد ذلك إلى إطلاق سراح الأسرى الذين وقعوا في يده في جميع المعارك التي خاضها في أنحاء حلب، وكان بينهم عدد من الجرحى قد أحسن معاملتهم والعناية بهم، فذهب الجميع يثنون عليه ويلهجون بحمده.

وكان الملك الصالح اسماعيل قد خشي، لما اشتد الحصار على حلب، ان يفقد هذا الملجأ الأخير الذي يلوذ به، فعقد مع صلاح الدين صلحاً أقره على ما بيده من البلاد التي

(٢١) النوادر السلطانية ص ٢٢٦.
(٢٢) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص٧٥.
(٢٣) كتاب الروضتين، ج ١، ص٢٥٨.
(٢٤) لم تذكر المصادر العربية اسم ابنة نور الدين واكتفت بأن اطلقت عليها لقب الخاتون.
(٢٥) مفرج الكروب، ج ١، ص١٩٠؛ الكامل، ج ١٢، ص٢٩٥.

افتتحها على أن يبقي له مدينة حلب وحدها، فأصبح سيداً على دمشق وحمص وحماة والمدن الصغيرة المنتشرة في ضواحيها وضواحي حلب، وبينما هو في طريقه إلى دمشق وصلت إليه خلع الخليفة المستضيء بالله، وأمر بتوليته على مصر والشام واليمن. وهكذا اعترف به الخليفة العباسي سلطاناً على البلاد المصرية والسورية، فخطب له في المنابر بدلاً من الملك الصالح اسماعيل، وضربت النقود في القاهرة باسمه فكتب عليها «الملك الناصر يوسف بن أيوب علا جاهه». وتقدم بذلك شوطاً كبيراً نحو الهدف الذي ينزع إليه، وشعر بارتياح كبير لتحرره من عبء النضال في سبيل الحصول على تأييد رسمي لعمله، وهو عبء كان يكلفه كثيراً من العناء لانه يضطره إلى إظهار الولاء للملك الغِرّ الذي يحاربه ويمتنع عليه. وقد وهب على أثر ذلك الهبات، وفرق المال، وأمر بأن توزع على جنوده جميع الغنائم التي غنمها منذ قدومه إلى الشام.

وفكر السلطان في العودة إلى مصر لتفقد شؤونها بعد ان تم له امتلاك الشام وأقام على كل من مدنها أميراً من قبله. ولكنه كان يشعر بأن بينه وبين الاسماعيليين الذين حاولوا اغتياله مرتين حساباً يجب أن يقاضيهم عليه، فانطلق بقسم من جيشه إلى معاقلهم في جبال اللاذقية.

الفصل الثالث عشر

سنان شيخ الجبل

حاول العلويون، وهم أنصار الإمام علي وأولاده من بعده، الوصول إلى الخلافة بمحاربة الأمويين، وتحالفوا في سبيل ذلك مع أبناء عمهم العباسيين، ولكن ما كاد هؤلاء يؤسسون دولتهم على أنقاض الدولة الأموية حتى تنكروا لحلفاء الأمس واضطهدوهم، فعاد العلويون إلى النضال في الخفاء.

وقد تعددت الفرق المتشيعة للإمام علي، وأشهرها الإثنا عشرية التي تُسلسل أئمتها إلى إثني عشر إماماً، والاسماعيلية التي تقف بأئمتها عند الإمام اسماعيل بن جعفر الصادق، وجميع هذه الفرق ترتكز في عقيدتها على أن الإمام يجب ان يكون من نسل الإمام علي وفاطمة بنت الرسولﷺ(١).

وذهبت طائفة الاسماعيلية إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه اسماعيل، لا ابنه موسى الكاظم، وأنكرت موت اسماعيل في حياة أبيه وقالت انه تغيب، ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس، كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه اسماعيل، لان الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين، ولا تكون إلا في الأعقاب(٢).

وقد اتخذ أئمة الاسماعيلية مدينة سلمية من أعمال حماة ببلاد الشام مركزاً لنشر هذه الدعوة، وكانوا يبعثون الدعاة من هذه المدينة إلى الأقطار الإسلامية كافة، ويعهدون في

---

(١) نظم الفاطميين، ج ١، ص٨ وما بعدها.

(٢) فرق الشيعة لابي محمد الحسن النوبختي ص٥٧ ـ ٥٨؛ ٧١ ـ ٧٢؛ ٩٠.

تنظيم الدعوة إلى كبار الدعاة الذين كان يُطلق عليهم في هذا الدور، وهو دور الستر، نواب الأئمة أو الحجج، وهؤلاء يرسلون دعاة من قبلهم لنشر المذهب الاسماعيلي في أرجاء العالم الإسلامي(٣).

واستطاع هؤلاء الدعاة ان يمهدوا لظهور الخلافة الفاطمية في المغرب، وكان أول ظهورها على يد عبيدالله المهدي الذي أعلن الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين في سنة ٢٩٧هـ-٩٠١م. وتأسست الدولة الفاطمية أول أمرها في القيروان ثم في المهدية، ثم اقتحمت مصر واستولت عليها، وأخذت تناوىء الدولة العباسية التي كانت قد ضعفت وتضعضعت وبدأ السلطان يخرج من يدها لتقبض عليه أيدي الفرس والترك ويتألف في أنحاء بلادها عديد من الدويلات الصغيرة المستقلة.

ومن أعلام الاسماعيلية الحسن بن الصباح الذي ولد في بلدة قم بفارس في عهد السلجوقيين سنة ٤٤٨هـ-١٠٥٦م وقيل سنة ٤٤٥هـ-١٠٥٣م، وكان أبوه تاجراً فقيهاً يزعم انه يرجع بنسبه إلى ملوك اليمن الحميريين، ويعتنق مذهب الشيعة الاثني عشرية، ولكن اضطهاد الشيعة في عهد السلجوقيين لاتصال بعضهم بالدعوة الفاطمية، حمله على إرسال ولده إلى جامعة نيسابور الشهيرة التي كان من أساتذتها الإمام موفق الدين النيسابوري.

وفي هذه المدرسة اجتمع ثلاثة طلاب نابغين عُرفوا بالعاطفة الملتهبة واتقاد الذكاء، وهم عمر الخيام ونظام الملك والحسن الصباح، وكان هذا أكثرهم دهاء وبُعد نظر، وكثيراً ما كان يحرج اساتذته وزملاءه بأسئلة غريبة لا تخطر لهم ببال.

كان هؤلاء الثلاثة الطامحون يعيشون معاً، ويأكلون معاً، ويتذاكرون دروسهم سوية، ويرقدون في غرفة واحدة. وذات مساء، بعد نزهة مرحة قاموا بها في أنحاء نيسابور، قال الحسن لرفيقيه: «تعالوا نتعاهد على أن من يتولى الوزارة منا في المستقبل يقرب رفيقيه إلى السلطان ويسند إليهما ما يطلبانه من رفيع المناصب».

فأعجبت هذه الفكرة عمر الخيام ونظام الملك، وقالا له: «نعاهدك على ذلك» وتفرق الشبان الثلاثة ليلتقوا بعد ذلك في أعجب الظروف..

---

(٣) تاريخ الدولة الفاطمية، ص٤٠.

عاد الحسن إلى قم وكان أبوه قد توفي منذ أمد قصير، فلم يتخذ لنفسه عملاً أو صنعة، بل جعل ينفق من الثروة القليلة التي تركها أبوه، ويقضي وقته معتزلاً أو مع صديق له يدعى علي العطار يتناقشان في السياسة والفلسفة، أو يبحثان عن مغنية يصغيان إلى صوتها الرخيم.

وذات يوم أقبل عمر الخيام إلى قم، وكان قد أضحى شاعراً مرموقاً، فزار صديقه ابن الصباح وقال له ان زميلهما القديم قد شق طريقه إلى المجد وأصبح وزيراً للسلطان السلجوقي ألب ارسلان، وانه قد زاره مهنئاً فبرّه وأكرمه وذكره بعهد المدرسة وقال له لماذا لا يسأله الوفاء به، فأجابه: «بارك الله بك وبوزارتك.. وإنما أنا رجل لا أحب إلا الحكمة والفلسفة وان يكون لدي من الدخل ما يكفيني مؤونة السعي..» فرتب له الوزير ستمائة دينار يقبضها كل شهر، فعاد إلى نيسابور وعكف على التأليف ونظم الشعر..

ونصح عمر الخيام رفيق الصبا بزيارة نظام الملك والتماس عونه، فما هي إلا أيام حتى رحل إلى أصفهان عاصمة السلجوقيين.

وكان نظام الملك معروفاً بتشجيع رجال الفكر ومساعدة العلماء والأدباء، فلما رأى الحسن بين من دخل عليه لم يعرفه وظنه أحد الطلاب أو الشعراء المتكسبين، فقال له: «وأنت ما تريد منا أيها الطالب؟».

فأجابه: «انا الحسن بن الصباح من جامعة نيسابور!..»

فعرفه وأكرمه ورفع أمره إلى السلطان فولاه رياسة ديوان الجباية والخراج، وهي مرتبة تلي الوزارة.

وقيل ان نظام الملك خشي أن ينافسه الحسن في منزلته لدى السلطان لما يعرف من ذكائه ودهائه، فدعاه إليه يوماً وقال له إني واثق بأن سيدنا السلطان سيقدرك ويعطيك المركز اللائق بك، ولما كنت أعلم حبك للقيادة فقد بدا لي أن أدعوك لتكون قائداً في الجيش.

فقال الحسن: «ولكني لا أحب الخدمة في الجيش»

فقال الوزير: «انت مخطىء، لان الجيش قوة الهية.. وانت تعلم ان السلطان محمود الغزنوي لم يتمكن من توسيع رقعة الامبراطورية إلا بواسطة الجيش..».

فأجاب: «ان هذه الامبراطورية التي توطدت بواسطة السلاح قد تمزقت، ويجب صيانتها بشيء آخر غير السلاح».

فقال الوزير: «فما هذا السلاح الآخر؟..»

فقال الحسن: «لنبحث عنه!.»

فقال الوزير: «انك لا تزال كما عهدتك لم تتغير أو تتبدل؟..»

وبدا الجفاء في وجهه، فنظر إليه الحسن وذكّره بعهدهما القديم، فغضب نظام الملك وقال: «ما تعودت ان احنث بعهد قطعته!...»

فخرج الحسن حاقداً على صديق الأمس، وما زال حتى اجتمع بالسلطان وظفر باعجابه، وشعر نظام الملك بذلك فأخذ يحول دون اجتماعهما، وإذا اتفق ان ضمهما مجلس حاول إشغال السلطان عن الحسن بأحاديث يختلقها أو شؤون يرتجلها...

ثم انصرف السلطان إلى الحرب مع بيزنطية، وهي الحرب التي توطد فيها ملك السلجوقيين في سورية، وما كاد يعود من معاركه الظافرة، حتى أدركته المنية وحل محله ابنه ملكشاه، لكن نظام الملك ظل الوزير الأول وصاحب النفوذ الأكبر، ونشأت من جراء ذلك بين الوزيرين النابغين منافسة قوية خفية.

وسأل ملكشاه نظام الملك يوماً عن الوقت الذي ينبغي له لتنظيم دفتر جامع لأبواب الموازنة، في الدولة، فقال الوزير: سنتان!

فاستكثر السلطان المدة وقال انه يريد الدفتر في وقت أقصر، وإذا بالحسن الصباح يقول: في وسعي يا مولاي أن أنظم دفتراً بموازنة الدولة خلال أربعين يوماً...

فدهش السلطان ولم يصدق ما سمع، لكن الحسن أكد له قدرته على ذلك، فسرّ وأمر كتّاب ديوانه بأن يمدوه بما شاء من المعلومات، وشرع الحسن في عمله وهو على يقين من انجازه في المدة التي عينها.

وحدّق نظام الملك، وخشي على مركزه في الدولة، فَرَشَا خادم الحسن وطلب منه ان ينتظر حتى ينتهي من عمله ثم يعبث فيه، ففعل.

ودخل الحسن على السلطان ينبئه بانه فرغ من عمله، فطلب منه حساب إحدى

الولايات، فمد يده إلى موضع تلك الولاية وسحب ورقتها فلم يجد ما يطلبه، وسحب أخرى فإذا هي غيرها، ثم سحب ثالثة ورابعة وخامسة والسلطان يسأله هل وجدتها، وهو يقول مضطرباً: «نعم ..نعم..هذه هي». ثم يبدو أنها ليست الورقة التي يريدها..

فغضب الملك، واغتنم نظام الملك هذه السانحة فقال له: «إذا كان مولانا لا يثق بالأكفاء من رجاله الذين يعرفون السهل من الصعب، والممكن من المستحيل، ويصغي إلى مجنون لا خبرة له بالأمور المالية والحسابية، فانه لن يلقى إلا تدجيلاً وتضليلاً..».

فانتهر السلطان ابن الصباح، وأمر الوزير بالقبض عليه، فوثب الحسن من النافذة وتوارى عن الأنظار.

لقد عاد الحسن إلى قم يائساً من الوصول إلى مركز جديد في دولة السلجوقيين، حاقداً أعظم الحقد على نظام الملك، وأخذ يلتمس لنبوغه آفاقاً أخرى، فاجتمع بدعاة الباطنية، واطّلع على تقاليدها وأسرارها، فتأثر بالحركة الاسماعيلية وأعجب بالتنظيم السرّي الذي تقوم عليه، ورأى ان في وسعه ان يبلغ عن طريقها النفوذ الذي يريد، وطفق يقوم بالدعوة للخليفة الفاطمي، إمام الاسماعيليين، بحماسة وبراعة اكسبتاه إعجاب عبد الملك بن عطاش كبيرهم في العراق، فجعله من كبار الدعاة، ونصحه بالسفر إلى مصر ليتعرف بالإمام وينهل علوم الدعوة عن شيوخها وفلاسفتها.

وكان نظام الملك قد اتهم الحسن بالدعوة إلى الإلحاد، وأرسل رجاله لملاحقته والقبض عليه، فخرج من قم وسار متنكراً إلى الري واصفهان وأذربيجان وسورية، حتى بلغ مصر بعد سنتين اتصل خلالهما بدعاة الاسماعيلية في جميع هذه البلدان، واحتل منزلة عظيمة في نفوسهم..

ولما بلغ مصر استقبله المستنصر الفاطمي بحفاوة وقرّبه وأكرمه، فظل ثمانية عشر شهراً يعيش في رعاية الخليفة، ويغشى دار الحكمة التي كانت يومئذ أعظم مركز للعلم والعرفان، فيدرس فيها أساليب الدعوة السرية على أيدي أساتذتها.

لكن نفوذ الحسن بن الصباح في الدولة الفاطمية كان ضعيفاً بالرغم من حب الخليفة له وعطفه عليه، لأن الخليفة الفاطمي كان قد غدا كالخليفة العباسي رئيساً دينياً أكثر منه رئيساً للدولة، وتجمعت السلطة كلها في يد بدر الجمالي قائد الجيش.

وكان بدر شديد الخصومة لكل من يثق به الخليفة ويسترسل إليه، فنقم على الحسن وأوجس خيفة منه، وزادت نقمته عليه يوم اشتد الصراع حول ولاية العهد، إذ عهد المستنصر بالخلافة لابنه نزار وأرادها بدر للمستعلي بن المستنصر الثاني من شقيقة بدر على ما تقول بعض المصادر الاسماعيلية، وانتصر الحسن لذاك على هذا، واعتقل الحسن في إحدى قلاع دمياط إلا انه استطاع ان يفر من معتقله ويغادر مصر على ظهر مركب متجه إلى سورية، وسار إلى حلب فاجتمع بالاسماعيليين الذين فيها وأخبرهم بالمؤامرة على نزار الذي هو في رأيه الإمام الحقيقي، وكيف ان بدر يحاول اسناد الخلافة إلى أحمد شقيق نزار الذي لقب فيما بعد بالمستعلي بالله.

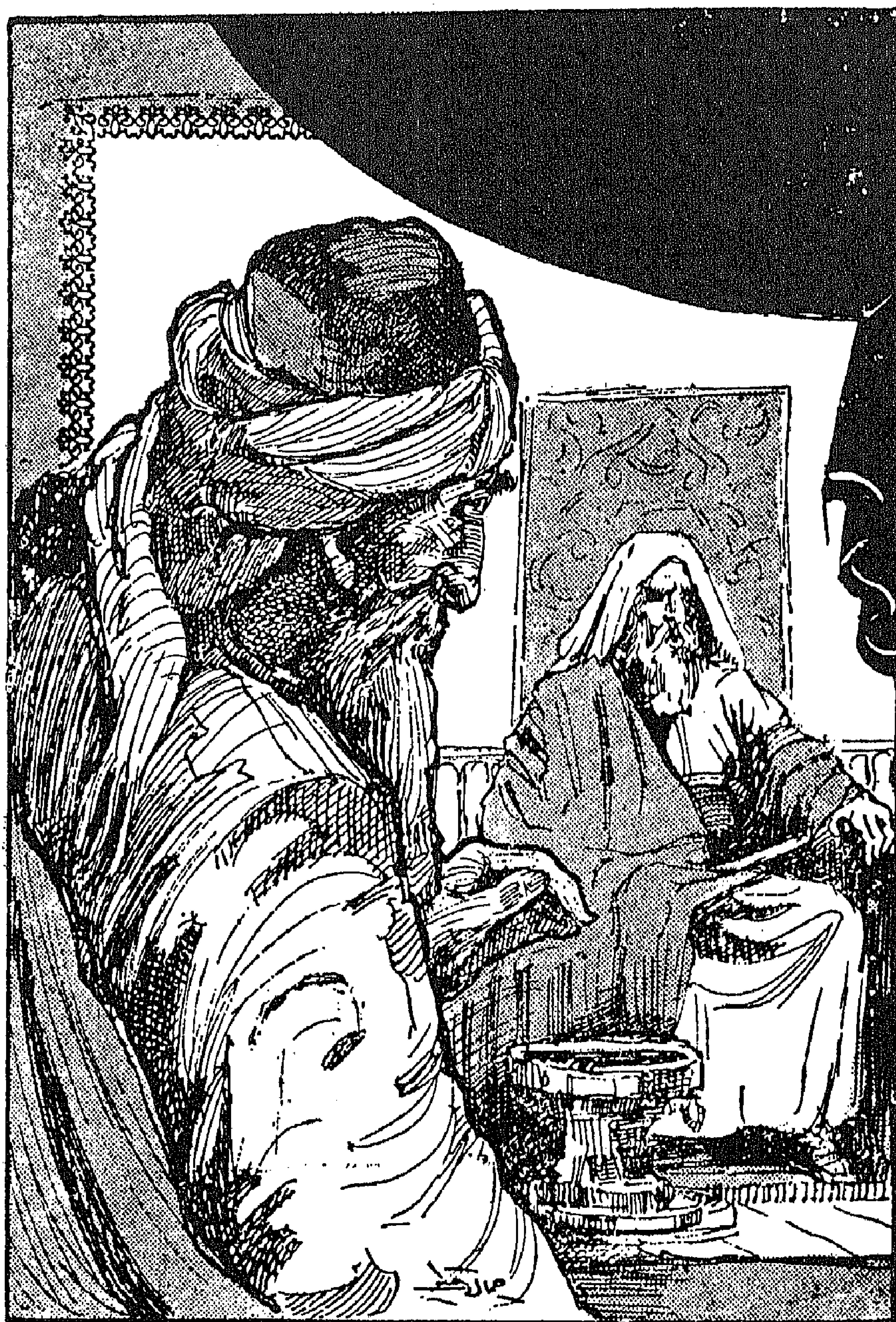
وهكذا انقسمت الطائفة الاسماعيلية إلى فرقتين، النزارية التي تمسكت بإمامة نزار بن المستنصر بالله، والمستعلية التي سارت وراء المستعلي.

وتنقضي عدة شهور والحسن بن الصباح يتنقل بين سورية والعراق وفارس، ناشراً الدعوة لمذهبه، باحثاً عن عبد الملك بن عطاش داعي الدعاة وشيخ الجبل الأول حتى التقى به وأقعدته السن، ففرح عبد الملك به وافضى إليه بجميع المعلومات والأسرار التي كان في حاجة إليها، ودله على مراكز الأموال الاسماعيلية والمؤتمنين عليها. فأنشأ يركز الدعوة حول إمامة نزار، ويعد العدة لانقلاب يطوّح بحكم السلجوقيين ويعلن حكم الفاطميين في فارس والعراق وسورية.

ولم يكن هذا المطلب بالأمر اليسير، أما خطة الحسن في الاستعداد له فلم تكن ترمي إلى الإكثار من الأنصار بقدر ما كانت تهدف إلى اختيارهم من الرجال الأشداء الأوفياء الذين يستميتون في سبيل عقيدتهم.

وقد اختار من أصفهان خمسين شخصاً منهم من اتبعه إيماناً بالإمام المنتظر، ومنهم من سار معه حباً بالمغامرة والمخاطرة، فأرسل ثلاثين شخصاً منهم للدعوة في أنحاء البلاد، وسار بالباقين في أرجاء فارس باحثاً دارساً متقصياً، متصلاً خلال ذلك بالاسماعيليين، داعياً إياهم إلى الثبات والاستعداد.

وظل شأنه كذلك ثلاث سنوات كاملة وهو يثبت دعاته في كل مكان حتى استوثق من أمره وقرر البدء بثورته، فذهب إلى قلعة آلموت، أي عش النسر، التي تقع على أحد جبال مازندان في المنطقة الشمالية الغربية من فارس ما بين الديلم والعراق، فاتصل بحاكمها



صورة خيالية لشيخ الجبل

أبي مسلم المهدي وأظهر له الصداقة ثم وثب به في السادس من رجب سنة ٤٨٣هـ ١٠٩٠م، فأخرجه من القلعة واستولى عليها..

وما كاد يستتب له الأمر في القلعة حتى زاد في تحصينها وأخذ يرسل منها الحملات على المناطق المجاورة، فاستولى على الحصون التي فيها وبنى حصوناً جديدة، وراح ينظم اتباعه تنظيماً سرياً عجيباً، فهم يتألفون من ثلاث مراتب: المستجيبون أو الدعاة وهم الذين يقومون بالدعوة لمبادىء الطائفة ويعرفون أسرارها، والرفاق او المقدمون وهم قادة الجيش والساهرون على تنفيذ خطط الفئة الاولى، والفدائيون وهم الذين يختارون لتنفيذ المهمات الجسام، ولا يبالون بالموت ان اعترض طريقهم إليها... وكان هؤلاء يربون في بيوت الرؤساء والمقدمين فيوهمون بأن مخالفة الرئيس هي أعظم خطيئة وان خدمته هي أعظم فريضة وأكبر نعمة(٤).

ويقال ان الحسن بن الصباح قد أنشأ لاتباعه جنة أو جنات ملأها بألوان الجمال والفتنة والغواية، من زهور وحسان وولدان، وانه كان يسقي أحدهم الحشيش الذي اكتشفه في مصر، ثم ينقله إلى تلك الجنة وهو غائب عن الوعي، فإذا استيقظ حسب أنه انتقل إلى السماء وقضى الساعات مستمتعاً بما يحيط به من متع الروح والحس، ثم يُسقى الحشيش من جديد ويُعاد إلى مكانه الأول ويقول له الرؤساء ان عودتك إلى ما كنت فيه من نعم الفردوس رهينة برضى الشيخ عنك.. والشيخ أو شيخ الجبل الأول هو عبيدالله بن عطاش، وشيخ الجبل الثاني هو الحسن بن الصباح، وشيخ الجبل الثالث هو راشد الدين سنان.

وكان نزار حين رأى ان الخلافة قد افلتت منه، سار إلى الاسكندرية مع أخيه عبدالله وابن مصال اللكي، فاستقبله واليها ناصر الدين افتكين التركي مرحباً، وبايعه هو وأهل الاسكندرية بالخلافة، ولقبوه «المصطفى لدين الله» فلما علم الوزير الأفضل بذلك، خرج لقتاله على رأس جيش كثيف، فدارت الدائرة أولاً على الأفضل وعاد إلى القاهرة، وأخذ يعدّ العدة لقتال نزار من جديد، ونجح في استمالة بعض اتباع نزار من العربان، ثم زحف إلى

---

(٤) يقول الاستاذ عارف تامر ان أول من أسس هذه المنظمة وسن منهاجها وابتدع فكرتها هو الداعي الاسماعيلي عبدالله بن عطاش وقد درس الحسن بن الصباح تعاليمها عليه وقام بتوسيع نطاقها وتعديلها وتحسينها (سنان وصلاح الدين ص٢٧).

الاسكندرية ثانية فحاصرها حصاراً شديداً، واضطر نزار وافتكين إلى طلب الأمان، فأمنهما الأفضل، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبنى عليه فمات، وقتل افتكين وفر ابن مصال إلى المغرب(٥).

وبينما يؤكد اتباع الاسماعيلية المستعلية ان نزاراً قتل على النحو الذي رويناه، سنة ٤٨٨هـ ١٠٩٥م، وبذلك تم للمستعلي القضاء على سلالته، وان الإمام الذي أسس الدولة النزارية في فارس لم يكن من صلب نزار وإنما هو من سلالة الحسن بن الصباح، يؤكد اتباع الاسماعيلية النزارية ان الحسن بن الصباح قد أرسل إلى القاهرة كلاً من الفدائيين زاده أسد وحسن اسماعيل، فاختطفا الحسن بن الإمام نزار وحملاه إلى آلموت فأسس الدولة النزارية فيها وأطلق عليه لقب «الحسن الهادي»، وأرسل الحسن بن الصباح البشرى بذلك إلى قلاع الدعوة في فارس والعراق وسورية كي يفتح المريدون قلوبهم ويفرشوا أرواحهم لإمامهم الحسن هادي المستجيبين وأمير المؤمنين ووريث الفاطميين.

وكان ملكشاه على خلاف مع الوزير نظام الملك، فلما علم باستيلاء الحسن بن الصباح على قلعة آلموت(٦)، استدعاه إليه واسترضاه واستشاره، فحرضه على استعادة القلعة منه قبل ان يتعاظم أمره ويستفحل خطره، فأرسل إليه جيشاً صغيراً حاصره عدة أشهر، ولكن شيخ الجبل لم يلبث ان بطش بجيش ملكشاه وشتت شمله.

واتفق ان ثار اسماعيلي آخر من أتباع الحسن، يدعى حسن القيالي، فجرد السلطان عليه حملة كبيرة حاصرته في قلعة ديرة وكادت تظفر به.. فأرسل إلى شيخ الجبل يستنجد به ويقول له انه ينتظر من كبير الطائفة معجزة تنقذه مما هو فيه، فقال الحسن: «لبيك..» وأرسل أحد الفدائيين من اتباعه إلى قصر الوزير نظام الملك فاغتاله، واضطرب الأمر قليلاً من بعده، مما اضطر السلطان إلى استدعاء الجيش الذي يحاصر قلعة ديرة، وسلم بذلك حسن القيالي وتمت المعجزة!..

ودشنت هذه الجريمة عهداً جديداً في تاريخ الشعوب الإسلامية ظل الاغتيال فيه سلاحاً سياسياً طوال مائة عام..

---

(٥) تاريخ الدولة الفاطمية ص٧٢.

(٦) انظر: على أبواب آلموت لعارف تامر ص١٦٦ ـ ١٦٧.

مات السلطان ملكشاه وأخذ أبناؤه وأمراؤه يقتتلون من بعده، كل منهم يريد ان يستأثر بالحكم من دون إخوته، وكانت الاسماعيلية وعلى رأسها الحسن بن الصباح تذكي هذه الحرب الأهلية، وتوغر صدور الأمراء والحكام بعضهم على بعض، وتمد يد المعونة وسلاح الاغتيال إلى هذا وذاك، ولا يكاد يظهر واحد منهم على الآخرين حتى يُقتل ويُقبض على القاتل فيعترف بانه اسماعيلي، وبأن شيخ الجبل هو الذي أرسله في هذه المهمة، وبأنه فخور وسعيد لقيامه بواجبه وإن فقد حياته في سبيله!..

وتعاظم الضغط على الاسماعيليين من جراء ذلك، وأخذهم الأمراء بالشدة، وطفق العلماء يحملون عليهم في المساجد والمجالس العامة، وفتك بهم الجند فتكاً ذريعاً، ولكن ذلك كله لم يكن ليفت في عضدهم، بل كان يذكي الحقد في صدورهم، ويدفعهم في طريق الانتقام، حتى تناسوا الأهداف الفكرية التي كانوا ينزعون إليها، وغدوا طوال مائة سنة عصابة سرية فريدة من نوعها في التاريخ، مدربة على القتل المنظم، ولا همّ لها أو غاية سوى الاغتيال وبث الذعر ونشر الاشاعات المخيفة.

إحدى وعشرون سنة مرت والحسن بن الصباح معتصم في حصنه، ينظم الدعوة ويؤلف الكتب، ويدرّب الجيوش، ويعلّم الشبان، ويحيك المؤامرات، ويرسل الفدائيين لقتل الأمراء والوزراء والحكام من خصوم الاسماعيليين، ويريد ان يبني لهؤلاء مجداً ويشيد لنفسه سلطاناً، بالخنجر المسموم والمدية المشهرة في الخفاء.

وفي سنة ٥١٥هـ ـ ١١٢١م، جرد السلطان محمد بن ملكشاه حملة قوية على حصن آلموت حاصرته سبع سنوات كاملة، ثم غادرته دون أن تنال بغيتها منه عندما نعي إليها السلطان، فحمل الاسماعيليون على مؤخرتها وسلبوها من القوت والعتاد ما أعاد إليهم بأسهم وقوتهم.

ثم جاء السلطان سنجر وكان قائداً بارعاً، فأراد ان يقضي على الحسن بن الصباح بنفسه، ولكنه ما كاد يبلغ بجيشه تخوم قلعة آلموت حتى استفاق ذات صباح ليشاهد على فراشه خنجراً حاداً كتب عليه: «لو لم تكن محبتي للسلطان قوية لأمرت بوضع هذا الخنجر في صدره» فتولاه الذعر، وصالح الحسن متخلياً له عن امتيازات كثيرة.

وفي سنة ٥١٨هـ ـ ١١٢٤م، توفي الحسن بن الصباح، بعد ان عين كيابزرد حميد خليفة له. وقد تعرض الاسماعيليون بعد وفاته لاضطهاد عنيف، وحملات عديدة، أهمها

الحملة التي وجهها إليهم في فارس سنة ٥٢٢هـ ١١٢٨م، ابو النصر احمد بن الفضل وزير السلطان سنجر، والحملة التي تعرضوا لها في العراق سنة ٥٣٢هـ ١١٣٧م، بأمر الخليفة العباسي الراشد لله. وكانت ترافق هذه الحملات العسكرية، مذابح أهلية، فغزيت قلاعهم، واستبيحت دماؤهم، وأحرقت قراهم، وثار عليهم الناس في كل مكان، فتشتتوا وتفرقوا وهرب إلى سورية من استطاع الهرب منهم.

وكانت بلاد الشام طوال الحكم الفاطمي بالمغرب ومصر، تتلقى فيضاً من الدعاة الاسماعيليين، كما كانت تستقبل وفود القرامطة وسيل الهاربين من الاضطهاد العباسي والسلجوقي، فنشأت للاسماعيلية عدة قواعد في حلب وسلمية وما يجاورها من القرى والقلاع. وكان نشاط هذه القواعد ينمو ويزدهر أو يخبو ويضعف، تبعاً لامتداد النفوذ الفاطمي أو انحساره. ثم جاءت موجة الهجرة الإسماعيلية هناك، عاملاً قوياً يعزز قواعدهم في سورية ويمكّن لهم فيها.

وقد اتجهت أنظار المهاجرين الوافدين الباحثين عن معاقل جديدة تتوافر فيها الحماية والمنعة، إلى جبال البهرة الواقعة في القسم الجنوبي من جبال العلويين، لوعورة مسالكها ومناعة حصونها، فهي تتألف «من مرتفعات شديدة الإنحدار، وأودية وعرة المسالك، ودروب متشعبة ضيقة، تتشابك في سفوحها الأشجار وتتعانق في أعاليها القمم، فتؤلف بذلك منطقة حصينة، تغري الهاربين من الاضطهاد الديني والسياسي، من أصحاب العقائد والثائرين، الذين اختلفوا مع بيئتهم، باللجوء إليها تعشقاً للحرية والأمن»(٧).

وكان أول ما تركزوا فيها سنة ٥٢٥هـ ١١٣٠م، حين اشترى الداعي ابو الفتح قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرون بالمال، ثم وثبوا على أغلب القلاع في تلك الجبال الشاهقة فسقطت في أيديهم الواحدة تلو الأخرى، فملكوها وعمروها ووطدوا أقدامهم فيها. ولما انتزعوا مدينة مصياف من بني منقذ سنة ٥٣٥هـ ١١٤٠م، جعلوا منها مقراً لممثل الإمام ومركزاً لنشر الدعوة وتدريب الفدائية ووضع الخطط الحربية للدفاع والهجوم(٨).

---

(٧) الاسماعيليون والدعوة الاسماعيلية بمصياف ص ٤١.

(٨) كانت أحد المصادر التي رجعنا إليها في كتابة هذا الفصل، مخطوطة قيد الطبع للاستاذ مصطفى غالب بعنوان «سنان راشد الدين» وفي ذيلها تحقيقه لمخطوطة «مناقب المولى سنان راشد الدين».

وفي سنة ٥٥٨هـ ١٠٦٥م، اختير سنان راشد الدين ليكون ممثلاً ونائباً للإمام في سورية، وكان سنان قد ولد في البصرة وتثقف في المدارس الاسماعيلية بألموت، وكان الإمام القاهر بقوة الله يرعاه ويعطف عليه رعايته لأولاده، فسار إلى حلب متخفياً بزيّ الدراويش وبقي فيها عدة أشهر، ثم تنقل دارساً منقباً في جميع المناطق التي كان للاسماعيلية وجود فيها، حتى وصل إلى منطقة مصياف فأقام في قرية بصطريون على مقربة من حصن الكهف يعلم الصبيان القراءة والكتابة دون أن يعرّف أحداً بنفسه، وكان يجلس على حجر خارج القرية يلقي دروسه عدة ساعات دون ان يتحرك في مجلسه، ويعالج المرضى بأدوية يصنعها بنفسه من الأعشاب، ويلبس بردة يمنية يغسلها بيده ويحتذي خفاً من صنعه(٩).

ولما شاعت أخبار صلاحه وتقواه، دعاه كبير دعاة الاسماعيلية الشيخ أبو محمد الميقني الذي كان يقيم في حصن الكهف، إلى الإقامة في الحصن، فظل يعمل على خدمة الشيخ أبي محمد مدة سبعة أعوام دون ان يطلعه على المهمة الموكلة إليه، وهو يدرس خلال ذلك أحوال الاسماعيلية ليتمكن من معرفة كل شخص ويخبر كل شيء. ثم أصيب أبو محمد بمرض شديد، وكان قد طعن في السن، فدخل عليه وقدم إليه كتاب الإمام الذي يطلب منه تقديم الطاعة لممثله الجديد الشيخ سنان بن سليمان الملقب براشد الدين، فبكى أسفاً على ما فاته من امتثال الأمر منذ سبع سنوات وهو لا يعلم ان مملوكه هو سيده، ثم دعا الأكابر والأعيان وقرأ عليهم تقليد الإمام، وقال لهم: «هذا نائب الإمام منه السلام والحاكم عليكم بأمره بعدي..!»

وقد نقل سنان مركز القيادة الاسماعيلية إلى مصياف، وهي قلعة منيعة بموقعها من أعلى الجبل، وزادها مناعة انها قائمة على صخر جوانبه عمودية يعسر تسلقها، وان جبل مصياف محاط بالمستنقعات من كل ناحية وعلى مسافة من الجبل تقع بلدة مصياف التي يسكنها الفلاحون المشتغلون بالزراعة، والقلعة حمراء اللون ذات سور سميك ارتفاعه ستون قدماً، ليس له إلاّ باب واحد سقفه عقد متين، فإذا دخل الرجل منه سار في ممر كله معقود، يصل من الداخل إلى قمة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف، وكلها مبنية من الحجر الصلد. وعلى السور أبراج متلاحقة تقيم بها الحامية، ترمي الهاجمين عليها

(٩) Guyard; Grand Maitre des Assassins au temps de Saladin. p. 35

بالسهام أو الحجارة قبل وصولهم إلى الباب لمسافة بعيدة، بحيث يستحيل أخذها بالهجوم إلا بعد قتل المئات والألوف(١٠).

ثم وجه شيخ الجبل اهتمامه لخلق جيل جديد من المحاربين المدربين على الأعمال الفدائية والأمور العسكرية(١١)، وكان يقضي أيام الأسبوع متنقلاً في القلاع الأربع: الكهف، مصياف، القدموس، عليقة، ويقوم بزيارات إلى الخوابي والمينقة، ويخصص يومين للإقامة بجبل مشهد حيث ينقطع للتأليف ورصد النجوم والعبادة والتأمل، وكان يسير بين القلاع في طرق ومعابر سرية مشياً على الأقدام حتى لا يعرفه أحد، ويكثر من الذهاب إلى شيزر وحماة وحمص والشام متخفياً(١٢). وقد بلغت الاسماعيلية في سورية في عهد سنان أوج ازدهارها، وبسطت نفوذها على جميع المنطقة التي استوطنتها، وفتحت قلاعها لاستقبال الاسماعيليين المضطهدين القادمين من فارس والعراق والمدن السورية الأخرى.

وتدل الأقاصيص التي تروي تنبوءاته واطلاعه على أسرار الدول وخفايا النفوس، على انه «قد بث في أنحاء دولته ودول جيرانه شبكة من المخربين السريين يراسلونه بواسطة النار والحمام الزاجل الذي مهر في استخدامه الاسماعيليون مهارة فائقة تتمشى مع خطتهم في الحذر والحيطة، ومع ما تتسم به دعوتهم من غلو في الأسرار، وإغراق في التكتم. وفي المساء، عندما تغفو مصياف يخف سنان راشد الدين إلى قمة جبل مشهد، أو يؤوب إلى عرينه في أعالي القلعة، ليتلقى رسائل الأنصار، تحملها حمامات بيضاء من الشرق النائي أو الغرب القصيّ، فتقرع النوافذ بمناقيرها المقوسة، وتلمع عيونها في الظلام لتنبه شيخ الجبل، فيتلو الرسائل، ويعكف على دراستها، ثم يخبر من حضر من اتباعه، ويتناقل الناس ذلك عنه فيمسي عالماً بالغيب لديهم، لا سيما عندما تتحقق الأخبار فيما بعد»(١٣).

لقد نشأت هذه الدولة الفتية في غفلة من الحكومات المجاورة، واستغلال الوضع

---

(١٠) صلاح الدين ومكايد الحشاشين لجرجي زيدان ص١٤٤.

(١١) اعلام الاسماعيلية ص٩٨؛ الطائفة الاسماعيلية ص١٠٠، سنان وصلاح الدين ص٣٢.

(١٢) سنان وصلاح الدين لعارف تامر ص٣٣ نقلاً عن كتاب «فصول وأخبار» ص١٦٤.

(١٣) الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بمصياف ص٦٣ـ٦٤.

المضطرب في بلاد الشام من جراء الصراع بين أمراء المسلمين المتنازعين في ما بينهم من جهة، وبينهم وبين الصليبيين من جهة ثانية. ولكن سرعان ما أثارت هذه الدولة حفيظة جيرانها، وحركت عوامل الخوف لدى المسلمين والصليبيين، «وكانوا كلهم يكرهون مجاورة الاسماعيليين»(١٤)، لما اشتهروا به من أعمال الوقيعة والاغتيال.

وكثيراً ما تعرضت قلاع الاسماعيليين للعدوان، من قبل الأمراء المسلمين أو الصليبيين، فكانوا يخسرون في معركة ليظفروا في معركة ثانية، ويفقدون معقلاً ليكسبوا معقلاً آخر، وربما انحازوا خلال ذلك إلى هذا الجانب أو ذاك، حتى رأيناهم يهادنون الصليبيين أحياناً أو يوادعونهم او يتعاونون معهم. وقد اتهمهم بعض المؤرخين بأنهم إنما فعلوا ذلك لأنهم اسماعيليون، والواقع اننا رأينا بعض أمراء السنة يهادنون الفرنجة أو يحالفونهم، كما رأينا أمراء بيزنطيين وصليبيين يستعدون الأمراء المسلمين على خصومهم وأبناء بلدتهم، ليدفعوا بهم عدوان جيرانهم ومنافسيهم، أو يستعينوا بهم لبلوغ مزيد من المجد والسلطان، ولم تكن دوافع أولئك لتختلف عن دوافع هؤلاء!(١٥).

ثم جاء صلاح الدين فنقم عليه الاسماعيليون لانه ألغى الخلافة الفاطمية. وتروي المصادر الاسماعيلية ان سنان راشد الدين قد أغضبه ذلك، رغم الخصومة الشديدة بين النزارية والمستعلية، فأرسل الفدائي حسن الأكرمي لتهديد صلاح الدين في القاهرة، فتمكن هذا الفدائي من دخول القصر، والوصول إلى حجرة رقاد صلاح الدين، فوجده غارقاً في سباته، فترك قرب وسادته خنجراً مسلولاً مغموساً بالدم مع البطاقة التالية: «إعلم أيها السلطان المغتصب العاتي... إنك وان اقفلت الأبواب، ووضعت الحراس، لا تستطيع ان تنجو من القصاص ومن انتقام الاسماعيلية. أراك قد بلغت القحة واستبديت وقتلت، وظلمت وسلبت، دون ان تحسب حساباً لشيخ الجبل الاسماعيلي الذي يقف لك بالمرصاد، ولو أردنا قتلك الليلة لفعلنا ولكن عفونا عنك لعلك تقدر هذا، واننا ننذرك لتصلح

---

(١٤) خطط الشام، ج٢، ص٨.

(١٥) من الروايات التي نسجت حول الاسماعيليين والتي نشك في صحتها، ان شيخ الجبل أرسل في سنة ٥٦٨هـ ١١٧٢م، وفداً إلى ملك القدس للمفاوضة بشأن اعتناق اتباعه للنصرانية، ويقول الدكتور فيليب حتي تعليقاً على ذلك: «وهو تدبير منسجم مع مبدأ التقية الذي يأخذ به غلاة الشيعة، على ان الفرسان الهيكليين، حرصاً منهم على الجزية التي كان الحشاشون يؤدونها، عمدوا إلى قتل أعضاء هذا الوفد» انظر: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص٢٤٧.

من سيرك وتعيد الحق المغتصب إلى ذويه، ولا تحاول ان تعرف من أنا فذلك صعب عليك وبعيد عنك بعد السماء عن الأرض، إذ قد أكون أخاك أو خادمك أو حارسك أو زوجك وأنت لا تدري، والسلام»[١٦].

وقد أغفلنا رواية هذه القصة في مكانها بحسب التسلسل لشكنا في صحتها. والذي نعتقده ان المصادر الاسماعيلية قد غالت في تصوير راشد الدين سنان ونسبت إليه الخوارق والمعجزات، وقد نقل المؤرخون الغربيون عنها هذه الروايات لطرافتها وغرابتها، ثم عاد بعض الكتاب العرب فاتخذوا من رواية أولئك المؤرخين لها دليلاً على صدقها وصحتها.

والواقع ان مؤيدي شيخ الجبل وخصومه على طرفي نقيض، فالأولون ينسبون إليه الكرامات والمعجزات، فهو في رأيهم يعلم الغيب، ويتنبأ عن المستقبل، ويعرف خفايا القلوب ومكنونات الصدور، يحدّث الأموات فيجيبونه، ويأمر الحجارة فتستجيب لأمره، ولم يقع حادث غريب أو مخيف إلا نسبوه إليه وإن كان من العوارض الطبيعية كالمطر والرعد والبرق. أما الآخرون فينكرون عليه كل شيء إلا الذكاء الحاد، والحيلة البارعة، والتدبير المحكم، والتلاعب بالساذجين والبسطاء من الناس!.

ومن هذا القبيل الملابسات التي رافقت حملة صلاح الدين الأيوبي على معاقل الاسماعيليين سنة ٥٧١هـ ١١٧٦م، وحصاره لقلعة مصياف في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢هـ اول آب (اغسطس) ١١٧٦م، فابن واصل يروي ان صلاح الدين قد نصب المجانيق على الحصن «وأوسعهم قتلاً وأسراً وساق أبقارهم وخرّب ديارهم» حتى شفع فيهم صاحب حماة، وهو شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين، وقد فسر ابن واصل هذه الشفاعة في ضوء الجيرة بين شهاب الدين والباطنية[١٧]. أما شاهنشاه تاج الدين أيوب فيقول: «ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصياف فأرسل سنان مقدم الاسماعيلية إلى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي، صاحب حماة، يسأله في الصلح، فسأل الحارمي الصفح عنهم»[١٨]، وكذلك ما ذكره ابن ابي طي، وكان والده من رؤوس الشيعة ومع ذلك فانه لم يذهب إلى ما ذهب إليه

---

(١٦) أعلام الاسماعيلية، ص٣٠٠.
(١٧) مفرج الكروب، ج١، ص٤٧.
(١٨) ذيل النوادر ص٢٧٣

متطرفو الشيعة بصدد حملة صلاح الدين على مصياف، وإنما قال ان السبب في تخليه عن حصار مصياف ومصالحة أهلها هو خوفه من أن يستغل الصليبيون غيبته واشتغاله بحصارها فيغيرون على الشام الأعلى، وقد وصلت الأخبار أثناء حصاره مصياف بوقوع ذلك فعلاً(١٩).

وأما الروايات الأخرى عن هذه الحملة، فهي مقتبسة في معظمها عن كتاب «مناقب المولى سنان راشد الدين» للشيخ أبي فراس ابن القاضي نصر بن جوش الذي نشره للمرة الأولى المستشرق «غيارد»، أو متأثرة بها، وخلاصتها ان صلاح الدين لما جاء إلى مصياف بجيشه فحاصرها، أرسل إلى شيخ الجبل رسولاً، وكان يومئذ في قرية العنيبة من أعمال قدموس، فشاهده جالساً خارج القرية ومعه رجلان، فتوجه نحوه وهو يستهزئ به، ولكنه ما كاد يقترب منه حتى «لاحظ أنواراً باهرة، وجلالة ظاهرة، ومهابة زاهرة، وقوة بقدرة الله قاهرة، مما أدهشه وأطار لبه، وأرعب قلبه، فارتعدت فرائضه، وعظم الأمر عليه، فلم يستطع الدنو منه، فبعث إليه المولى راشد الدين منه السلام الحاجب دبوس، فأحضره بين يديه. ولما زالت دهشته، وتبدلت بالأنس وحشته، اعترف بذنبه وبما دار في خلده، وطلب من مولانا أن يكون من الجماعة، فيؤدي له الطاعة، وينتظم في سلك الدعوة، حتى لا يكون له إلى عسكر صلاح الدين بعد ذلك رجعة. فقال له المولى راشد الدين: «بل يجب ان تعود إلى عند الملك وتبلغه جواب رسالته التي أتيت بها إلينا، وقل له إن اختار أن يأتي إلى عندنا فليأت، فما عندي غير هذين الرجلين اللذين تراهما، وان لم يجيء فأنا غداة غد أنزل إليه» فعاد الرسول إلى صلاح الدين وأخبره بذلك، فقال: «انني لا اغتر بذلك، ولن أسمح لجيشي بدخول هذه الجبال الشامخة!».

ونزل سنان بعد يومين من القرية، وتوجه إلى الجبل الذي يشرف على مصياف فقعد على القمة. فلما علم صلاح الدين بذلك، أمر بأن تضرب حول الجبل حلقة من الفرسان الأشداء، ثم أرسل نحواً من ستين فارساً للقبض عليه، فلما شاهد الرجلان المرافقان لسنان هذه الشرذمة من الفرسان، قالا له: «ألا نركب خيلنا يا مولانا وننجو بأنفسنا؟»، فقال: «لن يصلوا إلينا، ولا يقدرون علينا» فلما وصل أولئك الفرسان سكنت حركاتهم وبطلت آلاتهم، فقال لهم: «تقدموا وخذونا كما أمركم الذي أرسلكم إلينا» فقالوا: «ان الله قد

---

(١٩) كتاب الروضتين، ج ١، ص ١٧٤.

نجاكم، ومنا قد حماكم، وأيّدكم بحراسته وعظمته» فقال لهم: «ارجعوا إلى صاحبكم واعلموه بما جرى لكم!».

وأرسل صلاح الدين كتاباً جديداً إلى شيخ الجبل، فلما دنا من مقره توقف جواده «ورفض ان يتقدم فانهال عليه بالمقرعة والمهاميز، ولكن الجواد كان يتقهقر إلى الوراء ولا يتقدم» فاضطر الرسول حينئذ إلى النزول عن جواده، فقال سنان لأحد أصحابه: «أدفع إليه كتابي هذا، وإذا أعطاك كتابه فلا تأخذه منه، وقل له: أرجع الكتاب إلى الملك فقد كتبت له الجواب» ففعل الرجل ذلك، واخبر صلاح الدين بما رآه وان سنان راشد الدين لم يفض كتابه ولا قرأه، ثم دفع إليه كتاب سنان «فوجده جواباً لما حواه كتابه فصلاً فصلاً من أوله إلى آخره[٢٠]، فعظم شأن المولى راشد الدين منه السلام عند الملك، وعلم بأن الله قد منحه سراً لأنه من عباده المخلصين وأوليائه المكرمين».

يقول الشيخ أبو فراس: «وخاف (صلاح الدين) على نفسه منه، وهابه مهابة عظيمة، فأمر بطرح الجير والرماد حول دهليزه، ورتب لحراسته في الليل ألف فارس. ولما أغدق جنح الليل، وغلب النوم على النيام، نزل المولى منه السلام من الجبل، وبين يديه فانوس يضيء ورجاله من القلعة يشاهدون ضوء الفانوس إلى أن وصل إلى الجيش فغاب عنهم الضوء. وكان مولانا قد دخل إلى خيمة صلاح الدين وهو نائم، فحوّل النور الذي عند رأسه إلى عند قدميه، والنور الذي عند قدميه إلى عند رأسه، ثم وضع بالقرب منه جرادق من خبز الاسماعيلية كانت معروفة في ذلك الزمان، وشكّ في الجرادق سكيناً من سكاكين الفدائية مغموسة بالدم إلى نصفها، ووضع فوق الخبز ورقة فيها بيتان من الشعر بخط المولى راشد الدين في المعنى:

أما وجلال الملك ما تملكونها مراغمة منا، وذا النصر قائم

نخبّركم انا قدرنا عليكم نؤخّركم حتى تتمّ العزائم!»

ثم خرج من عند الملك وعاد إلى الجبل. وأما الملك فانه استيقظ فلمح شبحاً يغادر خيمته، ووجد الأنوار قد تغيّرت، وشاهد السكين والرسالة مع الجرادق إلى جانب فراشه.

---

(٢٠) لم ننشر نصوص الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين وسنان والتي تفردت المصادر الاسماعيلية بروايتها، لان ما ورد فيها من الغلو يبعث على الشك في صحتها.

فصاح صيحة أزعج بها كل من كان عنده، فأقبل عليه الأمراء والأكابر من أهل مملكته وأماثل دولته كتقي الدين صاحب حماة[21] وغيره من الأمراء والوزراء، فأخبرهم بما جرى له، وعرض عليهم السكين المسموم والجرادق، ومن ثم قرأوا الورقة فدهشوا لتلك الجرأة النادرة والخطب الجسيم، فقالوا: يا للغرابة من هذا الحلم الجميل والفضل الجزيل، والبراعة التامة، والبرهان الباهر، والمعجزة الظاهرة، والعفو الكبير عند المقدرة! ثم إن الملك سأل خدمه ومماليكه بقوله: هل سمع أحدكم حساً أو شاهد أنساً؟ فقالوا: لا، ولكننا عندما سمعنا صراخ الملك يدعونا لمشاهدة الشبح الذي خرج من خيمته، توجهنا إلى باب الدهليز والشموع في أيدينا، فرأينا على الجيز والرماد آثار أقدام إنسان خارج فقط، ولم نره داخلاً، وكانت اليزبك محيطة بالدهليز والرجال على ظهور الخيل فسألناهم فقالوا: لم نر أحداً! فازداد تعجب الملك من ذلك وعظم الأمر عليه، وخاف خوفاً شديداً، فقال له تقي الدين صاحب حماة: ان الذي استطاع ان يدخل على الملك ويصل إليه ويفعل ما قد فعل، لو أراد ان يقتل الملك لقتله. فقال السلطان: ليس الخبر كالعيان: ومن الواجب أن تجدوا لنا من هذا الرجل أماناً، ونسأله أن لا يؤاخذنا على ما سلف من خطايانا. ثم أمر بأن يكتب إلى المولى راشد الدين منه السلام في هذا المعنى كتاباً يرسله إليه».

ويضيف أبو فراس ان شيخ الجبل قد اشترط قبل إعطاء الأمان، أن يغادر صلاح الدين مصياف ويرفع الحصار عنها، ففعل ذلك، «وترك لمولانا عليه السلام جميع الزردخانة على حالها في مكانها، وجميع الآلات على اختلاف أصنافها، ثم نزل على جسر ابن منقذ، وسيّر إلى المولى راشد الدين علينا سلامه من هناك رسولاً يطلب منه الأمان فأعطاه أمانه، وقسم الآلات التي تركها صلاح الدين على القلاع، من الطوارق والجنويات والعشي والجلوخ والزرديات وغير ذلك، فجعل لكل قلعة من قلاع الدعوة سهماً يخصها ويحمل إليها، وصار له الملك صلاح الدين موالياً بعد ما كان معادياً[22].

---

(٢١) يلاحظ ان ابا فراس يطلق على صاحب حماة اسم تقي الدين، والواقع انه شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين الذي سعى في الصلح بين الفريقين، وتزعم بعض الروايات انه إنما فعل ذلك بعد انذار سنان له وتهديده إياه بقتل أفراد أسرته جميعاً (الكامل، ج ١١، ص ٢٨٩) أما تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقد تولى حماة بعد ذلك في سنة ٥٧٤هـ ١١٧٩م.

(٢٢) مناقب المولى سنان راشد الدين تحقيق مصطفى غالب.



هذا ما يقوله الشيخ ابو فراس، تعليلاً للأسباب التي حملت صلاح الدين على مصالحة سنان راشد الدين، ولعل ما في روايته من مبالغة وتهويل ظاهرين هو الذي يحملنا على الاعتقاد بأن الأسباب الحقيقية التي جعلت صلاح الدين يرحب بتلك المصالحة هي اقتناعه بأن حصاره لمصياف سيطول أكثر مما قدّر له لمناعتها وصلابة حماتها بينما سئم جنوده الحرب ورغبوا في العودة إلى أوطانهم(٢٣)، وقد انتهز الصليبيون انشغاله في هذا الحصار فأغاروا على بعض أنحاء الشام، وجاء محمد بن المقدم من بعلبك إلى مصياف وهو يسوق معه مائتي أسير من الفرنجة ظفر بهم أثناء غارة قاموا بها على بعلبك، وشخص تورانشاه إلى حماة ليلاقيه فيها بعد أن اشتبك مع بقايا تلك الحملة المخففة على بعلبك فور وصوله من مصر إلى دمشق.

ومهما كانت دوافع شهاب الدين الحارمي في سعيه للصلح وإقرار السلام، وهو الذي يجاور الاسماعيليين وتشده إلى بعض زعمائهم أواصر الصداقة والود، فان سياسة صلاح الدين لم تكن تتعارض وذلك المسعى النبيل، لأنها لا ترمي إلى محاربة المسلمين وهدر دمائهم وتفتيت قواهم، مهما اختلفت فرقهم وتباينت مذاهبهم، وإنما تهدف إلى الاتفاق معهم وتأليف قلوبهم وتوحيد جهودهم، واتخاذهم أعواناً وأصدقاء في مقاومة الغزو الأجنبي وصد عدوان المعتدين.

والحق انه كان لهذا الصلح أثره البعيد في سير الحروب الصليبية، إذ انعقدت وشائج الصداقة بين السلطان وشيخ الجبل، وانقلب الاسماعيليون إلى مؤيدين لصلاح الدين، فناصروه في حروبه المقبلة، وأيدوه في مواقفه المختلفة، كما انه «عامل بلادهم في صلح الرملة معاملته لبلاده، فاشترط دخول بلاد الاسماعيلية في الهدنة كي لا تتعرض لضغط الصليبيين»(٢٤)، ولزم الاسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان، إما إيماناً برسالته أو خشية سطوته، وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين إذا اختفى صلاح الدين من الميدان(٢٥).

وقد توفي سنان شيخ الجبل سنة ٥٨٨هـ-١١٩٢م، وهي السنة التي توفي فيها صلاح

---

(٢٣) الكامل، ج ١١، ص٢٧٨.

(٢٤) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٨٤.

(٢٥) تراجم اسلامية لعبدالله عنان، ص٦٠.

الدين، وهذا ما جعل الروايات الاسماعيلية تزعم ان سنان لم يشأ قتل صلاح الدين، لانه كان يعلم من حركات النجوم والكواكب أنه سيموت في نفس السنة التي يموت فيها صلاح الدين !.

أما صلاح الدين فكان قد هادن الفرنجة، وحالف الملك الصالح، فما كاد يصالح سنان شيخ الجبل، حتى وجه جنوده إلى منازلهم ليستريحوا من متاعبهم ويتمتعوا بمغانمهم، ويستعيدوا قواهم استعداداً للمعارك المقبلة، ثم عاد إلى دمشق فأناب أخاه تورانشاه عنه في إدارة بلاد الشام، وذهب لتفقد أحوال مملكته في مصر، ورؤية أهله ونسائه وأولاده.

وقد تزوج صلاح الدين قبل مغادرته دمشق من الخاتون عصمة الدين أم اسماعيل وأرملة نور الدين، وكانت قد بقيت فيها بعد وفاة زوجها ويبدو ان القصد من هذا الزواج كان سياسياً بالنسبة له، واجتماعياً بالنسبة لها «حفظاً لحرمتها وصيانتها[٢٦]»، إلا ان أحد الشعراء الفرنسيين قد نسج حوله أسطورة خيالية طريفة، فزعم ان عصمة الدين إنما كانت تحب صلاح الدين منذ كان في دمشق، وقد سحرها جماله وشبابه، فدست السم لزوجها نور الدين، كي تمهد له سبيل العودة إلى الشام[٢٧].

---

(٢٦) كتاب الروضتين، ج ١، ص٢٦٣.

(٢٧) G. Paris, La Légende de Saladin. Journal des Savants, Mai 1893.

الفصل الرابع عشر

السّلطان المجاهد

اطمأن صلاح الدين إلى مهادنته للفرنجة ومحالفته للملك الصالح، وإلى استتباب الأمن في ملكه بالشام، فعكف في مصر على إنشاء الكليات والمستشفيات والجسور والحدائق العامة، وتقوية وسائل الدفاع عن الإسكندرية ودمياط، وزيادة قطع الأسطول وشحنها بالرجال وإصلاح ما هو في حاجة منها إلى الإصلاح، والإشراف على بناء السور حول مدينة القاهرة، وتشييد قلعة حصينة على قمة المقطم، وقد نقش على جدران هذه القلعة صورة نسر أحمر على رقعة صفراء وهي صورة علمه الشخصي، مستفيداً في ذلك من تجاربه الحربية الجديدة وعمليات الحصار التي قام بها في سورية لأهم قلاعها ومدنها، احتياطاً من غزوة خارجية أو اتقاء لثورة داخلية.

يقول العماد الأصفهاني: «وكان السلطان لما تملّك مصر، رأى ان مصر (الفسطاط) والقاهرة لكل منهما سور لا يمنعها، فقال إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقس، وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم» ثم يقول: «ووجدت في عهد السلطان بيتاً رفعه النواب، وتكمّل فيه الحساب، ومبلغه وهو دائر البلدين مصر

والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون الفاً وثلاثمائة وذراعان»(١).

وقد كانت لتلك المشاريع المعمارية أهميتها الحربية الكبرى في ذلك العصر، أما القلعة فكانت «تشرف على القاهرة ومصر إشرافاً تاماً، وهي محصنة من الجهتين سواء، وتستطيع حاميتها أن تقوم بعملين مزدوجين، وهما ضبط الأهالي وقطع من يخرج منهم عن طاعة السلطان فضلاً عن مقاومة ما عساه يقع من محاولات خارجية للاستيلاء على القاهرة»(٢).

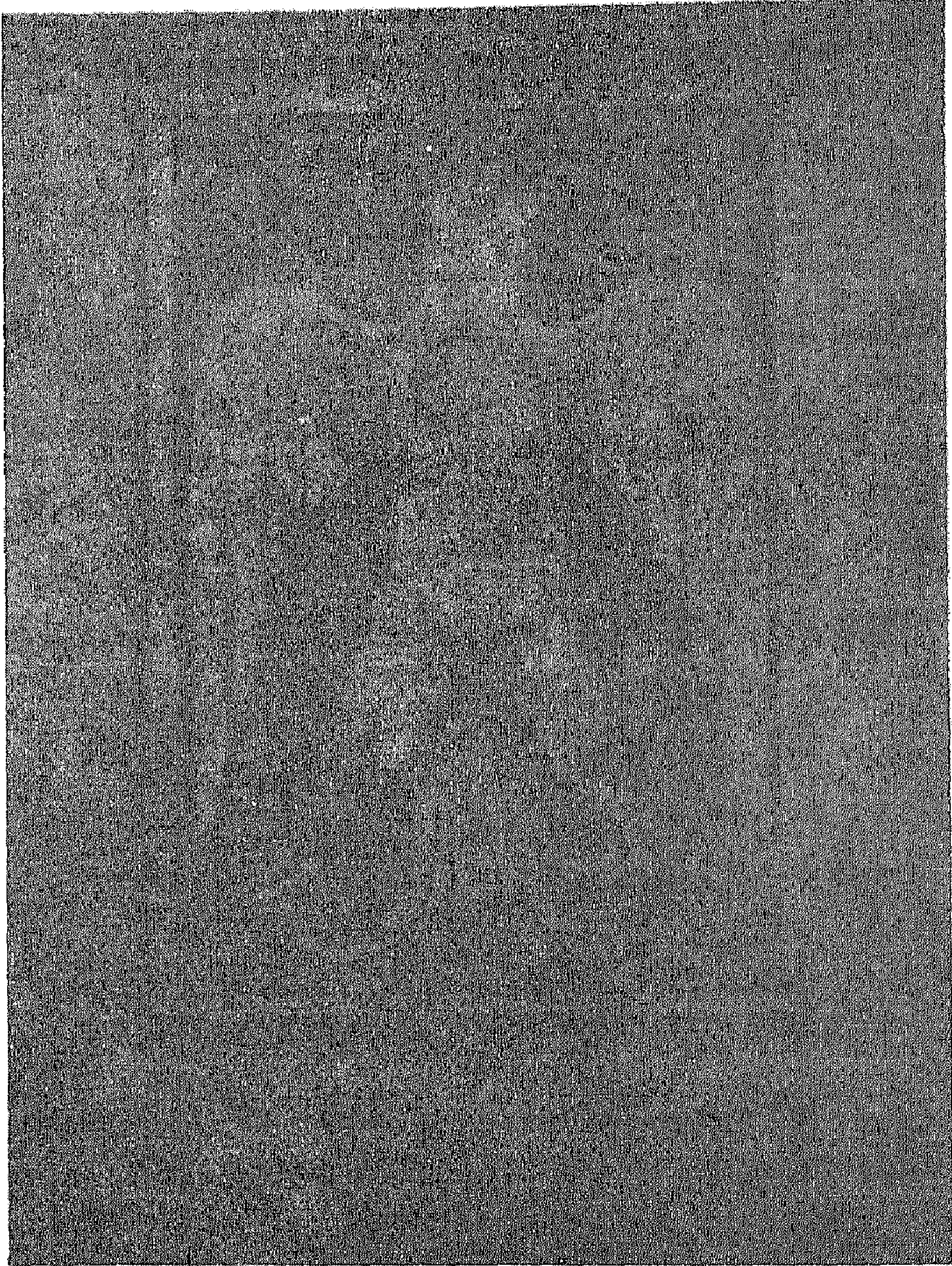
وقد زار الرحالة ابن جبير مصر في أواخر سنة ٥٧٨هـ (أوائل سنة ١١٨٢م) فروى الكثير من مآثر صلاح الدين ومقاصده في العدل والخير، ومما قاله في ذلك: «ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتبعد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراءً يقوم به في جميع أحواله. واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء»(٣).

---

(١) كتاب الروضتين ج ١، ص٢٦٨؛ والعماد الأصفهاني، أو العماد الكاتب (٥١٩ ـ ٥٩٧هـ ـ ١١٢٥ ـ ١٢٠٠م) مؤرخ أديب فارسي النشأة، ولاه الوزير ابن هبيرة النظر بالبصرة ثم واسط في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله، ولما توفي ابن هبيرة اعتقل بعض أصحابه ومنهم العماد، وما كاد يطلق سراحه بعد سنتين حتى انتقل لفوره إلى دمشق والتحق بخدمة نور الدين، ثم اتصل بصلاح الدين لسابق معرفته به وقديم وده له، فجعله نائباً عن القاضي الفاضل في الكتابة الديوانية، ولازم السلطان في سلمه وحربه، وكان من خواصه ومستشاريه، وله مؤلفات أدبية اشتهر منها كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر»، ومؤلفات تاريخية فقد معظمها وقد نقل عنها أبو شامة الكثير من وصف الوقائع والأحداث، كما ان له كتاباً بعنوان «الفتح القسي في الفتح القدسي» حوى تاريخ سبعة أعوام من حياة صلاح الدين ابتداء من تحريره لمدينة القدس، وكان السلطان معجباً بأسلوبه في الإنشاء حتى انه لما فتح القدس لم يعهد إلى أحد بكتابة رسائل البشارة، وفضل ان ينتظر قدوم العماد الذي كان متغيباً عنه في مرض (انظر: العماد الأصفهاني لمظفر سلطان، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، أدب الحروب الصليبية لحمزة).

(٢) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٩٢.

(٣) رحلة ابن جبير ص١٥.



نسر احمر على رقعة صفراء نقش على حائط قلعة صلاح الدين وهي صورة علمه الشخصي

ثم يقول: «وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمدّ سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة»(٤)، ويقول: «ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تاجراً واحتساباً، وعين قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى. وبين يديّ ذلك القيّم خَدمَة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى. ولهنّ أيضاً من يكفلهن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد كلّ يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد. وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينيه»(٥).

وبعد ان يعدد كثيراً من هذه المرافق يقول: «ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة، انه أمر بعمارة محاضر (مدارس) ألزمها معلمين لكتاب الله عزّ وجل، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتُجرى عليهم الجراية الكافية لهم»(٦).

إلا أن ما يستوقف ابن جبير أكثر من أي شيء آخر ما أعرب عنه بقوله: «ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا، ازالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين.

فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عَنتاً مجحفاً ويُسامون فيها خطة خسف باهظة. وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيُلزَم أداء الضريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس، ويعجز عن ذلك، فيُتناول بأليم العذاب بعيذاب،

---

(٤) المرجع السابق ص٢٥.

(٥) المرجع السابق ص٢٦.

(٦) المرجع السابق ص٢٧.

فكانت كاسمها مفتوحة العين. وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الأنثيين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة، نعوذ بالله من سوء قدَره. وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيذاب ووصل اسمه غير معلّم عليه علامة الإداء. فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضاً عنه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وعين مجبى موضع معين بأسره لذلك، وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز، لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة، عمّرهما الله فعوّض من ذلك أجمل عوض، وسهل السبيل للحجاج، وكانت في حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع، وكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً، فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أن حجّ البيت الحرام إحدى القواعد الخمس في الإسلام، حتى يعمّ جميع الآفاق، ويوجب الدعاء له في كل صقع من الأصقاع وبقعة من البقاع، والله من وراء مجازاة المحسنين، وهو، جلّت قدرته، لا يضيع أجر من أحسن عملاً. إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ضرائب على كل ما يُباع ويُشترى مما دق أو جلّ، حتى كاد يؤدى على شرب ماء النيل المكس فضلاً عما سواه. فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن.

ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل، أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم. على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية حسبما تقدم ذكره»(٧).

وفيما هو منصرف إلى أعماله العمرانية وتصريف شؤون مملكته، بلغته أنباء مثيرة من الشام، مفادها ان الفرنجة نقضوا الميثاق الذي عقده معهم، فحاولوا الاستيلاء على بعلبك في غير طائل، ثم غزوا أطراف دمشق فانتصروا على جنوده، وأسروا قائده ابن السلار، وهزموا أخاه تورانشاه شر هزيمة. فساوره الغضب الشديد، وسارع بجيشه إلى غزو غزة وعسقلان في جنوبي فلسطين «وغرضه من تلك الغزوة غير واضح بالمصادر المعاصرة، وان كان الظاهر منها فتح الطريق الساحلي بين مصر وفلسطين لتأمين مدخل مصر الشمالي الشرقي من خطر الصليبيين كما فعل بالطريق المار بوسط شبه جزيرة سيناء، فضلاً عن اجتذاب جزء من قوات الصليبيين نحو تلك الجبهة، لتخفيف الضغط عن

(٧) المرجع السابق ص٣٠ ـ ٣١.

الحاميات الإسلامية المرابطة بحماة وحارم»[8]، وهما المدينتان اللتان اتجهت إليهما الحملات الصليبية الجديدة.

لقد أراد القيام بحملة عسكرية خاطفة، قبل عودة الجيوش الصليبية من الشمال، فهاجم الداروم وغزة ثم ركز حملته على عسقلان لضعف حاميتها، فأسرع بلدوين الرابع لنجدتها، إلا ان صلاح الدين ما لبث ان حاصره فيها، فخلت بذلك المدن والقلاع الصليبية من جيوش تحميها، ولما رأى المسلمون ذلك «انبسطوا واسترسلوا، وتوسط السلطان البلاد»[9]، ووصلت جنوده إلى اللد والرملة، وتسلل بعضهم إلى الجهات الواقعة بين ارسوف ونابلس[10]، وتفرقوا جميعاً منشغلين بالغنائم، فأتاحوا الفرصة لبلدوين الرابع كي ينجو من الحصار ويحشد القوات الصليبية القريبة منه، ويباغت صلاح الدين بمساعدة رينو دو شاتيون (أرناط) وهو في قلة من الجند عند تل الصافية على مقربة من الرملة[11].

وقد ركز الفرنجة حملتهم على صلاح الدين، ووصف ذلك بنفسه فقال: «رأيت فارساً يحث نحوي حصانه، وقد صوب إليّ سنانه، فكاد يبلغني، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شأنه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كل واحد إلى واحد منهم، فبادروا وطعنوه وقد تمكن من قربي فما مكنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسويد بن غشم المصري»[12].

إلا ان فرسان الفرنجة أحاطوا بصلاح الدين، يريدون القضاء عليه، فاضطر إلى الإفلات من بينهم والانطلاق في الفلاة على غير هدى، يتبعه أولئك الشجعان الثلاثة، «إلى أن دخل الليل، وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل ولا زاد أو علف. وأوقع اختفاء صلاح الدين الرعب في الصفوف، فخرج القاضي الفاضل في بعض أدلائه يتلمس مكان صلاح الدين، وبثهم في الرمال حتى اهتدوا إليه وأسعفوه بما كان معهم من الزاد والعلف. ثم جدَّ الجميع

---

(8) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٩٠

(9) مفرج الكروب ج٢ ص٥٩.

(10) الحركة الصليبية، ج٢، ٧٥٨.

(11) A. Champdor: Saladin, Le plus pur Héros de l'Islam. p. 98

(12) كتاب الروضتين، ج ١، ص٢٧٣، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ص٦٤.

في السير إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة وقلَّ عليهم القوت والماء، وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير. وأما العسكر الذي تفرق في طلب الغنيمة داخل حصون الصليبيين في فلسطين فان أكثرهم ذهب بين قتيل وأسير»(١٣).

وكان من أسرى المسلمين في تلك المعركة الفقيد عيسى الهكاري الصديق القديم لصلاح الدين وقد افتداه فيما بعد بستين ألف دينار. ويقول شامبدور: «وقد كانت غلطة صلاح الدين انه استهان بحامية عسقلان ملك القدس الصغيرة المحاصرة في عسقلان، فبدلاً من ان يتغلب عليها دون أيّ قتال، بحصار لا يتجاوز بضعة أيام، لأنها لا تملك قدراً كافياً من المؤن، فضل ان يرسل جيوشه عبر الحقول المجاورة لإحراق الرملة ومحاصرة اللد والانطلاق على طول الساحل حتى أرسوف»(١٤). أما أبو الفرج ابن العبري فقد عزا في تاريخه السرياني هزيمة المسلمين إلى ريح عاصفة هبت في وجوههم وأثارت الرمل في عيونهم(١٥)، بالإضافة إلى تفرق الجند وتشتت المقاتلين.

وقد تركت هذه الموقعة أثراً عميقاً في نفس صلاح الدين، فأقسم أن لا تضرب له نوبة حتى يكسر الصليبيين، وكتب إلى أخيه تورانشاه كتاباً، استهله بهذا البيت من الشعر:

ذكرتك والخطيّ تخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر(١٦)

ثم أنبأه بما حدث له وقال: «لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله إلا لأمر يريده سبحانه، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر»(١٧).

كان ذلك في سنة ٥٧٣هـ ١١٧٧م، فلم يُقبل شهر رمضان من تلك السنة نفسها، حتى سار السلطان صلاح الدين إلى دمشق على رأس جيش كبير، بعد أن أناب عنه أخاه الملك العادل. وكان الفرنجة قد اغتنموا فرصة قيام الخلاف بين الملك الصالح وكمشتكين وحاصروا حارم التي كانت إقطاعاً لهذا الوزير، ولم يتخلوا عنها إلا بعد أن اعطاهم الملك

---

(١٣) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١١١ ـ ١١٢.

(١٤) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 97

(١٥) تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس، ج٦، ص٧٩.

(١٦) الخطي والمثقفة السمر: الرماح.

(١٧) الكامل، ج١٢، ص٢٩٧.

مبلغاً كبيراً من المال. ثم نشب خلاف آخر بين السلطان وابن المقدم الذي امتنع عليه في بعلبك، وانتهز الفرنجة هذه الفرصة أيضاً وشرعوا في بناء قلعة بالقرب من طبرية عند بيت النبي يعقوب في مكان كان حرماً بين الفرنجة والعرب يُسمى «بيت الأحزان» لزعمهم «ان يعقوب اعتاد الانفراد فيه للبكاء على يوسف»(١٨).

وما كاد بناء هذه القلعة يتم حتى ملأها الفرنجة بالمؤونة والذخيرة، وحصنوها تحصيناً قوياً لجعلها قاعدة لغزواتهم، ثم سار بلدوين الرابع شطر دمشق ليقاتلها، فأرسل صلاح الدين لملاقاته الأمير فرخشاه ابن أخيه وشخص إلى ناحية طبرية لتخريب قلعة يعقوب وقد أدرك أهميتها الستراتيجية وخطرها على مواصلات المسلمين(١٩)، فانتصر فرخشاه على بلدوين الرابع وكاد يأسره لولا شجاعة البطل همفري (الهنفري) الذي أسرع لإنقاذه والدم ينزف من جراحه، وقد أدى ذلك إلى وفاة همفري بعد عدة أيام في حصن هونين(٢٠). وبقي صلاح الدين يحاصر القلعة وقتاً طويلاً، ويرسل السرايا خلال ذلك إلى بيروت وصيدا وغيرهما لتغزوها وتعود إليه.

وعلى أثر الهزيمة التي مني بها بلدوين الرابع، والغزوات التي ما يفتأ صلاح الدين يوجهها إلى بلاده، اشتدت حماسة الفرنجة، واتحد نبلاؤهم وتألبت جموعهم، وساروا في جيش عظيم من صفد إلى أعالي وادي الأردن، وانحدروا إلى مدينة مرجعيون، وأنزلوا بالمسلمين خسائر فادحة في النفوس والأرزاق. ولكن صلاح الدين ما لبث ان وافاهم إلى هناك، وخاض معهم معركة عنيفة تكللت بانتصاره في الثاني من المحرم سنة ٥٧٥هـ ١٠ حزيران (يونيو) ١١٧٩م، وأسره عدداً كبيراً منهم، بينهم ريمون أمير طرابلس، وهوج أمير طبرية، وبلدوين أمير الرملة، وقد افتدى هذا نفسه على ما قيل بمائتين وخمسين ألف قطعة من الذهب وألف من أسرى المسلمين(٢١).

وسرت حُميّا النصر في صلاح الدين، فعاد إلى حصار قلعة يعقوب، فما هي إلا أيام

---

(١٨) مرآة الزمان ص ٢٢٥.

(١٩) كان صلاح الدين قد عرض على الفرنجة مائة ألف دينار مقابل هدم هذه القلعة فرفضوا ذلك (انظر خطط الشام، ج٢، ص٤٤).

(٢٠) Guillaume de Tyr, p. 1052

(٢١) مفرج الكروب، ج٢، ص٧٤.

قليلة حتى استولى عليها «بعد قتال وحصار، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها، وأسر نحو السبعمائة، وخرب الحصن حتى سوّى به الأرض(٢٢)».

وقد اضطرب بذلك موقف الفرنجة، ثم اشتد هذا الموقف اضطراباً وحرجاً حين انتقل السلطان إلى مهاجمة عكا «قسطنطينية الفرنج(٢٣)» بما أعد لهذا الهجوم من أساطيل، بينما كانت سراياه تغزو أنحاء صفد وطبرية، حتى لم يجد ملك القدس بداً من مصالحته، فعقد معه (٥٧٦هـ ـ ١١٨٠م)، هدنة لمدة سنتين شملت جميع المدن التي كانت بيد الفرنجة ما عدا طرابلس التي ظلت تقاتل المسلمين ردحاً من الوقت ثم صالحتهم، وانطاكية التي حالت خلافاتها الداخلية دون قيامها بعمل عدائي ذي شأن ضد المدن المجاورة لها.

وجرى أمراء الجزيرة وما وراءها على غرار ملك القدس، فعقدوا مع صلاح الدين ـ في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٦هـ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٠م، بعد فتن ومعارك عديدة ـ معاهدة لمدة سنتين، توسط بشأنها عز الدين قلج ارسلان، ووقعها أمراء الموصل واربل وكيوه وماردين وقونية وملك أرمينية أيضاً، وتعهدوا فيها بأن لا يشهروا خلال تلك المدة على السلطان سيفاً، فاطمأن صلاح الدين على بلاد الشام، ولا سيما بعد ان وصلت رسل الخليفة الناصر لدين الله الذي خلف أباه المستضيء بأمر الله، بالتفويض والتشريف والتقليد والموافقة على طلب صلاح الدين بامتلاك الرها والرقة والخابور ونصيبين، وعاد إلى مصر بعد أن أناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه، للنظر في أحوال الاسكندرية واليمن بعد وفاة أخيه تورانشاه الذي كان أميراً عليهما، ومواصلة أعماله العمرانية وانشاءاته العسكرية هناك، وتعزيز أسباب الأمن الداخلي والدفاع الخارجي.

ويجمع المؤرخون الغربيون على ان صلاح الدين كان أميناً للعهد الذي قطعه على نفسه في الهدنة التي عقدها مع ملك القدس، كما كان طوال حياته أميناً لعهوده ومعاهداته، ولكن رينو دو شاتيون (أرناط) صاحب الكرك، قد خالف شروط تلك الهدنة، ولم يكتف بتحصيل رسوم المرور من قوافل الحجاج التي تمر بالقرب من بلاده، بل أخذ يفكر في

---

(٢٢) انظر تفاصيل حصار قلعة يعقوب واستيلاء صلاح الدين عليها في الكامل، ج ١١، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢، كتاب الروضتين، ج ٢، ص ١١ ـ ١٣؛ السلوك. ج ١، ص ٦٧ ـ ٦٩.

(٢٣) كتاب الروضتين، ج ٢، ص ١٤.

الزحف على المدينة المنورة لاحتلالها، وخرج في صيف ٥٧٧هـ ١١٨١م إلى الصحراء العربية وتوغل فيها حتى وصل تيماء الواقعة بين الشام ووادي القرى، على طريق الحجاج المسلمين، فسلب قافلة غنية، وقطع طريق الحج نهائياً[٢٤]. فكان جواب صلاح الدين على ذلك انه استولى في ثغر دمياط على مركب كان يقل بعض السياح الأوروبيين، بينما أغار عز الدين فرخشاه على إمارة الكرك وخرب قراها واكتسح نواحيها، فقلق رينو دو شاتيون عليها وتخلى عن مشروعه العدواني وعاد مسرعاً إلى الكرك كما عاد فرخشاه إلى دمشق[٢٥].

وفي خريف تلك السنة نفسها، استقبل صلاح الدين في القاهرة رسولاً من قبل العاهل البيزنطي الكسيوس كومنينوس الثاني، وعقد معه صلحاً وطد أواصر الصداقة والسلام بين الدولتين «وكفل صلاح الدين بتلك المعاهدة عدم مساهمة الاسطول البيزنطي في أية حركة هجومية على مصر، ومن ذلك التاريخ صارت علاقة مصر بالدولة البيزنطية ودية للغاية واستمرت بيزنطية في الاحتفاظ بالعلاقة الحسنة مع صلاح الدين نكاية بالصليبيين»[٢٦].

على ان صلاح الدين ما لبث أن ندم على تغيبه عن بلاد الشام، إذ ما كاد يغادرها حتى توفي سيف الدين غازي أمير الموصل، وترك ملكه لأخيه عز الدين ارسلان بن مسعود، ثم مات الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين في ٢٥ رجب سنة ٥٧٧ هـ ٤ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨١م، موصياً بملكه لابن عمه عز الدين كي تتألف من حلب والموصل جبهة واحدة.

وكان صلاح الدين يعدّ نفسه الوارث الشرعي للملك الصالح، فرأى ان تغيبه عن سورية في تلك الفترة قد ضيع عليه فرصة مؤاتية للاستيلاء على حلب، وأوجد مزاحماً قوياً له هو عز الدين ارسلان بن مسعود ثم عزاه بعض الشيء ان هذا المزاحم الجديد، ما كاد يستقر في حلب حتى كتب له أخوه عماد الدين أمير سنجار، في أن يستبدل حلب

---

(٢٤) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص١٢٦.

(٢٥) الكامل، ج ١١، ص٢١٠.

(٢٦) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص١٢٧ نقلاً عن Stevenson: The Crusades in the East p, 214

بسنجار، فأجابه إلى طلبه وعاد إلى الموصل، وأقبل عماد الدين إلى حلب، وهو أهون شأناً من أخيه وأقلّ قوة.

ومن ثم كانت حياة صلاح الدين بعد عودته إلى سورية[٢٧] في صفر سنة ٥٧٨هـ حزيران (يونيو) ١١٨٢م، حياة نضال متوزع بين أمراء الفرنجة الذين نقضوا الهدنة ولم ينقطع عدوانهم على المسلمين، وعز الدين مسعود الذي لم يبق من أمراء بلاد المسلمين من ينافسه غيره، إذ ما كاد ينقضي أجل المعاهدة التي سبقت الإشارة إليها حتى دخل في طاعته أمراء حرّان وكيوه والرها وسروج والرقة وقرقيسية ونصيبين. فبينما نراه يقاتل الفرنجة في طبرية وبيسان، ثم يحاصر بيروت براً بعد أن حاصرها بحراً في محاولة لفصل إمارتي طرابلس وانطاكية عن مملكة بيت المقدس، إذا به يتجه نحو الشرق فيحاصر الموصل حين وافته الأنباء بأن أميرها قد تحالف مع الصليبيين لضرب مؤخرة صلاح الدين[٢٨].

وتمتنع الموصل عليه، فيغادرها بعد شهرين ليهاجم سنجار ويستولي عليها، ثم يستولي على آمد ويولي عليها محمد بن قرا ارسلان، وكان فيها كثير من الذخائر فوهبها له، فقيل له في ذلك فقال: «لا أضن عليه بما فيها من الأموال، فانه قد صار من اتباعنا وأصحابنا، ونحن إنما نريد ان يسير الناس معنا على قتال الأعداء فقط، وليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد»[٢٩].

---

(٢٧) غادر صلاح الدين القاهرة في ٥ محرم سنة ٥٧٨هـ ١١ أيار (مايو) ١١٨٢، ثم استغرقته هموم الجهاد ومشاغله في بلاد الشام فلم يعد إليها بعد ذلك، لأن الشام كانت جبهة العرب والإسلام وميدان النضال بينهم وبين القوة المغيرة، ويقال انه كان في مجلس وداعه بالقاهرة وهو ينتظر اجتماع الجيش ليسير معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين الحاضرين كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتطير السلطان وتنكد المجلس.

والواقع ان صلاح الدين كان قد أدرك انه لا يتمكن من بلاد الفرنجة وهو في مصر، لبعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب عن المسير ومتابعة الجهاد، وقد جرب فهلكت القوافل عند الكرك والشوبك عدة مرات، فرأى انه لا يمكنه فتح القدس إلا من الشام، فرأى ان يملكها ويسوق الجند منها فيكون الفتح قريباً والحرب سهلة التموين، (انظر: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٩).

(٢٨) مفرج الكروب، ج٢، ص١١٥؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٢ - ٢٣؛ النوادر السلطانية ص٦٨.

(٢٩) خطط الشام، ج٢، ص٥٧.

وانتقل بعد ذلك إلى محاربة عماد الدين أمير حلب واضطره إلى طلب الصلح على أن تعاد إليه ولاية سنجار مقابل الدخول في طاعة السلطان، فيقبل صلاح الدين ذلك، ويغادر عماد الدين حلب وأهلها يشيعونه بالهتاف: «يا حمار، بعت حلب بسنجار»، ويدخلها صلاح الدين فيستقبله أهلها باحتفال وسرور عظيمين وكأنهم في يوم عيد. ويصعد السلطان إلى القلعة مبتهجاً، مدركاً أهمية هذا الفتح العظيم، ويقول لمن حوله مغتبطاً: «والله ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة، والآن تبينت أنني أملك البلاد وعلمت ان ملكي قد استقر وثبت»(٣٠).

ويروي انه قد بلغته أثناء دخوله حلب، وفاة أخيه تاج الملوك بوري، إثر طعنة أصيب بها في فخذه خلال المعركة، فتألم لذلك ألماً شديداً وقال: «ما أخذنا حلب رخيصة بقتل تاج الملوك»(٣١)، ولكنه انطوى على ألمه وأسرّ النبأ في نفسه، كي لا يفسد على جنده سرورهم بالانتصار الذي أحرزه.

وما عتم هذا الانتصار أن أعقبه انتصار آخر، إذ دخل عز الدين مسعود في طاعة صلاح الدين، بعد معارك وأهوال ومفاوضات كثيرة، وتدخل الخليفة العباسي الناصر لدين الله إثر استغاثة الموصليين بالخليفة بواسطة القاضي ابن شداد(٣٢)، والتخلي عن المدينة مرة للعودة إلى حصارها مرة أخرى بعزيمة أشد وأقوى، واستخدام الذكاء والدهاء حيناً والسيف والمنجنيق حيناً آخر، لأن عز الدين قد حشد فيها عدداً ضخماً من المقاتلين «ومن السلاح وآلات الحصار ما حارت به الأبصار(٣٣)»، إلى أن تقررت قواعد الصلح نهائياً

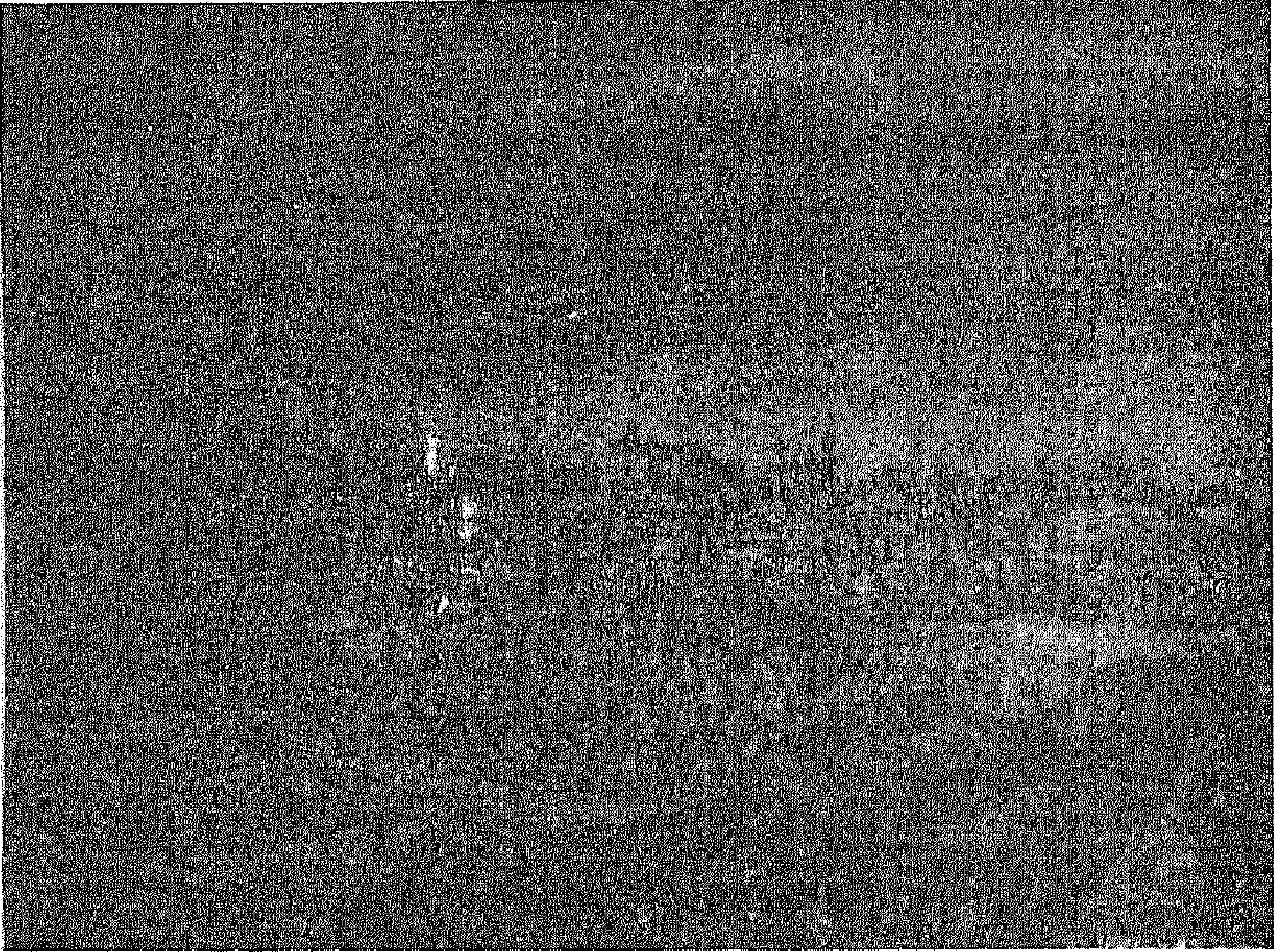
---

(٣٠) كتاب الروضتين، ج٢، ص٤٥؛ الكامل، ج١٢، ص٣١٢.

(٣١) وفيات الأعيان، ج١، ص١٣٩.

(٣٢) كان بهاء الدين أبو المحاسن المعروف بابن شداد (٥٣٩ ـ ٦٣٢هـ، ١١٤٥ ـ ١٢٣٤م) من علماء الموصل، تولى التدريس والقضاء وعرف بالحكمة والاتزان، فأرسله الموصليون إلى الخليفة العباسي ليتشفع لهم عند صلاح الدين فيرفع الحصار عنهم، وحالفه التوفيق فأرسله صاحب الموصل بعد عامين نائباً عنه إلى مؤتمر إسلامي دعا إليه صلاح الدين بدمشق، وقد أسفرت مناقشات المؤتمر عن إعجاب ابن شداد بصلاح الدين فأيد سياسته مخالفاً في ذلك وجهة نظر أميره، كما أعجب السلطان بمقدرة ابن شداد، فلما التقى به مرة ثانية في سنة ٥٨٤هـ ـ ١١٨٨م، وهو قائم على حصار كوكب وكان ابن شداد قد أتى لزيارة القدس بعد تحريرها، استبقاه وولاه قضاء العسكر، ومنذ ذلك التاريخ لم يفارق ابن شداد صلاح الدين، وقد روى سيرته في كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» اعتماداً على مشاهداته الشخصية وما سمعه عن لسان صلاح الدين (انظر: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي ص١٤ ـ ١٩. دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص٢١٠، ابن خلكان، ج٢، ص٤٦٦ ـ ٤٦٨).

(٣٣) مفرج الكروب، ج٢، ص١١٥.



حلب في عهد الحروب الصليبية، عن لوحة قديمة

في ٩ ذي الحجة سنة ٥٨١هـ ٣ آذار (مارس) ١١٨٦، على ان يسلّم عز الدين إلى صلاح الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من أعمال، وولاية بني قفجاق، وأن يترك له صلاح الدين الموصل وأعمالها، على ان تكون الخطبة والسكة باسم صلاح الدين وأن يحضر عز الدين بعسكره في خدمته حين يدعوه إلى المشاركة في قتال الإفرنج(٣٤).

وتمت بذلك لصلاح الدين سيادة مطلقة على جميع أنحاء سورية والجزيرة وجزء من العراق، تتصل بسيادته على حوض النيل وسواحل إفريقية الشمالية وبلاد اليمن وعدن، وتؤلف معها وحدة متماسكة جبارة تنتظم أقوى دولة في الشرق الأوسط.

وقد ختم هذه الصفحة من حياته النضالية الشاقة، بمعاهدة على الهدنة لمدة أربع سنوات عقدها مع ملك القدس في أواخر سنة ٥٨٠هـ ١١٨٤م، بعد غزوات عدة قام بها على بلاد الفرنجة تركز أكثرها حول مدينة الكرك التي كانت عقبة كأداء في الطريق بين مصر والشام، أما انطاكية فقد «رجفت رعباً» على اثر استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها، وسارع أميرها إلى أمان السلطان»(٣٥). ثم عاد إلى دمشق قلب المملكة الكبيرة التي أنشأها، لينصرف خلال هذه الحقبة من السلام، إلى توطيد ملكه وتنظيم بلاده وتقوية دفاعه، استعداداً لانجاز البناء الذي وضع اسسه وتحقيق الهدف الذي يطمح إليه.

يقول لامونت: «ولو ان صلاح الدين كان ذلك المتعصب، كما يُصور أحياناً، لاستهل فتوحاته بمهاجمة الإفرنج المضعضعين المنقسمين على أنفسهم وربما كان الاستيلاء على الدول اللاتينية أسهل منالاً من الاستيلاء على القسم الإسلامي من سورية. ولكن صلاح الدين رأى ان يوطد مركزه في سورية الإسلامية قبل ان يهاجم الدول اللاتينية. كان يشعر أنه سيقهر اللاتينيين لا محالة، ولكن عليهم ان ينتظروا إلى ان تسنح المناسبة التي تلائم الفاتح»(٣٦).

وقد زار ابن جبير خلال رحلته الشهيرة العراق والجزيرة وبلاد الشام، في عام ٥٨٠هـ ١١٨٤م، وسجل انطباعاته التي حفظت لنا صوراً حية عن الحياة العامة في ذلك العصر، وقد استوقفه ما رأى فيها من كثرة الألقاب «فلا تسمع إلا ألقاباً هائلة، وصفات لذي

(٣٤) الكامل، ج ١١، ص ٣٤٠، كتاب الروضتين، ج ١، ص ٦٤؛ النوادر السلطانية ص٥٦.

(٣٥) كتاب الروضتين، ج٢، ص٤٧.

(٣٦) دراسات اسلامية بإشراف نقولا زيادة ص ١٢٠.

التحصيل غير طائلة، قد تساوي فيها السوقة والملوك، واشترك فيها الغني والصعلوك، ليس فيهم من اتسم بسمة به تليق، او اتصف بصفة هو بها خليق، إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن، المشتهر الفضل والعدل، فهذا اسم وافق مسمّاه، ولفظ طابق معناه، وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح، وشهادات يردها التجريح، ودعوى نسبة للدين برّحت به أي تبريح!»(٣٧).

ثم يقول: «وهذه البلاد كلها من الموصل إلى نصيبين إلى الفرات، المعروفة بديار ربيعة، وحدّها من نصيبين إلى الفرات مع ما يلي الجنوب من الطريق وديار بكر التي تليها في الجانب الجوفي كآمد وميّافارقين وغيرهما مما يطول ذكره ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين، فهم إلى طاعته وإن كانوا مستبدين، وفضله يُبقي عليهم، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله»(٣٨).

ويصف ابن جبير دمشق ومعالمها ومرافقها وصفاً مسهباً دقيقاً، ومن مشاهداته فيها «كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تُعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. وهي حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الأفكار، وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الروم، ولا اعتراض عليهم فيها»(٣٩).

وأعجب الرحالة إعجاباً شديداً بما شاهده من مرافق الغرباء في دمشق: «ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من ان يأخذها الإحصاء، ولا سيما لحُفاظ كتاب الله عز وجلّ، والمنتمين للطلب. فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً. وهذه البلدة المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال على أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويف، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد وتقرع سن الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد،

---

(٣٧) رحلة ابن جبير، ص٣١٦.

(٣٨) المرجع السابق ص٢٢٢.

(٣٩) المرجع السابق ص٢٥٥.

لا إله سواه، قد نصحتُ إن ألفيت سامعاً مجيباً، ومن يهدِ الله فهو المهتدِ، جلت قدرته وتعالى جدّه ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء، ولا سيما أهل باديتها، فانك تجد من بدار إلى بر الضيف عجباً، كفى بذلك شرفاً لها»(٤٠).

ويتحدث ابن جبير عن صلاح الدين فيقول: «وقد تقدم الذكر أيضاً في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات: صلاح الدين ابي المظفر يوسف بن أيوب وما له من المآثر المأثورة في الدنيا والدين، ومثابرته على جهاد أعداء الله، لانه ليس أمام هذه البلدة بلدة للاسلام، والشام أكثره بيد الإفرنج، فسبّب الله هذا السلطان رحمةً للمسلمين بهذه الجهات، فهو لا يأوي لراحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سرجه مجلسه. إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك، وقد تقدم الذكر أيضاً له، وهو عليه محاصر حتى الآن، والله يعينه على فتحه».

«وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين بُسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه، رأينا إثباتها هنا: إحداها ان الحلم من سجاياه، فقال، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه: أما أنا فلأن أخطىء في العفو أحبّ إليّ من أن أصيب في العقوبة. وهذا في الحلم منزع احنفي. وقال أيضاً، وقد تنوشدت بحضرته الأشعار وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم: والله لو وهبتُ الدنيا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزائني لما كان عِوضاً مما أراقه من حُرّ ماء وجهه في استمناحه إياي. وهذا في الكرم مذهب رشيدي أو جعفري».

«وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والأثرة مستعدياً على جمّال ذكر انه باعه جملاً معيباً أو صرف عليه جملاً بعيب لم يكن فيه، فقال السلطان له: ما عسى ان أصنع لك، وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته ـ والشحنة عندهم صاحب الشرطة ـ فالحق يقضي لك أو عليك، وهذا في العقد مقصدٌ عُمري. وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً، والله يمتّع ببقائه الإسلام والمسلمين بمنّة»(٤١).

---

(٤٠) المرجع السابق ص٢٥٨.

(٤١) المرجع السابق ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

الفصل الخامس عشر

الجهاد الأعظم

لقد رأينا بلاد العرب زمن ولادة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٣٢هـ ١١٣٧م، وقد تمزقت إلى إمارات عديدة يتقاسمها الحكام الأقوياء ويتنازعون عليها، كل منهم يبغي الاستئثار بملكه ويطمع بالاستيلاء على ملك جاره. ثم رأينا هذه البلاد سنة ٥٨٠هـ ١١٨٤م، وقد وحدها ذلك الرجل الفذ تحت سلطانه بعد نضال شاق استغرق شطراً كبيراً من حياته. وها نحن نراه الآن مستوياً على سدّة ذلك الملك المنبسط من الفرات شرقاً إلى برقة غرباً، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً، وهو ينهد إلى الخمسين من عمره دون أن يفكر بالخلود إلى الدعة والتفرغ للاستمتاع بخيرات هذا الملك الباذخ الذي صار إليه، بل هو يفكر في معارك جديدة يخوضها ومجد جديد يضيفه إلى أمجاده.

ورب قائل ان صلاح الدين إنما كان يعمل لنفسه، وإنه إنما وحّد البلاد العربية لتكون له، دون غيره، السيادة التامة عليها، ونحن لا ننكر أن في هذا القول كثيراً من الحق، ولكننا لا نرى فيه ما يقلل من أهمية العمل العظيم الذي قام به. فصلاح الدين قد وحّد بلاد العرب في وقت هي أحوج ما تكون إلى هذه الوحدة، وهو قد وحّدها في ظل مبادىء إنسانية خيرة وأخلاق كريمة رحيمة تنشد الحرية والحق والعدالة، وليس في ظل الحديد والنار والإرهاب الذي يلوي عنق الأمة إلى الوراء ويقضي على تراثها الفكري، ويخنق فيها روح التجدد والتوثب والإبداع.

ذلك هو الحادث التاريخي المجيد الذي قام به صلاح الدين الأيوبي، وهو حادث ليس ينقص من أهميته في شيء، كونه قد أكسب صاحبه مجداً شخصياً أو اتفقت أهدافه مع

مطامحه الشخصية. وفي اعتقادنا ان سر العظمة في حياة الأبطال الكبار الذين تفخر البشرية بهم، إنما هو توفيقهم بين مطامحهم الشخصية ومطامح شعوبهم، وليس تسخيرهم لها واستثمارهم إياها في سبيل مطامع رخيصة وغايات حقيرة واهداف تعسفية رجعية، بحيث تمتزج تلك المطامح وتتفاعل وتصبح كلاً واحداً يستطيع ان يؤثر في التاريخ بتعبيد طريقه وتعجيل سيره نحو الأغراض الانسانية الرفيعة التي تتمخض بها مرحلة من مراحله، أو تنزع إليها أمة من الأمم في عصر من عصوره، وذلك هو الدور الذي قام به صلاح الدين.

ويزيد في أهمية الوحدة التي بناها الرجل الكبير، كونها اتجهت منذ تم بناؤها، إلى تحرير بقية البلاد العربية من ذلك البنيان الطفيلي الذي زرع في غير بيئته وأرضه، وقد ارتدت هذه المهمة التي استغرقت المرحلة الأخيرة من حياته، وهي مرحلة قصيرة بمدتها عظيمة بالأعمال التي حققتها، طابعاً إسلامياً يقابل الطابع المسيحي الذي اصطبغت به الحروب الصليبية التي شنها الفرنجة على الأقطار العربية والإسلامية، ولكنها تظل في حقيقتها وجوهرها مهمة تحررية، إذ بدافع التحرر من الحكم الأجنبي، وبعامل الغيرة الوطنية والحمية القومية والذود عن المقدسات الإسلامية، وباسم خلافة بغداد العباسية العربية سارت الجيوش الجرارة تحت لواء صلاح الدين، وأقبلت إليه الأمداد من كل صوب، وأيدته القبائل في كل مكان.

ويذهب البير شامبدور إلى أن الحروب الصليبية إنما كانت بالنسبة للعرب والمسلمين حرب دفاع عن الأرض والذات، ولم تتخذ طابعاً دينياً إلا «بعد البادرة الحمقاء التي قام بها رينو دو شاتيون، إذ اعتدى، برغم معاهدة الصلح، على القافلة الآمنة التي مرت بأراضيه في طريقها إلى الحج»[١]، ويقول الزعيم جوزف سمعان: «ولا بد من الاعتراف بأن العرب لم يذهبوا في مقاتلة المشركين والكفار إلى الحد الذي ذهب إليه فرسان الحروب الصليبية»[٢]، ومن الملاحظ ان بعض أمراء المسلمين لم يكونوا ليجدوا حرجاً في محالفة الصليبيين لمقاومة خصومهم من الأمراء المسلمين، إلا ان ذلك قد انقطع نهائياً أو ندر كثيراً بعد هذا التاريخ.

---

(١) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 15

(٢) الفروسية العربية ص٧٣

وقد ساعدت صلاح الدين على إحراز انتصاراته مع الفرنجة عوامل عديدة، منها اختلاف أمرائهم في ما بينهم اختلافاً شديداً بعد وفاة بلدوين الرابع، إذ خلفه في الملك بلدوين الخامس وكان طفلاً، فكفله ريمون الثالث أمير طرابلس لمدة أربع سنوات تمتد من ٥٨١هـ ١١٨٥م إلى سنة ٥٨٥هـ ١١٨٩م، وبادر إلى اطلاق سراح الأسرى المسلمين في طرابلس، واتفق مع صلاح الدين على مكافحة المجاعة التي اجتاحت الشرق الأدنى في ذلك العام(٣).

ولكن الموت فاجأ الملك الطفل في صيف سنة ٥٨٢هـ ١١٨٦م، فاعتقد ريمون الثالث بأن من حقه البقاء في مركز الوصاية وتعهد شؤون الحكم، ولم تجاره سيبيل، أم الملك، في اعتقاده هذا، بل أرادت الملك لزوجها الجديد غي دو لوسينيان (جفري) وقد عارض ذلك الأمراء البارزون، إلا أنها أصرت عليه وأيدها البطريرك ورئيس الهيكليين، ودعيا الأمراء المجتمعين في نابلس إلى حفلة لتتويجها هي، فأجاب الأمراء أنهم لا يقبلون أن تملّك عليهم إمرأة، فأقفل الهيكليون (الداوية) أبواب المدينة وسارت سيبيل إلى كنيسة القبر المقدس، فأخذ البطريرك من الخازن تاجين فوضع أحدهما على المذبح والآخر على رأس سيبيل، ثم قال لها: «مولاتي، انت إمرأة فيجب ان يكون معك رجل يدبر شؤون المملكة، خذي هذا التاج وتوّجي به من ترينه أهلاً لذلك»، فأخذت التاج ودعت زوجها لوسينيان وقالت: «مولاي، تقدم إليّ وأقبل هذا التاج، فانني لا أرى أجدر منك به» فجثا أمامها ووضعت التاج على رأسه، ونودي بهما ملكاً وملكة(٤).

ولما بلغ النبأ الأمراء المجتمعين في نابلس، شق الأمر عليهم، إذ كان غي كما يقول وليم الصوري ملكاً تنقصه الفروسية والحكمة(٥)، فرفض بوهيمند الثالث أمير انطاكية ان يقدم للملك الجديد فروض الولاء والتبعية، وهجر أمير الرملة إمارته وسار إلى انطاكية فأقام فيها، وذهب ريمون الثالث إلى طبرية، وكانت آلت إلى زوجته البارونة ايشيف، مؤثراً التخلي عن إمارته على العمل تحت حكم غي، فغضب هذا واعتزم مهاجمته هناك مدعياً انه يريد محاسبته على الأموال التي جباها في عهد وصايته. وكان ريمون قد عقد أثناء

---

(٣) Hist. des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, II. p. 760

(٤) تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس، ج٦، ص٣٢.

(٥) Guillaume de Tyr. p. 1116



وصايته على ملك بيت المقدس، أواصر الود بينه وبين صلاح الدين، فلما لجأ إلى طبرية تطلع إلى السلطان «وانتمى اليه واستعضد به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة»(٦)، وشدَّ عضده باطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين(٧).

وفي غمرة تلك الأحداث نقض رينو دو شاتيون أمير الكرك المعاهدة التي أبرمها الصليبيون مع صلاح الدين، كما نقض المعاهدة السابقة من قبل. يقول الدكتور فيليب حتي: «ولعل رينو هذا كان أشد زعماء اللاتين مغامرة، وأكثرهم تعدياً ونقضاً للعهود، وأوفرهم إلماماً باللغة العربية. وحين كانت الكرك في عهدته أوقع مراراً بالقوافل الآمنة يسلبها امتعتها، بينما كان أصحابها يجتازون الطريق خلف أسوار حصنه. كل هذه الأمور أتاها خروجاً على شروط العهود والمحالفة. وبلغ منه الكيد للمسلمين أن جهز أسطولاً أخذ يعيث في شواطىء الحجاز فساداً ويُنزل الأذى بمراكب الحجاج، وقد أقسم صلاح الدين ليقتلن هذا الرجل وينتهزها فرصة لضرب الفرنجة في الصميم. ويرى كثير من المؤرخين الغربيين ان مغامرات دو شاتيون، هي الثغرة التي سببت انهيار المملكة اللاتينية في القدس أو عجلت بانهيارها».

ولا ريب في ان القراء يذكرون ان رينو دو شاتيون كان أميراً لانطاكية، وقد حاول أن يتحدى فيها الدولة البيزنطية، فأثار عليه غضب عاهل القسطنطينية واستياء ملك القدس، فلما أسره مجد الدين أبو بكر بن الداية أحد أمراء نور الدين سنة ٥٥٦هـ ١١٦٠م، لم يتقدم أحد لفدائه، فظل سجيناً في قلعة حلب ستة عشر عاماً حتى أطلق كمشتكين سراحه سنة ٥٧٣هـ ١١٧٧م.

وكانت اتينيت دو ميلي التي ورثت عن أبيها حصني الشوبك والكرك، يومذاك أرملة لا يزينها شباب أو جمال. وقد سبق لها ان تزوجت مرتين، إلا أن رينو دو شاتيون ما لبث ان تزوج منها طمعاً بما ورثت، وأضحى أميراً على تلك المنطقة المهمة التي تتحكم في مواصلات المسلمين.

---

(٦) الكامل، ج ١١، ص٣٤٨.

(٧) كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٤.

وكان رينو شرساً حاقداً لم ينس قط سني الأسر التي قضاها في حلب بل زادته حدة وتوتراً، ولم يستطع ان يقدر ظروف الصليبيين التي غدت أميل إلى الموادعة والمسالمة مع أبناء البلاد المغتصبة وانتقلوا من طور الهجوم إلى طور الدفاع، ولم ينتبه إلى تطور أوضاع المسلمين الذين استفاقوا من ذهول الصدمة الأولى، فاتحدوا بعد فرقة، واستقووا بعد ضعف وخذلان.

ذلك هو كما يقول البير شامبدور: «الفارس الذي لا يعرف الخوف ولا يملك الضمير، والذي قاد مملكة الفرنجة إلى أسوأ المغامرات، فتحمل أمام التاريخ أفدح المسؤوليات»[٨].

أما المؤرخان م.ج. كينغ وك. ك. سيتون، فقد وصفه الأول بقوله: «انه نموذج للفارس اللص في عصره، اتصف بالجشع وعدم الوفاء والغدر والوحشية والتعصب الأعمى، ولم تفلح الخمس عشرة سنة التي قضاها أسيراً في حلب في تعديل سلوكه أو تهذيبه» وقال الثاني فيه: «لم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون بمبادىء الفروسية، وإنما كان لا يصلح إلا للسلب والنهب وشن الغارات على الأبرياء والمسالمين»[٩].

وإذا كان هذا هو رأي المؤرخين الغربيين في رينو دو شاتيون، فاننا لا نستغرب قول أبي شامة فيه انه «أغدر الفرنجية واخبثها، وأفحصها عن الردى والرداءة، وانقصها للمواثيق المحكمة والايمان المبرمة وأنكتها وأخبثها»[١٠].

لقد راودت رينو دو شاتيون الأحلام بالسيادة على البحر الأحمر وغزو مكة والمدينة، فبدأ خطته تلك بالاستيلاء على العقبة وحمل أجزاء السفن حتى ذلك الخليج حيث ركبت وأنزلت إلى البحر فاستولت على جزيرة القلعة، وأغارت على الموانىء المصرية، ونهبت بعض المراكب التجارية، ثم انتقلت إلى شاطىء الحجاز «فعظم البلاء وأعضل الداء، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم»[١١]، وكان صلاح الدين كما ذكرنا في الفصل السابق في حلب فأسرع الملك العادل إلى إنشاء أسطول قوي في البحر الأحمر

---

(٨) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, pp. 97, 143 _ 144

(٩) الحركة الصليبية ج٢، ص٧٨٥ نقلاً عن: King; The Knights Hospitallers, p. III

(١٠) خطط الشام، ج٢، ص٥٦.

(١١) كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٥.

بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ فطارد مراكب الفرنجة واستولى عليها وأسر من فيها. ثم وافى العادل أخاه صلاح الدين إلى حصن الكرك وكان قد زحف إليه وحاصره ونصب عليه سبع منجنيقات لقذفه بالحجارة ليلاً ونهاراً، إلا أنه ما لبث ان تخلى عنه وعاد إلى دمشق حين علم بتجمع الصليبيين لدفعه عن الكرك.

وقد عاود صلاح الدين حصار الكرك بعد ذلك مرات عديدة وفي سنوات متعاقبة ولكنه «لم ينل منه غرضاً»(١٢)، لمناعته وقوة تحصينه، فقد كان ذلك المعقل الهائل من المناعة بحيث سماه الناس «صخرة الصحراء». ومن أطرف ما حدث سنة ٥٨٠هـ-١١٨٤م، ان السلطان كان يحاصر الكرك للمرة الخامسة «وأخذت المجانيق تدك بحجارتها أبراج الحصن وأسواره وستائره حتى تهدمت، ولم يحل دون دخول المسلمين إلى الحصن إلا خندق واسع يبلغ عمقه ستين ذراعاً، ولا سبيل إلى اجتيازه إلا بطمه وردمه. فأمر صلاح الدين بضرب اللبن وجمع الأخشاب لبناء سرداب تحت الخندق، وسرعان ما بنى العسكريون ثلاثة سراديب مسقفة بالخشب، اتخذوها طرقاً آمنة يسيرون بداخلها إلى سور الحصن، وسارع المسلمون إلى ردم الخندق واستبشروا بالعمل والنصر»(١٣)، إلا انهم ما لبثوا ان تلقوا أمراً بوقف العمل، وتخلى المقاتلون عن تلك الفرصة التي كادت تتيح لهم الاستيلاء على الحصن.

ذلك ان اتينيت زوجة رينو دو شاتيون كانت تحتفل بزواج ابنها همفري (ربيب رينو) من الأميرة ايزابيلا شقيقة بلدوين الرابع ملك القدس، فطلبت سيدة الحصن من صلاح الدين أن يمنحها هدنة قصيرة حتى تتم حفلات الزواج، وأرسل رينو إلى السلطان هدية من حلوى العرس معتذراً بأن الوقت لم يسمح له بأن يقدم لضيفه ما يليق به، فبادر صلاح الدين إلى وقف القتال، بينما انتهز دو شاتيون الفرصة لطلب النجدة من القدس!

وها هو صاحب الكرك يعمد مرة أخرى إلى نقض الهدنة ومعاودة الغزو «لأن ذلك الفارس اللص - كما يقول غروسه - كان لا يستطيع الحياة دون أن يسرق وينهب»(١٤)،

---

(١٢) السلوك. ج٢، ص٨١ - ٨٢.

(١٣) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٥٣ - ١٥٤.

(١٤) Hist. des Croisades, II. p. 778

فينصب كميناً لقافلة متجهة من القاهرة إلى دمشق علم انها تحمل نفائس ثمينة وثروات طائلة، ويستولي عليها ويلقي بأفرادها أسارى في حصن الكرك.

وقد بادر صلاح الدين أول الأمر إلى الاحتجاج لدى رينو دو شاتيون، ثم إلى جان دو لوسينيان، مذكراً بمعاهدة السلام، ولكن صاحب الكرك أبى الإصغاء إلى احتجاج السلطان واستخف بتهديده، ورفض أوامر ملك القدس باطلاق سراح الأسرى وإعادة ما سلبه منهم، كما أعرض من قبل عن طلب مماثل لبلدوين الرابع حين نقض المعاهدة الأولى، فاشتد غضب صلاح الدين، وأقسم لينتقمنّ منه شر انتقام، واعتبر عدوانه على القافلة وعجز لوسينيان عن تسوية الأمر، نقضاً للهدنة، وقرر إعلان الحرب على مملكة القدس(١٥).

ولعل صلاح الدين كان يعتقد بأن الحرب بينه وبين الصليبيين قد تقتصر على مملكة القدس وحدها، فقد رأينا أن ريمون الثالث أمير طرابلس، كان على صلات ودية بالسلطان، أما بوهيمند الثالث، أمير انطاكية، فقد جدد الهدنة المعقودة بينهما، وظل أميناً لها حين نشبت المعركة الكبرى. والواقع ان شؤون الحب كانت قد شغلت بوهيمند عن شؤون الحرب، فتزوج سراً بإمرأة تدعى اورجيليز إلى جانب زوجته البيزنطية تيودورا كومنينوس، ثم تزوج من إمرأة ثالثة تدعى سيبيل دو بورزي كانت تراسل صلاح الدين وتطلعه على أوضاع بلادها(١٦)، ويقول أبو شامة في ذلك: «وكانت إمرأة ابرنس انطاكية، وتعرف بدام سيبل، في موالاة السلطان عيناً له على العدو، وتهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم، والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا»(١٧)، وقد أغضب سلوك بوهيمند البطريرك ايمري فأصدر بحقه قرار الحرمان لاقترافه جريمة تعدد الزوجات.

وقد حال المرض دون صلاح الدين وخوض المعركة الكبرى في تلك السنة ٥٨٢هـ ١١٨٦م، ويبدو أنه خشي ان يقضي عليه المرض فتنهار المملكة المترامية التي بناها بكثير من الجهد والنضال، فأوصى بولاية ابنه العزيز عثمان على مصر بكفالة ابن عمه تقي الدين عمر، وبولاية ابنه الملك الأفضل على الشام بكفالة عمه العادل صاحب حلب، وشاع أمر

---

(١٥) يذهب المؤرخون الغربيون إلى أن أخت صلاح الدين كانت بين أفراد القافلة، ويجعلون ذلك سبباً للغضب الشديد الذي استولى عليه ودفعه إلى الانتقام، وليس في المصادر العربية ما يؤكد ذلك أو يشير إليه.

(١٦) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 145

(١٧) كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٣١.



فارس من المسلمين في عهد الحروب الصليبية

هذه الوصية، فسرّت أناساً واغضبت آخرين، ويروي أبو المحاسن ان علاء الدين سليمان ابن جندر، أحد أمراء حلب، لقيه مرة، فقال له: بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تنفذ، كأنك كنت خارجاً إلى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك، أما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة؟ فقال صلاح الدين وهو يضحك: وكيف ذلك؟ قال ابن جندر: «إذا أراد الطائر ان يعمل عشاً لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض، هذه حلب وهي أم البلاد بيد أخيك، وحماة بيد ابن أخيك وحمص بيد ابن عمك، وابنك الأفضل مع تقي الدين ابن عمك بمصر يخرجه متى شاء، وابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد! فقال صلاح الدين: صدقت، فاكتم هذا الأمر[١٨]!».

وما كاد يشفى من مرضه حتى عمد إلى تعديل في المناصب «فاستدعى ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي من مصر لمنافرة بينه وبين ابن عمه تقي الدين عمر، وأقرّ ولده الظاهر على حلب وفي خدمته الشحنة (رئيس الشرطة) حسام الدين بشارة والوالي عيسى بن بلاشوا. وشق ذلك الأمر على الملك المظفر تقي الدين عمر وحدثته نفسه بتملك الديار المصرية وامتنع عن العودة إلى الشام وهمّ بملاحقة مملوكه قراقوش الذي استولى على برقة وبلاد المغرب، فسيّر إليه صلاح الدين عيسى الهيكاري لمراجعته، وكان عيسى مهاباً مطاعاً بين الجنود المصرية فنجح في إقناع تقي الدين عمر بالخروج إلى دمشق، حيث استقبله صلاح الدين استقبالاً حاراً بمرج الصفر وأقطعه حماة ومنبج والمعرة وميافارقين»[١٩]، أما شقيقه الملك العادل فقد ولاه دمشق ليكون على مقربة منه يفيد من خبرته ونصحه.

لقد كان نقض رينو دو شاتيون لشروط الهدنة، في سنة ٥٨٢هـ ١١٨٦م، فلما كانت السنة التي تلتها، وتأهب أمير الكرك لاقتناص الحجاج وهم قافلون، أعلن صلاح الدين الجهاد في جميع أنحاء بلاده، واستنفر الناس، وأثار الرأي العام، وطلب الجند من مصر والشام وحلب والجزيرة وديار بكر، وجاء بالفقهاء والرواة لتلاوة القصص الحماسية

---

(١٨) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٠ ـ ٣١.

(١٩) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٦٨.

وأخبار الغزوات الإسلامية في أوساط الجيش والمجالس العامة، وخرج بصحبة ولده الملك الأفضل فأبقاه عند رأس الماء قرب دمشق في انتظار تجمع قوى الشام والجزيرة، وعسكر هو في قصر السلام بالقرب من بصرى، وظل هناك حتى مر الحجاج بسلام.

ولا بد من الإشارة هنا إلى الوضع الاستراتيجي للبلاد العربية آنذاك، مستعينين بما كتبه الدكتور نظير سعداوي[٢٠]، الذي تخصص في هذا الموضوع، فقد كانت بلاد الفرنجة تقتصر على السواحل السورية والفلسطينية التي تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج، وعلى سلسلة القلاع الضخمة المبتدئة من ذعيرة على الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ثم كرك المعاب من الكرمل وبيت جبريل وداروم، وخلف هذا الخط الأول القلاع الممتدة من شقيف أرنون إلى صفد والقسطل، وفي الشمال حصون عكا والكرك وبارين، ومن ورائها جميعاً المدن الساحلية الكبيرة: انطاكية وطرابلس وعكا وصور وطرسوس والمرقب وبيروت ويافا وعسقلان وهي أطراف القرى الصليبية من ناحية البحر، ويقابلها من ناحية البر مرجعيون وجسر يعقوب وبيسان وطبرية، وامتازت هذه الحدود الصليبية بأن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ووسائل دينية وصحية. أما الخصائص الاستراتيجية الاسلامية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد آمنة للتموين في سرعة، ففي الشمال حلب وحماة، وإلى الشرق منهما الموصل وقلاع الجزيرة، وكلها مدن حصينة، وفي الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب والنوبة واليمن. ثم ان القاهرة غدت منذ غادرها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٨هـ ١١٨٢م، قاعدة لتدريب الجند وإعداده وتموينه، وإليها تُرسل الجرحى والأسرى، ومنها يُطلب الإمداد لسد النقص في ميادين القتال. على حين غدت دمشق منذ استقر بها صلاح الدين مسرحاً لنشاط سياسي، وساحة لحركات عسكرية مستمرة، ومعملاً لدراسة الخطط الحربية، وآية ذلك قول صلاح الدين في وصف دمشق وقتذاك، بأنه ما بقي له دار إلا هي حتى «يقضي الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين»[٢١].

---

(٢٠) المرجع السابق، ص١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢١) كتاب الروضتين، ج ١، ص٧.

وقد انتظر صلاح الدين حتى وافاه جيش مصر بقيادة الملك العادل، فضمه إلى جيش سورية، وسار بهما إلى تل عشترة حيث أخذ يعدّ العدّة للموقعة الحاسمة بينه وبين الصليبيين، بينما الجيوش العربية والإسلامية تلتحق به من جميع أنحاء مملكته، والاسطول المصري يتجه إلى شواطىء الفرنجة بقيادة الأمير لؤلؤ استعداداً للجهاد.

الفصل السادس عشر

حطّين معركة التّاريخ

كانت أصابع الفجر الوردية تمزق عتمة الليل، والنجوم تتلاشى واحدة بعد أخرى، ثم ما لبث ستار الظلام أن انحسر عن سهول ممتدة الأطراف تتخللها تلال صخرية تنحدر من الشمال إلى الجنوب أشبه بجيش اسطوري يزحف في أرض الأساطير، وظهر في الشرق شعاع قرمزي ضئيل ما زال يمتد ويتركز حتى بدا كأنه سيل من لهيب ثم انبثق منه قرص الشمس كمركبة ذهبية تمخر عباب اللهيب...

وكان لسهول الأردن في ضوء النهار منظر رائع يُشيع في النفس الرهبة والخشوع، لشدة اتساعها وفرط جمالها وقوة الصمت فيها...

وبينما كان أفراد المعسكر ينهضون لاستقبال اليوم الجديد، كان قائد المعسكر، وهو الرجل الوحيد الذي لم ينم في تلك الليلة، جالساً أمام خيمته، وقد التف بعباءته، وأصابعه تعبث بالرمال، وهو يرسل إلى الأفق البعيد بين حين وآخر، نظرات شاردة لا تبحث عن شيء ولكنها تدل على أن في صدر صاحبها عاصفة من القلق العميق.

كان ذلك في يوم الخميس الموافق ١٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ ٢٥ حزيران (يونيو) ١١٨٧م، وما إن ارتفع الضحى حتى كان صلاح الدين الأيوبي يستعرض جيوشه اللجبة، وينظمها، وينفخ فيها روح الحماسة والجرأة استعداداً لليوم الفاصل ومعركة المصير.

وكان عدد الفرسان اثني عشر ألف فارس وعدد المشاة ثلاثة عشر ألفاً، وذلك عدا الجيش الاحتياطي والمتطوعة وهم كثيرون[١].

---

(١) كتاب الروضتين. ج٢، ص٧٦.

وكذلك اجتمعت جيوش الفرنجة، وتنادى أمراؤهم وتناسوا خلافاتهم، وأرسلوا إلى طبرية طائفة من أصحاب الرأي فيهم على رأسهم جوزيف أسقف صور وباليان صاحب بيت جبريل ورينولد صاحب صيدا لاسترضاء ريمون الثالث ذي اللحية البيضاء، فقبل وساطتهم وعاد إلى صفوفهم، ولا سيما حين «هددوه بالحرمان وفسخ زواجه»[٢].

وعقد الملك غي دو لوسينيان مجلساً سأل أمراءه فيه ان يرشدوه إلى ما ينبغي له عمله أمام استعداد صلاح الدين لمقاتلتهم. فأشار ريمون عليه بأن يحشد جيشه في صفورية لأنها ملائمة العمليات الدفاعية، فاحتشد في هذه البلدة اثنان وعشرون الف مقاتل بين راجل وفارس[٣]. وهناك من يذهب إلى أن عدد المقاتلين بلغ الخمسين[٤] أو الستين ألفاً[٥].

وفي يوم السبت عبر صلاح الدين بجيشه نهر الأردن جنوبي طبرية، وقد آثر هذه الناحية اعتماداً على صداقته مع ريمون، وبات برجاله تلك الليلة عند الاقحوانة، وأرسل العيون لمعرفة مواقع العدو، ثم سار إلى تل كفرسبت جنوبي غربي طبرية محاولاً الاشتباك مع الفرنجة، فلم ينهضوا لملاقاته، فترك حينئذ في ذلك المكان نخبة جيشه، وزحف بالقسم الباقي منه إلى طبرية نفسها فاستولى عليها في ٢٤ ربيع الآخر ٢تموز (يوليو)، ولكن البارونة ايشيف، زوج ريمون، امتنعت في قلعة طبرية مع أولادها وحاشيتها، وأرسلت إلى الملك غي في صفورية تدعوه إلى انقاذها[٦]، فجمع هذا مجلس أمرائه واستشارهم في ما يصنع، فأشار ريمون بعدم مهاجمة المسلمين كي لا يتخلى الفرنجة عن مواقعهم الحصينة القريبة من مراكز المياه، وقال إن صلاح الدين لا بد من ان يرحل عن القلعة إذا لم تتقدم إليه الفرنجة، وإن ضياع طبرية إذا تم لا يضير المملكة اللاتينية في شيء، فخالفه رينو دو شاتيون وجيرار دو ريدفور مقدم الداوية وقالا له: «قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم، وأما قولك إنهم

---

(٢) الناصر صلاح الدين الأيوبي لماجد ص١١٥.

(٣) Les Colonies franques de Syrie aux XII et XIII siècles, p. 340

(٤) تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس، ج٦، ص١٠١.

(٥) l'Eglise et l'Orient au Moyen Age, p. 115

(٦) الكامل، ج١١، ص٣٥١؛ الفتح القسي في الفتح القدسي ص١٨.

كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب» فأجاب: «ان إنقاذ طبرية يهمني شخصياً أكثر من أصحاب السمو الأمراء، فهي خاضعة لسلطاني وفي داخلها امرأتي وأولادي وثروتي، ولكني لا أرى ما يراه الزملاء من وجوب مهاجمة العدو في طبرية، لاننا اذ نخطو هذه الخطوة نكون قد وقعنا في الشرك الذي نصبه صلاح الدين لنا، وهو الاندفاع في هذه المنطقة الصحراوية القاحلة في شهر تموز (يوليو). وعندي ان نترك قوى العدو وشأنها في طبرية لان سقوط هذه المدينة وقلعتها لا أهمية له من الوجهة الحربية. فان غرض السلطان من مهاجمتنا هو استدراجنا إلى الخروج من صفورية لنهلك عطشاً وبحد السيف في الصحراء القاحلة. أما إذا لزمنا موقفنا الدفاعي الحالي فان صلاح الدين يضطر إلى الجلاء عن طبرية فندخلها دون قتال(٧). ان جيش صلاح الدين أكبر من جيشكم وفرسانه أمهر من فرسانكم، فامكثوا هنا وانتظروا هجومه تنالوا الفوز. دعوا طبرية يصيبها ما يصيبها وفيها أهلي وثروتي، وانقذوا جيشكم الذي هو آخر رجاء للفرنجة في الشرق».

ولكن نصائح ريمون الحكيمة ذهبت في الهواء، وأنكر زملاؤه أن يصدر عنه هذا الرأي وهو صاحب طبرية وزوجه هي التي تستغيث، وظنوا فيه الخيانة لسابق صداقته مع السلطان.

وما زالوا حتى حملوا الملك على إصدار أمره للجيش بالزحف عند الفجر لملاقاة الأعداء، فانحدروا نحو طبرية كالجبال المتحركة، وواصل هذا الجيش اللجب زحفه بين الرمال والصخور، تحت أشعة الشمس المحرقة، وكان معظم أفراده يسيرون مكرهين، بنفوس يعصف بها القلق واليأس، لأنهم لا يجهلون الخطر المحدق بهم من كل صوب.

وعلم صلاح الدين في غداة اليوم الخامس والعشرين من ربيع الآخر ٣ تموز (يوليو) بتحرك جيش الفرنجة نحو طبرية وكان السلطان إنما يبغي اجتذابهم إليه ليحاربهم وجهاً لوجه في معركة مكشوفة وأرض خالية من كل شيء، ولا سيما اذا وصلوا إليها متعبين، وكان هو قد أدّخر جهده وجهد رجاله(٨)، فلما قيل له إنهم قد تركوا مواقعهم في صفورية لمهاجمته هتف فرحاً:

---

(٧) L'Estoire d'Eracles, II, pp. 49 _ 51

(٨) الكامل، ج ١١، ص ٥٣٢؛ كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٧٦؛ الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٠٤.



طبرية وبحيرة الجليل

ـ الحمد لله ... هذا ما كنت أرجوه.

وما لبث ان أضرم النار في طبرية، ورجع إلى حيث ترك نخبة جنوده غربي المدينة، وأمرهم بالاستيلاء على موارد الماء لندرته في تلك الفلاة القفر. فلما وصل الفرنجة إلى ذلك الأتون الذي استدرجهم اليه بين لوبين وحطين، بعد أن اجتازوا ستة عشر ميلاً، وقد أدركهم التعب وأجهدهم العطش، لوعورة الطريق وحرارة الجو وقلة الماء، تعذر عليهم الحصول على الماء لإرواء ظمئهم ولم يكن معهم منه إلا القليل الذي يحملونه في جعبهم، وحملت عليهم جيوش المسلمين وهم على هذه الحال، فنالت منهم منالاً عظيماً، وهي تحمل تارة على طليعة الجيش الذي يقوده الكونت ريمون، ثم ترتد قبل ان يتمكن الفرنجة من الالتحام معها، وتلتف تارة لتهاجم مؤخرته حيث يسير فرسان الهيكل وفرسان المستشفى وفصيلة رينو دو شاتيون، وتنقض تارة أخرى على القلب حيث يسير الملك وقد أحاط به كبار الأمراء.

واستولى التعب والاعياء على الرجال والجياد قبيل الغروب، وصاح الجنود في قوادهم يطلبون الماء وليس في المكان ماء، ووقف الكونت ريمون أمام الملك يتوسل إليه أن يأمر بمواصلة الزحف، كي يشق الجيش المجهد طريقاً إلى البحيرة، فيجد الراحة والطمأنينة، ويستعيد نشاطه وعزيمته. ولكن غي دو لوسينيان أجاب وهو أشد ما يكون حيرة وقلقاً، انه لا يستطيع اصدار مثل ذلك الأمر، لأن الجنود لا يريدون السير خطوة واحدة في هذا اليوم.

وسارع الفرنجة إلى تلال حطين فلاذوا بها وباتوا فيها على أسوأ حال، وزحف السلطان بجيشه ليلاً فأحاط بتلك التلال من جميع جهاتها، ورتب نظام الجيش وأوقف كل جماعة في مكانها استعداداً للمصاف.

وفي فجر اليوم التالي (٢٦ ربيع الآخر ٤ تموز ـ يوليو) وهو يوم جمعة، وكان صلاح الدين يتخير لحروبه هذا اليوم لتفاؤله به، التحم الجيشان على بعد ميلين من حطين، وكان المسلمون هم البادئين بالقتال، إذ أخذوا يطلقون على العدو سهامهم فتجندل الفرسان والجياد، حتى عمت الفوضى في صفوف الفرنجة، ثم انقضوا عليهم انقضاض الصخور المنحدرة من الجبال وهم يصيحون ويهللون، وأخذوا يقاتلونهم وجهاً لوجه، فالتحمت السيوف واشتبكت الرماح وتقارعت العصي، وارتفع الصليل والصهيل والصراخ

وصلاح الدين يكرّ تارة على هذه الجماعة، ويغير تارة أخرى على تلك، أو يعود إلى صفوف جنوده ينظمهم ويحثهم على الإقدام والاستبسال.

ولقد أبدى الفرنجة ضروباً مدهشة من الشجاعة والثبات، ولكن الشمس كانت تعلو في كبد السماء، ووهج الظهيرة يشتدّ في تلك الأرض الرملية الخلاء، والمسلمون يشعلون النار ويلقون بها عليهم فيضاعف لهيبها ودخانها من اضطرابهم وتضعضعهم وقد اجتمع عليهم «نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام»[9]. ثم يكرون عليهم فيحاولون صدّهم مستعيدين شيئاً من عزيمتهم وإقدامهم فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلا، حتى بلغوا أقصى دركات العياء والكلال ووهنت قواهم وهناً عظيماً، فاندفعوا يريدون الوصول إلى بحيرة طبرية ليردوا بمائها ظمأهم ويستعيدوا نشاطهم، لكن صلاح الدين أسرع فوقف أمامهم كالسد المنيع مع ثلة من الفرسان. فجمدوا في أماكنهم فوق التل مترددين حائرين، وقد أحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، ومليكهم غي يستثيرهم ويدعوهم إلى الهجوم، فيجيبونه بانهم يضطرمون عطشاً ولا يستطيعون الحرب مع هذه اللظى المستعرة في جوانحهم، والشمس المتوهجة تعشى لها عيونهم؛ والرمال المحرقة تلتهب تحت أقدامهم.

وكرت عليهم وهم في تلك الحال من الحيرة والتردد والقنوط، فصيلة من فرسان المسلمين فقتلت منهم طائفة وأسرت طائفة أخرى، وألقى كثير منهم اسلحتهم مستسلمين من غير قتال بينما شهر بعضهم السلاح في وجوه رفاق لهم لاستلابهم ما معهم من قِرَب الماء!..

ولم يبق للفرنجة أخيراً إلا أمل واحد عقدوه على ريمون قائد الفرسان، فأمره الملك غي بالهجوم، فانحدر هو وفرسانه يتدفقون كالسيل، فتراجع أمامهم تقي الدين عمر عمداً، وظن أولئك أنهم قد فتحوا ثغرة في صفوف المسلمين فاندفعوا فيها متحمسين، وإذا بتلك الثغرة قد سدّت، وانفصلت فرقة ريمون عن بقية الجيش.

ويُلقي مؤرخو الفرنجة كثيراً من علامات الاستفهام حول موقف ريمون، ويتساءلون عما إذا كان قد سبق له الاتفاق مع صلاح الدين على فتح تلك الثغرة في صفوف المسلمين،

---

(٩) كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٧.

كي ينفصل عبرها عن قومه ويخرج من المعركة[١٠]، بينما يرى مؤرخو المسلمين انه عندما رأى إمارات الخذلان تحل بالفرنجة وأيقن بهلاكهم أراد الفرار بأية وسيلة «فحمل حملة مكروب» وعندئذ فتح له تقي الدين عمر طريقاً خرج منه ولما خرج «التأم الصف»[١١].

وبعد ان خرج ريمون وأفراد فرقته من المعركة، أو أخرجوا منها، بدأ قواد الفرنجة يجيئون مستسلمين ومن ورائهم أعداد هائلة تتهافت على الأسر، وتنتظم في حباله، حتى لقد رؤي جندي من جنود حوران يجرّ في حبل خيمة نيّفا وثلاثين أسيراً أخذهم وحده، ونظمهم في الحبل وجرهم به، لفرط ما أصابهم من الرعب والخذلان، ثم رؤي المائة والمائتان قد اجتمعوا في مكان واحد تحت حراسة جندي فرد[١٢].

وبقي الملك على التل وليس حوله إلا جماعة من الأمراء والنبلاء وبضع مئات من الجنود، وقد التفوا جميعاً حول خباء غي لحمايته، فحملت عليهم ثلة من فرسان المسلمين فردّوها، ثم كرت عليهم ثانية فردوها مرة أخرى.

وكان صلاح الدين يراقب هذا المشهد على مقربة من التل إلى جانب ابنه الأفضل وهو حينذاك في سن الحادية عشرة، فصرخ بجنوده صرخة غاضبة مثيرة، فإذا بهم يعاودون هجومهم بحمية أكبر واندفاع أشد، وإذا بخيمة الملك الحمراء تهوي ويستولي المسلمون عليها[١٣] ويقع الملك في وسطها كما يقع الطائر في الشرك، فيستسلم جميع الأمراء والنبلاء الفرنجة، وفي طليعتهم مليكهم غي دو لوسينيان، وكان بينهم رينو دو شاتيون أمير الكرك، وجفري أخو الملك، وهوغ صاحب جبيل، وابن همفري، وابن صاحب اسكندرون، وصاحب مرقية، وجيرار دو ريدفور مقدم الداوية، وطائفة من كبار الفرسان.

ولما رأى ريمون الثالث أمير طرابلس، وكان يراقب المعركة من بعيد، استسلام الملك وحاشيته، آثر النجاة بنفسه، وأطلق لجواده العنان، وظل هائماً على وجهه مع شرذمة من فرسانه حتى وصل إلى صور سالماً، فمكث فيها قليلاً ثم غادرها إلى طرابلس حيث مات

---

(١٠) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. pp. 154, 163

(١١) النوادر السلطانية ص٦٢، الكامل، ج ١١، ص ٣٦٢.

(١٢) أيام صلاح الدين ص١٩٧؛ النوادر السلطانية، ص ٦٣.

(١٣) الكامل، ج ١١، ص٣٦٣؛ الفتح القسي، ص٢٣؛ مفرج الكروب، ج٢، ص١٩٠.


ELLACOTT

بعد ثلاثة أشهر في غمرة طاغية من الحزن واليأس، إذ شاع بين قومه انه قد خان رفاقه وتخلى عنهم في وقت حاجتهم إليه.

واستقبل صلاح الدين أسراه العظام في خبائه وأكرمهم، وكان الملك غي متداعي القوى وقد أوشك هناك على السقوط مغشياً عليه لما ناله من الظمأ والإعياء ومرارة الإخفاق، فأسرع إليه صلاح الدين فأمسك به وأجلسه إلى جانبه، وقدم إليه كأساً من الماء المثلج المعطر شرب الملك نصفها وأعطى رينو دو شاتيون النصف الباقي فشربه، فغضب صلاح الدين وقال لمترجمه: «قل للملك انه هو الذي سقاه وليس أنا!..» إذ كان من جميل عادات العرب ان الأسير إذا أكل وأشرب شيئاً في بيت من أسره أمن، فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك غي آمن وأما رينو فلم يأمن(١٤).

والتفت السلطان إلى رينو وأنشأ يوبخه على حنثه بقسمه وخرقه المواثيق والعهود، فقال رينو: «لقد جرت بذلك عادة الملوك!...»(١٥).

ثم قال له: «ترى لو ركبت أنا رأسي وسلكت مسلكك ثم وقعت أسيراً في قبضتك، فأي المواقف يكون موقفك مني؟».

فأجاب رينو دو شاتيون ساخراً متحدياً: «أقطع رأسك دون تردد!».

فانتفض السلطان وصاح به غاضباً ثائر الأعصاب: «يا لك من وقح! أفي مخيمي وتحت رحمتي تجيبني بهذه اللهجة!».

وطعنه بسيفه في كتفه، وانقضّ عليه مرافقو السلطان فأجهزوا عليه(١٦). أما الملك غي ومن معه من النبلاء والفرسان فقد ارسلهم إلى دمشق آمنين مكرّمين(١٧)، وأبقى أسقف الناصرة مع مرضاهم كي يتولى العناية بهم بحسب تقاليدهم. وقدّر المؤرخون عدد الأسرى جميعاً بثلاثين ألفاً والقتلى ثلاثين ألفاً أيضاً(١٨).

---

(١٤) النوادر السلطانية ص٤٦؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٩.

(١٥) مفرج الكروب، ج٢، ص١٩٤.

(١٦) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. p. 158

(١٧) Hist. des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, II. p. 798

(١٨) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص١٨٤ نقلاً عن Bellok: The Crusades. p. 289, Lamb; The Crusades, p. 55

ولم يصب الفرنجة، ولا وقعت بهم كريهة منكرة، منذ خرجوا إلى الشام في سنة ٤٩١هـ ١٠٩٦م، أشد وأدهى مما وقع بهم في حطين[١٩]. وقد ارجع بعض المؤرخين هذا الانتصار إلى كثرة عدد المسلمين، في حين رأى آخرون ان انتصارهم إنما يرجع «إلى تنظيم قواهم على يد صلاح الدين، واتحاد هدفهم بالعمل على استنقاذ اراضيهم المحتلة، على عكس الصليبيين الذين أصبحوا عناصر يسودها الاختلاف، ليس لها أهداف محددة غير الطمع والتنافس في ما بينهم، هذا فضلاً عن التكتيك الحربي الرائع الذي استخدمه صلاح الدين، بفهمه للأرض التي يحارب فيها»[٢٠].

أما رينه غروسه فيقول: «يجب ألا ننحو كثيراً باللائمة على غي دو لوسينيان في موقعة حطين التي انحطم فيها جيش الفرنج، لأن الحالة التي وضعت فيها وحدة امبراطورية صلاح الدين، الفرنج، كانت عسيرة جداً، وعاجلاً أو آجلاً كان لا بدّ لهم من هذا المصير»، فأسرُ طبقة الأشراف في هذه المستعمرة التي لم تكن إلا «مستعمرة لرجال الإدارة» كان الاستئصال التام لشأفة الاستعمار هناك دفعة واحدة»[٢١].

وقد طرب المسلمون لهذا النصر العظيم والفتح المبين وابتهج المجاهدون وتغنى به الشعراء، ومن ذلك قول ابن الساعاتي يخاطب صلاح الدين:

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرّت عيون المؤمنينا

رددت أخيذة الإسلام لما ... غدا صرف القضاء بها ضمينا

يقاتل كل ذي مُلك رياء ... وأنت تقاتل الأعداء دينا

غدت في وجنة الأيام خالاً ... وفي جيد العلا عقداً ثمينا

فيا لله كم سرّت قلوباً ... ويا لله كم أبكت عيونا

وما طبرية إلا هدى ... ترفع عن أكف اللامسينا

حصان الذيل لم تقذف بسوء ... وسل عنها الليالي والسنينا

---

(١٩) معجم البلدان ج٢ ص ٢٧٤، ذيل النوادر ص ٢٩٠

(٢٠) الناصر صلاح الدين الأيوبي ص١١٨

(٢١) رصيد التاريخ، ج٢، ص١٢٩.

فضضت ختامها قسراً ومن ذا ... يصد الليث أن يلج العرينا

هناك ندي أهل الأرض طراً ... سواك، ومعقل أعيا القرونا

قست حتى رأت كفؤاً فلانت ... وغاية كل قاس ان يلينا

فلو ان الجهاد يطيق نطقاً ... لناداك ادخلوها آمنينا

جعلت صباح أهلها ظلاماً ... وأبدلت الزئير بها أنينا

تخال حماة حوزتها نساء ... يخضون الحديد مقنعينا

لبيضك في جماجمهم غناء ... لذيذ علمّ الطير الحنينا

تميل إلى المثقفة العوالي ... فهل أمست رماحاً أم غصونا

يكاد النقع يذهلها فلولا ... بروق القاضبات لما هُدينا

فكم حازت قدود قناك منها ... قدوداً كالقنا لوناً ولينا

وغيد كالجآذر انسات ... كغيد نداك أبكاراً وعونا

ولما باكرتها منك نعمى ... هتان تفضح الغيث الهتونا

أعدت بها الليالي وهي بيض ... وقد كانت بها الأيام جونا

فليس بعادم مرعى خصيباً ... أخو سغب ولا ماء معينا

فلا عدم الشآم وساكنوه ... ظبى تشفي بها الداء الدفينا

الفصل السّابع عشر

تحرير بيت المقدس

لم يسبق للفرنجة مذ وطأت أقدامهم بلاد العرب، أن عانوا مثل الخسارة الفادحة التي كابدوها في موقعة حطين. وقد ضاعف من أهميتها ونتائجها، أسر ذلك الفريق الكبير من الأمراء والقواد والفرسان وفي طليعتهم الملك غي دو لوسينيان، حتى لم يبق لديهم من يصلح لولاية أمورهم وقيادة جيوشهم. ومن ثمّ لم يكن تقدم صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك تقدماً سريعاً في جهات فلسطين وجنوب لبنان، حرباً بالمعنى الصحيح، بل كان تتمة لما أحرزه من نصر مبين في يوم حطين، إذ كثيراً ما كانت القلعة أو المدينة التي يشخص إليها تسارع إلى الاستسلام وطلب الأمان لمجرد وصوله أو بعد مقاومة يسيرة محدودة، لضعف دفاعها وغياب قادتها، ولما غدا لاسمه من الرهبة في قلوب الفرنجة، ولكنها رهبة يمازجها الإعجاب والإجلال لما اتصفت به فتوحاته من النبل والشهامة والمروءة، كما كان لتسامحه مع الصليبيين وحسن معاملته لأسراهم أثرهما الكبير في استسلام العديد من المدن والحصون دون مقاومة تذكر.

لقد تسلم السلطان حصن طبرية، وأكرم الكونتيسة ايشيف زوجة ريمون الثالث، «وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفى لها وللفرسان بنيها بشروط الإيمان، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها»[1]، ثم سار نحو عكا فاحتلها دون مقاومة إذ ما كاد يشارفها حتى أرسل إليه صاحبها جوسلين

(١) كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٩.

الثالث دو كورتناي مفاتيح المدينة[٢] مشترطاً تأمين الفرنجة على أرواحهم وأرزاقهم «فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيّرهم بين الإقامة والظعن»[٣].

وبينما كان صلاح الدين ينظم شؤون عكا، كانت سراياه تزحف إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والفوله وسبطية وتبنين فتحتلها جميعاً، وكان أخوه الملك العادل سيف الدين يزحف من مصر إجابة لطلبه فيستولي على مجدل يابا ويافا[٤].

ثم اتجه صلاح الدين إلى صيدا فاستولى عليها، وواصل سيره إلى بيروت فسلّمت بعد حصار قصير. وكان هوغ صاحب جبيل معتقلاً مع غيره من أمراء الفرنج بدمشق، فلما احتل المسلمون بيروت أرسل إلى السلطان يطلب منه إطلاق سراحه مقابل تسليمه جبيل ومن فيها من أسرى المسلمين، فقبل السلطان ذلك، وأطلق سراحه وتسلم منه المدينة[٥].

لم ينم صلاح الدين منذ موقعة حطين إلا لماماً، ولم يركن إلى راحة، بل تابع انتصاراته بحكمة وجرأة وبراعة، حتى استطاع ان يستولي في مدة قصيرة على جميع المدن الكبيرة التي يحتلها الفرنجة في فلسطين وجنوبي لبنان، ولم يبق في أيديهم منها إلا صور وعسقلان وبيت المقدس.

يقول ألبير شامبدور: «وكانت الحصون الثلاثة التي صمدت وقتاً طويلاً أمام الحصار الصلاحي، هي حصون شقيف أرنون وصفد وهونين، ولما استسلمت أخيراً كافأ صلاح الدين حماتها على شجاعتهم بإطلاق سراحهم، ومنحهم الحرية في الذهاب إلى حيث يشاؤون»[٦].

ولقد كان صلاح الدين يترك الصليبيين في المدن والقلاع التي يحتلها أحراراً، مخيّراً إياهم بين البقاء حيث هم أو الذهاب إلى حيث يشاؤون، فتجمّع معظمهم في صور[٧]، ثم

---

(٢) Saladin Le plus pur Héros de L'Islam, p. 166

(٣) مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٠١؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٦.

(٤) السلوك، ج١، ص ١٩٥.

(٥) الفتح القسي، ص٣٥.

(٦) Saladin Le plus pur Héros de L'Islam, p. 167

(٧) النوادر السلطانية، ص٦٥؛ السلوك، ج١، ص٩٧.

أقبل المركيز كونراد دو مونتفرات (المركيس) أحد أمراء إيطالية من القسطنطينية مع عدد من الفرسان لخلاف نشب بينه وبين عاهلها، وكان يحمل ثروة طائلة وخبرة عظيمة وعزيمة جبارة، فحفر فيها الخنادق، وأنشأ الأبراج، وجدد الأسوار، ودرّب الجند، وقوّى النفوس، وشحذ العزائم، حتى أصبحت مركزاً حصيناً للفرنجة يفدون إليه ويجتمعون به ويعتمدون عليه، ثم أضحت قاعدة للحملة الصليبية الثالثة.

ويرى المؤرخون في مجيء المركيز إلى صور، حادثاً تاريخياً مهماً غيّر الموقف بالنسبة للصليبيين «إذ وجدوا فيه زعيماً التفوا حوله وعقدوا عليه آمالهم، بعد أن ذهب عنهم زعماؤهم في واقعة حطين، وكان في عزم أهل صور مكاتبة صلاح الدين في طلب الأمان وتسليم البلد إليه، فلما جاءهم المركيز ردّهم عن ذلك العزم وقوّى نفوسهم وضمن لهم حفظ البلد»[٨].

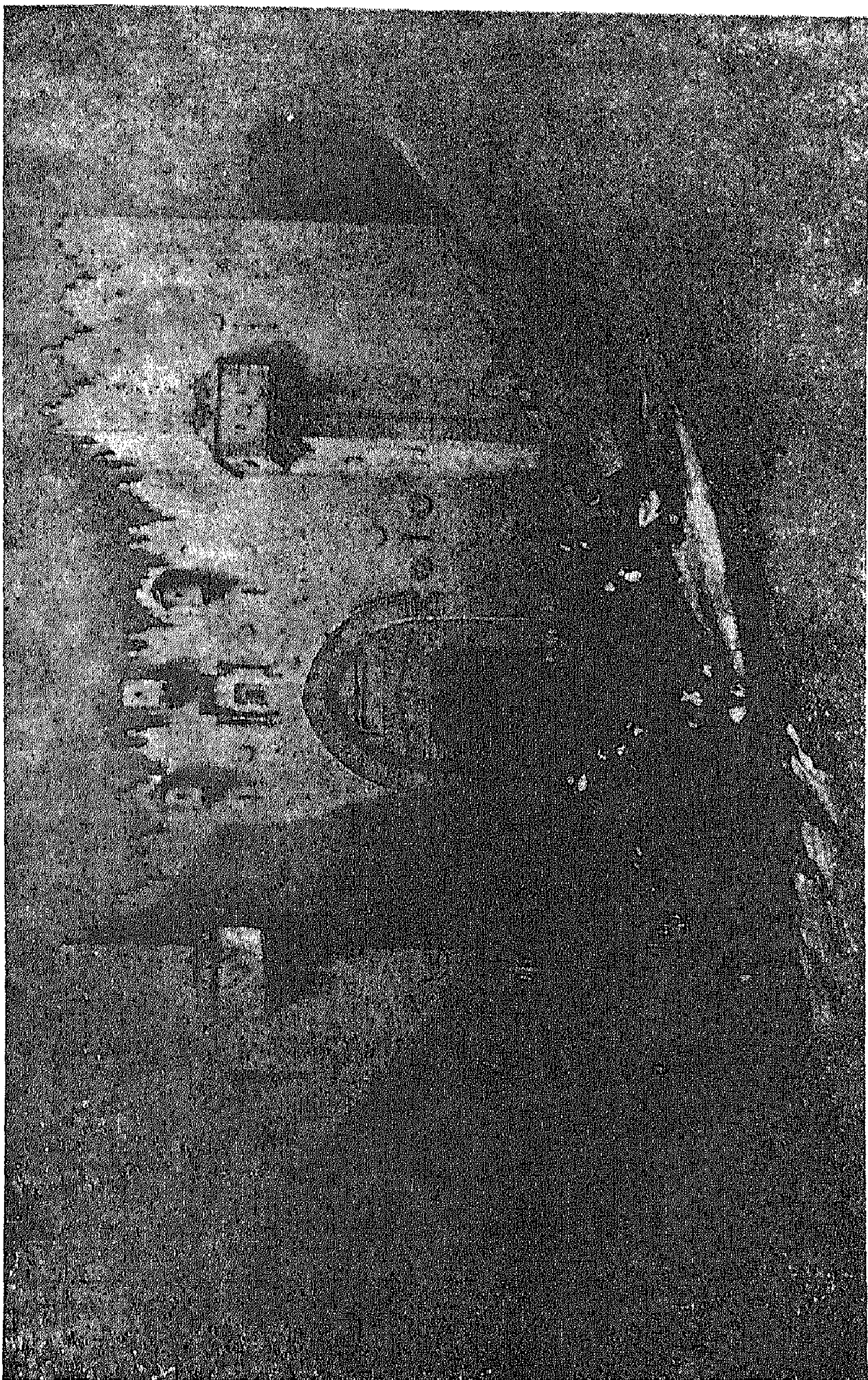
وقد انتبه السلطان بعد فوات الأوان إلى تهاونه في أمر صور، وأراد أن يحتال على المركيز ليسلمه المدينة، فأحضر أباه دوق مونتفرات وكان أسيراً في دمشق، وعرض عليه أن يطلق سراحه مقابل تسليمه المدينة، وهدده بقتله أمام عينيه إن هو رفض طلبه، فأجاب المركيز انه لا يتخلى عن حجر واحد من حجارة صور ولو فقد أباه، وان والده قد عاش طويلاً فيكفيه ما عمَّر، وليقتله السلطان إذا شاء! فأعجب صلاح الدين بجواب كونراد وأعاد أباه إلى مكانه من الأسر في دمشق، إلا أنه ما لبث أن أطلق سراحه وأرسله معززاً مكرماً إلى ابنه في صور[٩].

ورحل السلطان عن صور إلى عسقلان «باب القدس» فحاصرها هو وأخوه العادل وولده العزيز عثمان. وأراد ان يعيد تجربته مع حامية هذه المدينة، فأحضر الملك غي، وأبلغ الحامية انه مستعد لاطلاق سراحه ان هي استسلمت له، فأبت ذلك، ورفضت مساعي غي، فأعاده إلى الأسر ثم أفرج عنه بعد بضعة أشهر اعترافاً بمساعيه هذه، وشدد الهجوم على المدينة فاستسلمت بعد عدة أيام، ثم بعث بسراياه في أنحائها فاستولت على

---

(٨) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٨٩.

(٩) Grousset: Hist. des Croisades, III. p. 18



أحد ابواب القدس

حصون الهيكليين (الداوية) بجنوب فلسطين وهي غزة والقطرون وبيت جبريل مقابل اطلاق مقدمهم جيرار دو ريدفورد، ثم احتلت الرملة والداروم والخليل وبيت لحم.

حدث ذلك كله في غضون شهرين كان صلاح الدين ينتقل خلالهما من ظفر إلى آخر، وكأنه يسابق في ذلك الزمان. وفي نهاية هذه المرحلة القصيرة الحافلة بالانتصارات المعجزة، غدت طريق القدس مفتوحة أمامه، فسار إليها بجيشه وإيمانه، وكلاهما قوي عظيم، فبلغها في ١٥ رجب سنة ٥٨٣هـ ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١١٨٧، إلاّ أنه لم يشأ مهاجمتها فوراً لحرمتها لديه، ففاوض حاميتها على التسليم، متعهداً باحترام الأماكن المقدسة وشعائر الديانة المسيحية وعواطف المسيحيين، وكتب لهم في ذلك كتاباً قال فيه: «انني انا نظيركم أيضاً، وأعرف ان القدس هي بيت الله، ولست آتياً لكي أدنس قدسيتها بسفك الدماء، فعليكم ان تدعوها وأنا أكفيكم أمركم وأهب لكم من الأرض بقدر ما تستطيعون ان تعملوا فيه»[١٠]، إلا انهم رفضوا الدعوة إلى السلم، وأبوا إلا المقاومة والقتال.

وكان كثير من جنود الفرنجة قد لاذ بالقدس كما لاذ غيرهم بمدينة صور، إلا أنهم كانوا يفتقرون إلى القادة المدربين لأسر قادتهم في موقعة حطين، واتفق ان باليان ديبالان (ابن بارزان) أمير الرملة كان أسيراً لدى صلاح الدين، فاستأذنه في الرحيل إلى القدس ليعود بامرأته وأولاده، وأقسم ألاّ يمكث فيها إلا ليلة واحدة، فسمح له السلطان بذلك، فلما وصل باليان إلى القدس ناشده كبار الفرنجة ان يبقى بينهم ويقود جندهم ويحمي عاصمتهم، فقبل طلبهم متناسياً العهد الذي قطعه على نفسه، وحين أقبل صلاح الدين وفاوضهم على التسليم رفضوا ان يجيبوه إلى طلبه اعتماداً على الآمال التي عقدوها على باليان.

وقد عمد باليان إلى تجنيد كل من استطاع من الشبان والصناع والتجار، واستولى بالاتفاق مع البطريرك على كل ما في كنيسة القيامة من نفائس فضية وذهبية، وسبكها وحولها إلى نقود لتحسين وسائل الدفاع واستئجار المزيد من الجنود[١١].

وطاف السلطان بمدينة القدس عدة أيام دارساً متفحصاً، ثم اتخذ جبل الزيتون مركزاً لجنده، لأنه وجد أسوار المدينة في هذه الناحية أضعف منها في أية ناحية أخرى: فهي إذن

---

(١٠) تاريخ الحروب المقدسة في المشرق لمونروند ترجمة البطريرك مكسيموس مظلوم، ج٢، ص ٩٠.

(١١) Eracles, II. p. 70; Saladin Le plus pur Héros de L'Islam, p. 176

أصلح مكان لمهاجمتها منه، ثم نصب عليها المجانيق، وضايقها بالزحف والقتال. وكان فرسان الفرنجة يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلدة يقاتلون مستبسلين ثم يعودون.

ولما كان اليوم السابع والعشرون من رجب سنة ٥٨٣هـ ٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٧م، حمل المسلمون على المدينة حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنجة عن مواقعهم، واضطروهم إلى دخول المدينة، وزحفوا إلى الخندق فاجتازوه، ووصلوا إلى السور فنقبوه، تحت وابل من قذائف الفرنجة وسهامهم(١٢).

وأخذ الحصار يتطور من فزع إلى فزع ومن هول إلى هول، والمدافعون عن المدينة يرمون المحاصرين بالحجارة دون انقطاع، والسهام تتطاير في الجو من كل مكان، وفرسان صلاح الدين يحومون حول الأسوار، بينما الآلات تقذف النيران على المدينة، والجنود يحفرون لأنفسهم طريقاً تحت الأسوار والأبراج.

ويذهب بعض المؤرخين الغربيين إلى ان الخلاف كان على أشده داخل مدينة القدس، أثناء محاصرتها، بين الأرثوذكس والكاثوليك، وان الفريق الأول كان يصرح بأنه يفضل حكم المسلمين على حكم الكاثوليك الإفرنج، وهناك من يعتقد بأن زعماء الارثوذكس قد كاتبوا صلاح الدين لمساعدته في فتح المدينة(١٣).

ولما أيقن أفراد الحامية بأن المدينة صائرة إلى السقوط الحتم، رغم بسالتهم واستماتتهم في الدفاع عنها، أجمعوا رأيهم على طلب الأمان فأرسلوا باليان إلى السلطان يفاوضه في الصلح على أن يدفع سكان المدينة له مائة ألف دينار(١٤).

وأمسك صلاح الدين بيد باليان وقاده إلى باب الخيمة، وأشار إلى الأعلام الصفراء التي أخذت تخفق فوق عدد من أسوار المدينة، وإلى العلم الذي كان رجاله يرفعونه في تلك

---

(١٢) كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٤؛ ٢٩٤ السلوك، ج ١، ص٩٦، والنوادر السلطانية ص٦٦، ومن الطرائف التي تروى ان أحد الفقهاء أو أحد الشعراء كان قد تنبأ بفتح القدس في رجب عندما هنأه بفتح حلب، وهي نبوءة كما يلاحظ قضت بها القافية:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

كما تنبأ أحد المنجمين له بقوله: «تفتح القدس وتذهب إحدى عينيك». فأجابه: «رضيت ان أفتحه وأعمى».

(١٣) Grousset: Hist. des Croisades, III. pp. 811 _ 812

(١٤) Saladin Le plus pur Héros de L'Islam, p. 181



احد شوارع القدس

اللحظة فوق ثغرة جديدة احدثوها في السور القديم، وقال له: «هل لمدينة وقعت في الأسر أن تطلب شروطاً للصلح؟».

فقال الرسول: «أيها السلطان، ان في المدينة خلقاً كثيراً، لا يعلم عددهم إلا الله، وهم إنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، ظناً منهم انك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فان رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنقتلنّ ابناءنا ونساءنا، ونحرقنّ أموالنا ومتاعنا، ولا نترككم تغنمون ديناراً أو درهماً واحداً، ولا تأسرون ولا تسبون رجلاً أو امرأة أو طفلاً، فإذا فرغنا من هذا قمنا على الصخرة فخربناها، وألحقنا المسجد الأقصى وغيره من الأماكن المقدسة بها، ثم بعد ذلك نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم زهاء خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم نخرج إليكم في جمعنا نقاتلكم قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه، فلا يُقتل الرجل منا حتى يقتل منكم أمثاله، فنموت أعزاء أو نظفر كراماً»(١٥).

يقول محمد كرد علي: «وكان رأي صلاح الدين أخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته أولاً من إهراق دماء الفرنج كما أهرق أجدادهم دماء المسلمين، وهذا التهديد من سفير الصليبيين في الصلح لا شأن له مع صلاح الدين وهو في تلك القوة والمنعة، ولكن صلاح الدين يرمي إلى مقصد أعلى من جميع مقاصد جماعة الصليبيين، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درساً في مكارم الأخلاق وسماحة الإسلام»(١٦).

ويقول سيد أمير علي: «لقد تغلبت رقة قلب السلطان على رغبته في الاقتصاص، وسمح للروم ونصارى القدس بالإقامة في بلاده وبالتمتع بحقوقهم المدنية كاملة، كما سمح بالبقاء للفرنج واللاتين الذين شاؤوا ان يقيموا في فلسطين بوصفهم رعايا السلطان. أما المحاربون داخل المدينة فقد أمر برحيلهم خلال أربعين يوماً، وضمن لهم سلامة الوصول بحراسة جنوده إلى صور أو طرابلس، وحدد فدية الرجل منهم بعشرة دنانير شامية وخمسة دنانير للمرأة ودينار واحد للطفل، فمن عجز عن أداء الفدية أخذ أسيراً، غير أن هذا الشرط لم يعمل به قط»(١٧).

---

(١٥) كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٧؛ مفرج الكروب، ج٢، ص٢١٤.

(١٦) خطط الشام، ج٢، ص٦١.

(١٧) مختصر تاريخ العرب ص ٢١١.

وقبل الفرنجة هذا الشرط[١٨]، وبدأوا يغادرون القدس منذ ذلك اليوم نفسه، والسلطان وجنده ينتظرون في ظاهرها، وشرطته تحفظ الأمن في داخلها، كي لا يقع أي اعتداء أو انتقام، وكي يسود التسامح والشرف والاباء[١٩].

ويقول رانسيمان في ذلك: «كان المنتصرون معقولين وانسانيين، فعلى حين نجد الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاماً يخوضون في دماء ضحاياهم، لا نجد في هذه المرة بناءً نُهب، ولا إنساناً أصابه أذى، ونرى الحراس ـ تنفيذاً لأوامر صلاح الدين ـ منبثين لحراسة الطرق والأبواب وحماية المسيحيين من أي اعتداء قد يصيبهم»[٢٠].

ويثني المؤرخون جميعاً، غربيين وشرقيين، على الموقف النبيل الذي وقفه صلاح الدين أثناء فتح بيت المقدس[٢١]، ويتحدثون باعجاب شديد عن توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين والمحتاجين من الفرنجة[٢٢]، وعن إكرامه النساء، ورأفته بالأطفال. ورعايته للضعفاء منهم. ويشهدون بأن جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة، فلم يقع في هذا الحادث التاريخي الخطير، أي أمر من الأمور التي تقع عادة في مثل هذه الظروف على أيدي الجنود المنتصرين، والتي وقع كثير منها لما احتل الفرنجة القدس،

---

(١٨) للكاتب الانكليزي ريدر هيجارد رواية عن صلاح الدين ذهب فيها إلى أن أحد نبلاء الانكليز كان قد اختطف شقيقة السلطان وصحبها معه إلى انكلترا حيث اعتنقت الدين المسيحي وانجبت فتاة دعتها «روز اموند» أي «وردة العالم» وأن صلاح الدين رأى في المنام ان ابنة اخته هذه ستنقذ السلام في البلاد المقدسة، وتكرر هذا الحلم ثلاث مرات، فأرسل إلى انكلترا من اختطف الفتاة وجاء بها إلى دمشق، فلحق بها أبناء عمها وهما فارسان باسلان، وبدأت مغامرات وأهوال هربت وردة العالم ولجأت إلى دير في بيت المقدس، فلما حاصرها صلاح الدين، وجاء باليان لمفاوضته طلب أن تأتي وردة العالم، وإلا فإنه سيحيل القدس قاعاً صفصفاً ويعمل السيف في رقاب سكانها، فجاءت الملكة سيبيل ونساء الأشراف يتوسلن إلى الفتاة ان تفتدي بنفسها المدينة المقدسة، واستجابت وردة العالم لطلبهن ومضت إلى صلاح الدين ورجته أن يعفو عن المدينة، فقبل صلاح الدين رجاءها، وتحققت بذلك رؤياه، وهكذا نجت بيت المقدس من المصير الرهيب الذي كانت تنتهي إليه أمثالها من المدن التي كان يحتلها الفاتحون في القرون الوسطى، ومن الواضح ان كل ما جاء في رواية ريدر هيجارد إنما هو من نسج الخيال.

(١٩) Saladin Le plus pur Héros de L'Islam, p. 182

(٢٠) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار، ص٢٨.

(٢١) انظر: Ernoul. p. 171; Grousset. II. p. 800; Champdor, p. 183

(٢٢) مرآة الزمان، ص٢٥٢.

ويقول الدكتور فيليب حتي في ذلك: وكان الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الإفرنج ومعاملة الافرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة»[٢٣].

وفي كتاب «تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوّة حرب الصليب» الذي ألفه مكسيموس مونروند ونقله إلى العربية البطريرك مكسيموس مظلوم، وطبعه دير الرهبان الفرنسيسكانيين بالقدس سنة ١٨٦٥، يتحدث المؤلف عن المجازر التي رافقت احتلال الفرنجة للقدس ويقول: «فالمؤرخون بنوع خاص ذموا قساوة هؤلاء الجنود البربرية عن هذا الفعل» ثم يقول: «وأما نحن فنحوّل نظر تأملنا في هذا المشهد البربري المكروه»[٢٤]، وعندما يتحدث عن فتح القدس من قبل صلاح الدين وأعمال الرحمة والشهامة التي بدرت منه نحو الصليبيين لا يسعه إلا أن يقول: «فالفضل لشهامة الملك العادل أخي السلطان صلاح الدين واشفاقه الذي به ساعد هؤلاء، ثم الحمد لرأفة هذا السلطان نفسه بما ترأف به عليهم»[٢٥].

وقد كان البطريرك اللاتيني ايراكلوس أول من غادر القدس، وكان يحمل مقداراً كبيراً من الأموال والجواهر[٢٦]، فقيل للسلطان: «خذ ما معه لتقوي به المسلمين»، فقال: «لا أغدر به!» ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير[٢٧]، وهمّ بعض الأمراء باعتراض البطريرك لما رأوا معه من الأموال، فمنعهم صلاح الدين وقال لهم: «الوفاء خير»[٢٨].

ثم خرجت الملكة سيبيل يحيط بها الأشراف والأميرات، فبالغ السلطان في إكرامها، وخاطبها باسلوب مهذب رقيق، وبعث بها إلى زوجها غي السجين بقلعة نابلس حيث مكثت في ضيافته حتى أطلق سراحهما معاً.

وسمح بخروج الملكة ماريا كومنينوس ارملة آموري الأول وزوجة باليان وأمر بحراستها ومن معها من بيت المقدس حتى طرابلس.

---

(٢٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج٢ ص ٢٣٨

(٢٤) تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ج ١، ص١٧٢ـ١٧٣.

(٢٥) المرجع السابق، ج٢، ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢٦) المرجع السابق، ج٢، ص٩٥.

(٢٧) مفرج الكروب، ج٢، ص٥ ٢١؛ تاريخ سورية للمطران الدبس، ج٦، ص١٠٨.

(٢٨) دول الإسلام، ج٢، ص٧٠.

وخرجت طائفة كبرى من النساء ووقفن في حضرته متهيبات، يختلسن النظر إليه فلا يرين ملامح الوحش الكاسر، آكل لحم البشر وشارب الدماء، فقال: «ما تردن؟»، فقلن: «أيها السلطان! أترانا الآن راحلات عن هذه الديار ونحن بين زوج أو أم أو ابنة لاولئك الجند الذين ما يزالون في أسرك؟ ونحن الآن نغادر هذه الديار إلى الأبد، وهؤلاء الجند الذين نتركهم هم عدتنا في حياتنا وسلاحنا في أيامنا، فإذا فقدناهم فقدنا الحياة، أما إذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنا النعيم، وخففت بذلك آلامنا، وازحت بؤسنا، وابعدت عنا شقاءنا، فإنَّا لا نكون على ظهر هذه الأرض من غير مساعد أو عائل!...»(٢٩).

فتأثر السلطان لقولهن، وأطلق سراح ابنائهن وأزواجهن وآبائهن جميعاً، وعوّض اللاتي مات أولياؤهن مالاً كثيراً، وجدد الأمر على عماله بأن يحسنوا معاملة من بقي لديهم من الأسرى(٣٠).

وكان بين الأسرى الذي اعتقهم صلاح الدين فتاة فرنسية، فتولاها الغضب وتقدمت نحو صلاح الدين قائلة: لقد قتلت أبي أيها المجرم السفاك، وأسرت أخويّ، فلم يعد لي عائل، وها انت تمن عليّ بالعتق كيما يزداد بلائي!

فلم تثر تلك الشتائم صلاح الدين، وبعث بمن أحضر أخوي الفتاة، وقال لها:

ـ أما أبوك فقد قتل في حرب هو الذي أشعل نارها واعتدى بها على القوم الآمنين، وأما أخواك فاني أطلق سراحهما إكراماً لامرأة في حاجة إلى العائل والمعين.

فقالت الفتاة: عفواً مولاي، فإنما هي ثورة الحزن، وما كنت اسمعه في بلادي عن ظلم المسلمين... هذا ما جعلني أنطق بما لا أعي، وانني مع هذا لست يائسة من صفحك وكرم عفوك.

ولما همت بالانصراف قال السلطان: إلى أين انت ذاهبة؟

فقالت: إلى بلادي.

---

(٢٩) Eracles. II, pp. 81, 84

(٣٠) تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ج٢، ص٩٥.



قال: وماذا انت قائلة لقومك؟

قالت: أقول لمتعصبيهم كلمة الحق في الإسلام والمسلمين(٣١).

وخرج فوج من الفرنجة الذين يحملون أقاربهم المرضى على ظهورهم بدلاً من ان يحملوا امتعتهم وأرزاقهم «فهذا المشهد حرك حنو السلطان صلاح الدين فأشفق على هؤلاء المساكين وسمح للرهبان صياف الغربا (الاسبتارية) بأن يستمروا باقين في أورشليم ويتمموا واجبات رسومهم بالاعتناء بجميع الذين من المسيحيين لم يكونوا قادرين على السفر»(٣٢).

وهذه امرأة من نساء الفرنج وقفت على خيمة السلطان وبكت بكاء شديداً، وهي تمرغ وجهها في التراب، وتستغيث به وتستنجد، فقد ارسلها قومها إليه قائلين: «انه أشرف محارب رأيناه، على هذه الأرض. هو قاس على المقاتلين، ولكنه رؤوف بالأطفال والنساء» فاستدعاها إليه، وعرف من أمرها أنها فقدت رضيعاً لها لا يزيد عمره على الثلاثة أشهر، فرقّ قلبه لها، ودمعت عينه لمنظرها، وأمر بالبحث عن رضيعها، ولم يزل واقفاً حتى أُحضر الطفل وسلمه بيده إلى أمه كي تقرّ به عينها، وقال لها: «خذيه ولا تربيه على بغضنا، فنحن لسنا وحوشاً مفترسة، ولكننا ندافع عن حقنا وأرضنا»(٣٣).

وتقدم من السلطان شيخ مسيحي مسن يمسك بذراع شاب مسلم وقال له بصوت متهدج: «أيها المولى، أنا فرنسي من بلدة تولوز أقيم في هذه المدينة منذ عشرين سنة، وقد جاءني هذا الشاب منذ سنتين، هارباً من مدينة عسقلان، فأضفته في بيتي وكتمت خبره عن الناس. وقد أقام في بيتي هذه المدة كلها، يأكل ويشرب وينام، فلما استرجعتم القدس، وخسر الصليبيون كل شيء، وشعر هذا الشاب بأنني غدوت ضعيفاً وأصبح هو قوياً، انقلب عليّ وطردني من بيتي واستولى على كل شيء فيه. فهل انتم تطلقون الأيدي في

(٣١) أبطال الشرق، ص١٥.

(٣٢) تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ج٢، ص٩٦، والاسبتارية هم فرسان المستشفى الذين كانوا من أبرز فرسان الصليبيين الذين حملوا السلاح في وجه صلاح الدين في معركة بيت المقدس وغيرها من المعارك، وقد كان سماحه لهم بالبقاء في القدس للعناية بالمرضى من أغرب وأعظم مآثره.

(٣٣) صلاح الدين بطل حطين ص١٢٢؛ دمعة صلاح الدين ص٩؛ قصص من التاريخ ص١٨، وقد روى ابن شداد قصة هذه الأم بين الحوادث التي جرت أثناء حصار عكا: انظر النوادر السلطانية، ص١٤٦.

السلب والنهب وتقرون خيانة الضيف للمضيف؟ أم تطبقون علينا شروطاً قبلناها وارتبطتم بها؟ ان هذا الرجل خائن وسارق، فهل تعاقبه يا صلاح الدين، أم تسكت عن خيانته وسرقته؟» فلم يتردد صلاح الدين لحظة في الجواب، بل التفت إلى الملك العادل وقال: «أعيدوا إلى هذا الشيخ بيته وماله، واعفوه من دفع الفدية أو الجزية، واسجنوا هذا الشاب حتى ننظر في أمره»(٣٤).

ومن حق التاريخ ان نقول ان قوافل الفرنجة التي أرسلها صلاح الدين مخفورة كي لا تتعرض لأي اعتداء(٣٥)، قد أغلقت في وجهها أبواب طرابلس وانطاكية اللتين كانتا ما تزالان في أيدي الفرنجة، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب(٣٦). ويقول ألبير شامبدور انه لما اغلقت أبواب طرابلس وانطاكية في وجوه اللاجئين من الفرنجة واعتدى عليهم بنو قومهم المقيمون في طرابلس ونهبوهم حتى إن إحدى النساء قد انتابتها ثورة عصبية شديدة دفعت بها إلى إلقاء وليدها في اليم يأساً وألماً «أمر صلاح الدين بأن توزع عليهم الخيام والأطعمة دون مقابل إلى ان يستطيعوا الإبحار إلى الغرب، ونقل عدداً كبيراً منهم إلى الاسكندرية أملاً في تسهيل رحيلهم على المراكب الإيطالية، ولكن قادة سفن بيزة وجنوة والبندقية لم يقبلوا في سفنهم إلا من كان يملك أجور السفر ونفقات الغذاء طوال مدة الرحلة، مما أدهش المسلمين هناك وأغضبهم فاندفعوا لتأمين الغذاء والمأوى لأولئك المسيحيين الأوروبيين المشردين»(٣٧).

وهكذا يتبارى المؤرخون الغربيون في الإشادة بسيرة صلاح الدين في فتوحه، مؤكدين انه «ظهر على مستوى من كرم الأخلاق والشهامة لا يفوق المستويات العادية التي عرفها فرسان الغرب فحسب، بل يفوق المثل العليا التي لم يصل إليها أولئك الفرسان في يوم من الأيام»(٣٨).

ويقول المطران يوسف الدبس بعد أن لخص أقوال المؤرخين المسلمين في فتح بيت

---

(٣٤) الناصر صلاح الدين لجاماتي، ص٩٢.

(٣٥) الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٢٥ نقلاً عن: Besant et Palmer: Jérusalem p. 400

(٣٦) Ernoul, p. 281 مختصر تاريخ العرب، ص٣١٢.

(٣٧) Saladin Le plus pur Héros de L'Islam, p. 183 _ 184

(٣٨) الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٣١ نقلاً عن: Stevenson: the Crusades in the East, p. 254

المقدس: «أما المؤرخون الفرنج فرووا أخبار فتح صلاح الدين أورشليم كما رويناها عن المؤرخين المسلمين وقلّ ما زادوا عليها. وما زادوه كان المؤرخون العرب أولى منهم بذكره، فإنهم أثنوا على سماحة صلاح الدين وكرم أخلاقه واشفاقه على الفقراء والمصابين بهذه النازلة»، وبعد ان يروي معظم ما رويناه في الصفحات السابقة من مآثر صلاح الدين يقول: «ودفع الملك العادل أخو صلاح الدين فدية ألفي أسير فاقتدى به السلطان أخوه وكسر أغلال كثيرين من الفقراء والأيتام. وقد أشار إليه بعض المسلمين ان يدكّ حينئذ كنيسة القبرالمقدس وسائر الكنائس ليمنع النصارى من الحج إلى القدس أو أن يتذرعوا بتكريمها إلى الاستيلاء على هذه المدينة، فآثر ان يخالفهم في بقاء الكنائس ولا سيما كنيسة القبر اقتداء بعمر بن الخطاب، إذ أبقى هذه الكنائس للنصارى في صدر الإسلام»[٣٩].

أما من بقي من الفرنجة في القدس فقد رعاهم صلاح الدين وأحسن إليهم. وأما المسيحيون السوريون والبيزنطيون من سكانها فقد وسّع لهم في أملاكهم ومنحهم من الحرية ما كانوا يتمتعون به في العهود العربية السالفة[٤٠]، شأنهم في جميع أنحاء بلاده، مؤكداً بذلك انه لم يكن يحارب المسيحية والمسيحيين وإنما كان يقاوم الاستعمار والمستعمرين.

ومن أطرف ما يروى ان عيد الميلاد أطل بعد تحرير بيت المقدس بأسابيع معدودة، في ليلة ممطرة حالكة السواد، فاحتفل المسيحيون الباقون في القدس بعيد المرح والبهجة في ظروف تكتنفها الكآبة والحزن. يقول الأستاذ حبيب جاماتي: «وفي مساء ذلك اليوم، أقدم الرجل الذي هزت انتصاراته العالمين في الشرق والغرب، والذي كان عظيماً في حربه، عظيماً في سلمه، على عمل نبيل تجاه المسيحيين الحزانى المكلومين، لم يذكر التاريخ له مثيلاً من قبل أو من بعد. فقد سار السلطان صلاح الدين الأيوبي في مياه الأزقة وأوحال الطرقات، يبحث عن النصارى الإفرنج القابعين في عقر بيوتهم والذين لم يفتدهم أهلوهم فوجدوا أنفسهم في ضنك شديد، حاملاً إليهم تهانئه وهداياه. كان يطرق الأبواب، فتفتح صارخة على رزازها، ويبدو الشيوخ والنساء من ورائها خائفين مرتاعين أو يطل

---

(٣٩) تاريخ سورية المجلد السادس، ص١٠٩، انظر أيضاً دول الاسلام، ج٢، ص ٧١.

(٤٠) تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ج٢، ص٩٤.

الأطفال من الطاقات والنوافذ مذعورين باكين، ثم تعود الطمأنينة إلى نفوسهم فيستقبلون الوافدين، ويتقبلون منهم الهدايا من مأكل وملبس ومال. ولم يكن أولئك الوافدون غير السلطان ورفاقه، وقد راحوا ينشرون الغبطة والسعادة والرخاء، في بيوت النصارى بالقدس ليلة عيد الميلاد»[٤١].

ويروي الشاعر اليهودي الاسباني يهودا الحريزي الذي زار القدس في سنة ١٢١٦م، أن اليهود قد أفادوا من جو الحرية الدينية الذي شاع في عهد صلاح الدين، فلجأت إلى القدس جماعات كبيرة من اليهود وفدت إليها من جميع أنحاء العالم[٤٢].

وقد كتب صلاح الدين إلى الامبراطور البيزنطي اسحق الثاني انجيلوس يخبره باستعادة بيت المقدس، ويردّ إليه مائة وتسعين من رعايا بيزنطية كانوا قد وقعوا أسرى في يده أثناء حروبه مع الصليبيين، فأجابه العاهل البيزنطي مهنئاً[٤٣].

(٤١) الناصر صلاح الدين، ص١١٩.

(٤٢) Saladin Le plus pur Héros de L'Islam, p. 188

(٤٣) السلوك، ج ١، ص٩٨.

الفصل الثامن عشر

قمّة المجد

أقام صلاح الدين الأيوبي في بيت المقدس شهراً كان خلاله موضوع احتفال السكان وتمجيد الشعراء وتهنئة الأمراء من جميع الأنحاء. وتؤلف قصائد الشعراء في تحرير القدس لوناً خاصاً في الأدب العربي يعرف باسم «القدسيات».

ومن «القدسيات» قول ابن الساعاتي:

أعيا وقد عاينتم الآية العظمى لأية حال تذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس في كل منطق وشاع إلى ان أسمع الأسل الصما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أعيا دواؤه وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسماً وألسنة الأغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشي عن سطواته فما كان إلا ساحلاً صادف اليمّا

ومن «القدسيات» أيضاً قول ابن سناء يخاطب صلاح الدين:

لست أدري بأي فتح تُهنا يا منيل الإسلام ما قد تمنى
كل فتح يقول إني أولى، وهو أولى لأنه كان أهنا
قد ملكت الجنان قصراً فقصر إذاً فتحت الشآم حصناً فحصناً
إن دين الإسلام مَنْ على الـ ـخلق وأنت الذي على الدنيا منّا

لـك مـدح فـوق الـسـمـوات يـنـشـا ومـحـل فـوق الأسـنـنـة يُـبـنـى
كـم تـأنـى الـنـصـر الـعـزيـز عـن الـشـا م، ولـمـا نـهـضـت لـم يـتـأنـى
لـم تـقـف قـط فـي الـمـعـارك إلاَّ كـنـت يـوسـفـاً كـيـوسـف حـسـنـا
قـصـدت نـحـوك الأعـادي فـرد الـلـه مـا أمّـلـوه عـنـك وعـنـا
لـم تـلاق الـجـيـوش مـنـهـم ولـكـنـك لاقـيـتـهـم بـلاداً ومـدنـا
خـانـهـم ذلـك الـسـلاح فـلا الـرمـح تـثـنـى ولا الـمـهـنـد طـنـا
وتـصـيـدتـهـم بـحـلـقـة صـيـد يـجـمـع الـلـيـث والـغـزال الأغـنـا
وجـرت فـيـهـم الـدمـاء بـحـاراً فـجـرت فـيـهـم الـجـزائـر سـفـنـا
صـنـعـت فـيـهـم ولـيـمـة وحـش رقـص الـمـشـرفـيّ فـيـهـا وغـنـى
وحـوى الأسـر كـلَّ مـلـك يـظـن الـدهـر يـفـنـى ومـلـكـه لـيـس يـفـنـى
لا يُـخـص الـشـآم فـيـك الـتـهـانـي كـل صـقـع وكـل قـطـر مـهـنـا
قـد مـلـكـت الـبـلاد شـرقـاً وغـربـاً وحـويـت الآفـاق سـهـلاً وحـزنـا
واغـتـدى الـوصـف عـن عـلاك حـسـيـراً أيّ لـفـظ يـقـال أو أيّ مـعـنـى
ورأيـنـا ربـنـا قـال اطـيـعـو ه، فـسـمـعـنـا لـربـنـا وأطـعـنـا

وقد عني السلطان بتنظيم شؤون المدينة، وتأمين السلام والحرية لجميع أبنائها. ثم أخذ يستعد لمهاجمة صور لعلمه انه إن أخّر أمرها اشتد. وقد كتب له في ذلك بعض الأمراء(١). ولكن هذه المدينة كان قد أصبح لها من المنعة، بما أنشأ فيها المركيز كونراد من أسباب الدفاع، وبما تجمع فيها من أجناد الفرنجة الهاربين من كل مكان، ما جعل الاستيلاء عليها أمراً عسيراً، ان لم يكن مستحيلاً. فظل ينازلها بضعة أسابيع من البر والبحر، دون طائل.

وقد اشترك مع السلطان في محاصرة صور ولداه الأفضل والظاهر وشقيقه العادل وابن عمه تقي الدين عمر، فوزعهم وغيرهم من الأمراء على أسوار المدينة ووكل كلا منهم بناحية منها، وبدأ برميها بالمجانيق والعرادات والجروخ، ومهاجمتها بالدبابات. ولما لم

---

(١) الفتح القسي، ص٦٢.

لم يجد ذلك قسم جنده الى ثلاثة اقسام، وجعلهم يتناوبون على القتال خلال أربع وعشرين ساعة، كي لا يدع للمدينة المحاصرة سبيلاً إلى الراحة ليلاً أو نهاراً، ولكن ذلك كله لم يؤدِّ إلى نتيجة حاسمة.

وقد اشتهر في هذه المعارك فارس افرنجي أطلق عليه لقب «الفارس الأخضر» لأنه كان يرتدي قميصاً أخضر، ويحمل على ذراعه اليسرى ترساً أخضر اللون، ويقود الفرنجة المحاصرين فيندفع بهم إلى صفوف المسلمين فيزحزحهم عن مواقعهم. ويقال ان صلاح الدين قد أعجب بهذا الفارس وما يتحلى به من شجاعة فائقة، فدعاه مرة إلى خيمته، وأهداه خيولاً وجوهر، وعرض عليه ان يقطعه أرضاً في بلاد الشام إذا قبل العمل معه، ولكن الفارس الأخضر رفض كل ذلك، وقال انه لم يأت من بلاده ليعيش مع الشرقيين ولكن ليحاربهم!..

وكان موقف الفرنجة وهم وراء حصونهم المنيعة، أفضل من موقف المسلمين في الفلاة وفي بقعة ضيقة من الأرض تركزت هجماتهم فيها[٢]. نظراً لموقع صور الجغرافي الذي يجعل منها مدينة بحرية أكثر منها مدينة برية، ولا عجب فهي سيدة البحر في العصور القديمة، فكانت قذائف الفرنجة وسهامهم تفعل في المسلمين أضعاف ما تفعل قذائف هؤلاء وسهامهم في الفرنجة.

وقد وصف ابن جبير مدينة صور وأعطى صورة دقيقة عن مناعتها، فقال عنها: «مدينةٌ يُضرب بها المثل في الحصانة، لا تُلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدَّها الإفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم، وجعلوها مثابة لأمانهم، هي أنظف من عكا سككاً وشوارع، وأهلها ألين في الكفر طبائع، وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلائقهم أسجح، ومنازلهم أوسع وأفسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن، وعكا أكبر وأطغى وأكفر. وأما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يُحدَّث به، وذلك انها راجعة إلى بابين: أحدهما في البر، والآخر في البحر، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البر يُفضي إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب، وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ.

---

(٢) الكامل، ج ١١، ص٣١٦.

فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج، فلا مجال للمركب إلا عند إزالتها. وعلى ذلك الباب حرّاس وأمناء، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم. ولعكا مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك، وإنما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل»(٣).

وأدرك صلاح الدين خطورة الموقف فعمد إلى إشراك سفنه في الحصار، ولكن ذلك أدى إلى كارثة كبرى خسر فيها المسلمون عشر سفن بمن فيها من النوتية والمقاتلة(٤). وقد كان على الأسطول المصري الذي اشترك في حصارها بدران الفارسي، ومع انه كان رجلاً ناهضاً جلداً في البحر، فقد غفل عن وصية قائده عبد المحسن أمير البحر بأن يأخذ حذره ويتيقظ، لأن الفرنجة أقدر في البحر وأمكن، ومتى سنحت لهم الفرصة فلن يهملوها، ولكن بدران وبحارته كانوا مأخوذين بانتصارات صلاح الدين وقوته فغفلوا عن الوصية وأهملوها، وباكرهم اسطول الفرنجة من صور فلم يطيقوا قتاله، وقتل العدو جنداً عظيماً بعد أن أصابوا السفن وغنموا عدداً منها وعليها مقدمو المقاتلة في الأسطول(٥).

وعقد السلطان مجلس شوراه الذي كان يرجع إليه في كل أمر خطير، فانقسم أعضاء المجلس إلى فريقين، يرى أحدهما تأجيل حصار صور ريثما تُستكمل المعدات والآلات اللازمة لذلك، ولا سيما ان الشتاء قد أقبل والمقاتلون الذين تعودوا الفتح السريع يريدون العودة إلى أهلهم، ويرى الفريق الآخر مصابرة البلدة ومضايقتها حتى تسقط(٦). وقد أخذ المجتمعون برأي الفريق الأول، وكان لذلك كما يقول الدكتور نظير سعداوي: «أثر سيء في العمليات الحربية التالية، لأن رفع الحصار عن صور يوم أول يناير سنة ١١٨٨م (ذو القعدة ٥٨٣هـ) كان نقطة تحول خطيرة في تاريخ مصر الحربي وفي انتصارات صلاح الدين»(٧).

---

(٣) رحلة ابن جبير ص٢٧٧ ـ ٢٧٨؛ وتجدر الملاحظة بأن الرحالة قد وصف صور وتحصينها ومناعتها سنة ٥٨٠هـ ١١٨٤م، أي قبل الإنشاءات التي أقامها كونراد فيها.

(٤) راجع تفصيل ذلك في الفتح القسي ص٦٢ ـ ٦٩، النوادر السلطانية ص٧٥؛ الكامل، ج ١١، ص٣٦٦؛ النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٨.

(٥) أيام صلاح الدين ص٢١٧.

(٦) الكامل، ج ١١، ص٣٦٨؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص١٢٩.

(٧) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص١٩٨.

ولم يكن صلاح الدين ليريد إرغام قواده على الحرب وهم لها كارهون، فرفع الحصار ورحل إلى عكا فقضى فيها فصل الشتاء، ثم دعا بهاء الدين قراقوش وكلفه القيام بتحصينها، وغادرها إلى دمشق ففاجأه نائب ديوانه الصفي بن القابض بأنه استجدَّ داراً في قلعة دمشق لينزل بها السلطان وأنفق عليها أموالاً كثيرة وبلغ في تزيينها شيئاً عظيماً، فرأى صلاح الدين ان في ذلك إسرافاً لا مبرر له، وعزله من الديوان وعين مكانه بدر الدين مودود وقال: «هذا منزل لا يصلح لمثلي أبداً، وان منزلي دائماً خيمة تعصف الرياح في خروقها، وإنها لأحب إلى نفسي من هذا القصر وغيره من زخارف الدنيا».

وقد جهز في دمشق جيشاً كبيراً وسار به في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣، أيار (مايو) ١١٨٨م، صوب طرابلس وانطاكية، واستولى على اللاذقية ومن أطرف ما حدث في معركة هذه المدينة، ان السلاح قد نفد من الفرنجة والعرب جميعاً، فأخذوا يتقاذفون بالحجارة، وتكاثر المسلمون فغلبوا وسلم الفرنجة. وكتب قاضي جبلة الأمان الذي طلبوه: كتب ان يُطلقوا بأنفسهم وذراريهم، خلا الغلال والذخائر وآلات الحرب والدواب، ما عدا ما يركبونه منها ليصلوا إلى مآمنهم[٨].

ثم استولى على طرطوس وفيها أطلق سراح الملك غي بعد أن أقسم له ألا يعود إلى محاربته أبداً «وهو وعد بذله جيرارد مقدم الداوية وجي وغيرهما من الأسرى دون ان يفي به أحد منهم»[٩]، ثم احتل مرقب وجبلة واللاذقية وقلعة صهيون وسرمينية وبزرية، وقد أسر أمير بزرية وأفراد اسرته ثم أخلى سبيلهم وأرسل معهم من أوصلهم إلى انطاكية ومعهم صاحبة الحصن شقيقة سيبيل التي ما فتئت تراسله وتكشف له مواطن الضعف في مواقع الصليبيين[١٠]، فأحسن السلطان معاملتها «إكراماً لامرأة البرنس (سيبل)

---

(٨) أيام صلاح الدين ص ٢١٨.

(٩) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٠٥، ويقول الدكتور عاشور: «كان صلاح الدين قد وعد بإطلاق سراح جاي لوزجنان، حتى إذا ما كان صيف ١١٨٨م، أرسلت إليه زوجه الملكة سيبل، ترجوه تحقيق وعده، وعندئذ غلبت على صلاح الدين روح الشهامة والمروءة والوفاء بالعهد، وهي الصفات التي تحلى بها دائماً في جميع تصرفاته مع الصليبيين والتي طالما عانى كثيراً من المتاعب بسبب تمسكه بها، في الوقت الذي لم يعرف خصومه في معاملاتهم معه سوى الغدر والخيانة ونكث العهود. وكان أن أفرج فوراً عن لوزجنان في يوليو سنة ١١٨٨م، ولم يشأ ان يتركه ينصرف وحيداً، وإنما أفرج أيضاً عن عشرة من أعيان الصليبيين ليكونوا رفقاء وبطانة له، منهم أخوه عموري ومقدم الداوية» الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٥٣.

(١٠) كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٣١.



صورة خيالية لصلاح الدين الايوبي وهو في العقد الخامس من عمره

فشكرته على ذلك ودامت مودتها له»[١١]، وكانت بينهم عروس أسر جنوده عريسها فأمر بردّه إليها.

ولما استولى على حصني درياك وبغراس، وأصبح على مقربة من انطاكية، خافه أميرها وناشده أن يهادنه ثمانية أشهر. وكان صلاح الدين قد شعر بتبرم جنوده لكثرة ما قادهم إليه من المعارك، فقبل الطلب وعقدت الهدنة بينهما.

عاد صلاح الدين إلى حلب تلبية لدعوة ولده الملك الظاهر، فقضى بضعة أيام بين أهله وأولاده، ولكم كان يود لو تطول هذه الأيام السعيدة، ولكن الجهاد كان يدعوه إلى غمراته، ولم يكن هذا الرجل الكبير ليؤثر على تلبية دعوة الواجب شيئاً. ومن ثم نراه يسرع إلى دمشق فيصلها في النصف الثاني من شعبان سنة ٥٨٤هـ - ٢٠تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٨م، ليتابع منها نضاله، وكأن هناك دافعاً خفياً يحثه على الإسراع وكسب الوقت «فالعمر قصير - كما كان يقول - والأجل غير مأمون»[١٢]. ولكن جيشه لا يحس هذا الدافع، «وقد ملّ العسكر الغريب الإقامة وأبدى السآمة»[١٣]، فيسرّح أولئك الجنود، ويسير إلى صفد بحرسه وحده، فيبلغ ضاحيتها في مساء بارد تعصف فيه الرياح من كل جانب، ولكنه يأبى أن يغمض له في تلك الليلة جفن قبل أن ينصب مجانيقه الخمس، فلم يطلع الصبح حتى كان قد أقام حول المدينة آلات الدمار وضرب الحصار عليها.

وقد طال ذلك الحصار شهراً سلّمت المدينة في نهايته، فانتقل إلى حصار كوكب ولبث ينازلها تحت سيل الأمطار وفي غمرة الأوحال حتى سلّمت في منتصف ذي القعدة سنة ٤٨٤هـ أوائل كانون الثاني (يناير) ١١٨٩م. وفي تلك الفترة بلغه سقوط الكرك بيد أخيه العادل، بعد أن حاصرها حصاراً شديداً اضطر أهلها من وطأته إلى أكل الدواب[١٤]، ثم سقط حصن الشوبك بعد ذلك ببضعة أشهر[١٥].

وهكذا لم يبق لهم في أيدي الفرنجة من القلاع الحصينة «التي كانت بمثابة المخافر

---

(١١) مفرج الكروب، ج٢، ص٢٦٧.

(١٢) خطط الشام، ج٢، ص٦٥.

(١٣) الفتح القسي، ص١٢٩.

(١٤) مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٧١.

(١٥) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٢٤.

الأمامية»[١٦]، سوى حصن الشقيف أو شقيف أرنون، فسار صلاح الدين إلى مرجعيون استعداداً لمهاجمته، وكان يحتمي فيه رينو دو ساجيت صاحب صيدا الذي التجأ إليه إثر سقوط مدينته، فما كاد يعلم بأن السلطان يقصده حتى عمد إلى زيارته وإعلان رغبته في تسليم الحصن، على أن يتعهد صلاح الدين بحمايته والسماح له ان يحيا في دمشق، ويقول ابن شداد في ذلك: «وما أحسسناه إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان، فأذن له فدخل، فاحترمه وأكرمه. وكان من كبار الإفرنج وعقلائها، وكان يعرف العربية ويتكلم بها، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر انه مملوكه وأنه تحت طاعته، وانه يسلم المكان إليه من غير تعب ولا قتال، واشترط ان يُعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج»[١٧]، إلا ان الحامية الصليبية رفضت تسليم الحصن، ولم تستسلم إلا بعد دفاع ضار وقتال عنيف. ويقول شامبدور ان رينو دو ساجيت كان يخادع صلاح الدين، وقد طلب منه مهلة ثلاثة أشهر لإحضار أسرته من صور قبل ان يسلمه الحصن، فأمهله السلطان وأخذ يستقبله في مخيمه ويناظره في القضايا الدينية، بينما كان رينو يكسب الوقت لتعزيز وسائل الدفاع عن حصنه، ولما انتهت المهلة المحددة طلب مهلة جديدة مدتها تسعة أشهر، ولكنه ما كاد يتجه إلى الحصن للعودة إليه كعادته، حتى اعتقله رجال صلاح الدين، فأدرك ان حيلته قد كشفت، ونادى أفراد الحامية محذراً إياهم من الاستسلام، فاعتقل وسيق إلى دمشق. ويصف شامبدور ان الوقت الذي قضاه صلاح الدين أمام حصن الشقيف، بخدعة بارعة، هيأ الفرصة لغي دو لوسينيان للظهور بعد قليل أمام صور وتحت إمرته سبعة آلاف مقاتل[١٨].

وأطلت سنة ١١٩٠م، وليس في أيدي الصليبيين من مملكة القدس سوى مدينة صور، ومن إمارة طرابلس سوى عاصمتها طرابلس وقلعة طرطوس وحصن الأكراد، ومن إمارة انطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب[١٩].

إلا أن هذه الانتصارات الكبرى لم تشعر السلطان بالخلود إلى الراحة فانتقل إلى

---

(١٦) الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٣٠.

(١٧) النوادر السلطانية ص٨٠.

(١٨) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 214 _ 216

(١٩) الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٢٧، Grousset. II, pp. 834 _ 835



القدس يعالج شؤونها ويتفقد حصونها، إذ كان يشعر بأن ثمة زوبعة عاتية توشك ان تهب في بلاده.

والواقع ان صلاح الدين كان قد بلغ ذروة مجده. ويقسم المؤرخون الحربيون مرحلة الجهاد الصلاحي قسمين تفصل بينهما بداية سنة ١١٨٩م (أو أواخر سنة ٥٨٤هـ): أحدهما عهد الفتح والغزو والغنائم، وثانيهما عهد الدفاع والتحصين والمقاومة. وقد «اتضح ذلك تماماً لصلاح الدين نفسه منذ بداية تلك السنة، حين وصلت مجهوداته إلى نقطة التشبع، ولم يقو بعدها على مغالبة بقايا المقاومة الصليبية في صور بزعامة كونراد، وفي طرابلس بزعامة جاي دو لوزجنان، وفي انطاكية التي أوشكت هدنتها على النهاية بزعامة بوهيمند الثالث. ولذا تحول صلاح الدين في خططه العسكرية منذ بداية سنة ١١٨٩، من جانب الهجوم إلى الدفاع، وهي خطة اتفق عليها في ما يبدو مع أخيه العادل في اجتماع صحراء بيسان، ودلت عليها رحلته التفتيشية للمدن الداخلية والحصون الساحلية، ورتب صلاح الدين العادل والعزيز عثمان لحماية مصر وسواحلها، والأفضل عليّ لحماية جنوب فلسطين وسواحلها، وتقي الدين عمر لمراقبة إمارة طرابلس وما حولها، أما هو فعزم على منازلة إمارة انطاكية غداة انتهاء الهدنة معها»(٢٠).

وكان غي دو لوسينيان الذي أطلق السلطان سراحه بعد أن قطع على نفسه عهداً بألا يشهر في وجهه سيفاً وأقسم بذلك على الانجيل(٢١)، قد حنث بيمينه وأخلف وعده، فلم يسافر إلى أوروبة وإنما ذهب إلى صور للعمل مع أميرها كونراد، ثم تنافس الإثنان على الزعامة فغادرها إلى طرابلس وعمد إلى جمع الجنود وتدريبهم.

وبينما كان الفرنجة في المشرق يتجمعون ويستعدون، كانت أوروبة تضج لسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين وتتنادى إلى حملة صليبية ثالثة، مثلما ضجت يوم سقطت الرها في يد عماد الدين زنكي منذ أربعين سنة فتنادت إلى الحرب الصليبية الثانية. وعمد كونراد إلى إرسال جوسياس رئيس اساقفة صور إلى أوروبة مستنجداً بملوكها مستصرخاً البابا أوربان الثالث وخلفه غريغوري الثامن(٢٢).

---

(٢٠) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢١٢.

(٢١) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p.217

(٢٢) خلف غريغوري الثامن البابا كليمنت الثالث، وقد استطاع البابا الجديد أن يقرّ بين ملوك أوروبة وأمرائها هدنة عامة لمدة سبع سنوات كي يوجهوا اهتمامهم إلى الشرق، انظر تفصيل ذلك في Lavisse: hist. Générale, II. p. 303

وقد بلغ من اهتمام ملوك أوروبة هذه المرة بالحرب الجديدة التي اعلنوها على الشرق، وتناسوا من أجلها أحقادهم وخصوماتهم[٢٣]، أنهم فرضوا على كل من لم يشأ التطوع فيها أو تعذر عليه ذلك، ان يدفع عُشر مداخيله مع عشر ثمن أملاكه المنقولة، وسموا هذه الضريبة «العشور الصلاحية» رمزاً لانتصار صلاح الدين عليهم، وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفعها، وهي أول ضريبة عامة فرضت في تاريخ أوروبة، وقد كان تجمع الأموال السبب الأول في نشوء المصارف[٢٤].

وكان أول من لبى الدعوة الصليبية الجديدة، ملك صقلية وليم الثاني الذي أنجد طرابلس بأسطول يتألف من ستين سفينة عزز مقاومتها وحال بين صلاح الدين والاستيلاء عليها[٢٥].

وتتابعت بعد ذلك أمداد الفرنجة، إذ طاف الرهبان والقسس وبطريرك القدس الذي أطلقه صلاح الدين بما معه من مال، في أوروبة يستنجدون بها، وقد لبسوا السواد وأظهروا الحزن واقتدوا ببطرس الناسك، فعظم ذلك على الفرنجة فحشدوا وحشروا، حتى النساء خرجن للقتال، ومن لم يستطع الخروج استأجر له عوضاً أو أعطى معونة، فاجتمع من المحاربة ما لا يقع عليه الإحصاء[٢٦].

وحين تكامل لغي[٢٧] دو لوسينيان في طرابلس جيش وافر القوة والعدد، ذهب به إلى صور فرفض المركيز كونراد السماح له بالدخول، فاضطر إلى الإقامة في ضاحيتها أربعة أشهر، واتفق ان مرت من هناك شرذمة من المسلمين فنازلها وغلبها، فشجعه ذلك على المسير إلى عكا، فزحف إليها على رأس عشرة آلاف مقاتل. فلما علم كونراد ببغيته، خشي ان يستأثر منافسه باقتحام هذه المدينة، فلحقه بجيش لجب، واشترك الاثنان في ضرب الحصار عليه، وكان السلطان قد أغفل شأن غي ومن معه لما خيّم في جوار صور، كما تهاون بشأن صور واحتشاد الفرنجة فيها واقبالهم إليها من جميع المدن والقلاع التي

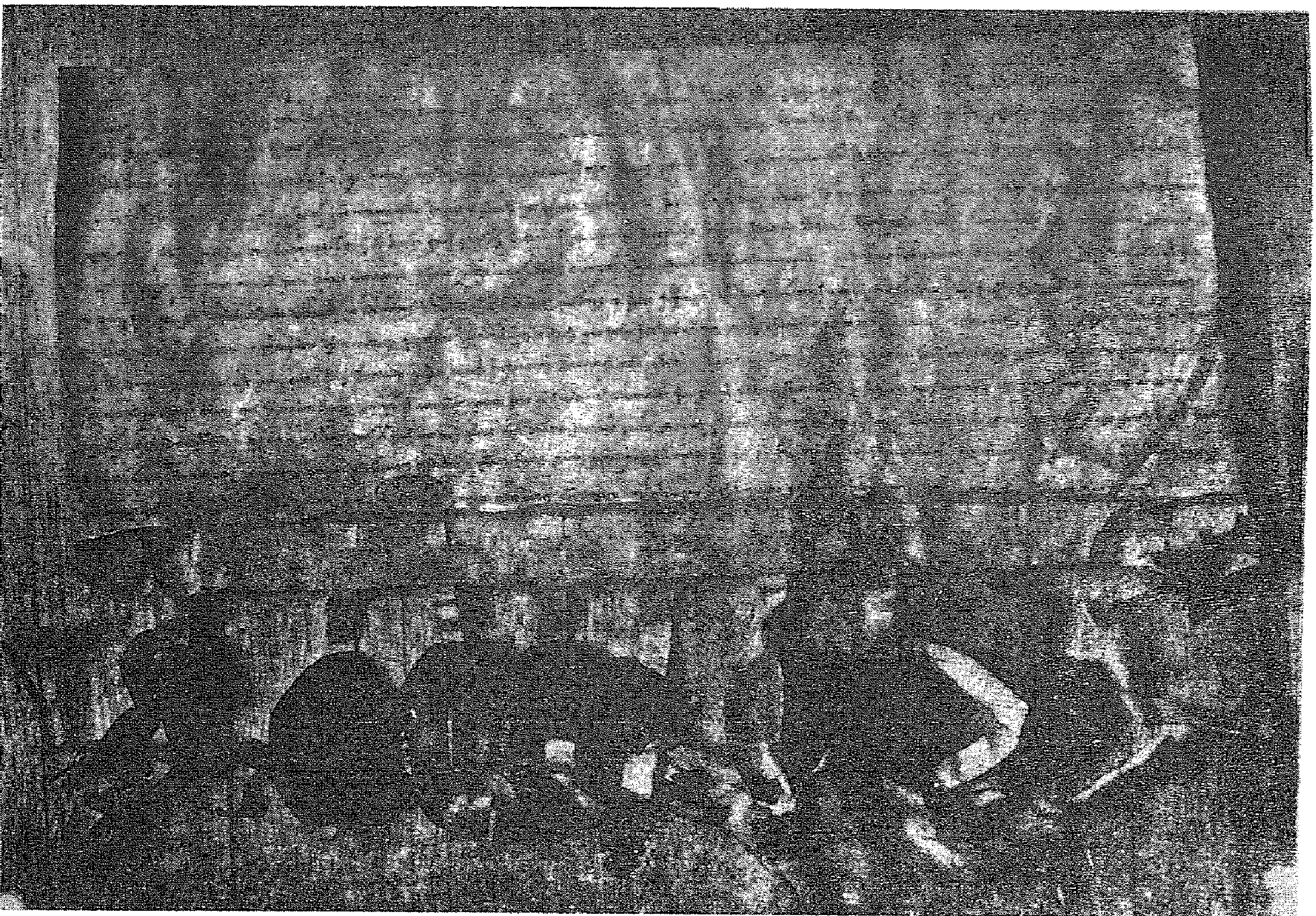
(٢٣) Michaud, II, pp. 314 _ 315

(٢٤) L'Eglise et l'Orient au Moyen Age, p. 118

(٢٥) Grousset, hist. des Croisades, III. p. 8

(٢٦) أيام صلاح الدين ص ٢٢٠.

(٢٧) ويسميه المؤرخون العرب أيضاً «الملك العتيق» لان السلطان أعتقه من الأسر.



الرسالة التي وجهها أحبار المملكة اللاتينية الى فيليب اوغست لحمله على الاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة

تخلّوا عنها، فعظم أمر غي، وعظم أمر صور، وكان من نتائج ذلك أن حوصرت عكا براً وبحراً وباتت مهددة بالضياع.

ويلقي بعض المؤرخين المسلمين تبعة الاخفاق الذي مني به السلطان في صور، وحوّل هذه المدينة الحصينة إلى قاعدة للحملة الصليبية الثالثة، على صلاح الدين وما أبداه من تسامح وتساهل مع الصليبيين في المدن والقلاع التي احتلها منذ موقعة حطين، والسماح لهم بالهجرة منها آمنين، إلى مدنهم وقلاعهم على الساحل، ولا سيما مدينة صور التي كانت تمتاز بالمناعة الجغرافية، فأضافت إلى ذلك المناعة البشرية، وعدَّ أولئك المؤرخون ذلك منه تهاوناً وتفريطاً وغلواً في الشهامة والنبل أدى إلى أسوأ النتائج.

يقول محمد كرد علي: «وذكر المؤرخون ان اطلاق أمراء الفرنج من الأسر وحملهم إلى صور كان من أعظم أسباب الضرر وقوة الفرنج ورواج عكا»(٢٨). أما ابن الأثير فيحمل على صلاح الدين قائلاً: «ولم يكن لأحد ذنب في أمرها (صور) غير صلاح الدين، فانه هو الذي جهز إليها جنود الفرنجة، وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره. كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فصار إليها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم، فأجابوا بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم، يجتمعون بها ويلجأون إليها، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها»(٢٩).

ويلتقي مع ابن الأثير بعض المؤرخين الغربيين الذين يعتقدون بأن الخطة التي انتهجها صلاح الدين، بدعوة المدن والقلاع الى التسليم مقابل الأمان بدلاً من الفتح بالسيف، قد أدت إلى نجاة عشرات الألوف من القتل والأسر، وانطلاقهم أحراراً إلى مراكز تجمعهم الجديدة ولا سيما مدينة صور التي غدت منطلق الحرب الصليبية الثالثة(٣٠)!.. حتى أن لامونت يرى أن هذه السياسة النبيلة بلغت حد الحماقة، ولعله يعني حد السذاجة، وإليك تفصيل ما قال: «لم يظهر صلاح الدين، طوال حربه ضد الدول اللاتينية، بمظهر

(٢٨) خطط الشام، ج٢، ص ٥١.

(٢٩) الكامل، ج ١١، ص٣٦٨.

(٣٠) Cibl p. 67; Lane pool p. 243; Stevenson pp. 255 _ 256

المتعصب الديني. وكان حلمه وشهامته مثار إعجاب معاصريه، وموضوع مدح المؤرخين منذ عصره فطالعاً. وقد أبدى في معاملته لشعوب البلاد المفتوحة من ضبط نوازع النفس واحترام الناس ما كان مبايناً كل المباينة للقسوة المتعارف عليها في حروب العصور الوسطى. وكانت سياسته القاضية بإيصال اللاجئين من بلاد النصارى المحتلة إلى معقل النصرانية في صور سياسة نبيلة إلى حد الحماقة، لأنها أدت إلى تحشد أعدائه، ومن ثم منعته من احتلال مدينة صور نفسها. لقد تصرف صلاح الدين، طوال حروبه، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقبلين، وان يضع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان...وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية، ولم يكن إبادة المسيحيين»(٣١).

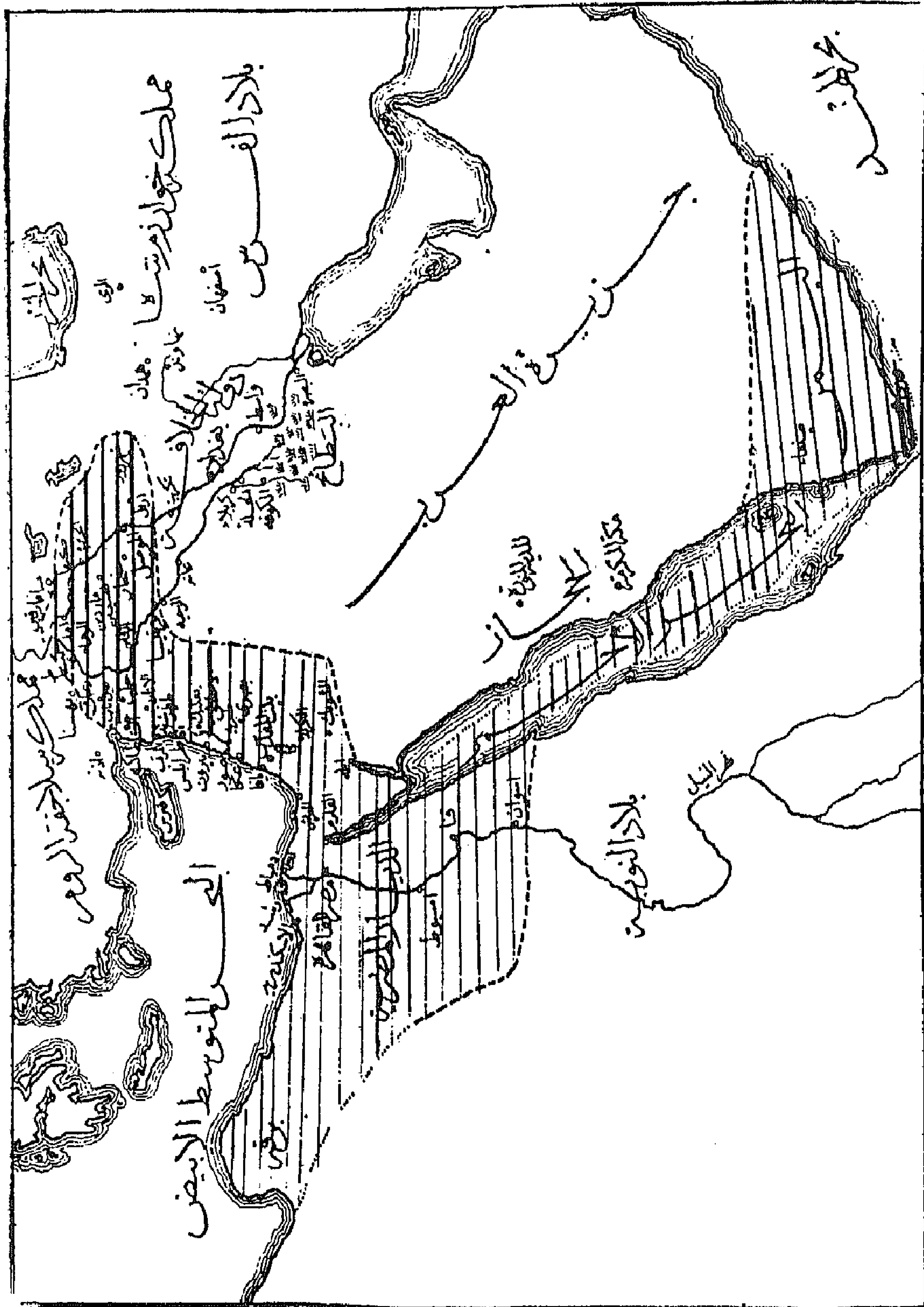
والواقع ان ابن الأثير ينسى الجانب الإنساني في الموضوع، فهو يحاكم صلاح الدين كقائد حربي «لا ينبغي - كما يقول - أن يترك الحزم وان ساعدته الأقدار، فلأن يعجز حازماً خير له من ان يظفر مفرّطاً مضيعاً للحزم!..» وفي اعتقادنا ان صلاح الدين لم يكن محارباً إلا بالضرورة، فهو ليس فاتحاً بل محرّر، والفرق بينهما كالفرق بين الشر والخير، وبين الموت والحياة. ولأن كان الفاتح يقاتل بطمعه، فان المحرر يقاتل بإيمانه، وإذا كان من اخلاق الفاتحين ان يصونوا أمجادهم بالحديد والنار، فان من شمائل المحررين ألا يحملوا الحقد والضغينة حتى لأولئك الذين يضطرون إلى شهر السيف في وجوههم. أليس صلاح الدين هو القائل وقد لامه أصحابه لأنه صفح عن جريرة أحد الجباة عليه: «لأن أخطىء في العفو أحبّ إليَّ من أن أصيب في العقوبة!».

لقد كان صلاح الدين رجل سلم وبناء ومحبة، وليس رجل حرب وهدم وضغينة، وبعد كل معركة كان يعي أكثر فأكثر وحشية الحرب وغباءها، ولكن الأحداث التي عاصرها والظروف التي لابسها، كانت تدفع به مضطراً إلى ساحة القتال، دفاعاً عن الأرض التي امتزج ترابها بدمه، واختلط نسيمها بأنفاسه، وارتسمت طبيعتها في عينيه، ويا ويل الحرب، آفة البشرية وعار التاريخ، إذا لم تكن دفاعاً عن الذات.

ولعل صلاح الدين كان يعاني من جراء ذلك عظم مأساة يعانيها الإنسان، حين يريد

---

(٣١) دراسات إسلامية، ص ١٢٢-١٢٤.



مملكة صلاح الدين الايوبي

السلم وتفرض عليه الحرب، وينشد الرحمة وتطلب منه القسوة، ويسير في الطريق الملوث بالوحل والمخضب بالدم بمشاعر الملائكة وأخلاق القديسين.

إذا كانت جميع الطرق ملأى بالأشواك، فلا بد من أن نسلك طريقاً شائكة. وإذا فرضت الحرب نفسها، وغدا الشر خبز الحياة اليومي، وحلّق شبح الدمار مثل طائر اسطوري رهيب لا يستطيع أحد أن يهرب من تحت جناحيه، فحسب المرء ان يُبعد عن قلبه الحقد، لعل زهرة واحدة للحب تتفتح في مستنقع البغضاء!...

هكذا شاءت الأقدار، بل هكذا شاءت الأطماع التي دفعت جحافل الفرنجة إلى الشرق، متدفقة مثل سيل لا نهاية له. وإذا كان المعتمدون قد غالوا في التخريب وأمعنوا في الغارة الجاهلة، فان سر عظمة صلاح الدين أنه لم يقابل تلك العاصفة الباغية، إلا بعفو الكريم وتسامح النبيل، فكان إسوة حسنة ومثلاً يُضرب للناس، وكسبَ للعرب والإسلام بقلبه أكثر مما كسب لهم بسيفه، وهذا ما جعل تشرشل يقول عنه إنه من أعظم ملوك الدنيا، ودفع الكاتب الانكليزي ريدر هجارد إلى القول بأنه أعظم رجل على وجه الأرض!.

الفصل التاسع عشر

الحملة الصليبية الثالثة وملحمة عكّا

كان الشرق والغرب يحشدان قؤاهما البشرية والمادية، ليلتقيا من جديد عند أبواب مدينة وادعة تطل على سهول الأردن وتغسل أقدامها في مياه البحر الأبيض المتوسط، مدينة كانت «مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق»[1]. وشاء القدر مرة أخرى أن يكون ذلك اللقاء بين القارتين، دامياً مدمراً رهيباً، بدل ان يكون لقاء التعاون الفكري والتبادل الحضاري، اللذين كان هذا البحر الهادىء الجميل مهداً لهما ومسرحاً لعطائهما السخي، على تتابع الأجيال وتعاقب العصور.

وحين هرع صلاح الدين لانقاذ عكا[2]، وجد ان جيوش الفرنجة قد سبقته إلى احتلال الأماكن المنيعة والتحصن فيها، وباتت حائلاً دون وصوله إليها، فأقام غير بعيد عنها، وأخذت الأمداد تصل إلى الفريقين[3].

وفي أصيل اليوم الثاني من شعبان سنة ٥٨٥هـ ١٥ ايلول (سبتمبر) ١١٨٩م، هاجم

---

(١) رحلة ابن جبير ص٢٧٦.

(٢) عرفت عكا في عهد الفينيقيين باسم بتوليماييس يقول اتيين البيزنطي أحد جغرافيي القرن الخامس ان هرقل عضته افعى فلم يجد دواء يشفيه إلا في هذا المكان، فدعى من أجل ذلك «عكا» وهي مشتقة من كلمة اغريقية تعني الشفاء!

(٣) كان من رأي صلاح الدين ان يهاجم الفرنجة وهم في الطريق إلى عكا لئلا يتمكنوا من أراضيها فخالفه قواده ولم يرضوا قتالهم إلا متجمعين أمام عكا، فكان من جراء ذلك ان الصليبيين سبقوا المسلمين إلى المدينة وعسكروا بالأماكن الحصينة في ضواحيها. الفتح القسي ص ١٤١؛ الكامل، ج١٢، ص ٢١.

السلطان حشود الفرنجة دفعة واحدة، فزحزحهم عن أماكنهم قليلاً، وشقّ طريقاً إلى باب المدينة فدخلها قسم من جيشه بكميات من الذخائر والأموال والسلاح والغلال، وعاد بمن بقي معه إلى معسكره لمعاودة القتال في اليوم التالي(٤).

لكن الفرنجة رفضوا منازلته في ذلك اليوم والأيام التي تلته، ولبثوا على ذلك شهراً انصرفوا فيه إلى تعزيز مراكزهم وتحصين مواقعهم ثم انقضوا على خصومهم فشتتوهم وارغموهم على التقهقر، وأنزلوا بهم خسائر فادحة.

وكان الشتاء قد أقبل، وحل شهر رمضان، ثم جاءت هذه الهزيمة المروعة، فشجع ذلك كله أمراء صلاح الدين على الإلحاح عليه بوقف القتال وإرجائه إلى وقت آخر، لرغبتهم في العودة إلى بيوتهم انتجاعاً للراحة والاستمتاع بالحياة العائلية الرخية، فلم يجد بداً من اجابتهم إلى طلبهم، وخرج هو وحرسه إلى الخروبة.

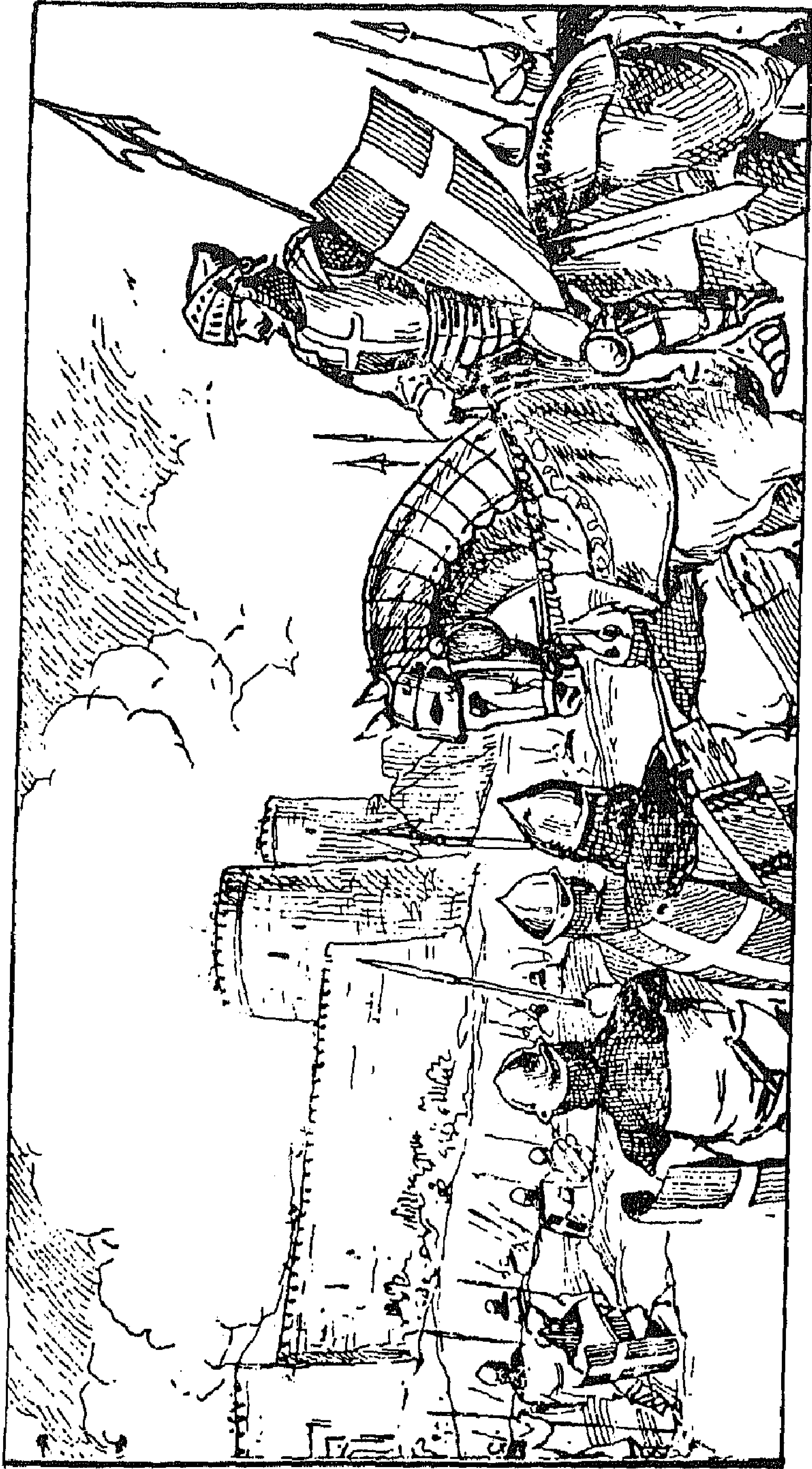
لم يقصد صلاح الدين بيته لانتجاع راحة أو طلب مسرة، ولم يذهب إلى إحدى عواصمه الخمس: القاهرة والقدس وبيروت ودمشق وحلب فيتمتع بالمجد الباذخ والنعيم الوارف، وإنما شخص إلى الخروبة القائمة في الفلاة القفر، وأرسل في طلب الامداد من جميع أنحاء بلاده، ولبث ينتظر ويفكر ويراقب، وقد لجّ به الهمّ، وألحّ عليه المرض، وهاجت من حوله عواصف الشتاء ورياحه المتناوحة.

في تلك البقعة القصية المنعزلة قضى السلطان شهر الصيام، والعيدين السعيدين، وفصل الشتاء بطوله، وهو دائب على عمله في مراس قوي وعزم فولاذي ونشاط لا يفتر. حتى إذا كان شهر ربيع الأول سنة ٥٨٦هـ نيسان (ابريل) ١١٩٠م، عاد بما تجمع لديه من قوة إلى المكان الذي فارقه من سهل عكا ليحاول انقاذها مرة أخرى. ولكن هذه المحاولة كانت عسيرة وعسيرة جداً. فقد أعد الفرنجة أثناء الشتاء عدداً كبيراً من آلات الدمار، وأقاموا الدبابات والأبراج الشاهقة، ليقذفوا المدينة منها بقذائفهم المروعة. وكان صلاح الدين يحسب ان منازلته إياهم ستشغلهم عن المدينة، فإذا بهم قد غدوا من القوة والكثرة بحيث استطاعوا منازلته ومواصلة الهجوم على عكا في آن.

واستمر القتال في البر والبحر عامين كاملين خالدين في تاريخ الحروب والفروسية،

---

(٤) الفتح القسي ص١٥٦.



الفرنجة يحاصرون مدينة عكا

تكبد فيهما الفريقان خسائر فادحة وكوارث جسيمة، وأبدى كل منهما ما يدهش ويروع من ضروب التضحية والبطولة، وشاركت نساء الفرنجة رجالهن في كثير من المعارك[٥]، وللعماد الأصفهاني وصف مؤثر للنساء الصليبيات وما كن يبذلنه في سبيل قومهن من نفس ونفيس، قال: «ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر، وهي في بلدها مالكة الأمر، وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم واتباعهم وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤونة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركبانها، ويحملون بحملانها، ويثبون لوثباتها. وفي الفرنج نساء فوارس لهن دروع وقوانس، وكن في زي الرجال، ويبرزن في حومة القتال، ويعملن عمل أرباب الحجال وهن ربات حجال، وكل هذا يعتقدنه عبادة، ويخلن انهنَّ يعقدن به سعادة، ويجعلنه لهنَّ عادة.. وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة، لهن بالفرسان إسوة، وفيهن مع لينهن قسوة، وليست لهن غير السوابغ كسوة..»

وأبدت عكا المحاصرة براً وبحراً، مثلاً فريداً من صبر أهلها وصمود حاميتها وشجاعة جندها وقتالهم المستميت. إلا أن طول مدة القتال أضعفت من معنويات الجنود حتى ان الصليبيين كما يقول البير شامبدور لم تعد تحركهم الدوافع الحماسية أو الدينية، وكل ما كانوا ينشدونه هو الاستيلاء على المؤن التي قد يجدونها في المعسكر الآخر[٦].

لقد كانت ملحمة لا مثيل لها في التاريخ، يحاصر الصليبيون فيها المسلمين في عكا، وجيوش صلاح الدين تحاصر الصليبيين، والقتال مستمر في البر والبحر، والطواعين والمجاعات تفتك بالجميع، والمعركة قد طالت أكثر مما قدر لها الفرقاء، فانهارت القوى وتراخت العزائم وتداعت النفوس، ولكن البحر كان ما يفتأ يمد الإفرنج كل حين بمدد جديد وحياة جديدة.

ولعل أشهر المعارك التي نشبت أمام عكا، تلك التي يسميها المؤرخون المسلمون «الواقعة الكبرى» وقد هجم الفرنجة فيها على المسلمين «غداة وصول كونراد بعساكره من صور، ووصول سفن صليبية من أوروبة تحمل أقواماً مختلفة من السكنديناويين والألمان»[٧]، فهزموهم واضطروهم إلى الفرار، ووصلوا إلى خيمة السلطان فقتلوا من

(٥) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٤٩؛ الفتح القسي، ص١٨٤.

(٦) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 237

(٧) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٢٢٦.

حولها، ولكن صلاح الدين وقف في وجه المهاجمين، يقاتل ويصاول، ويصرخ بصوته الجهير، ويطوف على فلول المسلمين يدعوهم إلى المقاومة ويحثهم على الجهاد، فأنهض ذلك من عزيمة رجاله، فعاد إلى القتال من بقي منهم في جوار المعركة، وأرغموا الفرنجة على التقهقر، بعد أن قتلوا منهم خمسة آلاف مقاتل[8]، وهكذا استطاع صلاح الدين بشجاعته ورباطة جأشه وسرعة خاطره أن يحوِّل الهزيمة المؤكدة إلى نصر مؤزّر[9].

ومن الوقائع المشهورة أيضاً الوقعة التي اشتهرت باسم «العادلية» وبطلها الملك العادل، وكان صلاح الدين قد أمر أمراء المدن الشمالية في الشام بالعودة إلى منازلهم لمقاومة الصليبيين الزاحفين من البر، فشعر معسكر الفرنجة بأنه أضحى في قلة من الجند، فنهضوا لقتاله وأغاروا على ميمنته، وكانت بقيادة الملك العادل، فهب للقائهم ومكر بهم، واستدرجهم إلى قلب المعسكر الإسلامي، وشغلهم بالنهب والسلب، ثم حمل عليهم حملة صادقة، ولحق به صلاح الدين لنجدته وشد أزره ولكن المعركة كانت قد انتهت بنصر المسلمين. وروى بعض المؤرخين ان القتلى الفرنجة فيها بلغوا عشرة آلاف[10]! يقول الدكتور نظير سعداوي: «وانتهزت الحامية الاسلامية خلو خيام الصليبيين من الجند الحرسية، فخرجت إليها ونهبت الكثير من الأقمشة والقدور والأسلحة، والنساء أيضاً. ولو عكف المسلمون على القتال ثاني يوم لتلك الواقعة لتمّ لهم النصر النهائي، ولكنهم فرحوا بما أصابوا من الغنائم، ورضوا بما عرضه عليهم الصليبيون من هدنة، وأشاروا على صلاح الدين الانسحاب، بسبب وصول نجدة أوروبية جديدة بقيادة صليبي كبير اسمه هنري دو تروا ومعه عشرة آلاف مقاتل، ورضي صلاح الدين بهذا القرار كارهاً»[11].

وفي يوم الاثنين ١١ شوّال ٥٨٦هـ ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٠م، غادرت جيوش الفرنجة معسكرها لمهاجمة المسلمين عند شغرعم، وقضت الليل في تل العياضية قرب آبار حفرها المسلمون هناك، فاستعد صلاح الدين لمقابلتها في اليوم التالي بعد أن وزع جيوشه إلى ميمنة وميسرة وقلب، وسار بها حتى وقف على تل الخروبة «فبلغت آخر

---

(٨) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٤٤؛ الفتح القسي، ص١٦٢ـ ١٦٤؛ النوادر السلطانية، ص٩٢ ـ ٩٦.

(٩) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 228

(١٠) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٥٧؛ الفتح القسي، ص ٢١١؛ السلوك، ج ١، ص١٠٤؛ النوادر السلطانية، ص١١٤.

(١١) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٤١.



ميمنته آخر التل، وبلغت آخر ميسرته مصب نهر انامن بقرب البحر» ولما دنت جيوش الفرنجة «أمر صلاح الدين الميسرة ان تستدير بهم حيث يقع آخرها على البحر، وان تستدير الميمنة بالنهر من الجانب الشرقي، وان يمضي الجاليش في الرمي بالنشاب، وهدف صلاح الدين من ذلك أن يقطع صلة الصليبيين بخيامهم المضروبة حول عكا». والواقع ان الافرنج قضوا ليلتهم تلك وهم معزولون عن خيامهم، ونهضوا في الغداة ولا همّ لهم إلاّ النجاة من الشرك الذي أوقعوا أنفسهم فيه، وما زالوا يتقهقرون وهم يقاتلون، حتى بلغوا ليلة الخميس جسر داعوق فهدموه لمنع المسلمين من العبور عليه، وانتهت المعركة بذلك بعد أن ذهبت بالكثير من الضحايا، وعاد صلاح الدين إلى معسكره وقد اشتد المرض عليه، إلا انه عاد بعد أيام فأكمن نخبة من جنده في سفح تل كيسان، ثم سار جماعة منهم إلى معسكر الافرنج، فتصدى لهم اربعمائة فارس منهم، وحينئذ أخذ المسلمون بالتقهقر والفرنجة يتبعونهم حتى بلغوا الكمين، فانقض بقية الجند عليهم فأسروهم جميعاً وجيء بهم إلى صلاح الدين فأطعمهم وكساهم ونقلهم إلى دمشق(١٢).

ومن أروع ما يدل على ان الصلات الانسانية والمشاعر المشتركة بين الشعوب، أقوى وأعمق من عوامل الفرقة والبغضاء، اتفاق المؤرخين على ان المسلمين والصليبيين قد أنس بعضهم ببعض، لطول المدة وكثرة المعاشرة، بحيث كانوا يتركون القتال، ويتجاذبون الأحاديث، ويتبادلون الطرائف والنوادر، وربما غنى فريق ورقص فريق آخر، ثم يعاودون القتال بعد ساعة(١٣).

وفي إحدى المعارك أسر عدد من الافرنج، وجيء بهم إلى صلاح الدين، وكان بينهم شيخ هرم فقد أسنانه وضعف جسمه، فقال للترجمان: «قل له ما الذي حملك على المجيء وانت في هذه السن، وكم بين هذه البلاد وبلادك؟». فأجاب: «بلادي بيني وبينها عدة أشهر، وأما مجيئي فإنما كان للحج إلى كنيسة القيامة» فرقّ له وأمر بإيصاله إلى القدس لزيارة الأماكن المقدسة(١٤).

يقول ابن شداد: «وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سئموا من القتال، فقالوا إلى كم

(١٢) المرجع السابق ص٢٤٥ ـ ٢٤٦؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص١٧٩؛ النوادر السلطانية ص١٣٢.

(١٣) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٤٣؛ مفرج الكروب، ج٢، ص٢٩٤؛ Michaud. II. p. 123

(١٤) Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p.258

نقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد ان يتصارع صبيان منا ومنكم. فأخرج صبيان من البلد إلى صبيّين من الإفرنج، واشتد الحرب بينهم» فوثب أحد الصبيّين المسلمين إلى أحد الصبيّين الفرنجيين فاختطفه وضرب به الأرض «وقبضه أسيراً، فاشتراه بعض الإفرنج بدينارين، وقالوا: «هو أسيرك حقاً» فأخذ الدينارين وأطلقه»(١٥).

غير أن الأغرب والأعجب، ان المجاعة اشتدت في معسكر الصليبيين في شتاء ١١٩٠ ـ ١١٩١م، إذ انقطعت عنهم مراكبهم لهياج البحر، فكان أمراء صلاح الدين ومنهم عز الدين أسامة صاحب بيروت وسيف الدين المشطوب صاحب صيدا، يأتون بالغلال من بلدانهم ويبيعونهم إياها بأغلى الأثمان، ويقول ابن الأثير انه لولا مسلك أولئك الأمراء لهلك الصليبيون جميعاً(١٦).

وقد روينا في الفصل الرابع وقائع معبرة من هذا القبيل، سجلها أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» تلقي بعض الأضواء على العلاقات الاجتماعية التي سادت بين الصليبيين والمسلمين، وننقل هنا بعض ما سجله الرحالة ابن جبير عن مشاهداته في البلدان التي كانت مسرحاً للحروب الصليبية، وهي تؤلف دليلاً حياً على أصالة المشاعر المشتركة بين البشر أياً كانت مذاهبهم وأعراقهم والأقوام التي إليها ينتسبون، وعلى ان تلك الحروب التي سميت حروباً دينية إنما كانت نزاعاً مجنوناً على مكاسب الدنيا ومتاع الحياة.

يقول ابن جبير: «ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزّ وجل فتجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا، فيه أنواع الفواكه، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة. وإذا كانت معاملة النصارى لضدّ ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض».

«ومن أعجب ما يُحدَّث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين: مسلمين ونصارى(١٧)، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم

---

(١٥) النوادر السلطانية ص ٩٢.

(١٦) الكامل، ج ١٢، ص ٣٥؛ كتاب الروضتين، ج ٢، ص ١٨١، الفتح القسي، ص ٢٤٧.

(١٧) يريد الافرنج

دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الأولى[١٨]، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق[١٩] قليلاً، وهو سرارة[٢٠] أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يُذكر انه ينتهي إلى أربعمائة قرية، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك. وتجار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمَنَة[٢١] على غاية. وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم. والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب».

«هذه سيرة أهل البلاد في حربهم، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك. ولا تُعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يُستوفى الحديث عنه»[٢٢].

وكانت الأمداد ما تفتأ ترد إلى سهل عكا من دمشق وحلب والموصل يلي بعضها بعضاً، كما ترد إلى عكا المحاصرة نفسها من بيروت والاسكندرية رغم ما يعترض ذلك من صعوبات كثيرة. ومن مواقف البطولة الفذة التي رواها ابن واصل ان صلاح الدين أمر بتجهيز سفينة كبيرة من نوع البطسة في بيروت، تملأ بالرجال والعتاد والمؤن وتُرسل إلى عكا، فما كادت تدنو منها حتى أحاطت بها أربعون من سفن الأعداء، ولم ينفع رجالها تنكرهم بزي الإفرنج فقد عرف أمرهم، وكانت تحمل ستمائة وخمسين رجلاً، فقاتلوا قتال الأبطال، وأحرقوا إحدى السفن الإفرنجية، ولما يئسوا من النجاة قال مقدمهم يعقوب

---

(١٨) سنة ٥٨٠هـ (آب ـ اغسطس ـ ١١٨٤).

(١٩) أكثر

(٢٠) سرارة الشيء أطيبه.

(٢١) الأمن والاطمئنان

(٢٢) رحلة ابن جبير ص٢٥٩ ـ ٢٦١.

الحلبي: «والله لا نُقتل إلا عن عز، ولا نسلّم إليهم من هذه البطسة شيئاً» ثم أغرقوا سفينتهم فاستشهد كل من فيها[٢٣].

وكان السلطان يتصل بحامية عكا بواسطة الحمام الزاجل والسباحين، ومن هؤلاء السباحين فتى يدعى عيسى العوام نزل إلى البحر ذات ليلة وقد شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار ورسائل مهمة، فغرق وقذف به البحر بعد أيام إلى عكا فأخذ أهلها ما كان معه من رسائل ومال. قال ابن شداد: «فما رؤي من أدى الأمانة في حال حياته وقد ردها في مماته إلا هذا الرجل[٢٤]»، ويقول الدكتور عبد اللطيف حمزة ان هذا الفتى كان من المسيحيين الشرقيين وكان تعبيراً عن كراهية هؤلاء المسيحيين للإفرنج المعتدين[٢٥].

وكان صلاح الدين حريصاً، كلما واتته فرصة أو حيلة، على ان يمد حامية عكا براً وبحراً بالمؤن والرجال، ومن المحاولات الناجحة التي قام بها في هذا الصدد، انه أدخل إلى المدينة المحاصرة، عن طريق البحر، عدداً من القادة والأمراء على رأسهم سيف الدين المشطوب، وأخرج عدداً آخر ممن أجهدتهم معاناة التعب والسهر وملازمة القتال في الليل والنهار، إلا ان الظروف الدقيقة التي جرت فيها هذه العملية الناجحة أدت إلى عكس النتيجة المطلوبة، ويقول ابو شامة في ذلك: «ودخل إلى عكا من لم يجرب حصارها، ولم يخبر منافعها ومضارها... ودخل عشرون مقدماً وأميراً شبه المكرهين عوض ستين، واستخدمت الرجال وانفقت الأموال، وتفاوت الداخلون والخارجون، فلا جرم وقع الوهن وقضي الأمر[٢٦]...».

ولكن الأمداد التي كانت تصل إلى الفرنجة من أوروبة كلها، كانت من الوفرة والاستعداد والحماسة، بحيث لا تستطيع الصمود أمامها أية قوة أو تتغلب عليها أية بطولة[٢٧].

وقد جاء إلى الشرق أول الأمر امبراطور المانية فردريك الأول الملقب ببربروس، على

---

(٢٣) مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٥١؛ الكامل، ج١٢، ص٤٢؛ النوادر السلطانية، ص١٤٩.

(٢٤) النوادر السلطانية، ص ١٢٠.

(٢٥) صلاح الدين بطل حطين ص١٢٨.

(٢٦) كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٨١.

(٢٧) الفتح القسي، ص١٨٤؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص١٤٩.

الرغم من كبر سنه، على رأس مائة ألف محارب[٢٨]. وكان فردريك قد اشترك في الحملة الصليبية الثانية مع عمه الامبراطور كونراد الثالث فاستعد لهذه الحملة استعداداً كبيراً، واستكمل نواحي النقص في الحملة السابقة، وجهزها بكل ما تحتاج إليه[٢٩]، وأرسل الى صلاح الدين كتاباً ينذره فيه بأنه إذا لم يتخلَّ عن جميع المناطق التي احتلها خلال إثني عشر شهراً فانه سيشهر الحرب عليه مع جميع الشعوب الأوروبية التابعة له وعددها سبعة وعشرون شعباً. وقد أجابه صلاح الدين بأنه إذا أصرَّ على تهديد السلام والأمن في الشرق الأدنى فسيغزو أوروبة نفسها[٣٠].

يقول ألبير شامبدور: «وهكذا غادر ألمانية في ١١ أيار (مايو) ١١٨٩م، مائة ألف جرماني مأخوذين بسحر الشرق، ليعيشوا أسوأ مغامرة في تاريخ بلادهم»[٣١]. فقد سلك فردريك بحملته طريق البر فغرق وهو يعبر نهراً في كيليكية، وتضعضع أفراد جيشه بموته، وانتشر بينهم المرض والطاعون، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من عاد إلى وطنه، ومنهم من التحق بجموع الفرنجة أمام عكا بقيادة فردريك السوابي ابن الامبراطور الغريق، فما لبث الأمير ان توفي أمام أسوار عكا في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١١٩١ (٥٨٧هـ).

وقد وقف العاهل البيزنطي اسحق الثاني انجيلوس (ايساكيوس) موقفاً عدائياً صريحاً من الامبراطور الألماني، وبادر إلى التحالف مع السلطان، متعهداً بأن يكون لصلاح الدين نوع من الوصاية على مسلمي القسطنطينية، كما تعهد صلاح الدين بوضع الأماكن المسيحية المقدسة تحت رعاية رجال المذهب الأرثوذكسي[٣٢]. وبينما حاول العاهل البيزنطي منع الامبراطور الألماني من الوصول إلى سورية ـ وكان ينبيء صلاح الدين بتحركاته، كما كان يكتب إليه بشأنها بركري كور بن باسيل مقدم الأرمن بقلعة الروم على طرف الفرات، كما ذكر ابن شداد[٣٣]ـ تطوع الأمير المسلم قلج ارسلان سلطان

---

(٢٨) خطط الشام ج٢ ص٦٦، الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٤٥ نقلاً عن، Cambridge Med. Hist,V.p. 411 وروى بعض المؤرخين المسلمين انهم كانوا الف الف مقاتل (الفتح القسي ٣٠٢ ـ ٣٠٤) اما ابن شداد فيقول انهم مائتا الف وقيل مائتان وستون الفاً (النوادر السلطانية ص٩٨).

(٢٩) الناصر صلاح الدين الأيوبي ص١٣٥.

(٣٠) Saladin Le Plus pur Héros de l'Islam. pp. 206 _ 207; Michaud, IV. p. 146.

(٣١) Saladin. p. 213

(٣٢) السلوك، ج١، ص١٠٤؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص١٥٩ ـ ١٦٠؛ الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص١٧٢، Champdor; Saladin, p. 212

(٣٣) انظر النوادر السلطانية ص١٠٧ـ١٠٩.

سلاجقة الروم، بإرشاد الامبراطور في طريقه إلى الشام، عبر آسية الوسطى، نظراً لتخوفه من محور دمشق القسطنطينية[٣٤].

وبعد امبراطور ألمانية أقبل الكونت هنري دو شمبانيا (الكندهري) فقوّى من عزيمة الفرنجة بما كان معه من مال ورجال، وما حمل إليهم من بشائر حافزة عن النجدات العظيمة المقبلة إليهم، وما أدخل على أساليب القتال والحصار من طرق فنية ومكائد حربية جديدة.

ثم وصل فيليب أوغست ملك فرنسة (الفرنسيس) في جيش لجب، فاستقبل بالمشاعل والتراتيل كأنه ملاك من السماء جاء لانقاذهم، وكان ذا قربة بكونراد فرحب به وولاه القيادة. إلا ان فيليب أوغست ما كان لينظر إلى الحرب الصليبية إلا نظرة ملك عظيم يجب عليه ألا يتخلف عن مهمة تحرك لها غيره من العظماء[٣٥]، وسنرى انه لن يلبث حتى يعود إلى بلاده التي كانت في نظره محل أداء واجبه وليس بلاد الشام.

وتبعه ريشارد ملك الانكليز (الانكتار) الملقب بقلب الأسد، والذي أحرز في هذه الحرب شهرة لا تقل عن شهرة صلاح الدين. وكان ريشارد يقود اسطولاً كبيراً، وقد حارب صقلية وهو في الطريق إلى سورية واحتل قبرص بعد ان اعتقل صاحبها الكسيوس كومنينوس الذي كان يطلق على نفسه لقب امبراطور قبرص، وكان على صلات ودية مع صلاح الدين[٣٦]، وأرسله إلى فلسطين مكبلاً بالقيود لأنه كان يحالف صلاح الدين وقد حاول منع ملك الانكليز من النزول في الجزيرة[٣٧].

وقد كان لاسطول ريشارد أثر فعّال في تشديد الحصار على عكا، إلاَّ ان اسطول قلب الأسد لم يكن الأسطول الوحيد الذي حاصر عكا واشترك في الحملة الصليبية الثالثة، وإنما أسهمت في ذلك أساطيل صقلية وبيزة وجنوة والبندقية جميعاً.

ويسجل التاريخ لصلاح الدين مأثرة عظيمة تدل على تجرده وتضحيته وانكاره لذاته

---

(٣٤) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٥٤ ـ ١٥٦.

(٣٥) صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب ص١٧٠.

(٣٦) تاريخ العالم لهامرتن ج٥، ص١١٠.

(٣٧) تاريخ سورية للمطران الدبس، ج٦، ص١١٨.





اختام فيليب اوغست وريشارد قلب الاسد

في سبيل تحقيق رسالته وتحرير بلاده، وهي انه لما رأى ذلك الطوفان المتدفق من جنود الفرنجة الذين توافدوا من جميع أنحاء أوروبة وحملوا معهم كل آلات الموت ووسائل الدمار، طلب من الخليفة العباسي الناصر لدين الله، أن يحضر بشخصه إلى أرض المعركة ليثير بذلك حماسة المسلمين وعزيمة المقاتلين، معلناً انه يتنازل له مقابل ذلك عن مملكته الشاسعة كلها، ولكن أمراء الجزيرة الزنكيين رفضوا رؤية الخليفة بينهم، كما أن الخليفة نفسه لم يكن مستعداً للانتقال من الحياة المترفة في قصره إلى حياة الشظف والمخاطرة في ساحة القتال، فلم يجب على صلاح الدين واكتفى بان أرسل إليه عدة أحمال من النفط، ورقعة تتضمن الاذن له بأن يقترض بعض المال من التجار(٣٨).

يقول ابن شداد: «ووصل رسول الخليفة وهو شاب شريف، ووصل منه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزراقين، ووصل معه من الديوان العزيز النبوي مجّده الله رقعة تضمن للسلطان ان يقترض عشرين ألف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز، فقبل جميع ما وصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة والتثقيل بها!..»(٣٩).

والواقع ان الخليفة لم يكن لينظر بارتياح إلى توسع صلاح الدين، وكان قد أرسل إليه وهو قائم على حصار صور رسالة يعاتبه فيها لأنه بعث البشارة بفتح بيت المقدس مع جندي بغدادي يدعى الرشيد ابن البوشجي، إذ عدّ الخليفة ذلك إهانة له، كما لامه على الاستمرار في اتخاذ لقب الملك الناصر مع انه لقب الخليفة، واعتبر البشارة نوعاً من الفخر والاعتداد فقال عنها: «يفتخر علينا بالقدس، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت رعايته». وقد تركت هذه الرسالة أثراً عميقاً في نفس صلاح الدين، إذ آلمه ان يقابل جهاده وتضحيته بالجحود والنكران، ولعل هذا الموقف المؤسف الذي وقفه الخليفة العباسي هو الذي حمل صلاح الدين على دعوته إلى الاشتراك في موقعة عكا مقابل التنازل له عن كل ما يملك، وهو ضرب من التحدي قابله الخليفة بإرسال أحمال النفط التي يستهلك صلاح الدين أضعافها كل يوم، وبالرقعة التي اعتذر السلطان عن قبولها «والتثقيل بها».. وكادت رسالة الخليفة تشعل نيران ثورة لاهبة في معسكر صلاح الدين حين اطلع أمراءه وقادته

---

(٣٨) الفتح القسي ص١٦٢، ١٧٩؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص١٦٧.

(٣٩) النوادر السلطانية ص١٠٢.

عليها، فغضبوا غضباً شديداً، ودعاه بعضهم إلى إعلان العصيان، لولا ان تدارك العماد الموقف، ونسب ما جاء في الرسالة من لوم وتقريع إلى كاتب الديوان الذي لم يحسن التعبير فيها أو حرّفها عمداً بقصد الوقيعة بين الرجلين الكبيرين(٤٠).

ولما كثر القتلى من الفريقين، انتشرت الأمراض والأوبئة، وأصيب صلاح الدين باعتلال في صحته، وهو يجالد المرض، ويرتب الجنود بنفسه، ولا يهتم بوصية الأطباء ونصح الناصحين، ويركب من بكرة النهار إلى المغيب، يطوف على الأجناد صابراً، قائلاً لمن يلومونه على ما يفعل: «إذا ركبت للجهاد زال عني الألم حتى أنزل!..».

إلا أن أمراءه ما زالوا يلحون عليه حتى استطاعوا اقناعه بنقل معسكره من تل كيسان إلى الخروبة(٤١)، فانقطع بذلك الاتصال بين قوات المسلمين في داخل عكا وخارجها حتى تعذر التراسل بينهما إلا بالحمام الزاجل، وشرع الفرنجة «في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر... فكان من قضاء الله اننا أغفلناهم وأمهلناهم بل اهملناهم.. ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا»(٤٢).

وكما اعتلت صحة صلاح الدين ساءت صحة ريشارد حتى أشرف على الموت، وجرح فيليب أوغست جرحاً بالغاً، وغادر كونراد عكا إلى صور غاضباً حين استفحل الخلاف بينه وبين غي دو لوسينيان، وقد كانا يتنازعان على عرش مملكة لا وجود لها(٤٣)، فخشي الصليبيون ان ينتهز المسلمون تلك الفرصة فيحملوا عليهم حملة قاضية، فلجأوا

---

(٤٠) انظر الفتح القسي ص٨٤؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص١٨٧.

(٤١) كان صلاح الدين يؤثر البقاء قريباً من المدينة ومتابعة القتال لصد قوى الفرنجة قبل ان ينفتح البحر وتتكاثر الأمداد التي تتدفق من أوروبة وشواطىء سورية، لكن أمراءه اضطروا للرحيل إلى الخروبة ليبتعدوا عن جو المعركة الذي تلوث برائحة القتلى - كتاب الروضتين، ج٢ ص١٤٦، الفتح القسي ص١٦٩.

(٤٢) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٤٧.

(٤٣) توفيت الملكة سيبيل وبناتها بالطاعون أثناء حصار عكا وأمام أسوارها، ففقد زوجها غي دو لوسينيان حقه في عرش بيت المقدس، وآل الملك إلى أختها الأميرة ايزابيل الأبنة الثانية لأموري الأول، ولم يكن زوجها أونفروا الرابع دو تورون محبوباً من أمراء الصليبيين فبادر هؤلاء إلى اقناعها بأن تطلقه وتتزوج من كونراد دو مونتفرات، لاعتقادهم بقدرته على بعث مملكة بيت المقدس (Champdor: Saladin, p. 263) وقد عاد كونراد إلى المشاركة في حصار عكا مع خمسين سفينة مسلحة ومثل دوراً حاسماً في استسلام حاميتها.

إلى الحيلة، وأنشأ ريشارد يراسل السلطان ويشاغله ويطلب مقابلته، وتأثر صلاح الدين لمرض قلب الأسد فهادنه وأرسل إليه الفاكهة والثلج حتى شفي[٤٤]. ولما جاء رسول ريشارد طالباً تحديد موعد للاجتماع بين العاهلين أجابه السلطان: «ان الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة، ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة، وإذا أراد ذلك لا بد من تقرير قاعدة»[٤٥]، إلا ان بعض المؤرخين الغربيين يؤكدون ان صلاح الدين قد عين موعداً للمقابلة، ونصب خيمة خاصة لهذا الاجتماع، ولكن ريشارد أرسل يعتذر في الوقت المحدد بأن المرض قد حال دون تحقيق أمنيته في الاجتماع بصلاح الدين[٤٦].

وقد تعددت الآلات الحربية التي استخدمها الفرنجة في هذا الحصار الطويل والقتال الضاري، ومنها الزنبورك وهو سهم في سمك الإبهام وفي طول الذراع ذو أربعة أوجه وحدّه من الحديد، وطلقته سريعة تخترق رجلين جالسين أحدهما خلف الآخر بزيهما العسكري ودروعهما، وكان هذا السلاح قد حُرم استعماله، ثم استخدمه الصليبيون في حصار صور وعكا، وانتشر بعد ذلك في أوروبة وقُتل ريشارد نفسه بطلقة منه[٤٧]، ومنها دبابة هائلة مصنوعة من الخشب والرصاص والحديد والنحاس مقامة على عجل تسير من داخلها، تنقر الأسوار وتلقي بالنار، وقد تمكن المسلمون من تدميرها بإلقاء النار عليها لما فتح بابها فقتل من فيها[٤٨].

وصنع الفرنجة أبراجاً كبيرة من الأخشاب والحديد ذات خمس طبقات، يسع سطحها منجنيقاً ومن المقاتلة ما يزيد على خمسمائة رجل، وقد علت هذه الأبراج على أسوار المدينة ومنازلها، وكانت مكسوة بجلد البقر، ومبللة بالخل والطين كي لا تتأثر بالنار إذا أطلقت عليها[٤٩]، وكان الإفرنج يقذفون منها النار والأحجار والسهام، وقد جمع السلطان الصناع والنفاطين المحنكين، وحثهم على الاجتهاد في إحراقها، ووعدهم بمكافآت ثمينة، ولكنهم أخفقوا وضاقت بهم الحيل، ثم تقدم شاب من دمشق يشتغل في صناعة النحاس

---

(٤٤) الفتح القسي، ٢٧٥؛ مفرج الكروب، ج٢، ص٣٥٥.

(٤٥) النوادر السلطانية ص٥١.

(٤٦) Saladin Le Plus pur Héros de l'Islam. p. 281

(٤٧) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص١٩٦.

(٤٨) الفتح القسي ص١٠١.

(٤٩) ذيل النوادر ص٢٩٧؛ الكامل، ج١٢، ص٢٨.

يدعى علي بن عريف النحاسين، وأعلن انه يستطيع إحراقها، فهزىء به القوم وقالوا: «اين تذهب انت أيها الشاب الصغير أمام هؤلاء الشيوخ المجربين؟!» ولكن صلاح الدين أفسح له المجال، فتمكن الشاب من إحراقها، إذ رمى بالمنجنيق قدور النفط البارد لتبلل الأبراج من كل ناحية، ثم رمى بالنار المشتعلة فيها(٥٠)، وقد أراد السلطان مكافأة هذا الشاب النابغة فرفض المكافأة قائلاً: «إنما فعلته لله، ولا أريد المكافأة إلا منه»(٥١).

وقد نوّه صلاح الدين في رسالة وجهها إلى الخليفة العباسي بذلك كله، فقال: «إنهم قاتلوا مرة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات، وردافة بالدبابات، وتابعة بالكباش، وآونة باللوالب، ويوماً بالنقب، وليلاً بالسرايات، وطوراً بطم الخنادق، وآناً بنصب السلالم، ودفعةً بالزحوف في الليل والنهار، وحالة في البحر بالمراكب. ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السور من التراب، وتلالاً تشبه الأبرجة مدورة، ورفعوها بالأخشاب وعلوها بالحجارة»(٥٢).

وكذلك تطورت فنون القتال لدى المسلمين، فكانوا يزرعون الطرق بالحديد لتعوق تقدم العدو ولا سيما فرسانه، واستعملوا في قذائفهم النفط الأسود الذي يؤتى به من ساحل البحر الأحمر والنفط الأبيض الذي يؤتى به من العراق، وأنشأوا أقواساً تطلق عدة سهام في آن.

وجملة القول ان كلاً من الفريقين قد استنفد ما لديه من جهد وفن وذخائر وآلات حصار، في البر والبحر، مما لم يشهد مثيله في جميع أدوار الحروب الصليبية(٥٣).

وفي أوائل جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ تموز (يوليو) ١١٩١م، اشتد الضيق على أهالي عكا وحاميتها، ووهنت منهم القوى، وتهدمت أسوارهم، ولم يعد بهم طاقة على مواصلة الصمود، وفُقدت معظم قطع الأسطول الأيوبي التي كانت تقوم بمحاولات بطولية يائسة لانقاذ المدينة المحاصرة، إذ حطم بعضها الأعداء، وأغرق بعضها هياج البحر.

---

(٥٠) الناصر صلاح الدين الأيوبي ص١٣٠ - ١٣١.

(٥١) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٥، ص ٣٢١.

(٥٢) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٨٤.

(٥٣) العلاقات بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ص٦٢.

وبينما كانت أعداد الفرنجة تتكاثر، وتفوّقهم البحري يتعاظم، بدأ أمراء الأجناد من المسلمين يتململون «وضجرت العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل»(٥٤)، وتتابع رحيل الأمراء وأجنادهم حتى بلغ عدد الراحلين منهم عشرين أميراً(٥٥).

ويبدو انه لم يكن من اليسير على صلاح الدين «إبقاء هذه الجيوش المختلفة الأجناس والعادات في حالة حرب أمام القلاع والحصون أعواماً متصلة، على غير مألوفها من الحرب والغنيمة السريعة ثم العودة السريعة إلى أهلها، ولم يكن هناك من نظم بريدية ما يهوّن على الأمراء طول البقاء، لأن نصيب الاجناد من نظام البريد يكاد يكون معدوماً في تلك العصور، لاقتصاره على الأغراض الحكومية»(٥٦).

وقد روى السلطان ذلك كله للخليفة العباسي في رسالة أوضح فيها أبعاد الموقف أمام عكا، وانسحاب الأمراء واحداً بعد آخر لأن «المدة الطويلة والكلف الثقيلة قد أثرت في استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لا في شجاعتهم، فالبرك (الثياب) قد أقضوه، والسلاح قد أحفوه، والدرهم قد أفنوه» في حين أن البحر يمد الإفرنج «بمراكب أكثر عدة من أمواجه... فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث عوضه ألفاً، وإذا ذهب بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفاً(٥٧)».

إلا أن السلطان لم يأسف لشيء بقدر ما أسف لتغيب ابن أخيه تقي الدين عمر الذي ذهب إلى إمارته في الجزيرة على أن يعود في أقرب وقت، فشغلته أحداث الإمارة عن العودة السريعة، وقد رأى صلاح الدين في غياب تقي الدين أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى سقوط عكا(٥٨).

حينئذ راسل أمير عكا سيف الدين المشطوب الفرنجة في الصلح، وقال لهم: «لما

---

(٥٤) السلوك، ج ١، ص١٠٥.

(٥٥) كتاب الروضتين، ج ٢، ص١٨٣؛ الفتح القسي، ص١٤٦.

(٥٦) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٢٤٨.

(٥٧) صبح الأعشى، ج٧، ص١٢٨. ويلاحظ ان صلاح الدين يجد الأعذار للأمراء الذين غادروه وهو في أحرج الظروف وتخلوا عنه وهو في أوج المعركة.

(٥٨) الفتح القسي، ص٢٨٢.


ELLACOTT

استولينا على هذه المدينة سمحنا لجميع السكان بكل ما يشاؤون، فوهبناهم حرية الذهاب إلى حيث يريدون، يحملون معهم اسلحتهم وأمتعتهم وبضاعتهم وأهليهم، وها نحن اليوم نعطيكم المدينة على أن تعاملونا بمثل ما قد عاملنا به قومكم من قبل» ولكنهم أبوا عليه ما طلب(٥٩)، فعاد إلى القتال وقد عزم على المضي فيه حتى ينتصر أو يموت تحت انقاض المدينة.

وتدخل صلاح الدين في المفاوضات، ومثل الفرنجة مقدم الاسبتارية ومثل المسلمين الملك العادل شقيق السلطان، فطالب الفرنجة باستعادة مملكة بيت المقدس كما كانت عليه قبل استيلاء صلاح الدين عليها، فرفض الملك العادل ذلك وأخذ السلطان يعيد تنظيم جيشه استعداداً للاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، فلم يكن من كونراد إلا أن عقد مع حامية عكا اتفاقاً منفرداً تعهدت الحامية فيه بدفع مائتي الف دينار وتسليم الفين وخمسمائة من أسرى الفرنجة، مقابل السماح لأفرادها بمغادرة المدينة(٦٠)، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الفرنجة على أسوار عكا، فعظمت المصيبة واشتد الحزن وغشيت الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة(٦١)، ولا سيما ان عكا كانت تحوي جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب(٦٢). وزاد من عظيم المصيبة ان الفرنجة نقضوا شروط الصلح «فأسروا من فيها وكانوا ألوفاً»(٦٣)، وكانت هذه المعركة أول معركة يخسرها صلاح الدين الأيوبي منذ أربعة عشر عاماً.

ودخل الفرنجة عكا في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ ١٢ تموز (يوليو) ١١٨٠م. يقول ستانلي لينبول: «وقتل ملك الإنكليز ريشارد بعدئذ ٢٧٠٠ أسير من أهالي عكا دون ان يضطرب له ضمير»(٦٤)، وهو أمر يتنافى مع الأعراف السائدة في تلك العصور، بالتمييز

---

(٥٩) المرجع السابق ص٢٧٧.

(٦٠) مفرج الكروب، ج٢، ص٣٥٦؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص١٨٧؛ الفتح القسي ص ٢٨١.

(٦١) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٨٨.

(٦٢) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٢٥٧.

(٦٣) السلوك، ج١، ص١٠٥.

(٦٤) حياة صلاح الدين الأيوبي للبيلي ص١٩٢.

بين الأسرى الذين يؤخذون في ساحة الحرب، والأسرى الذين يسلمون أنفسهم رهائن مقابل شروط معينة.

وقد تناول المؤرخون الغربيون هذه المذبحة البشرية، بلاذع النقد واللوم، على حين أثنوا على صلاح الدين وما انطوت عليه نفسه من روح التسامح وسعة الصدر والحلم والوفاء بالوعد(٦٥). ويقول الدكتور فيليب حتي: «وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عندما احتل بيت المقدس»(٦٦).

وكان صلاح الدين قد جمع المال المطلوب لفداء الأسرى وعددهم يزيد على عشرة آلاف وعلى رأسهم سيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش(٦٧)، وطلب من الفرنجة إعطاء الضمانات على الوفاء بوعدهم قبل استلام المال، لئلا يأخذوا المال ويرفضوا تسليم الأسرى، فأبوا عطاء أي نوع من الضمانات، ورفض فرسان الداوية ان يكفلوا تنفيذ ريشارد لوعده حين قبل السلطان بكفالتهم، مما جعله يتردد في دفع الفداء، فغضب ملك الانكليز وعمد إلى قتل أولئك الأسرى بدافع الانتقام. ويرى بعض المؤرخين في هذا الخلاف، أو سوء التفاهم، ما يخفف من جريرة ريشارد، ولا سيما ان الجدال في أمر الفداء والضمانات التي طلبها صلاح الدين قد طال شهراً كاملاً.

ولما علم صلاح الدين بما فعله ريشارد لطم رأسه ونتف لحيته وبكى بكاءً شديداً(٦٨)، ولكنه على الرغم من شدة غضبه فقد استطاع الاحتفاظ بسماحته ورباطة جأشه، وكان قد جيء بمن في دمشق من أسرى الفرنجة لتجرى مبادلتهم بأسرى مسلمين، فأمر بإعادتهم إلى دمشق سالمين ولم يأخذهم بجريرة اخوانهم(٦٩).

ويعلل الدكتور نظير سعداوي سقوط عكا من وجهة النظر العسكرية، فيقول ان المدينة قد قاومت حصار الصليبيين سنتين كاملتين، «شهدت خلالهما أعظم عمليات حربية اشترك فيها الصليبيون بأكثر من ربع مليون جندي. وامتاز الصليبيون خلال هذا

---

(٦٥) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٦٠
(٦٦) العرب...
(٦٧) افتدى صلاح الدين سيف الدين المشطوب فيما بعد بعشرة آلاف دينار، أما بهاء الدين قراقوش فقد تمكن من الهرب.
(٦٨) مرآة الزمان ص٢٦٢.
(٦٩) صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب ص١٨٨.

الحصار باسطول قوي، وآلات حربية ضخمة، على حين امتاز المسلمون بوحدة القيادة الكفيلة بالانتصار، لولا ما تسرب إلى صفوف المسلمين من ضجر في المعسكر الصلاحي، وملل من طول الحصار في جند الحامية المحصورة بعكا».

«والواضح ان المسلمين فقدوا عكا لأسباب سياسية وعسكرية، وأولها ضعف قوتهم البحرية، ثم فقدان الروح المعنوية عند أمراء صلاح الدين، واختلافهم معه في الرأي أكثر المناسبات الحربية، ثم عدم إنجاد الخليفة العباسي لصلاح الدين بنجدة معنوية أو مادية كبيرة».

«ومما تجب الإشارة إليه ما شهدت عكا من قيام مدينتين عسكريتين خارج أسوارها أثناء مقاومة ذلك الحصار الطويل المدى، احداهما اسلامية شرقية بها خصائص وتقاليد الحياة الدينية والاجتماعية والعسكرية الموروثة.. والثانية صليبية غربية بها خصائص المدينة الأوروبية... وكانت العلاقات الاجتماعية السلمية بين الأيوبيين والصليبيين ودية عموماً، رغم ما بين الفريقين من حرب!..»(٧٠).

ووقف صلاح الدين على رابية عالية يطيل منها النظر إلى عكا الأسيرة بعد صراعها الجبار، وقد بدا في جلاله ونبله وحزنه العميق، كأنه قد أرسل روحه في صلاة صامتة خاشعة.

ولبث وقتاً طويلاً وهو في موقفه ذاك ما يريم، ولا يتحول بوجهه عن المدينة الجريحة، كأم تنظر إلى قبر ابنها القتيل، وفي نفسها عوامل شتى من الفجيعة والثورة الصامتة والألم العميق، ثم لوى عنق جواده وأطلق عنانه، فانطلق يشق به الرمال السوافي، وكأن له جناحي نسر كما أن لصاحبه إباء النسور.

وكانت جوارح الطير تنقضّ على جثث القتلى، فتنهشها ثم تحلق في الفضاء وهي تطلق صرخات حادة ظافرة، فيتصل صوتها المخيف بقلبه، ويشتبك في صراع أليم مع نوازع الخير المتأصلة فيه.

في تلك البقعة التي كانت مهد السلام والحب، وقف صلاح الدين الأيوبي مستنداً إلى

---

(٧٠) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

عنق جواده، وقد خيل إليه أن الأرض تشتعل في كل مكان، والسحب تغطي السماء كأعمدة من دخان، وتمثلت له الجيوش الجرارة والملوك العظام والشعوب المختلفة اللغات التي تتقاتل وتتطاحن، وكأنها ستظل تتقاتل وتتطاحن حتى تبيد جميعاً، ولا يبقى في أرض الحب والسلام سوى تلك الطيور الجوارح، تنهش لحوم الموتى وترسل صيحتها الساخرة في السماء!...

ولف السلطان ذراعه حول عنق الجواد، ذلك الصديق الصامت الطيب، ومسح بشعره الناعم الطويل دمعات خرساء انحدرت على خديه!...

الفصل العشرون

ريشارد قلب الأسد

وصف الكاتب الفرنسي البير شامبدور الوضع الجديد الذي انتقلت إليه عكا بعد استيلاء الفرنجة عليها فقال:

«لقد تقاسم الصليبيون الغنائم الكبرى التي عثروا عليها في المدينة، بل توزعوا أيضاً أرزاق التجار المسيحيين الذين عاشوا في عكا منذ سنين عديدة، مطمئنين إلى الإدارة الإسلامية التي لم يشكوا منها قط، ولم يصيبهم منها أي أذى. ولما رأى هؤلاء التجار أولئك الفاتحين الذين اعمتهم ولا ريب نشوة الانتصار، سيسلبونهم كل ما يملكون، جاؤوا إلى ملك فرنسة يحتجون لديه على أعمال النهب التي يتعرضون لها، وقالوا له بشيء غير قليل من القسوة ان المسيحيين إنما جاؤوا في اعتقادهم لانقاذ بيت المقدس وليس لسلب الأرزاق التي تركهم الكفار يتمتعون بها».

وقد دافع فيليب أوغست عن قضيتهم، واتخذ التدابير اللازمة كي لا تساء معاملة مسيحيي عكا القدماء من قبل المنتصرين. ولكن ما هو إلا قليل حتى كان الانكليز والفرنسيون والهيكليون وفرسان المستشفى والسكندينافيون والفلمنديون وأبناء بيزة والبندقية والألمان، يتنازعون السيادة في المدينة التي اشتركوا جميعاً في الاستيلاء عليها. وكان غي دو لوسينيان الباحث عن المملكة التي فقدها في حطين، يتفجع بمفرده وهو يرى تمزق المسيحية المجاهدة.

والحق ان التحالف الودي بين الصليبيين كان قصير المدى، فمنذ اليوم التالي لدخولهم إلى عكا، بدأوا يتقاتلون في ما بينهم. وقد احتل ليوبولد دوق النمسا ورجاله أحد الحصون، ورفع علمه عليه، فاستاء قلب الأسد الغضوب لمرأى هذا العلم وهو يخفق مزهواً

في السماء دون استشارته وموافقته. فانتزع العلم وألقى به في الوحل ونصب علمه مكانه.

«وشعر الألمان بالإهانة فقرروا ذبح الانكليز الذين يلتقون بهم في الأسواق، وكان الأمر في حاجة إلى ديبلوماسية الدوق ليوبولد كي لا يؤدي إلى نتائج مؤسفة. إلا أن الدوق ما لبث ان انتقم لنفسه فيما بعد. وكان ملك انكلترة مستمراً في التصرف وكأنه السيد الوحيد الذي ينبغي أن يقدّم له الجميع فروض الطاعة، من أصغر الناس شأناً إلى أوفرهم قوة. ولعله كان على حق في ذلك، لو لم يعامل فيليب أوغست كتابع له. والواقع ان ملك فرنسة، بصناديقه الفارغة وثيابه البالية، كان يبدو بمظهر الغريب الفقير إلى جانب الثري الانكليزي الذي كان يستطيع ان يشتري بالذهب القبرصي جنوداً وضباطاً ونبلاء كما يشتري أمراء خانوا صلاح الدين».

«وبدافع القرف، والمرض الذي عاوده من جديد، وأنباء الاضطرابات التي عمت فرنسة، قرر فيليب أوغست مغادرة عكا، حيث كان كونراد دو مونتفرات ما يزال مخلصاً لصديقه الفقير الذي اكتشف الخدعة التي تورط فيها. وفي هذه المدينة استقبل ملك فرنسة وفداً رسمياً أرسله صلاح الدين للاطمئنان على صحته، ولتهنئته بالانتصار الذي أحرزه عليه، وليقدم له هدايا ثمينة جديرة بملك عظيم».

«وما لبث فيليب أوغست أن قرر السفر إلى فرنسة، فأبقى ألفاً وخمسمائة من جنوده في الأرض المقدسة بقيادة هوغ الثالث دوق دو بورغونيه، وتخلى لمركيز صور العجوز عن حصته في عكا بوصفه شريكاً في فتحها، وأوصى بأن تعود المكاسب المقبلة التي يجب ان تقسم بين فرنسة وانكلترة بمقتضى معاهدتي فيزيلاي وعكا، إلى كونراد دو مونتفرات، على أن يتولى أمرها لحساب ملك فرنسة. وبعد ان أنهى قضاياه السياسية على هذا النحو، أبحر في ٢ آب (اغسطس) ١١٩١م، إلى إيطالية على اسطوله المؤلف من خمس عشرة سفينة، حيث تلقى شعار حجته من يد البابا سيلستان الثالث، وما كاد يصل إلى مملكته حتى أعاد تنظيم شؤونه المالية وأخذ يبحث عن طريقة للاستيلاء على الأراضي التي يملكها البلانتاجانيون[١] في فرنسة، متناسياً اليمين التي أقسمها على احترام تلك الأراضي، وصيانتها من كل عدوان، حتى عودة ملك الانكليز!..»[٢].

(١) لقب الأسرة الثانية من كونتات انجو التي توارثت العرش البريطاني من عهد هنري الثاني إلى عهد هنري السابع (١١٥٤ ـ ١٤٨٥)، وقد أدى خلاف ريشارد وفيليب أوغست الذي بدأ في الأراضي المقدسة الى إشعال حرب المائة عام بين المملكتين.
(٢) Saladin le plus pur Héros de l'Islam,p. 284 _ 285 أنظر ايضاً Marin: Hist, de Saladin, II, p. 303

وقد ترك سفير فيليب أوغست الساحة خالية أمام ريشارد قلب الأسد، فغدا الزعيم الذي لا يُنازع للحملة الصليبية الثالثة، وقرر الزحف إلى عسقلان والاستيلاء على جميع المدن الساحلية التي تقع بينها وبين عكا، حتى إذا تمت له السيطرة عليها اتجه داخلياً شطر المدينة المقدسة، فسار جنوده ـ وقد بلغ عددهم مائة ألف جندي وقيل ثلاثمائة ألف(٣) ـ على مقربة من الشاطئ وسفنهم تواكبهم في البحر، كي يتجنبوا الاصطدام مع الجيش الصلاحي في معركة مكشوفة(٤)، ولحق بهم صلاح الدين بعد أن تبنى خطة الأرض الجرداء، فأمر بإخلاء المدن الساحلية وتدميرها وإحراق مزارعها وردم آبارها، حتى لا يجد الفرنجة فيها زاداً أو مالاً أو ملجأ يلجأون إليه.

وأدرك صلاح الدين ان جنوده بسلاحهم الخفيف، أضعف من أن يلاقوا الفرنجة المدججين بالحديد في ملحمة أو معركة كبرى، فانتقل إلى ما نسميه اليوم حرب العصابات، وأخذ جيشه ينقضّ على أعدائه في مناوشات خفيفة يرغمهم على منازلته فيها إرغاماً، ويتغلب عليهم فيها بمهارته وشجاعته وبراعة خططه، حتى أصبح شغل الإفرنج الشاغل حماية أنفسهم من هذه الغارات الصغيرة المفاجئة على طلائعهم أو رسلهم أو كتائبهم الصغيرة أو أطراف معسكرهم نفسه، تارة من الأمام وتارة من الخلف وتارة أخرى من اليسار، فكانوا إذا ما نعموا بفترة قصيرة من السلام، اشتغلوا بتأمين المعسكر الذي باتت تشغله جماعات قليلة من المسلمين، واحاطته بوسائل التحصين.

وقد سجل صاحب الروضتين باعجاب منظراً رائعاً لتحرك الجيش الصليبي ذا أهمية تاريخية كبرى نظراً لدقته ووضوحه، فقال: «وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون في الساحل بالفارس والراجل وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الرمل. وكانت الرجالة حولهم كالسور، وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون، وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم. ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج، ثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون

---

(٣) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٢٦ نقلاً عن: Morgate; Richard The Lion Heart, p. 176.

(٤) دلت معركة عكا على تفوق المسلمين في المعارك المكشوفة، وحسن تعاون رماتهم مع فرسانهم، كما دلت على تفوق الإفرنج في البحر والمعارك البحرية.

على جانب البحر ولا قتال عليهم، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم العمّال، هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلا في وقت الحملة لا غير. وقد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام: الأول الملك العتيق جفري وجماعة الساحلية معه في المقدمة، والانكبار والفرنسيسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى من الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة، وعلمهم على ما وصفت من قبل يسير أيضاً في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا، وهم يحفظون في نفوسهم حفظاً عظيماً، ويقطعون الطريق على هذا الوضع، ويسيرون سيراً رفيقاً، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا. وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة فان المستريحين كانوا يحملون اثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم. فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة»(٥).

ومع ذلك، فما لبث الفريقان ان التحما أمام أرصوف، في الرابع عشر من شعبان ٥٨٧هـ ـ ٧أيلول (سبتمبر) ١١٩١م، بعد أن خلى المسلمون حيفا وخربوا قيسارية فاحتلهما الصليبيون دون أن ينتفعوا منهما بشيء. وكانت المعركة التي دارت في أرصوف شديدة على جيش المسلمين، فمزقته وبددت شمله، مع انه كان البادىء بالهجوم.

وكانت المعركة في البدء غارة خاطفة على الساقة الصليبية، ثم تطورت إلى هجوم تطويقي على الجيش الصليبي كله. وكانت خطة الفرنجة في الغارات السابقة الدفاع المنتظم دون خروج الجنود أو الفرسان عن الصفوف، بعد أن جعل ريشارد على طول الجناح البري من هذا الجيش عجلاً يحمل رماة الزنبورك ومهمتهم حماية جيشه من سهام المسلمين ولكن خطة الجيش اختلفت هذه المرة، عندما اشتد ضغط المسلمين على كتائبه، وقذف صلاح الدين بنفسه بين صفوف الطلائع في جماعة من خيالته الفدائيين، فلم يعد فرسان الفرنجة يطيقون الحفاظ على الخطة السابقة، وخشي ريشارد ان يخرجوا عن طاعته، فأمر بالهجوم، فحمل الفرسان جملة واحدة من الجوانب كلها، ففوجىء المسلمون وتراجعوا أمامهم(٦).

---

(٥) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٩٠.

(٦) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٧١ ـ ٢٧٤.

وقد تفرق جند المسلمين خلال هذه الموقعة وتشتت فرسانهم، وقتل منهم اثنان وثلاثون أميراً وأكثر من سبعة آلاف جندي، وكاد يقضى عليهم جميعاً لولا توغلهم في غابة كثيفة الشجر ملتفة الأغصان، وتوقف الصليبيين عن ملاحقتهم، حين لم يتمكنوا من معرفة عددهم ولا تبيان خطتهم، هل هي هزيمة أم كمين أم هجوم جديد(٧)، ولولا الشجاعة الفريدة التي أبداها صلاح الدين الذي «ثبت إلى أن اجتمع عليها المسلمون»(٨)، وكان كما يقول ابن شداد: «يطوف من الميمنة إلى الميسرة يحث الناس على الجهاد، ولقيته مراراً ليس معه إلا صبيان بجنبه لا غير، ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال، والنشاب يتجاوزهما»(٩).

وكان انتصار الصليبيين في أرصوف بعد انتصارهم في عكا، مبعث أمل جديد لهم قوى معنوياتهم وثبت أقدامهم، في حين كان مدعاة ألم شديد للمسلمين(١٠)، وقال ابن شداد ان صلاح الدين «كان في قلبه من تلك الوقعة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، والناس بين جريح الجسد وجريح القلب»(١١).

على أن كارثة أخرى كانت تنتظر المسلمين عند عسقلان، فقد أراد صلاح الدين أن يحشد قواته فيها وحولها كما فعل في عكا، ليتخذ منها قاعدة لمعركة فاصلة يستعيد فيها هيبته ويعيد للمسلمين ما فقدوه من أراضيهم ومعنوياتهم، لكن أمراءه خالفوا رأيه، وصارحوه بقولهم: «ان أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلاّ فما يدخلها منا أحد، لئلا يصيبنا ما أصاب عكا»(١٢)، ودعوه إلى ترك الساحل واتخاذ خط دفاعي داخل البلاد»(١٣).

وقد تألم السلطان من ذلك، وقرر التخلي عن المدينة، ولكن راعه ان تقع في أيدي

---

(٧) الكامل ج١٢، ص٤٥.

(٨) السلوك، ج١، ص١٠٥.

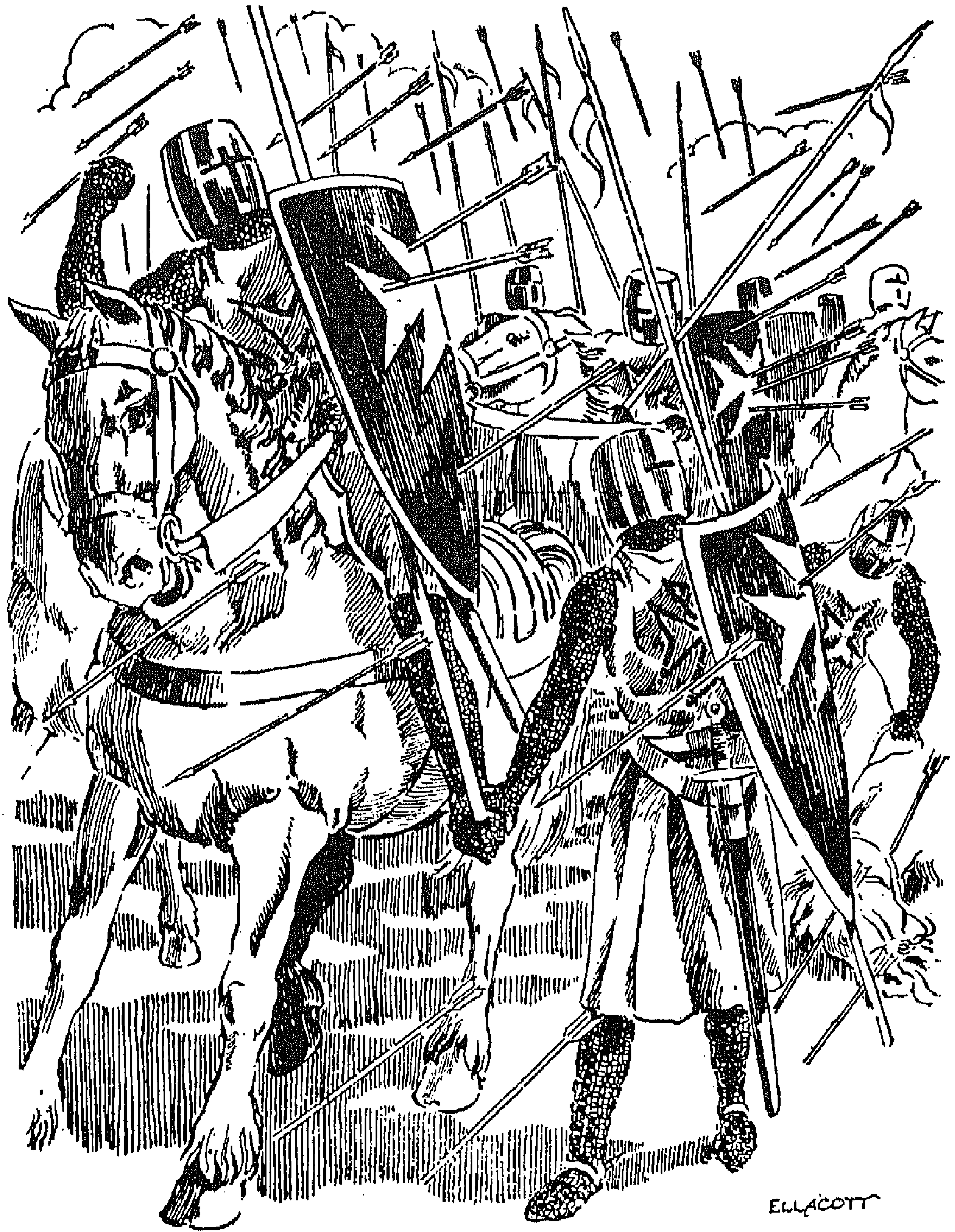
(٩) النوادر السلطانية ص١٧٥؛ انظر أيضاً Saladin le plus pur Héros de l'Islam,p.294.

(١٠) Grousset; Hist. des Croisades. III. p. 71

(١١) النوادر السلطانية ص١٧٧.

(١٢) الكامل، ج١٢، ص٤٦.

(١٣) الناصر صلاح الدين ص ١٤٥.


ELLACOTT

الفرنجة «فيقتلوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا بها طريق مصر»[١٤]، فعمد إلى هدمها وإحراقها بعد أن أخرج الناس منها[١٥]، وكانت «بلداً نضراً خفيفاً على القلب، محكم الأسوار، عظيم البناء، مرغوباً في سكناه، فلحق الناس عليه حزن عظيم، وعظم عويل أهله على مفارقة أوطانهم»[١٦]، ثم هدم اللد والرملة للغرض نفسه[١٧]. وكان يقول وهو يرى تلك الحصون تتداعى تحت معاول جنوده: «والله لأن أفقد أولادي بأسرهم، أحب إليّ من أن أهدم حجراً واحداً...»[١٨]، ثم مضى إلى القدس لعلمه انها مقصد الإفرنج الأول.

غير ان زحف ريشارد إلى القدس كان بطيئاً، فبعد ان احتل عسقلان[١٩]، سار إلى يافا وشرع في تعمير الخراب الذي أحدثه صلاح الدين فيها، بعد ان حطم مقاومة سكان يافا ومن بقي في عكا. ولما وصل قلب الأسد إلى مشارف القدس، رأى السلطان قد أحكم تحصينها وأعدّ عدّته للدفاع عنها وأفسد الآبار القريبة منها، فعاد إلى اللد لمتابعة مفاوضات الصلح. وكانت هذه المفاوضات قد بدأت حوالى آخر شهر رمضان سنة ٥٨٧هـ (منتصف تشرين الأول (اكتوبر) ١١٩١م)، وقد مثل صلاح الدين فيها أخوه الملك العادل، وكان ريشارد يصر على أن يكون من شروط الصلح إعادة مملكة بيت المقدس إلى الإفرنج كما كانت عليه سنة ١١٨٥م، وكان السلطان يرفض ذلك الشرط اطلاقاً، مؤكداً لملك الانكليز ان المسلمين يقدسون القدس مثلما يقدسها المسيحيون، وانهم حريصون على تأمين الحرية الدينية فيها لجميع المواطنين[٢٠].

وكان ريشارد يرغب في العودة إلى بلاده، وقد رأى صعوبة احتلال بيت المقدس،

---

(١٤) النوادر السلطانية ص١٧٨.

(١٥) السلوك، ج ١، ص١٠٦؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص١٩٢.

(١٦) النوادر السلطانية ص١٨٠.

(١٧) مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

(١٨) النوادر السلطانية ص١٧٩.

(١٩) أرسل كونراد إلى الملك ريشارد يلومه على تأخره في احتلال عسقلان قبل ان يهدمها صلاح الدين قائلاً ان السلطان لم يخربها إلا لانه عاجز عن حمايتها «ولو كنت مكانك لأريتك كيف أسرع إلى المدينة فأحتلها عنوة، قبل ان أدع للسلطان فرصة ليفعل بها ما فعل»: Grousset; Hist.des Croisades. III. p73

(٢٠) مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٢: Saladin le plus pur Héros de l'Islam,p.292.

وما عاناه من المتاعب في مسيره من عكا إلى يافا، وانقسام الإفرنج الذين معه، وطول الوقت الذي قضاه قومه لاحتلال عكا، فتقدم بعرض جديد للصلح من شأنه ان يصون كرامة الفريقين، ومن شروطه ان يتزوج الملك العادل الأميرة جوانا اخت ريشارد وأرملة ملك صقلية، وأن يتنازل ملك الانكليز عن المدن التي افتتحها كصداق لأخته، وأن تكون القدس ملكاً للزوج والزوجة بوصفهما محايدين. فيفتحا أبوابها للمسيحيين والمسلمين على السواء «ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتارية ببعض القرى ولا يمكّنهم من الحصون»(٢١).

وقد عرضت هذه الشروط على صلاح الدين الأيوبي فوافق عليها رغبة في حقن الدماء وإقرار السلام، غير ان رجال الدين من الفرنجة قاوموا ذلك، وما زالوا بالأميرة جوانا حتى رفضت هذا الزواج، وان كان من رأي أخيها قلب الأسد ان الملوك إذا لم تجمعهم رابطة الدين جمعتهم علائق المجد(٢٢).

ويؤكد العماد وابن شداد ان صلاح الدين قد وافق على ذلك الزواج ورضي بتلك الشروط، كما رحب به الملك العادل(٢٣)، ويعلق سيد أمير علي على هذا المشروع بقوله: «لو سمح الكهنة ورجال الدين بهذا الزواج، لكان بلا نزاع القنطرة التي سار عليها السلام بين المسلمين والمسيحيين إلى اليوم»(٢٤).

والمؤرخون من شرقيين وغربيين متفقون على ان كلاً من ريشارد وصلاح الدين كان معجباً بالآخر(٢٥)، وكثيراً ما كانا يتبادلان الهدايا، وعلى ان السلطان لما علم بمرض

---

(٢١) الفتح القسي ص٣٠٩؛ المختصر في تاريخ البشر ج٣ ص٨٤.

(٢٢) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٩٢؛ Saladin le plus pur Héros de l'Islam,p.300 _ 301.

(٢٣) الفتح القسي ص٣٠٩؛ النوادر السلطانية ص١٨٩.

(٢٤) مختصر تاريخ العرب، ص ٣٢١.

(٢٥) يذهب بعض المؤرخين الغربيين إلى ان المودة التي كانت تسود علاقات صلاح الدين وريشارد إنما ترجع إلى علاقة غرامية كانت قد نشأت بين ايليانور زوجة السلطان لويس السابع وصلاح الدين في عهد الحملة الصليبية الثانية، وكانت هذه العلاقة الباعث على طلاق ايليانور بعد عودتها إلى فرنسة وزواجها من هنري الثامن ملك انكلترا، وكان ريشارد ثمرة هذا الزواج، وقد شعر صلاح الدين بالعطف عليه استمراراً لعلاقته الغرامية بوالدته. ومن الواضح ان هذه الاسطورة إنما هي من نسج خيال مؤلفيها. لأن صلاح الدين كان في عهد الحملة الصليبية الثانية فتى في الثالثة عشرة من عمره، وكانت العلاقة الغرامية التي اشتهرت بها ايليانور وكانت سبباً في طلاقها من لويس السابع، هي علاقتها بريموند الثالث صاحب انطاكية كما ذكرنا في الفصل الخامس؟؟ (انظر التاريخ الحربي المصري ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨).



ريشارد قلب الاسد

خصمه اشتد قلقه عليه وأرسل إليه طبيبه الخاص فعالجه وشفاه، وكان ما يفتأ يسأل عنه ليطمئن على صحته، ولا صحة لما روته الأساطير عن مقابلاتهما ومبارزاتهما الفردية، وانقاذ رجال صلاح الدين لملك الإنكليز من مؤامرة أعدّها جماعة من الصليبيين لاغتياله، وتنكُر صلاح الدين في زي طبيب لزيارة ريشارد ومعالجته لأنه أسف عليه ان يموت على فراشه بغير موت الأبطال فقال له وهو يسقيه الدواء: «أنت تشفيني من دائي وأنت طبيب عدوي الألد، هل فعل هذا الفعل سلطان، وهل بلغت المروءة هذا الحد!».

والواقع ان ريشارد قد رغب في الاجتماع بصلاح الدين، فأبى هذا تحقيق رغبته على كره منه، لأن الملوك في رأيه إذا اجتمعوا لم يصحّ ان يتقاتلوا بعد ذلك، وطلب الاتفاق على قاعدة سلمية أولاً «وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة»[٢٦]. ولكن قلب الأسد اجتمع مع العادل مرات، وكانا يجتمعان على تواد ومحبة فتمكنت الصداقة بينهما وأعجب كل منهما بالآخر، وكانا يتجاذبان الحديث في سمر ودعابة وقد نسيا انهما في حرب ضروس.

وقد دعا ريشارد الملك العادل إلى مأدبة فخمة أقامها على شرفه في المعسكر الصليبي، وقابله العادل بدعوة مماثلة، وطلب قلب الأسد من مضيفه ان يسمعه شيئاً من الغناء الشرقي فدعا إلى المأدبة مغنية تضرب بالعود فغنتهما بارع الألحان[٢٧]، كما أقام ريشارد حفلة رسمية أنعم فيها على الملك الكامل ابن العادل برتبة الفروسية[٢٨].

---

(٢٦) النوادر السلطانية ص١٩٥.

(٢٧) الكامل، ج٢، ص٤٧؛ مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٤؛ النوادر السلطانية ص١٩٥.

(٢٨) تاريخ العرب لحتي وزميليه، ج٢، ص ٧٧١.

الفصل الحادي والعشرون

السيف .. والكلمة الطيبة

بينما كان ملك الانكليز مقيماً في عسقلان منصرفاً إلى بناء أسوارها من جديد، كانت الأنباء تنقل إليه أن الثورات قد نشبت في بلاده، وأن أخاه يطمع في الاستيلاء على عرشه، وان ملك القسطنطينية قد أوفد رسله الى صلاح الدين ليبرم معه معاهدة سلام وصداقة، وعلم ان الفرنسيين والانكليز في عكا يتقاتلون في ما بينهم، وان كونراد دو مونتفرات يفاوض السلطان ليعقد معه صلحاً منفرداً يكون من شروطه أن يعطيه المسلمون صيدا، وان يحارب إلى جانبهم جيوش الصليبيين[١]، ويلقي القبض على ريشارد ويسلمه إلى صلاح الدين[٢]، ولكن السلطان لم يكن واثقاً من صدق نيته، فاشترط عليه أن يبدأ بحرب الفرنج ومهاجمة عكا قبل أن يصالحه، وكان صلاح الدين في الواقع أميل إلى مصالحة كونراد لأنه اذا بقي في الساحل كان أقل خطراً من ريشارد[٣].

وعلى أثر ذلك جمع ريشارد أمراء الفرنجة وطلب منهم أن يختاروا ملكاً غيره لأنه لن يستطيع البقاء في الشرق طويلاً، فاختاروا كونراد (المركيس) ملكاً عليهم. وهو خصمه ومنافسه، وأذعن ريشارد لما قرروا.

---

(١) النوادر السلطانية ص١٩٧؛ Saladin le plus pur Héros de l'Islam,p.302.

(٢) Iorga; Hist. des Croisades, p. 134

(٣) Grousset; Hist. des Croisades,III, p.59

ولكن لم تمض أسابيع معدودة حتى قُتل كونراد غيلة بيد أحد الحشاشين، في فراشه بمدينة صور يوم ١٧ ربيع الآخر ٥٨٨هـ ٢٧ نيسان (ابريل) ١١٩٢م، وقيل ان ريشارد هو الذي أغرى رئيس الطائفة الاسماعيلية في مصياف بقتل حليفه الخارج عليه، فأرسل إليه اثنين من اتباعه فنزلا عليه ليلاً وقتلاه[٤]، كما قيل ان اللذين قتلاه هما من رجاله وقد دسهما عليه ريشارد فدخلا عليه في زي الرهبان واغتالاه[٥].

وعلى أثر مقتل كونراد بسط قلب الأسد نفوذه على صور، واختار لعرش المملكة الصليبية هنري دو شمبانيا (الكندهري) الذي يمت بصلة القرابة إليه وإلى ملك فرنسة معاً، وبادر بعقد قران هنري على الأميرة إيزابيل وريثة العرش بعد مصرع زوجها بيومين[٦]، أما غي دو لوسينيان حليف ريشارد فقد عوّض قلب الأسد عليه، بأن وهبه جزيرة قبرص[٧]، وكان قد باعها من قبل إلى فرسان المعبد بمائة ألف بيزانت ثم عدل هؤلاء عن هذه الصفقة حين ثار القبرصيون بهم، وطالبوا ريشارد بإعادة ما أخذه مقدماً من قيمة الجزيرة، وهو ستون ألف بيزانت، فتعهد لوسينيان بدفع هذا المبلغ.

ويبدو ان ريشارد قرر أن يقوم بمحاولة أخيرة لاستعادة بيت المقدس، وقد قوّى مقتل كونراد مركزه وشجعه على وقف مفاوضات الصلح، فاتفق مع هنري دو شمبانيا على المسير إليها، وبدأت جيوشهم تدنو منها والمسلمون يتعرضون لهم في كل منعطف ويكمنون لهم تحت كل رابية[٨].

ولكن محاولته هذه كانت تنقصها العزيمة والاقدام والرغبة الصادقة والاستعداد لخوض معركة كبرى قد تستمر سنتين أو ثلاث سنوات، وكان قد فقد هذه الدوافع جميعاً، فأخذ يؤخر الزحف إلى القدس، ويتباطأ فيه، ويهوّل أمره على أصحابه يريد ان يصرفهم عنه، لأنه لا يريد ان يغادرهم وهم يخوضون هذه المعركة الفاصلة من دونه، ويخشى ان

---

(٤) الفتح القسي ص ٣٢٠، كتاب الروضتين، ج٢، ص١٩٦؛ مفرج الكروب، ج٢، ص٣٨٢، مختصر تاريخ العرب ص ٣٢٢؛ Iorga; Hist. des Croisades, p.135

(٥) ذيل النوادر ص ٣٠٢.

(٦) تذهب المراجع العربية إلى ان هذا الزواج قد تم في نفس اليوم الذي قتل فيه كونراد وأن أرملته كانت حاملاً (انظر الفتح القسي، ص٣٢٠، كتاب الروضتين، ج٢، ص١٩٦).

(٧) استمر حكم اسرة لوسينيان لجزيرة قبرص منذ تلك السنة حتى سنة ١٤٧٢م.

(٨) مفرج الكروب، ج٢، ص٣٨٢.

هم خاضوها وهو إلى جانبهم ان تستغرق من الوقت مثل ما استغرقته معركة عكا وأن يُحشد لها ما حشد لتلك من رجال وأموال ومعدات، حتى استطاع ان يثنيهم عن هذه المحاولة، فارتدوا عن القدس وقد اصبحوا على مرمى السهم منهم دون أن يخوضوا مع حاميتها أية معركة[٩].

إلا ان شعور ريشارد بعجزه عن احتلال القدس قد حمله على القيام بأعمال انتقامية، بقطع الطريق بين مصر والشام، نظراً لسيطرته على عسقلان والداروم، فاعتدى على عدد من القوافل وأحرز كثيراً من المغانم[١٠]، ومن هذه المغانم عدا الأسرى والأموال أربعة آلاف وسبعمائة جمل وألف وخمسمائة حصان ومثلها من البغال والحمير، وبذلك تضاعفت قوة الصليبيين مادياً ومعنوياً، وصح عزم أمرائهم مجدداً على احتلال القدس[١١].

إلا أن ريشارد عارضهم في ذلك ووصفهم بالجنون، وقال: «هذه مدينة لا يمكن حصرها وصلاح الدين حي وكلمة المسلمين مجتمعة»[١٢]، وكي لا يتوهّم أولئك الأمراء بأنه قد جبن عن خوض المعركة، أكد لهم بأنه مستعد لمشاركتهم فيها ولكن كأحد أفراد الجند لا كقائد لهم! ولما أقنع أمراء الصليبيين بالامتناع موقتاً عن مهاجمة القدس، وعدهم بالعودة إلى هذه المحاولة في العام المقبل، إلا انه أخذ يفكر بدلاً من ذلك في الاستيلاء على مصر، ولا سيما حين رأى الثروة الضخمة التي كانت تحملها القافلة المصرية التي اعتدى عليها. وذهب قلب الأسد بعد ذلك إلى عكا ليجهّز حملة لفتح بيروت، وليعود من ثم لغزو مصر.

ومما يدعو إلى الدهشة ان رسل ملك الانكليز لم تنقطع خلال ذلك في طلب الصلح، وان لهجته كانت تعتدل مع الأيام وشروطه تزداد ليناً وتهاوناً، مظهراً رغبة شديدة في حقن الدماء ونشر السلام. وقد أرسل إلى صديقه الملك العادل كي يتوسط بينه وبين أخيه، ويقنعه بإقرار الصلح.

وقد دهش ابن شداد لبراعة ملك الانكليز في المفاوضة فقال: «فانظر إلى هذه الصناعة

---

(٩) Saladin le plus pur Héros de l'Islam, p. 304

(١٠) كتاب الروضتين، ج ٢، ص١٩٨؛ السلوك، ج ١، ص١٠٩؛ النوادر السلطانية ص٢٠٨.

(١١) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ص٢٨٨.

(١٢) الكامل، ج ١٢، ص٣٨.



مشهد عام لمدينة القدس عن لوحة قديمة

في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى» إلى ان يقول عنه: «فما بلونا أعظم حيلة ولا أشد أقداماً منه»[١٣]، وقد سبق لابن شداد ان قال عنه معجباً: «انه عظيم الشجاعة قوي الهمة وله جسارة على الحروب»[١٤].

وكان الغرض الجديد الذي تقدم به ريشارد ان يحكم هنري دو شمبانيا ابن اخت قلب الأسد، مملكة بيت المقدس، ولكن تحت حماية المسلمين، فيكون هو وجيشه بإمرة صلاح الدين وطاعته «ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا» وأجابه صلاح الدين: «إذا دخلت معنا هذا المدخل فما جزاء الإحسان إلا الإحسان، ان ابن اختك يكون عندي كبعض أولادي»[١٥].

ثم تنازل ريشارد عن المطالبة بالسيطرة السياسية على بيت المقدس، واكتفى بالتمسك بحق الصليبيين في حماية الأماكن المقدسة، ولم يفت ملك الانكليز ان يخاطب مشاعر صلاح الدين الإنسانية، فقال ما معناه: «ان جماعة من الرهبان والمنقطعين، قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وانا أطلب منك كنيسة القيامة، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مقرعة أو خربة رضيت بها»[١٦]. فوافق صلاح الدين على ذلك «وأما بقية البلاد فنقسمها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والذي بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا، وما بين العملين يكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها يكون خراباً لا لنا ولا لكم»[١٧].

إلا أن المفاوضات تعثرت حول عسقلان التي رفض قلب الأسد التنازل عنها لتعبث بها أيدي الخراب، فانتهز صلاح الدين مسيرة ريشارد إلى بيروت وسار هو إلى يافا «فحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى أن أخذ البلد عنوة وغنم الناس منها شيئاً عظيماً»[١٨]، بعد معارك عنيفة أبدى الفرنجة فيها بطولة رائعة «ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم، وسداد حركاتهم وسكناتهم»[١٩].

---

(١٣) النوادر السلطانية ص٢١٨
(١٤) المرجع السابق ص١٤٤.
(١٥) كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٠٠.
(١٦) النوادر السلطانية ص٢١٦.
(١٧) المرجع السابق ص٢١٧.
(١٨) السلوك، ج١، ص١١٠.
(١٩) النوادر السلطانية ص٢٢١.

ولكن سفن الفرنجة كانت تتوافد إلى يافا لنجدة من فيها، حتى بلغ عددها نيفاً وخمسين سفينة «فقويت ـ كما يقول ابن شداد ـ نفوس الباقين في الحصن وظهرت عليهم إمارات العصيان ودلائله، وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم، وأخذوا الطارقيات والجنويات وعلوا على الأسوار، وكانت القلعة جديدة لم تشرف بعد، فلما رأيت الأمر قد آل إلى ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفاً عليه وهو ملاصق لباب القلعة وقلت لعز الدين جرديك وهو مع عسكره في الأسفل مع جمع من الأجناد: خذوا حذركم فقد تغيرت عزائم القوم! فما كانت إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد في خدمة الملك الظاهر، إلا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد، وأخرجوا من كان في البلاد من الأجناد»[٢٠].

وهكذا تجدد القتال مرة اخرى، وانتصر المسلمون من جديد فدخلوا البلد وحصروا جنود الفرنجة في القلعة، واستبطأ هؤلاء الجنود نجدة المراكب، فجددوا المفاوضة في الصلح. وكان رجال المراكب الفرنجية، وعلى رأسهم ريشارد قلب الأسد، قد امتنعوا عن الاشتراك في المعركة لظنهم ان البلد قد أخذ والقلعة قد سُلمت، فوثب أحد فدائيي الفرنجة من فوق أسوار القلعة إلى الميناء «وكانت رملاً فلم يصبه شيء، واشتد عدواً حتى أتى البحر فخرج له شاني وأخذه إلى شاني الملك فحدثه بالحديث، فلما شعر الانكتار ان القلعة مع أصحابه اندفع يطلب الساحل، وكان أول شاني القى من فيه بالبر شانيه وكان أحمر ورقبته حمراء وبيرقه أحمر، فما كانت إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى الميناء».

ويتابع ابن شداد وصف هذه المعركة فيقول: «ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء، وكان تحتي فرس فسقته إلى السلطان، واخبرته الخبر، وبين يديه الرسولان (اللذان جاءا يطلبان الصلح والأمان) وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الأمان، فعرّفته في أذنه ما جرى، فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث، فما كان إلا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان»[٢١]، فأمرهم بالإنكفاء.

وكاد ريشارد يؤخذ أسيراً في إحدى ضواحي يافا لولا ان افتداه احد فرسانه

---

(٢٠) المرجع السابق ص٢٢٥.

(٢١) النوادر السلطانية ص ٢٢٦

المخلصين، حين هرع إلى الساحة وهو يصيح «انا الملك !»، فأسر بدلاً منه. وقتل جواد قلب الأسد في إحدى هذه المعارك، فحارب راجلاً، وأخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال بفأسه الدانمركية التي اشتهر بها والتي يقال انه ضرب بها أحد المقاتلين فشطر جسمه شطرين من رأسه إلى خصره ولم تنقذ القتيل درعه الفولاذية من تلك الضربة الرائعة. وبينا ملك الانكليز يقاتل راجلاً، إذا بصرخة ترتفع من معسكر المسلمين، ونادى المنادون: «تفرقوا عن ملك الإفرنج يا رجال !» وشق الصفوف فارس يعدو نحوه على جواد أصيل وهو يجر معه جواداً آخر، وقدم الجوادين لريشارد، معلناً ان صلاح الدين قد رأى الملك راجلاً فبعث إليه بهذين الجوادين الأصيلين، لكي يواصل القتال وهو راكب إذ لا يليق في رأيه ان يحارب بطل شجاع مثله وهو واقف على قدميه !..

وفي يافا عاود المرض ريشارد قلب الأسد، واشتدت رغبته في العودة إلى بلاده، وقد أدهشه وبعثه على القنوط ان يستطيع المسلمون اقتحام يافا في أيام معدودة بعد أن حشد فيها القوى اللجبة وقضى شهوراً عدة وهو يجدد أسوارها ويعزز دفاعها، ورأى ان الانتصارات التي أحرزتها الحملة الصليبية الثالثة على صلاح الدين خلال ثلاث سنوات اشترك فيها خمسمائة أو ستمائة ألف صليبي[٢٢]، وقضى من أجلها ما لا يقل عن مائة وعشرين ألف ضحية منهم[٢٣]، إنما كانت انتصارات جزئية محلية لم تنل من مملكة صلاح الدين الشامخة الصرح الراسية الأساس المترامية الاطراف التي تحيط ببقايا المستعمرات الصليبية من كل مكان، ولولا ان المجاعة قد اجتاحت سكان عكا لاستمرت مقاومتها سنين أخرى وربما تحولت هزيمتها إلى انتصار، وقد تتاح لريشارد ان يسجل انتصارات جزئية أخرى ولكن من الصعب ان ينتصر على صلاح الدين انتصاراً حاسماً وهو في وسط بلاده تتجدد قواه ولا تنقطع موارده، ولا بد قبل الرحيل من الاتفاق معه وانتزاع وعد منه بوقف القتال، لئلا يفقد الفرنجة بعد سفره البقية الباقية من ممتلكاتهم ويتبين للقارة الأوروبية ان المجد الذي بناه لها في المشرق إنما بني على رمال !

يقول جون لامونت: «ولا ريب ان أحزان ريشارد لفشله في احتلال القدس، كانت منبعثة من شعوره بالخزي لعدم تمكنه من الوصول إلى هدفه، ولم تكن صادرة عن عدم

---

(٢٢) خطط الشام، ج٢، ص٧٢.

(٢٣) Saladin le plus pur Héros de l'Islam, p. 284.

تمكنه من إنقاذ قبر المسيح» والواقع ان ريشارد قلب الأسد وفيليب أوغست لم يكونا «مدفوعين بالدين مثل اندفاعهما برغباتهما لكسب المجد عن طريق الحرب في الشرق»[٢٤].

وكان جواب صلاح الدين لقلب الأسد إذ عاد إلى طلب الصلح: «إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة، وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن قد خربت يافا فيكون لك من صور إلى قيسارية» فعاد الرسول يقول للسلطان: «يقول الملك ان قاعدة الإفرنج انه إذا أعطى واحد واحد بلداً صار تبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين: يافا وعسقلان، وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت، وخدمتك كما تعلم خدمتي»، فأجاب السلطان: «حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك بأن تجعل هذين البلدين قسمين: أحدهما لك وهو يافا وما وراءها، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها»[٢٥].

وعادت رسل قلب الأسد بهذا الجواب، وانتقل السلطان بعسكره إلى الرملة، فوافاه رسول ريشارد إليها شاكراً له اعطاءه يافا ويلحّ في طلب عسقلان، مؤكداً رغبته في السفر إلى بلاده، وأنه إذا أقرت مبادىء الصلح لم يعد في حاجة إلى قضاء الشتاء في الشرق، وأجاب صلاح الدين جواباً بارعاً طريفاً يصور أبعاد الوضع السائد بين الفريقين، فقال: «أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه، وأما تشتيته هنا فلا بد منها لانه قد استولى على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها أخذت بالضرورة، كما تؤخذ أيضاً إذا أقام ان شاء الله تعالى. وإذا سهل عليه ان يشتي هاهنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه[٢٦]، ووقت اقتناص لذاته، أفلا يسهل عليّ ان أشتي وأصيّف وأنا في وسط بلادي، وعندي أولادي وأهلي، ويأتي إليّ ما أريد، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء!..»[٢٧].

---

(٢٤) دراسات إسلامية ص١٠٣.

(٢٥) النوادر السلطانية ص٢٢٧.

(٢٦) كان ريشارد في الخامسة والثلاثين من عمره وصلاح الدين في الخامسة والخمسين (السادسة والخمسين بالسنين الهجرية).

(٢٧) النوادر السلطانية ص ٢٢٨.

وتوقفت بذلك مفاوضات الصلح، ووصلت صلاح الدين أمداد جديدة من مصر والشام والجزيرة، فجمع مجلس شوراه وقال لهم: «إن الانكتار قد مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ونفقاتهم قد قلت، وهذا العدو قد أمكن الله منه، وأرى أن نسير إلى يافا، فان وجدنا فيها مطمعاً بلغناه وإلا عدنا تحت الليل إلى عسقلان، فما تلحقنا النجدة إلا وقد نلنا منها غرضاً»[٢٨].

وخلال هذا الوقت، كانت «رسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج، ووقع عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، فكان السلطان يمده بذلك» ثم جاء رسول يشكر للسلطان انعامه بالفواكه والثلج، وذكر الحاجب ابو بكر العادلي ان الرسول انفرد به وأبلغ أن قلب الأسد قال له: «قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوسل إلى السلطان في معنى الصلح، وأمضي أنا ويبقى هو في هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم، فليس لي غرض إلا إقامة جاهي بين الإفرنج، وإن لم ينزل السلطان عن طلب عسقلان فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها»[٢٩].

وهكذا عاد ريشارد إلى الحديث عن الصلح، وتراجع عن تمسكه بعسقلان، ورضي بأن يعوَّض عنها إذا أصر السلطان على أمرها، لكن صلاح الدين رفض قبول التعويض أيضاً، وتنازل قلب الأسد عن طلبه هذا.

يقول البير شامبدور: «وهكذا أملى صلاح الدين بالرغم من خسارته في عكا وعسقلان ويافا، المعاهدة التي كان يستطيع فرضها لو كان هو الغالب المنتصر»[٣٠].

وتم عقد الصلح في ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ ٢ ايلول (سبتمبر) ١١٩٢م، ومثل صلاح الدين فيه ولداه الملك الأفضل والملك الظاهر وأخوه الملك العادل، وناب عن ريشارد قلب الأسد في التوقيع على الاتفاقية هنري دو شمبانيا (الكندهري) وباليان الثاني دو ايبالين (باليان بن بارزان) واونفروا الرابع دو تورون.

وقضت اتفاقية الصلح بأن يسود السلام بين الفريقين ثلاث سنوات وثلاثة أشهر،

---

(٢٨) المرجع السابق ص٢٣٢.

(٢٩) المرجع السابق ص٢٣٣.

(٣٠) Saladin le plus pur Héros de l'Islam, p. 330

وبأن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، وتبقى صيدا وبيروت وجبيل للمسلمين، وتكون عسقلان مدينة غير مسلحة في أيدي المسلمين، في حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وان يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيث المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة، واشترط صلاح الدين ان تشمل المعاهدة بلاد الاسماعيلية، كما اشترط ريشارد ان تشمل انطاكية وطرابلس، ورضي الاسبتارية والداوية وسائر مقدمي الفرنجة بذلك، وأعلن صلاح الدين «ان صلاح الدين قد انتظم، فمن شاء من بلادهم ان يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا ان يدخل بلادهم فليفعل» فابتهج الجميع «وكان يوماً مشهوداً عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب»(٣١).

يقول سيد أمير علي: «وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة التي هلك فيها عدد هائل من الناس، وخرّبت ألوف البيوت في المشرق والمغرب على حد سواء، وفقدت ألمانية فيها واحداً من أعظم أباطرتها، كما خسرت فرنسة وانكلترة فيها زهرة فرسانها، وكان كسبها الوحيد الاستيلاء على عكا»(٣٢)، إلا ان روم لاندو يرى انه كان «من مجالي الحملة الصليبية الثالثة المميزة نشوء صلات أوثق بين النصارى والمسلمين»(٣٣)، وأما البير شامبدور فيقول: «هكذا انتهى تجمع الشعوب الرهيب الذي تألفت منه الحملة الصليبية الثالثة، هذه الحملة التي كرست مجد صلاح الدين وعبقريته، وأظهرت مع الأسف، عجز الفرنجة الذين كانت تفرقهم مصالحهم الجشعة، أمام الإسلام الذي سيلقي ظله المتعاظم على قارات أخرى»(٣٤).

وقد حرص صلاح الدين على أن يتحلى دائماً بروح الشهامة والمروءة والتسامح التي ميزت معاملاته مع الصليبيين، فاستقبل هوبرت أسقف سالسبوري بالتجلة والتكريم، ووافق على طلبه بتعيين اثنين من رجال الدين اللاتين في كل من كنيسة القيامة وكنيسة

---

(٣١) انظر النوادر السلطانية ص٢٣٦؛ الفتح القسي ص٣٤٣؛ مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٢ ـ ٤٠٤؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٠٢؛ السلوك، ج١، ص١١٠.

(٣٢) مختصر تاريخ العرب ص٣٢٣.

(٣٣) الإسلام والعرب ص١٢٧.

(٣٤) Saladin le plus pur Héros de l'Islam, p. 231

بيت لحم وكنيسة الناصرة، وذلك إلى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال الدين الارثوذكس[٣٥].

وسرعان ما نسي الجميع أحقاد الحرب وكوارثها «واختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة، ووصل خلق عظيم من العدو إلى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم إلى يافا»[٣٦].

ويضيف العماد وابن شداد ان قلب الأسد لما علم بكثرة زوار القدس من الفرنجة خشي ان يُغضب صلاح الدين ذلك، وسيَّر إلى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح ألا يؤذن لهم إلا بعد موافقته، وعلمت الإفرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا في الحج، فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة: مقدمون وسوقة وأمراء، وشرع السلطان في إكرام من يرد ومدّ الطعام ومباسطتهم ومحادثتهم، واعتذر للملك عن منعهم بأن هؤلاء الحجاج «قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم»[٣٧].

وهكذا كان السيف والكلمة الطيبة يتسابقان في حسم النزاع بين الشرق والغرب، أو بين صلاح الدين وقلب الأسد، وقد رأينا ان الكلمة الطيبة كانت أفعل في قلبي الرجلين الكبيرين، وأبعد أثراً في تسوية العلاقات بينهما، فما ان يعمد أحدهما إلى امتشاق السيف حتى يقابله الآخر بسلاح أقوى وعزيمة أمضى، وما ان يتقدم ريشارد إلى صلاح الدين بطلب مشفوع بكلمة طيبة حتى يجيب سؤله ويحقق طلبه، ويقابل البادرة الحسنة بأحسن منها. وقد كانت فرحة الفريقين بالصلح ومبادرة كل منهما إلى الاختلاط بالفريق الثاني، في مودة ومحبة وتسامح، دليلاً على ان المشاعر الإنسانية التي تأصلت جذورها في تربة السلام، أقوى وأبقى من المشاعر المفتعلة التي ارتجلتها عاصفة الحرب.

وقد استن صلاح الدين وقلب الأسد بذلك، سنّة اللجوء إلى المفاوضات السلمية لحل معضلات الحرب، وكان لهذه السنّة أثرها الحميد في مقبل الأيام.

---

(٣٥) الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٩٩؛ تاريخ سورية للمطران الدبس، ج٦، ص١٢٢.

(٣٦) النوادر السلطانية ص٢٢٨.

(٣٧) الفتح القسي ص٣١٧؛ النوادر السلطانية ص٢٢٩.

الفصل الثاني والعشرون

دينار واحد

أبحر ريشارد من عكا عائداً إلى بلاده عن طريق أوروبة البري في ٩ تشرين الأول (اكتوبر)، وفي عداد حاشيته مائة وعشرون شخصاً من مماليك صلاح الدين رغبوا في خدمة قلب الأسد[١].

وأراد الملك العادل أن يرافق ملك الانكليز، ليشاطره مخاطر السفر، ولكن ريشارد رفض ذلك شاكراً، واكتفى بأن يرافقه مصلي طبيب العادل الخاص.

إلا ان زعيم الحملة الصليبية الثالثة ما لبث ان غرقت سفينته، واستطاع ان يصل إلى الشاطىء سالماً، ثم توغل في أرض النمسا متنكراً، حتى اكتُشف أمره في إحدى الحانات بالقرب من مدينة فيينا في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١١٩٢، فاقتيد إلى ليوبولد دوق النمسا الذي اتهمه بقتل المركيز كونراد مونتفرات.

وأراد الدوق أن يبيعه فتقدم أعداؤه لشرائه[٢]، إلا انه ما لبث ان سلمه إلى هنري السادس امبراطور الدولة الجرمانية المقدسة فبقي في أسره حتى دفع فدية كبيرة. وقد حزن صلاح الدين لأسر ريشارد وأبدى استعداده لمؤازرته[٣].

---

(١) Grousset; Hist. des Croisades, III. p. 103.

(٢) تاريخ سورية للمطران الدبس، ج٦، ص ١٠٣.

(٣) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٢٩٩.

وقد أطلق سراح ريشارد قلب الأسد في آذار (مارس) ١١٩٤، وظل يقاتل خصومه من الأمراء حتى أصيب بسهم قاتل، فقضى نحبه في ٢٦ آذار عام ١١٩٩.

أما صلاح الدين الأيوبي فانه ما كاد يعقد معاهدة الصلح حتى أخذ يفكر في أداء فريضة الحج ويستعد للرحيل إلى الديار المقدسة، إلا انه ما لبث ان أرجأ ذلك إلى فرصة أخرى حين وافته كتب القاضي الفاضل من مصر، تنصحه بالانصراف إلى أعمال الدولة، ومعالجة المشكلات الداخلية التي تكاثرت بسبب الانصراف إلى الجهاد، فدَخْل الدولة الأيوبية وخَرْجُها في حاجة إلى تقدير وتعديل جديدين، وحصونها في حاجة إلى التحصين والذخيرة والجند، والثورات المحلية قد تعددت احتجاجاً على ظلم الأمراء الاقطاعيين وتسلطهم على الأهلين، والانقطاع لكشف مظالم الخلق أهم ما يتقرب به حاكم إلى الله(٤).

وعمل السلطان بنصيحة وزيره ومستشاره، فانصرف إلى انجاز تحصين القدس وأمر واليها عز الدين جرديك بإدارة الخنادق على المدينة كلها، وبإصلاح المسجد الأقصى وتعميره، وولى قضاءها وأوقافها للقاضي بهاء الدين، وولى علم الدين قيصر بلاد الخليل وغزة والداروم وعسقلان، وأمره بنقل الغلال من مصر إلى عسقلان والعمل على تنمية العمران والزراعة فيها.

ثم أنشأ يتجول في بلاد الشام، فنزل إلى نابلس فأزال عن أهلها ظلم الأمير سيف الدين المشطوب. ورحل إلى بيسان وأمر بتعمير قلعتها وتخريب قلعة كوكب، ومضى إلى طبرية فنزل في ظاهرها ولقي هناك الأمير بهاء الدين قراقوش. وبعد أن زار صفد، سار إلى جبل عامل وزار مرج تبنين وأوصى واليها بعمارتها، ومرّ بقلعة هونين وبمرجعيون. ثم وصل إلى بيروت في ٢٠ شوّال ٥٨٨هـ ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٩٢م، فاستقبله واليها عز الدين أسامة استقبالاً حافلاً، وزاره فيها بوهيمند صاحب انطاكية.

وانتقل السلطان بعد ذلك إلى دمشق وكان يحبها ويؤثر الإقامة فيها، فبلغها يوم الأربعاء في ٢٦ شوّال ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) بعد أن غاب عنها أربع سنوات، فاستقبلته استقبالاً عظيماً. وقضى فيها أربعة أشهر كانت سلسلة من الأعياد والأفراح، وكان يجلس

---

(٤) كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٠٥.

في أكثر أوقات فراغه بين أولاده الصغار وأصدقائه المقربين، وقد رفعت عنهم الكلفة وسادت المباسطة، فكأنه كان يودع أهله وأصحابه ومرابع شبابه وأنسه.

وفي فجر اليوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ ٤آذار (مارس) ١١٩٣م، توقف ذلك القلب الكبير عن الخفقان، بعد ستة أشهر فقط من إبرام معاهدة السلام، وهو في السابعة والخمسين من عمره، بعد ان ملك مصر نحو أربع وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة، غيّر خلالها الجغرافية السياسية والتوزيع السياسي في فلسطين وقضى على آمال رجال الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة في استرداد بيت المقدس، وحصر الصليبيين في شريط ساحلي ضيّق يقع بين يافا وانطاكية»[٥]، باستثناء صيدا وبيروت.

وقد وصف ابن شداد الساعات الأخيرة في حياته فروى ان في ليلة السبت السادس عشر من صفر، إثر عودته من استقبال الحجيج العائد من الديار المقدسة، شعر بتعب شديد وغشيته الحمى، فلما كان اليوم التالي حضر بهاء الدين ابن شداد والقاضي الفاضل وولده الملك الأفضل، وطال جلوسهم عنده، وأخذ يشكو من قلقه ليلاً، وطاب له الحديث إلى الظهر، ثم انصرفوا والقلوب عنده، ولما مدّ الطعام في الإيوان جلس الملك الأفضل مكان أبيه، فتشاءم كثيرون وغادروا الإيوان وبكى جماعة منه.

ثم أخذ المرض يتعاظم «وكان مرضه في رأسه، وكان من إمارات انتهاء العمر إذ كان قد ألف مزاجه سفراً وحضراً» فرأى الأطباء فصده ففصدوه في اليوم الرابع، فاشتد مرضه، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف «ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدة حرارته، وعُرض عليه ماء ثان فشكا من برده، ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات: «سبحان الله ألا يمكن أحداً تعديل الماء؟ فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدَّ بنا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: إبصر هذه الأخلاق التي أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو ان هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره!».

---

(٥) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٣٠٢.



صورة خيالية لصلاح الدين في العقد السادس

يقول ابن شداد: «واشتدَّ مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه. ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب، فاشتد الخوف في البلد، وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته. ولقد كنت انا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة إلى ان يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم نحضر في باب الدار فان وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا وإلا عرّفونا أحواله. وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا»(٦).

وقد توفي في اليوم الثاني عشر لمرضه، وكان قد فقد وعيه منذ اليوم التاسع، فكان يوماً مشهوداً لم يصب الاسلام بمثله منذ عهد الخلفاء الراشدين، حتى خيّل ان الدنيا كلها تبكي بصوت واحد. وتجهز الناس لدفنه، ووقفوا يبكونه بكاءً مراً، وانهم لفي بكائهم ونحيبهم، إذا بالقاضي يحمل في يده سيفاً وينزل به إلى قبر السلطان ويضعه إلى جانبه، ولا يزيد على ان يقول: «هذا تتوكأ عليه إلى الجنة!...»

وقد عبر الشعراء في رثائهم لصلاح الدين عن مشاعر العرب والمسلمين في هذا المصاب الفادح أصدق تعبير، ومن هذه المراثي قصيدة كبرى للعماد الأصفهاني في مائتين وإثنين وثلاثين بيتاً جاء فيها:

شمل الهدى والملك عم شتاته، ... والدهر ساء وأقلعت حسناته

أين الذي مذ لم يزل مخشية ... مرجوة رهباته وهباته

أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة، ولربه طاعاته

بالله اين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته؟

أين الذي ما زال سلطاناً لنا ... يُرجى نداه وتُتقى سطواته؟

أين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته؟

أين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلاً، ومنها أدركت ثاراته؟

أغلال أعناق العدا أسيافه، ... أطواق أجياد الورى مناته

---

(٦) النوادر السلطانية ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠.

لم يُجْدِ تدبير الطبيب، وكم وكم ... أجْدَتْ لطبِّ الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت ... بالنصر حتى أغمدت صفحاته
لذَّ المتاعب في الجهاد ولم تكن ... مذ عاش قطّ لذاته لذاتُه
مسعودة غدواته، محمودة ... روحاته، ميمونة ضحواته
في نصرة الإسلام يسهر دائماً ... ليطول في روض الجنان سباته
لا تحسبوه مات شخص واحد، ... فممات كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً ... أبدا إذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره ... لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس ينبش بعد ما ... أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف ... أقوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعضع من يضعضع ركنه ... أركاننا، وتهدنا هداته
ما كنت أعلم أن طودا شامخاً ... يهوى ولا تهوي بنا مهواته
ما كنت أعلم أن بحراً طامياً ... فينا يطم وتنتهي زخراته
بحر خلا من وارديه ولم تزل ... محفوفة بوفوره حفاته
من لليتامى والأرامل راحم ... متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت ... في ذكره من ذكره آياته!
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً ... رضوان رب العرش، بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فإن يغب ... تحضر لرحمة ربه سقياته
وكعادة البيت المقدس، يحزن الـ ... بيت الحرام عليه، بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه؟ ... من للجهاد ولم تعد عاداته؟
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من سلها وركوبها غزواته
وبسيفه صدأ الحزن مصابه ... إذ ليس يشفى بعده صدياته

يا وحشتا للبيض في أغمادها لا تنتضيها للوغى عزماته
يا وحشة الاسلام يوم تمكنت في كل قلب مؤمن روعاته
يا حسرتا من يأس راحته الذي يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه أسد وإنَّ بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى، فكأنما سنواته ساعاته!
لم أنس يوم السبت وهو لما به، بيدي السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول لله المهيمن حكمة في مرضة حصلت بها مرضاته
يا راعياً للدين حين تمكنت منه الذئاب وأسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعياً ديناً تولى مذ رحلت ولاته
أضجرت منا أن أنفت، فلم تكن ممن تصاب لشدة ضجراته
أرضيت تحت الأرض يا من لم يزل فوق السماء علية درجاته
فارقت ملكاً غير باق متعبا، ووصلت ملكاً باقياً راحاته
أعزز علي عيني برؤية بهجة الد نيا، ووجهك لا ترى بهجاته
أبني صلاح الدين إن أباكم ما زال يأبى ما الكرام أباته
لا تقتدوا إلا بسنة فضله لتطيب في مهد النعيم سناته

وشاع نبأ وفاته في أوروبة، فبهت الناس هناك لهذا النبأ، وطفقوا يؤلفون الكتب حول موته من خلال ما عرفوا عنه من أخلاق وشمائل، ومنها قصة صورت صلاح الدين وقد حضره الموت، فدعا إليه حامل العلم وأوصاه قائلاً:

«أنت الذي حملت رايتي في الحرب، وانت تحمل رايتي كذلك بعد الموت، فدعها تكون



خرقة بالية، وأحملها على رأس رمح طويل، وطف بها ربوع دمشق، وأدع جميع الناس لينظروا إليها، وقل لهم: ها هوذا ملك الملوك، مات ولم يأخذ معه سوى خرقة واحدة، هي الخرقة التي كفنوه بها، وإنها لبالية كهذه الخرقة التي بيدي، ومن جميع الممالك المترامية التي ملكها صلاح الدين، والكنوز الهائلة التي كانت في يده ورهن ارادته. لم يستطع أن يأخذ لنفسه أكثر من هذه الأذرع الثلاثة من نسيج الكتان لكفنه الذي لفوه به!»(٧).

ولا بدع ان يبكي العرب والمسلمون صلاح الدين الأيوبي، وهو الذي احتل باخلاقه وشمائله وجهاده وتضحيته، المكان الأسمى في قلوبهم، فكان موضع حبهم وتقديسهم ورمز عزتهم وفخارهم. وقلّ بين حكام المسلمين من احتل مثل هذه المكانة، ومن حظي مثله بإجماع المواطنين على الولاء له والتعلق به والثناء عليه. وقد رأينا ابن جبير في مواضع عدة من هذا الكتاب ينقل إلينا هذه العاطفة التي لمسها في كل بلد حلّ به خلال رحلته الشهيرة من المغرب إلى مصر فالحجاز والعراق فالجزيرة وبلاد الشام. ولعلّ أبلغ من ذلك كله ما سمعه في الحرم الشريف بمكة المكرمة إذ قام الإمام فصلّى على الرسول، ورضّى عن آله وأصحابه، ثم دعا للخليفة العباسي ولأمير مكة ولصلاح الدين الأيوبي. قال ابن جبير: «وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان:

وإذا أحب الله يوماً عبده ... ألقى عليه محبة الناس

وحُقّ ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم»(٨).

ويقول ابن جبير في مكان آخر: «وفي إثر كلّ صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمي في وسط قبة زمزم، ولها مطلع على أدراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا، رافعاً صوته بالدعاء للإمام العباسي أحمد الناصر لدين الله ثم للأمير مكثر أمير مكة، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن، ذي المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة، فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدّها القلوب الخالصة والنيات الصادقة. وتخفق الألسنة بذلك خفقاً يذيب القلوب خشوعاً لما وهب الله لهذا

---

(٧) صلاح الدين بطل حطين ص ١٦٠.

(٨) رحلة ابن جبير ص٧٣.

السلطان العادل من الثناء الجميل، وألقى عليه من محبة الناس، وعباد الله شهداؤه في أرضه»[٩].

ويصف ابن جبير زيارة شقيق صلاح الدين لمكة ودخوله إلى الحرم الشريف فيقول: «والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة الوافدين، والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع وأذهلت الأذهان»[١٠].

كل ذلك وصلاح الدين لم يكن قد خاض معركة حطين وحرر بيت المقدس، وسجل انتصاراته الباهرة على الصليبيين، ولكنه كان على كل حال قد بسط نفوذه على رقعة كبرى من العالم العربي، وأخضع لنفوذه جميع القادة والأمراء الحاكمين في هذه الرقعة:

وهذا ما يجعلنا نتساءل عن سر عظمة صلاح الدين، وسر محبة الناس له، وسر ذلك الإجماع المنقطع النظير على النظر إليه نظرة مفردة معجبة فيها كثير من التقدير والتقديس؟

ولا ريب في أن القارىء قد لاحظ اننا لم نحاول في هذا الكتاب إظهار المزايا العسكرية التي يتمتع بها صلاح الدين، بقدر ما عنينا بإبراز الملامح الإنسانية في شخصيته، لاعتقادنا بأن هذه الملامح هي التي كان لها الأثر الأول في حياته، وهي بالتالي سر عظمته وإجماع الناس على محبته وتقديره.

صحيح ان صلاح الدين خلال حكمه الذي استمر أربعاً وعشرين سنة، قد أمضى ست عشرة سنة في الجهاد، إلا انه حتى في ذلك المظهر من مظاهر حياته، لم يكن حاكماً يحشد الجيوش ويبعث بالقادة إلى غمرات القتال من أجل مزيد من المجد والسلطان والمتارف، وإنما جعل من نفسه رمزاً ومثلاً، وهجر في سبيل الهدف الذي جعل منه التاريخ واجبه الأول «أهله ووطنه وسكنه وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة»[١١]، وبذلك أعاد سيرة الأبطال العظام الذين يعايشون جنودهم ويشاركونهم مصيرهم.

---

(٩) المرجع السابق ص٨٠

(١٠) المرجع السابق ص١٢٤.

(١١) النوادر السلطانية ص١٦

لقد وثق الناس بصلاح الدين فأحبوه، وآمنوا بصدقه وتجرده وتضحيته فاجتمعوا حوله وهرعوا لنجدته، من حلب إلى عسقلان ومن الموصل إلى القاهرة والإسكندرية، ورأوا فيه أميراً من طراز جديد، بسط الإحسان لعدوه فأحبه عدوه، وفك قيد أسيره فقيّده بالعفو والرحمة، وعطف على شعبه فأشاع روح المحبة والمودة في قلوب الرعية، وارتفع بمستوى القادة والأمراء من وهدة التنابذ والتنازع والتذابح إلى صعيد التكاتف والتعاضد في سبيل هدف عظيم.

ولا ريب في انه كانت لصلاح الدين قدوة حسنة في نور الدين محمود الذي نشأ في ظله وتأثر بمدرسته، وقبس من رسالته، واعتبر نفسه وريثاً له، فقد كان نور الدين أول من وضع دعائم الوحدة الإسلامية في وجه العدوان الغربي، «ولم يلجأ نور الدين في تكوين هذه الوحدة إلى غدر أو خديعة، ولم يهبط بخلقه ودينه إلى ما كان يهبط إليه انداده ومعاصروه من سلاطين زمانه، إنما ظل طوال إيامه مسلماً فاضلاً شريفاً لا يكاد الإنسان يستدرك عليه شيئاً يمس الخلق والدين»[١٢].

وقد ازداد إحساس صلاح الدين بمسؤوليته التاريخية بعد وفاة نور الدين، وشعوره بالفراغ الذي تركه رحيله في بلاد الشام أمام الجيوش الفرنجية الغازية، فانتقل من طور إلى طور، وجعل نصب عينيه أن يملأ ذلك الفراغ، ويكمل رسالة نور الدين، ويحقق ما عجز عنه.

ويرى هاملتون جب انه كان على صلاح الدين بعد وفاة نور الدين الأخذ بأحد اسلوبين، الأول هو دمج الكيان الزنكي كله في دولة عسكرية قوية من الخارج، والثاني هو البناء على أسس الوحدة الاخلاقية التي وضعها نور الدين، وتقوية تلك الأسس إلى حد بالغ، بحيث يضطر الكيان الذي أقامه نور الدين إلى أن يخدم أهداف تلك الوحدة. وتدل المظاهر الخارجية الخالصة على أن صلاح الدين أخذ بالاسلوب الأول، والواقع ان سر نجاحه يرجع إلى أخذه بالأسلوب الثاني وتنفيذه[١٣].

وقد نفذ جب إلى أعماق الحقيقة عندما نسب الفضل في اتساع دولة صلاح الدين في آسية بين عامي ١١٨٢ و١١٨٦م، إلى مواقفه الخلقية أكثر من الأعمال العسكرية[١٤].

---

(١٢) صور من البطولة ص١٧٧.

(١٣) دراسات إسلامية، ص١٣٠.

(١٤) المرجع السابق ص١٣٧.

ويمكننا أن نعيد انتصاراته على الفرنجة إلى الأسباب نفسها التي أشار إليها جب. فان أعمال صلاح الدين الحربية أمام الموصل وحلب كانت أقرب إلى المظاهرات منها إلى الحصار، وكذلك كانت أعماله أمام عشرات الحصون التي استسلمت له بعد موقعة حطين. فان ثقة أمراء المسلمين، وأمراء الصليبيين فيما بعد، بخلق الرجل، جعلت الأولين يقدمون له الولاء طوعاً، ودفعت الآخرين إلى أن يطلبوا منه الأمان.

والواقع ان سر عظمة صلاح الدين ودعامة مجده، هي الأخلاق التي امتاز بها في وقت تفسخت فيه الأخلاق وانهارت القيم. وقد استعاض بقوة هذه الأخلاق الكريمة عن العبقرية العسكرية والدهاء السياسي. وكانت هذه الأخلاق تظهره أحياناً بمظهر البساطة والسذاجة، فيحاول الكثيرون استغلالها، ولكنها كانت تتغلب في النتيجة على الخديعة والمكر، وتتحطم تلك المحاولات على صخرة منيعة من الصفاء والوفاء ونبل الغاية والوسيلة معاً.

بالحب والصدق والتجرد، فرض صلاح الدين نفوذه العظيم، وأوجد بين المواطنين والأجناد والقادة ذلك الجو المؤاتي من الولاء الشخصي له، واستطاع ان يجند الجميع للنضال تحت لوائه دون ان يفرض عليهم أوامر ونواهي سلطان حقيقي. وفي ذلك العصر الذي كان اغتصاب السلطة الهدف الأول لكل ذي قوة، لم يفكر احد من أمرائه أو أقربائه أو قواده في منافسته أو الخروج عليه او انتزاع السلطة منه. وكان يكفي ان يراه الجبان حتى يتشجع، والمتردد حتى يقدم، والعاصي حتى يعود إلى الطاعة، لأنه كان يعطي المثل بنفسه سلوكاً وعملاً.

ولم يكن يعاملهم على انه سيد الدولة، بل كان يقف أمامهم بوصفه رجلاً أمام الرجال، لا فرق بين واحد وآخر إلا بمقدار حظه من الرجولة والنبل والطيبة التي استعاض بها عن ابهة الملك وهيبة السلطان.

وكان طاهر المجلس لا يُذكر بين يديه إلا الخير، وطاهر اللسان لا يشتم ولا يعنف ابداً، وطاهر القلب لا يفكر إلا في مصلحة قومه وبلاده، حليماً لا يثور وسمحاً لا يغضب. روى تاج الدين شاهنشاه بن ايوب ان أحد الخدم رمى آخر بحذاء فتجاوز حتى وصل إليه، فأدار وجهه للناحية الأخرى حتى لا يحرج ذلك الخادم[١٥]. وكان إذا عرضت عليه القصص

---

(١٥) ذيل النوادر ص٠ ٣١.

ازدحم الناس من حوله حتى يطأوا طراحته وهو لا يتأثر. وقد عُرف بالعطف علي كل ضعيف ولا سيما الشيوخ والنساء والأطفال، يقف في الفتوح على مفارق الطرق باحثاً عن فقير يؤويه، أو محتاج يقضي حاجته، أو عاجز يعفيه من فدية يعجزه الحصول عليها.

وفي عصر الترف والبذخ والإسراف، تميز صلاح الدين من بين ملوك عصره، بالبساطة والبعد عن أبهة الملك، فلم يكن يحب السكنى في القصور، وكان يرتدي الملابس المصنوعة من الكتان والقطن والصوف[(١٦)]. وكان يعتبر نفسه واسرته خزنة المسلمين وحراساً لأموالهم لا أسياداً عليهم، وقد ولى ابنه الظاهر حلب، فغفل وتلهى، وشغف بالملك وأحبه، فخاف صلاح الدين ان يسد عليه حبه للمنصب والجاه أبواب الذكاء والفطنة وحسن الخدمة، فعزله عن ولاية حلب وأرسل مكانه أخاه العادل[(١٧)]، وطلب منه الملك العادل أن يكتب له في إقطاع حلب كتاباً ككتاب البيع والشراء، فامتنع وقال له: «أظننت ان البلاد تباع، أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة المسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم»[(١٨)]. ورفض إعفاء أخيه من مال يحمله إلى خزينة الدولة، وجند يرسله إلى ميدان القتال.

وكان بعض أولاده الصغار يرافقونه في إحدى المعارك، فأرادوا أن يأذن لهم بقتل أحد الأسرى، فغضب وزجرهم عن ذلك، لئلا يعتادوا على سفك الدماء ويهون ذلك عليهم[(١٩)].

وقد أوصى الملك الأفضل كبير أولاده قبيل وفاته بالوصية التالية: «أوصيك بتقوى الله تعالى فانها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك، واحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فان الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم فأنت اميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر فيما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقي على

---

(١٦) حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٦.

(١٧) النوادر السلطانية، ص٥١.

(١٨) كتاب الروضتين. ج٢. ص٥٢.

(١٩) النوادر السلطانية، ص١٤٢.



صلاح الدين في مجلسه

أحد، وأحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يُغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله بتوبتك فانه كريم»[٢٠].

وقد أجمل بروكلمان عدداً من صفاته ومزاياه بقوله: «وليس من شك في ان قلة ضئيلة من أمراء الإسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن إيما نزعة إلى الكسب الشخصي، ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعاياها ليس غير، ولم يستطع اعداؤه أنفسهم إلا الإقرار له بالشهامة والنبل في معاملة الخصم المغلوب. ليس هذا فحسب، فقد كان صلاح الدين بالإضافة إلى ذلك كله نصيراً للعلم»[٢١].

لقد كان يجمع أهل العلم والرأي لكل أمر، ثم يلتزم مشورتهم ويتقيد بها. وكان العلماء يشاركون في الجهاد إما بقيامهم بتذكير الجند بقصص البطولة عند أبطال الإسلام السابقين، وإما بالاشتراك الفعلي في القتال وقد ملأ مملكته بالكليات والمستشفيات والمدارس المجانية، لم يؤثر فيها أقليماً على اقليم، ولا يكاد يفتح مدينة حتى يؤسس فيها المعاهد والمرافق ويبني الجسور ويتعهد الترع. وكانت اخته ست الشام بنت ايوب تصنع الأشربة والأدوية والعقاقير كل سنة بألوف الدنانير وتفرقها على الجرحى والمرضى من المدنيين والعسكريين. وكان عدد العلماء والأدباء في مجلسه أكثر من عدد القواد ورؤساء الأجناد، وقيل ان رواتب العلماء في سورية كانت تتجاوز في عهده مائتي ألف دينار، وقد مرَّ به رجل منهم وانصرف بعد لقائه، ومضى على ذلك ليال وسأل السلطان عنه فقيل: انه سافر؛ فظهرت على وجهه إمارات العتاب وقال: «كيف يتركنا هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا!».

وجعل نصب عينيه القضاء على المظالم، فردَّ الحقوق إلى ذويها، وأزال الضرائب الجائرة، ومنع الرشوة وعاقب من يرتكبها أشد عقاب، وضرب على أيدي اللصوص، وتفقَّد أحوال الناس، وفتح أبوابه لطلاب الحاجات، وجلس بنفسه للنظر في المظالم في حربه وسلمه وسفره وحضره، فلا يعترض مجلسه حاجب أو وزير ولا يستغيث به أحد إلا أغاثه، ولا يحابي في الحق وان كان على أهله أو على نفسه.

---

(٢٠) المرجع السابق ص ٢٤١.

(٢١) تاريخ الشعوب الإسلامية، ج٢، ص٢٣٢.

ويحكى ان مواطناً من أهل دمشق يدعى ابن زهير، حضر ليشكو ابن أخيه تقي الدين، فأمر بحضوره في مجلس المحاكمة، وأخذ لابن زهير من ابن أخيه وكان هذا من أحب الناس إليه وأعزهم عنده[٢٢].

وروى ابن شداد انه كان يوماً بمجلس الحكم في بيت المقدس، فدخل عليه شيخ حسن الهيئة يسمى عمر الخلاطي، وهو من التجار المعروفين، وكان بيده كتاب حكميّ، فسأل ابن شداد أن يفتحه، فقال له ابن شداد: من خصمك؟ فقال: خصمي السلطان، وهذا بساط العدل، وقد سمعنا انك لا تحابي.

فقال ابن شداد: وفي أي قضية هو خصمك؟ فقال: ان سنقر الخلاطي كان مملوكي، ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها، واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها! فقال ابن شداد: يا شيخ، وما أقعدك إلى هذه الغاية؟ فقال: ان الحقوق لا تبطل بالتأخير، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات.

فأخذ ابن شداد الكتاب منه، وتصفحه فوجده يتضمن حلية سنقر الخلاطي، وانه قد اشتراه فلان التاجر بأرجيش في يوم كذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما.

فتعجب ابن شداد من هذه القضية، وذكر للتاجر انه لا يصح سماعها من غير وجود الخصم، وانه سيعرفه بها ويعرفه بما يقوله فيها، فرضي بذلك وانصرف.

ثم اتفق ان مثل ابن شداد بين يدي صلاح الدين في ذلك اليوم، فذكر له قصة ذلك التاجر، فاستبعدها استبعاداً شديداً، وسأله: هل نظرت في الكتاب؟ فقال له: نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق، وقد كتب عليه «كتاب حكمي من دمشق» وشهد به على يد قاضي دمشق شهود معروفون. فقال: نحن نُحضر الرجل ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع.

ومضى على هذا أيام كان التاجر يتردد فيها على ابن شداد: ويطالبه بالنظر في دعواه، ثم اتفق أن جلس ابن شداد مع صلاح الدين في خلوة، فقال له: هذا الخصم يتردد عليّ ولا

---

(٢٢) صلاح الدين الأيوبي للرمادي ص٩٤.

بدّاً ان تُسمع دعواه! فقال: أقم عني وكيلاً يسمع الدعوى، ثم يقيم الشهود شهادتهم، وأخّر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل ها هنا.

فذهب ابن شداد ففعل ما أشار به صلاح الدين، ثم عاد إليه، فأمر بإحضار الرجل إلى مجلسه، فلما حضر استدناه حتى جلس بين يديه، وكان ابن شداد إلى جانبه، فنزل صلاح الدين من طراحته حتى ساوى الرجل، ثم قال له: ان كان لك دعوى فاذكرها.

فقام الرجل فذكر دعواه على نحو ما ذكره ابن شداد، فقال له صلاح الدين: ان سنقر هذا كان مملوكي، ولم يزل على ملكي حتى اعتقته، وتوفي وخلف ما خلفه لورثته. قال الرجل: لي بيّنة تشهد بما ادعيته. ثم سأل ابن شداد أن يفتح كتابه، ففتحه فوجده كما ذكر.

فلما سمع صلاح الدين التاريخ قال: عندي من يشهد أن سنقر في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر، وإني اشتريته مع ثمانية انفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة، وانه لم يزل في يدي وملكي إلى أن اعتقته.

ثم استحضر جماعة من الأمراء المجاهدين، فشهدوا بذلك، وذكروا القصة كما ذكرها وحددوا التاريخ كما حدده، فأبلس الرجل حين ظهر كذب دعواه.

فقال ابن شداد: يا مولاي، هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان، وقد جاء من خلاط في طمع، ونفدت نفقته، وما يحسن ان يرجع خائب القصد. فقال صلاح الدين: يا قاضي، هذا إنما يكون على غير هذا الوجه. ثم أمر له بنفقة وخلعة(٢٣).

وكان صلاح الدين ينفق كل ما في يده في وجوه الخير والإحسان، وقد بلغ من فرط كرمه وزهده انه لم يكن لديه مال يتزكى به، ولما توفي لم يترك وراءه ـ وهو الذي وضع يده على كنوز الدولة الفاطمية وكانت مملكته أغنى ممالك الشرق ـ داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا مزرعة، ولم يخلف سوى سبعة وأربعين درهماً ودينار ذهبي واحد(٢٤).

وكان يحترم عقائد الناس، ويوسّع لهم في الحرية ما استطاع، ويولي المسيحيين

---

(٢٣) النوادر السلطانية ص١٠٠ ـ ١٠٢؛ القضايا الكبرى في الإسلام، ص٣٠٦ ـ ٣٠٩.

(٢٤) السلوك، ج١، ص١١٣ ـ ١١٤؛ المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٩١؛ النوادر السلطانية، ص١٣؛ ذيل النوادر ص٢١٠.

واليهود العرب المناصب التي يستحقونها. ولعل أكبر صفاته وأنبل مزاياه، انه لم يكن مغرماً بقتل أعدائه أو إذلالهم، فكان يسرع إلى العفو والتسامح إذا مدوا له يد الود أو طلبوا منه الأمان، سواء أكانوا من المسلمين أم من الصليبيين، وقد رأينا انه لم يقتل أحداً من أمراء الفاطميين، وهو أمر نادر في ذلك الزمان حين كانت تنهض دولة على انقاض دولة.

ولم يبطره الظفر يوماً بل كان يزيده مروءة وتسامحاً ورحمة بالانسان، وان لم يكن من دينه وجنسه، وقد يضيع جنده كرامة الانتصار وعظمته، فيعيثون فساداً وخراباً، وهو يشتد في ردعهم وضبطهم.

وقد أعطى صلاح الدين الغرب، بعدله ورحمته وتسامحه، صورة جديدة للإسلام، فزالت تلك الروح العدائية القديمة التي حملت الصليبيين إلى الشرق سنة ١٠٩٦، حتى غدا ملك الإنكليز يقترح كما رأينا زف شقيقته إلى أحد أمراء المسلمين.

ويلاحظ الاستاذ نقولا زيادة ان الصليبيين كانوا في السنين الأولى من القرن الثاني عشر قد عللوا عظمة عماد الدين زنكي بأن جعلوه ابن الكونتيس ايدا التي اشتركت في الحملة الأولى، وفي زمن الحملة الثانية اعتقدوا ان قلج ارسلان من نسل جرماني شريف، ولكن بعد ان ذاعت شهرة صلاح الدين ظهرت اسطورة تعلل عظمة توماس بكت أحد مشاهيرهم بجعله ابناً لأم عربية(٢٥).

وهكذا تثبت سيرة صلاح الدين الأيوبي ان القوة لا تصنع البطولة إذا لم تقترن بالمروءة ومكارم الأخلاق.

فيا سيرة صلاح الدين علمينا مناقب الأبطال!.

(٢٥) مجلة المقتطف عدد يوليو ١٩٤٥.

الجزء الثالث

خلفاء صلاح الدين

● كان القرن الثاني عشر أعظم عصور الحملات الصليبية، أما تاريخ الدول اللاتينية في سورية في القرن الثالث عشر فيعتبر عادة خاتمة. ومنذ عام ١١٠٨م، أصبحت الحروب ضد الكفار والهراطقة تعتبر في نظر معظم البابوات أهم من الحروب ضد المسلمين.

جون لامونت

● ولم يكن حصول أحد الأمراء المسيحيين المتخاصمين على تأييد من المسلمين ضد الجانب الآخر، بأغرب من فوز بعض المسلمين بالتأييد من بعض النصارى ضد مسلمين آخرين.

فيليب حتي

● فالصلات الودية والعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين كل من المسلمين والنصارى قبل استيطان اللاتين لشقة الشام الساحلية، لم يكن يستطاع قطعها، ولم تنقطع كلية بعد ان فتح الصليبيون جانباً من هذه البلاد.

جون هامرتن

● وعندئذ ظهرت بوادر مميزات العصر الجديد التي لا تؤيد روح الحروب الصليبية الجامحة، ولا روح الالتجاء إلى الجهاد الديني عند المسلمين، وتعد كلتاهما من بقايا عهد غبر!

جورج كيرك

الفصل الثالث والعشرون

حملة صليبية على دولة مسيحية

يرى الدكتور فيليب حتي ان التقسيم التقليدي للحركة الصليبية إلى عدد معين من الحملات، لا يخلو من تكلف وافتعال، لأن سبل الامدادات كاد يكون متواصلاً، فالخط الواصل بينها لا يبدو بجلاء(١). وفي هذا الرأي كثير من الصحة، إذ ما كانت لتنقضي سنة واحدة من القرن الثاني عشر، دون أن ترد إلى الشام وفود من الحجاج المتحمسين، غير ان تلك الوفود ما كانت تأتي للحرب قصداً، ولكنها كانت إذا وجدت الحرب قائمة اشترك فيها القادرون من رجالها وشبابها. وكذلك كانت الامدادات العسكرية تتوالى من جميع أنحاء أوروبة لنصرة الامارات اللاتينية في الشرق، ولكن التاريخ لا يعتبر هذه الامدادات الجانبية حملات جماعية منظمة اشتركت فيها دول أوروبية متعددة، ولهذا فهو لا يسلكها في عداد الحملات الصليبية الكبرى.

وفي ذلك التقسيم التقليدي للحركة الصليبية، تأتي بعد حملة الملوك التي انتهت زعامتها إلى ريشارد قلب الأسد، الحملة الرابعة التي تكشف أكثر من الأعمال العدوانية التي تعرضت لها المدن المسيحية في البلقان التي مرت الحملات الصليبية السابقة ـ عن الأسباب الحقيقية والدوافع الخفية لتلك العاصفة الهوجاء من الصراع الدامي بين الغرب والشرق خلال قرنين كاملين.

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص٢٣٤.

فقد تولى سدة البابوية سنة ١١٩٨م، ٥٩٥هـ انوسنت الثالث، وهو احد الشخصيات البارزة في القرون الوسطى، وكان من المشاريع التي أعدها وسعى إليها، استعادة ما انتزعه صلاح الدين الأيوبي من أملاك الدولة اللاتينية في فلسطين ولا سيما بيت المقدس. وقد بعث برسله إلى دول أوروبة لدعوة ملوكها إلى المشاركة في حملة صليبية جديدة، وأرسل الدعاة لإثارة الحماسة لهذه الحملة في الأوساط الشعبية.

وقد حالت المشكلات الخاصة التي كانت تستغرق اهتمام كل من ملوك أوروبة، دون مشاركته في هذه الحملة، إلا أن أمجادها اجتذبت معظم الأمراء والفرسان البارزين في فرنسة وانكلترة وألمانية وهولندة وصقلية، وفي مقدمتهم بلدوين التاسع أمير فلاندر وأخوه هنري، وبونيفيس دو مونتفرات وثيبوت الثالث أمير شمبانيا ولويس أمير بلوا.

ورأى قادة الحملة ان تكون وجهتهم مصر، حتى إذا ما استولوا عليها ولّوا وجوههم شطر فلسطين واحتلوا بيت المقدس، واتفقوا مع قادة البندقية على أن تقوم بنقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرين ألف جندي على مراكبها إلى شواطىء مصر، وان تطعم هؤلاء الجنود والفرسان، على أن يدفع الصليبيون لها مبلغاً معيناً من المال، وان تُقسم الغنائم في المستقبل بينها وبينهم.

وتجمعت الحملة في البندقية خلال شهري تموز (يوليو) وآب (أغسطس) من سنة ١٢٠٢م ٥٩٩هـ، لكن الصليبيين عجزوا عن دفع المبلغ المتفق عليه، ولم يتمكنوا من دفع نصفه. وكانت مدينة زارة الهنغارية تنافس البندقية منافسة تجارية شديدة، فانتهز قادة البندقية هذه الفرصة واقترحوا توجيه الحملة إلى مدينة زارة على الشاطىء المقابل للبحر الادرياتي، وانتزاعها من ملك هنغارية وتسليمها للبندقيين ثمناً لنقل الحملة فيما بعد إلى مصر[٢].

واستجاب الصليبيون للطلب، ومضوا إلى زارة وحاصروها، وعبثاً حاول أهلها إظهار شعائر المسيحية على الأسوار لردع الصليبيين عن محاربة أبناء دينهم[٣]. فقد هاجم الصليبيون المدينة ونهبوها[٤]. ثم قدموها للبندقية لقمة سائغة.

---

(٢) لم تكن البندقية مستعدة أصلاً لمعاداة المسلمين في مصر لما صار لها من مصالح اقتصادية وجاليات واسعة في الاسكندرية ودمياط (انظر الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٢١ ـ ٩٣٢).

(٣) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص١٧٦.

(٤) L'Eglise et l'Orient, p. 156 _ 157

وحدث في ذلك الوقت نفسه أن أفلت اليكسي ابن الامبراطور اسحق انجيلوس من السجن الذي كان قد زجه فيه عمه اليكسي الثالث الذي اغتصب الحكم من أخيه اسحق بعد ان سمل عينيه واعتقله مع ابنه، ورفض كنية عائلته وتسمى اليكسي الثالث كومنينوس. فتبنى الصليبيون والبنادقة قضية اليكسي انجيلوس المطالب بعرش أبيه، مع ان اسحق انجيلوس كان خصماً صريحاً للحملة الصليبية الثالثة، ووجهوا الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية. وكان البندقيون ينتظرون مثل هذه المناسبة للثأر من القسطنطينية التي حرمتهم من امتيازاتهم التجارية.

يقول الدكتور اسد رستم: «وقد اختلف رجال الاختصاص في أسباب تحول الصليبيين عن مصر وفلسطين إلى القسطنطينية. فقام في السنة ١٨٦١م[٥]، ماس لاتري الافرنسي يتهم البندقية وشيخها بالوصول إلى تفاهم سري سابق مع سلطان مصر لتحويل هذه الحملة عن أراضيه وأيد قوله كارل هويف الألماني فحدد تاريخ هذه المعاهدة السرية، وجعله في الثالث عشر من أيار سنة ١٢٠٢»[٦].

وكان اليكسي انجيلوس قد جاء إلى روما يستنجد البابا على قضيته. ثم اتجه شطر المانية يستعين بشقيقته ايرينه زوجة الامبراطور فيليب سوابيه، فرجت ايرينه زوجها في ذلك وألحت عليه، فأرسل وفداً إلى زارة يرجو البندقيين والصليبيين مساعدة الأمير الطريد. ورحل اليكسي بنفسه إلى زارة طالباً المعونة، مقابل وعده بدفع مبلغ كبير من المال، واستعداده لادخال البيزنطيين الارثوذكس في طاعة البابا وإلحاق الكنيسة الشرقية بالكنيسة الغربية.

إلا أن الأمر كان في واقعه، كما يقول جون هامرتن، مجرد صفقة كفلت لرجال الحرب من جهة وأصحاب السفن من جهة أخرى، ان يشتركوا سوياً في ما يمكن ان تجلبه من أموال وأرباح[٧].

والواقع ان الرخاء العظيم الذي كانت تتمتع به الدولة البيزنطية كان وبالاً عليها، لأنه

---

(٥) Vie et Mort de Byzance. p. 366

(٦) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص١٧٧؛ انظر أيضاً: الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٢٣؛ Heyd; Hist. du Commerce, I. p. 401 _ 404

(٧) تاريخ العالم، ج٥، ص١١٧.

أثار مطامع الآخرين فيها، وانتهت تلك المطامع بضياعها. ويقول نورما بينز: «إذا نظر الإنسان إلى الحروب الصليبية من وجهة نظر الامبراطورية الإغريقية، لا يسعه إلا أن يتبين ان هذا المجهود العظيم الذي بذلته المسيحية لتخليص قبر المسيح، إنما كان شره على الدولة أكثر من خيره، فهذه الحروب قاربت بين عالمين عاجزين عن التفاهم هما بيزنطية والغرب»، فكانت النتيجة ان زادت في حدة الضغائن وأسباب الكراهية بينهما، وأطلعت كذلك أهل الغرب، والبندقيين منهم خاصة، على غنى الدولة والميادين التجارية الفسيحة التي تضمها، فأثارت بذلك نيران الطمع(٨)».

وفي آخر حزيران سنة ١٢٠٣م، ٦٠٠هـ، ظهر اسطول الصليبيين أمام أسوار القسطنطينية، ونزلوا بالقرب من غلطة، وقطعوا السلاسل الحديدية التي تحمي مدخل القرن الذهبي، فدخلت مراكب البندقيين وأحرقت المراكب البيزنطية. ثم اقتحم الفرسان الصليبيون أسوار العاصمة، واستولوا على المدينة، وفر اليكسي الثالث بخزينة الدولة وجواهرها، وأطلق سراح اسحق الثاني وأعلن ابنه شريكاً له في الحكم باسم اليكسي الرابع.

وطالب الصليبيون ودندولو شيخ البندقية، الحاكمين الجديدين بدفع المال المتفق عليه، فاستمهلهم اليكسي الرابع ورجاهم ان يقيموا خارج أسوار العاصمة. واسخط البيزنطيون على اللاتين الفاتحين، واتهموا اسحق وابنه بالخيانة. ونهض اليكسي دوقاس صهر اليكسي الثالث في أوائل سنة ١٢٠٤م ٦٠١هـ، يدعو إلى الثورة، فتبعه الشعب، وقضى على اسحق وابنه. ونودي بقائد الثورة امبراطوراً باسم اليكسي الخامس.

وكان واضحاً ان الثورة لم تكن موجهة إلى اسحق انجيلوس وابنه اليكسي الرابع، بقدر ما كانت موجهة إلى التدخل اللاتيني في شؤون الدولة البيزنطية، ووجود الصليبيين والبندقيين في أراضيها. فما لبث هؤلاء ان اتفقوا في آذار سنة ١٢٠٤م ٦٠١هـ، على احتلال العاصمة من جديد، واقامة حكومة لاتينية فيها، واقتسام الغنائم في ما بين الطرفين، وتأليف لجنة من ستة بندقيين وستة فرنسيين تتولى انتخاب امبراطور «يحكم لمجد الله ومجد الكنيسة الرومانية المقدسة ومجد الامبراطورية»(٩)، على ان يحكم هذا

---

(٨) الامبراطورية البيزنطية، ص٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٩) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص١٧٨.

الامبراطور ربع العاصمة وربع الدولة التابعة لها، ويوضع بتصرفه قصران من قصور العاصمة، ويُقسم ما بقي من العاصمة وأراضي الدولة مناصفة بين البندقية وسائر الصليبيين.

وحاصر الصليبيون القسطنطينية، فما هي إلا أيام قليلة حتى فر اليكسي الخامس «فتدفقوا إليها في الثالث عشر من نيسان سنة ١٢٠٤م ناهبين. واشترك في أعمال النهب الفظيع الجنود الصليبيون وفرسانهم والرهبان اللاتينيون ورؤساؤهم. وشمل هذا النهب كنيسة الحكمة الالهية، وغيرها من كنائس العاصمة وأديارها، كما قضى على عدد كبير من أثمن المخطوطات»[١٠].

لقد «نسي الفرنجة انهم فتحوا بلداً مسيحياً، وانهم اقتحموا أكبر مركز ظل يحمل لواء المسيحية في الشرق طوال تسعة قرون، فانساحوا في طرقات المدينة وشوارعها كالجراد المنتشر، يقتلون من صادفهم من الرجال والنساء والاطفال، فلم يقع بصرهم على تحفة أو ثروة إلا نهبوها، ولم يتركوا اثراً فنياً أو أدبياً إلا أفسدوه ودمروه، فشبع منهم من كان جائعاً، واغتنى من كان فقيراً. حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من عبث الصليبيين ولم تنج من أيديهم، وهم الذين حملوا إشارة الصليب لخدمة المسيحية ومحاربة المسلمين. وقد تمنى شاهد عيان اسمه نقتاس حونياتس ان لو كانت العاصمة البيزنطية سقطت في يد المسلمين بدلاً من سقوطها في أيدي الصليبيين، وذكر ان المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس لم يفعلوا بالمسيحيين والبيوت المسيحية مثلما فعله الصليبيون بأهل القسطنطينية وكنائسها»[١١].

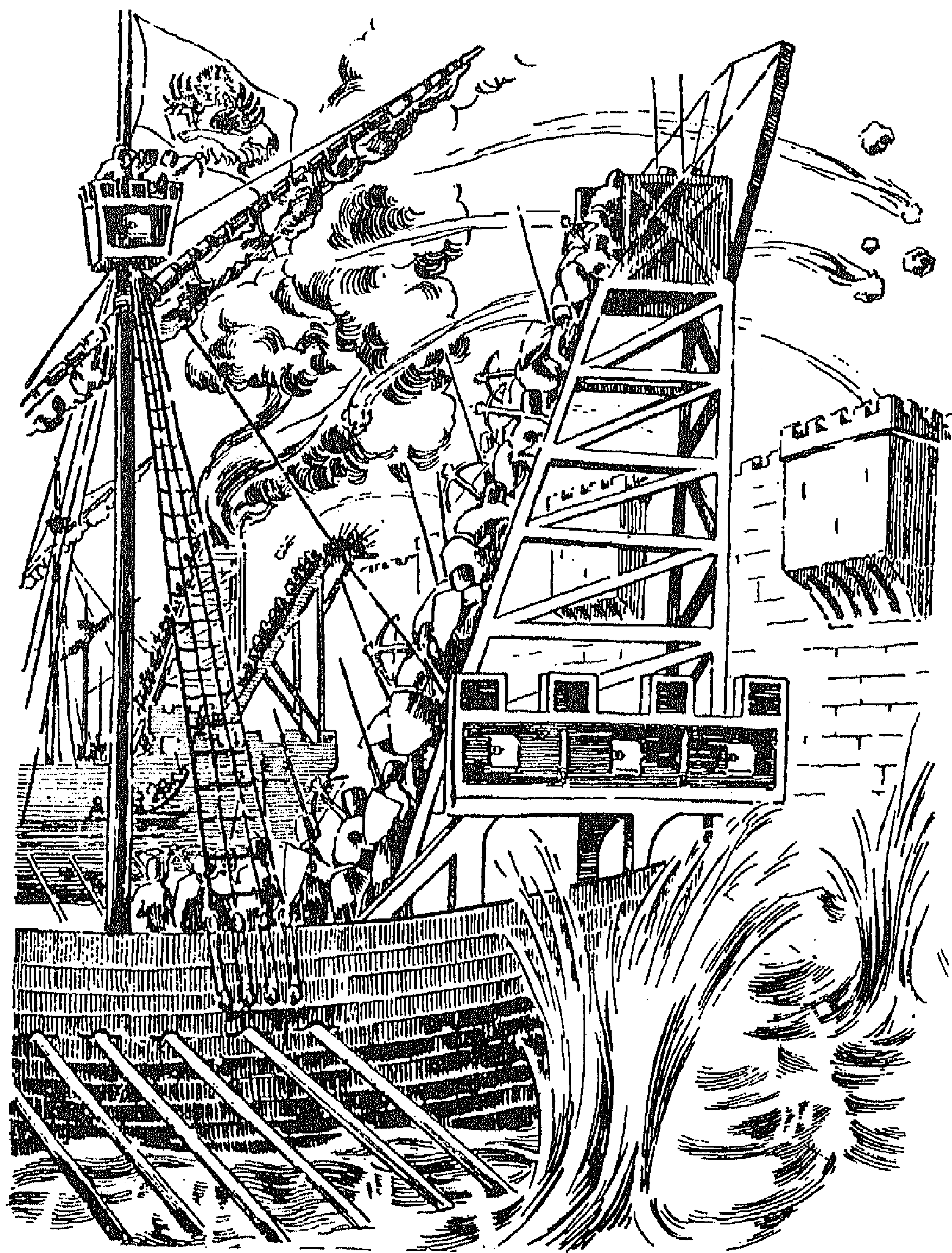
ويقول ابو شامة: «وفي شهور هذه السنة تغلبت طائفة من الفرنج البحرية بالبنادقة على قسطنطينية، وأخرجوا الروم منها بعد حصار وقتال، وحازوا مملكتها وانتهبوا ذخائرها وما حوته كنائسها من آلات ورخام، وحملوا إلى الديار المصرية والشامية، فبيع ووصل منه إلى دمشق رخام كثير، وكان أسامة يعمر داره فحصّل منه شيئاً لم يكن قبله مثلها»[١٢].

---

(١٠) المرجع السابق، ج٢، ص١٧٩.

(١١) الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٣٥ نقلاً عن: Runciman; Hist. of the Crusades. II. 123 & Hist. of the Byzantine Empire. II. 461

(١٢) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٨٠.



وقد انتخب بلدوين التاسع كونت فلاندر امبراطوراً على القسطنطينية، ثم قسمت الدولة البيزنطية، فتولى الامبراطور على خمسة أثمان العاصمة وعلى الأراضي التي تاخمت المضيقين وبحر مرمرة وعلى بعض جزر الأرخبيل الكبرى. واستولى مركيز مونتفرات على تيسالونيكية وما جاورها من أرض مقدونية وعلى تيسالية. ونال دندولو شيخ البندقية حصة الأسد، فاستولى على حي كبير من القسطنطينية ليمارس فيه البندقيون نشاطهم التجاري، كما استولى على ديراتزو وغيرها من النقاط المهمة في ساحل الادرياتيك الشرقي، واحتل كورفو وغيرها من جزر مداخل هذا البحر وبعض الأماكن في شبه جزيرة المورة وجزيرة اقريطش، وبعض المرافىء على شاطىء تراقية وغاليبولي، وثلاثة أثمان القسطنطينية. واتخذ دندولو لنفسه بهذه المناسبة لقب دسبوتس ولقب «سيد الربع ونصف جميع امبراطورية رومانية»، وظل خلفاؤه في البندقية يستعملون هذا اللقب حتى منتصف القرن الرابع عشر، وتسلم اكليروس البندقية كنيسة الحكمة الالهية، وأقاموا توما موروسيني بموافقة البابا بطريركاً على الكنيسة الكاثوليكية في الامبراطورية الجديدة، فكان أول كاهن كاثوليكي يتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية. واتخذ مركيز مونتفرات لنفسه لقب ملك، وزحف إلى أثينة فاحتلها، وجعل منها ومن ثيبة دوقية، وحوّل كنيستها الكاتدرائية في قلب البارتينون إلى كنيسة لاتينية(١٣).

وهكذا قامت في بيزنطية امبراطورية لاتينية على أساس إقطاعي، شبيهة بالمملكة التي أسسها الصليبيون في القدس أثناء الحملة الصليبية الأولى، وقسمت أراضيها إلى عدد من الاقطاعات، وأقسم أمراء هذه الاقطاعات يمين الولاء والطاعة للامبراطور. وكتب الامبراطور بلدوين التاسع إلى البابا ينبئه بفتح القسطنطينية وبارتقائه عرشها «بنعمة الله» مؤكداً خضوعه للسدة البابوية. فأجابه البابا «متهللاً بالرب لتمجيد اسمه بالأعجوبة التي تمت فشرفت العرش الرسولي وشعب المسيح»، وطلب إلى جميع الاكليروس وجميع الملوك والشعوب أن يؤيدوا الامبراطور الجديد. إلا انه كتب في الوقت نفسه إلى بعض قادة الصليبيين يلومهم على ما اقترفوه في القسطنطينية، ويظهر أسفه لأنهم آثروا كنوز الدنيا على كنوز الآخرة «ولم يوقروا الدين ولم يحترموا العمر او الجنس»(١٤).

---

(١٣) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص١٨٠.

(١٤) المرجع السابق، ج٢، ص١٨١.

وليس هنا مجال الحديث عن الامبراطورية اللاتينية التي أنشأها الصليبيون في القسطنطينية، والإمارات التي أقاموها في تيسالونيكية، وآخية، وآثينة وثيبة، وما ألحقوه من الجزر والمواقع الاستراتيجية بامبراطورية البندقية. ونكتفي بالقول ان تلك الامبراطورية قد استمرت من سنة ١٢٠٤ إلى ١٢٦١م (٦٠١ ـ ٦٦٠هـ)، وعبثاً حاول اللاتينيون خلال ذلك إخضاع الشعب البيزنطي وإلحاق الكنيسة الشرقية بكنيسة الغرب.

فقد تجمعت المقاومة في بقاعٍ بيزنطيّة متعددة أهمها نيقية حيث تأسست أسرة مالكة جديدة بدأت بتيودور الأول الذي عرف بنضاله ضد الصليبيين في عهد اليكسي الثالث الذي كان السبب في دخولهم إلى القسطنطينية وتمكنهم فيها، وانتهت بيوحنا الرابع الذي ورث الملك وهو في العاشرة من عمره، فاستطاع ميخائيل باليولوغوس ان يدس للوصي عليه من يغتاله، ثم يعلن نفسه وصياً عليه، ثم يتوج نفسه بدلاً منه.

ثم نهض ميخائيل لمحاربة الفرنجة في غير موقع من المواقع البيزنطية التي استولوا عليها، وبينما كان قائد جيشه اليكسي استراتيغولوس يمرّ بغاليبولي في طريقه إلى الحدود البلغارية على رأس ثمانمائة جندي، انضم إليه كثير من المتطوعين البيزنطيين ودعوه للمسير إلى ضواحي القسطنطينية مؤكدين له ان حاميتها الافرنجية خرجت لتحارب بعيداً عنها، فخشي القائد سوء العاقبة، ولكن أحد أبناء العاصمة خرج في مساء ذلك اليوم من سرداب في بيته إلى خارج الأسوار، وأدخل معه خمسين جندياً، فتمكن هؤلاء من الاستيلاء على أحد أبواب المدينة، فدخل الجند جميعهم في الخامس والعشرين من تموز (يوليو) سنة ١٢٦١م (٦٦٠هـ)، وأعلنوا عودة الدولة البيزنطية، ونادوا بميخائيل باليولوغوس امبراطوراً عليها، فانضم إليهم أفراد الشعب، ولاذ الفرنجة بالفرار. وانتقل الامبراطور الى القسطنطينية، وأعاد إليها شعائر الارثوذكسية وأحبار المذهب الارثوذكسي.

وهكذا اندثرت الامبراطورية الرومانية اللاتينية وكان فناؤها جزاء وفاقاً[١٥]. ويرى رينه غروسه ان قيام هذه الدولة على الشكل الذي رأينا، هو من أشأم أحداث تاريخ أوروبة، ولم تكن عواقبها بأقل سوءاً على «سورية الفرنجية» من العواقب الوخيمة التي جرّتها على

---

(١٥) تاريخ العالم لهامرتن، ج٥، ص١١٧.



احتلال الصليبيين لمدينة القسطنطينية، لوحة شهيرة لاوجين دولاكروا

العالم اليوناني، فبينما كانت هذه في أشد الحاجة إلى المساعدة كي يستقيم أمرها، حرمتها «الصليبية الرابعة» إياها، وقطعت عنها سبيل الامداد إلى حين من الزمن. فالجهد الفرنسي وقد تبدد بين عكا والقسطنطينية، أكمل إضعاف مستعمرات الأرض المقدسة. ويمكننا القول ان الامبراطورية اللاتينية الموقتة في القسطنطينية، جاءت في الساعة الحاسمة لتسد منافذ الحياة على «سورية الفرنجية»[١٦].

يقول فيليب فان نس مير ان من نتائج هذه المغامرة «ان الصليبيين قد اضعفوا القوة الحربية في العاصمة التي ظلت الف سنة الحصن العظيم للتمدن الغربي، يدفع عنه البربرية الآسيوية. وأما الآن فقد انحطت قوتها في الدفاع، فجاء ذلك بأسوأ النتائج للعالم المسيحي»[١٧].

ويرى المؤرخون عامة انها كانت نذيراً باخفاق الحركة الصليبية بأكملها[١٨]، فقد جذبت امبراطورية القدس اللاتينية ودول اليونان اللاتينية، الفرسان الغربيين أكثر مما اجتذبتهم سورية، حتى ان بعض الافرنج القاطنين في سورية تركوا بيوتهم ليشاركوا في مغامرات الشمال. أما عامة الناس الذين كانوا عماد الحملات الصليبية فقد فقدوا كل اهتمام بها[١٩].

إلا ان نورمان بينز يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول: «بينما كانت الأحزاب المدنية والعسكرية تتنازع السيادة داخل الامبراطورية، كانت جيوش الغرب التي قامت بالحملات الصليبية تجذبها أبهة الأباطرة البيزنطيين، وتستفزها سياستهم. وقد كان من الممكن ان يحاول البلاط الشرقي شراء المساعدة المسلحة من الغرب ببذله وعوداً خلابة عن الاتحاد الديني مع البابوية، لولا ان الشعب حميت في نفسه العداوة للمهاجرين الايطاليين وللسيادة الغربية. وربما كان أمرّ شيء على امبراطورية قوية ان تجد نفسها في حاجة إلى الحماية، وان تجد ان القوى الوحيدة التي تستطيع حمايتها أبغض شيء إليها. أما رجال الغرب الذين لم يجدوا في أرض الميعاد سوى القليل من اللبن والعسل، ولقي الكثيرون

---

(١٦) رصيد التاريخ، ج٢، ص١٣٢ ـ ١٣٤.

(١٧) التاريخ العام ص٢٤٩.

(١٨) Grousset; Hist. des Croisades, III, p. 175

(١٩) دراسات اسلامية ص١٢٥.

منهم الموت في رمال الصحراء، ورأوا روما الشرقية تفوز لنفسها بالاسلاب والغنائم التي كسبتها أيديهم، فقد أذكى كل هذا في نفوسهم الشعور بخيبة الرجاء، وأججت الخيبة في قلوبهم نيران الكراهية، ومن الكراهية المريرة نشأت مأساة سقوط الامبراطورية. وكل حضارة رفيعة تجتذب نحو نفسها الحضارات التي هي أدنى منها في المرتبة بطبيعة الحال. ومن هنا يقول عالم محدث: ان الحروب الصليبية كانت في واقع الأمر صراعاً في سبيل القسطنطينية »[20].

(٢٠) الامبراطورية البيزنطية ص٧٠ ـ ٧١.

الفصل الرابع والعشرون

العادل سيف الدّين

بينما كان الصليبيون يستولون على القسطنطينية ويقيمون امبراطورية لاتينية فيها، كان أمراء المسلمين في الشرق يقتسمون مملكة صلاح الدين ويتنازعون عليها.

وكان صلاح الدين الأيوبي قد خلّف سبعة عشر ولداً أكبرهم نور الدين علي الذي لقب الملك الأفضل، وكان ملازماً لأبيه عند وفاته فاستولى على دمشق والقدس وسورية الغربية، وعماد الدين عثمان الذي لقب بالملك العزيز وكان يتولى مصر فاحتفظ بها، وأبا الفتح الغاري الذي لقب بالملك الظاهر وقد حكم حلب وسورية الشرقية، كما كانت له إبنة واحدة تدعى مؤنسة وقد تزوجت محمد ناصر الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل وهو ابن عمها الملك العادل. وأما الملك العادل فكان حينئذ في الكرك والأردن فظل مسيطراً عليهما إلى جانب اقطاعاته في الجزيرة. وتوزع بقية الأخوة والأبناء عدداً من الإمارات، فأخذ سيف الإسلام طغتين، شقيق صلاح الدين، اليمن وجزيرة العرب، وشيركوه الصغير، حفيد اسد الدين شيركوه، حمص، والظافر خضر بن صلاح الدين بصرى وحوران، والأمجد بهرام شاه، ابن أخي صلاح الدين، بعلبك. وإلى جانب هؤلاء من أفراد الأسرة الأيوبية احتفظ عز الدين مسعود بالموصل، وعماد الدين زنكي بسنجار، وقطب الدين سقمان بكيفا وآمد، وعماد الدين أبو بكر بن قرا ارسلان بخرتبرات[1].

---

(١) مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٨ ـ ٣٧٩؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٢٦؛ الفتح القسي ص٣٦٤.

وكان كثير ممن نشأوا في ظل الدولة الصلاحية والعدل الصلاحي يتخوفون ان تصير حال الدولة بعد صلاح الدين إلى الشقاق والنزاع، وممن أوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وقد كتب إلى الملك الظاهر إثر وفاة السلطان: «ان وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم»(٢).

ولم تنفع وصية القاضي الفاضل وأمنية الأصدقاء المخلصين، فسرعان ما نشبت الحروب بين تلك الممالك والإمارات، ولم تنفع الملك الأفضل الذي يسميه أبو المحاسن «الملك النوام(٣)»، تلك المبايعة التي دعا إليها القادة والأمراء في دمشق، بينما كان أبوه يعاني سكرات الموت، معتذراً «بأن المرض قد اشتد وما يعلم ما يكون، وما يفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك»(٤).

وكان من الواضح ان نصيب الملك العادل من ذلك الإرث العظيم، لم يكن بعدل مكانته ومقدرته وسابقته في الجهاد ومشاركته في بناء المملكة الأيوبية، وهو الذي كان صلاح الدين يستشيره في معضلات الأمور فيبين عن رأي ودهاء وحنكة، فلا بدع اذن في ان يطمع بتغيير تلك القسمة غير العادلة بينه وبين أبناء إخوته وليس معهم من يدانيه في حسن السياسة وكثرة التجربة وبعد النظر.

وقد خالف الأفضل سيرة أبيه فأقصى العقلاء من مستشاريه وأمراء دولته الدافعين عن حوزتها الغيورين على بقائها، وكان أبوه يفادي بكل مرتخص وغال لاستمالة قلوبهم، فنقموا عليه ولجأوا إلى العزيز في مصر، فاستغل العزيز تلك الفرصة وسار بجنده إلى دمشق، فاستنجد الأفضل بالملك العادل، والتقى هذا بالملك العزيز في صحراء المزة غربي دمشق، ونصحه بالعودة من حيث أتى قائلاً له: «لا تخرب البيت وتدخل الآفة، والعدو وراءنا من كل جانب... ارجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك...»(٥).

فعاد العزيز أدراجه إلى مصر، بعد أن أيقن بان أمراء الشام قد اجتمعوا لمقاومته،

---

(٢) خطط الشام ج٢، ص٧٣.

(٣) النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٢١.

(٤) النوادر السلطانية ص٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٥) النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٢١.

وبعد ان تم الاتفاق على تعديل في ممتلكات الإخوة الثلاثة، بحيث أخذ العزيز فلسطين بالإضافة إلى مصر، ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية بالإضافة إلى حلب.

إلا أن سيرة «الملك النوّام» الغارقة في اللهو والترف، هي التي كانت تغري بالحملة عليه، فما لبث العزيز ان زحف على دمشق مرة أخرى في سنة ٥٩٢هـ ١١٩٥م، واستنجد الأفضل بالملك العادل من جديد «فلما قارب العزيز دمشق كاتب الملك العادل الأمراء سراً، واستمالهم، وكان الأمراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسدية تنافس لتقديم العزيز الصلاحية على الأسدية، فعملت حيل العادل حتى وقعت الوحشة بين الطائفتين، واتفقوا بأجمعهم على مفارقة العزيز والانضمام إلى العادل والأفضل»(٦).

والواقع ان العزيز لم يكن أحسن مسلكاً من أخيه الأفضل، وقد قال ابن أياس عنه: «فلما تولى الملك العزيز على مصر وأتى من دمشق وجلس على سرير الملك، لم يمش على طريقة والده الملك الناصر صلاح الدين، وسار مع الناس في مصر أقبح سيرة، فأعاد المكوس التي كان أبطلها أبوه صلاح الدين، وزاد في شناعتها، وتجاهر بالمعاصي والمنكرات»(٧).

وقد تم الاتفاق بين أولئك الأمراء الذين فارقوا العزيز مع الأفضل والعادل على أن يأخذ الأول مصر والثاني دمشق، فجمع الاثنان جيوشهما وزحفا على بيت المقدس فاستوليا عليها، ثم سارا إلى مصر. إلا أن العادل خشي أن يخلف الأفضل وعده بالتخلي له عن دمشق، فأخذ يكاتب العزيز، واستطاع ان يجعل نفسه حكماً بينهما. فعاد الأفضل إلى دمشق ليستسلم نهائياً إلى لهوه وعبثه، ويطلق يد وزيره ضياء الدين ابن الأثير في شؤون الدولة(٨)، فنقم عليه الناس، ورأى العادل ان الفرصة قد سنحت له أخيراً لتحقيق أهدافه، فرحل إلى مصر وعاد مع العزيز إلى دمشق سنة ٥٩٣هـ ١١٩٦م، فاحتلاها دون مقاومة، وأبعدا الملك الأفضل إلى حوران، وحل العادل محله في حكم دمشق وأوسط الشام، بينما استعاد العزيز بيت المقدس.

---

(٦) السلوك، ج ١، ص١٢٤ ـ ١٢٥.

(٧) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، ص٥٩.

(٨) خطط الشام، ج ٢، ص٧٥.



وخلال هذا الوقت، كان هنري دو شمبانيا الذي أطلق عليه لقب ملك بيت المقدس، في حين ان مملكته كانت تقتصر على عكا وصور، يوطد علاقاته بإمارتي طرابلس وانطاكية الصليبيتين وإمارة ارمينية المسيحية، كما استطاع إزالة الجفاء الذي كان قائماً بينه وبين غي دو لوسينيان ملك قبرص، حين خلف غي أخوه أموري فتوطدت الصداقة بينهما وتزوج أبناء أموري الثلاثة ببنات هنري الثلاث.

وكان هنري السادس ملك المانية الذي ما زالت تثيره ذكرى وفاة أبيه فردريك بربروس وهو في طريقه إلى بيت المقدس وخلال عشرات الألوف من أفراد الجيش الألماني في الحملة الصليبية الثالثة، يعدّ العدة للقيام بحملة صليبية جديدة لا تهدف إلى استعادة بيت المقدس فحسب، بل لتحقيق احلامه الواسعة في الشرق بإخضاع الشرقين اللاتيني والبيزنطي للأمبراطورية المقدسة العالمية. وقد وضع لحملته برنامجاً ضخماً يستهدف فتح القسطنطينية أولاً ثم بيت المقدس بعد ذلك، ثم اخضاع الدولة البيزنطية والشرق اللاتيني بأجمعه لسلطة الأمبراطورية، ولما بدأت جموع الصليبيين الألمان تتوافد على بلاد الشام سنة ٥٩٤هـ ١١٩٧م، أثار مسلكهم العدائي هنري دو شمبانيا، وأدرك أن الحملة الألمانية انما تهدف إلى استعباد الصليبيين في الشرق لا إلى تحريرهم، فأمر باستخدام القوة ضد أولئك الصليبيين الألمان[٩]، ولا سيما بعد أن أخذوا يغيرون على الأراضي الاسلامية دون استئذانه، ويعكرون صفو السلام السائد في الشرق.

وما لبث هنري دو شمبانيا أن وجد نفسه مضطراً إلى الخروج على خطته في متابعة الهدنة القائمة بينه وبين المسلمين، حين رد الملك العادل على غارات الصليبيين الألمان، وانتصر عليهم في معركة كبرى قرب غزة. فكتب هنري دو شمبانيا إلى الامبراطور مستنجداً، في حين أسرع الملك العادل إلى احتلال يافا، وبينما كان دو شمبانيا يستعد لنجدتها فاجأه الموت في ١٠ ايلول ١١٩٧م ٥٩٤هـ.

ومرة أخرى، أخذ أمراء الفرنجة يبحثون عن زوج رابع للملكة ايزابيل كي يتولى العرش، وتم الرأي على أن تزف إلى أموري دو لوسينيان ملك قبرص لتوحيد تاجي الجزيرة ومملكة بيت المقدس، فعقد له عليها في سنة ١١٩٨م ٥٩٥هـ. وكان اموري قد

---

(٩) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٧-٩١٨

حاول نجدة يافا، فلما وصل إلى شواطىء الشام رأى أنها قد سقطت في يد الملك العادل، فعمد إلى محاصرة بيروت، وما كاد يضرب الحصار عليها حتى هرب أميرها عز الدين أسامة واستسلمت المدينة بدون قتال.

وهكذا اتسعت مملكة بيت المقدس فغدت تضم عكا وصور وبيروت وجزيرة قبرص. وكانت البقية الباقية من الألمان قد غادرت البلاد بعد هزيمة أخرى منيت بها عند حصن تبنين ووفاة مليكهم هنري السادس، فوجد أموري نفسه وجهاً لوجه مع المسلمين، في حرب تورط فيها ولم يكن له يد في اشعال نيرانها، فآثر الموادعة والمصالحة، وعقدت بين الفريقين هدنة لمدة ثلاث سنوات على أن يحتفظ كل من الفريقين بفتوحاته الجديدة وتقسم صيدا مناصفة.

ولعل الملك العادل كان أحوج إلى هذه الهدنة من أموري، فقد توفي الملك العزيز في ٣٠ محرم سنة ٥٩٥ هـ أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٨م، وكان ابنه ناصر الدين محمد الذي لقب بالملك المنصور ما يزال في العاشرة من عمره، فأراد بعض أمرائه ان يعهدوا بالوصاية عليه إلى عمه الملك العادل، وأراد آخرون ان يعهدوا بها إلى الملك الأفضل، وسبق هؤلاء مخالفيهم فاستدعوا الأفضل من حوران وسلموه مصر: وتولى الغرور الملك الأفضل فاتفق مع أخيه الملك الظاهر على انتزاع دمشق من يد عمهما العادل[١٠].

وكان الملك العادل يحاصر ماردين في ديار بكر لخلاف نشب بينه وبين صاحبها النظام، فلما علم بالمؤامرة سارع إلى دمشق وأعدّها للدفاع، وما لبث الأفضل ان وصل على رأس جيش مصر، كما وصل الظاهر على رأس جيش حلب، فحاصرا المدينة ستة أشهر، وكان الملك العادل يعمل سراً على استمالة أمراء الأفضل والظاهر حتى استطاع اجتذاب معظمهم إليه، ثم أخذ يبذل مساعيه لإيقاع الشقاق بين الأفضل والظاهر ففعلت مساعيه فعلها، وما لبث كل منهما ان تخلى عن الحصار وعاد إلى بلده، إلا ان العادل لحق بالأفضل فالتقى بجيشه عند بلبيس فأنزل به هزيمة منكرة، ثم تبعه إلى القاهرة واضطره إلى الاستسلام وأعاده إلى حوران واستولى على مصر[١١].

---

(١٠) السلوك ج ١، ص١٤٦ ـ ١٤٧؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٢٥، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٤٧.

(١١) مفرج الكروب، ج٣، ص٨٠؛ السلوك، ج ١، ص٦٤٩؛ كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.

ولم تنقض سنة واحدة حتى عاد الأفضل والظاهر إلى الاتفاق مرة أخرى على انتزاع دمشق من يد العادل، فما لبث هذا ان عاد إلى دمشق واستطاع بذكائه ودهائه أن يستميل الظاهر إليه، وأن يعاقب الأفضل بأخذ حوران منه واعطائه سميساط وحدها. أما الملك المنصور ابن العزيز فقد أقطعه حماة، على أن يكون الثلاثة تابعين له يدينون له بالولاء والطاعة. وهكذا أعاد الملك العادل وحدة المملكة الأيوبية تحت سلطانه وأناب عنه ابنه الكامل محمد في مصر، وابنه المعظم عيسى في دمشق، وابنه الأشرف موسى في حوران، وابنه الأوحد في ميافارقين «وصار يتنقل في ممالك أولاده والعمدة في كل الممالك عليه»[١٢]. ويصف المؤرخون العادل سيف الدين بأنه كان ملكاً كثير المعرفة، بعيد النظر، عظيم الفطنة، مستقيم السيرة، حسن النوايا والمقاصد، وكان، شأن أخيه، محباً للعلم والعلماء، وقد أصبح ملكاً على الشام وأعالي الجزيرة ومصر وجزيرة العرب دون منازع، كما أصبحت أمبراطوريته تعادل في اتساع رقعتها امبراطورية أخيه، وأضحت الخطبة تقرأ له من على المنابر وتضرب السكة باسمه[١٣].

وكان الفرنجة في الشام يتابعون ذلك النزاع العائلي في المملكة الأيوبية دون أن يتدخلوا فيه، وظل السلام مستتباً بين الفريقين باستثناء بعض المعارك المحلية أو المناوشات الجانبية. وكان الجميع ينتظرون الحملة الصليبية الرابعة، فالفرنجة يعتقدون بأنها القوة المنقذة التي ستعيد لهم مستعمراتهم القديمة، والمسلمون يستعدون قلقين ويوفرون قواهم للمعركة الحاسمة. وما كاد أموري يعلم بما انتهت إليه تلك الحملة من انحراف إلى القسطنطينية واحتلالها والاستقرار فيها، ونزوح عدد من فرسان الفرنجة وأمرائهم في الشام إلى بلاط بلدوين دو فلاندر امبراطور الدولة اللاتينية الجديدة ليستقروا من ثم في الاقطاعات التي كان يوزعها عليهم في بلاط اليونان والبلقان، حتى رأى أن لا بد له من تجديد الصلح مع المسلمين، ولم يكن العادل بأقل منه رغبة في هذا الصلح، فعقد الفريقان سنة ٦٠١هـ ١٢٠٤م، هدنة جديدة لمدة ست سنوات[١٤]. ويبدو ان العادل كان من الحرص على تحقيق تلك الرغبة بحيث تنازل للصليبيين في اتفاقية الصلح

---

(١٢) السلوك، ج١، ص١٥٩؛ النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٢٧.

(١٣) مختصر تاريخ العرب ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(١٤) Grousset; Hist. des Croisades. III. p. 184

عن يافا التي كان قد احتلها منذ أعوام وعن النصف الخاص بالمسلمين في صيدا واللد والرملة(١٥).

وتوفي أموري دو لوسينيان في أوائل نيسان (ابريل) سنة ١٢٠٥م ٦٠٢هـ، فآل عرش مملكة بيت المقدس إلى ماري كبرى بنات ايزابيل من هنري دو شمبانيا بوصاية حنا الأول دبيالان حاكم بيروت، وآل عرش قبرص إلى هيو الأول ابن أموري، فوقعت إثر ذلك عدة معارك بين المسلمين والفرنجة، واشترك العادل في بعض هذه المعارك، ولكنه لم يخض غمراتها إلا مضطراً، وبعد عدوان الفرنجة المتكرر، وسرعان ما كان يعود إلى المهادنة والموادعة لحرصه الشديد على سياسة الاعتدال والتسامح.

ولما بلغت ماري سن الرشد، أنشأ الأمراء يبحثون لها عن عريس يتولى العرش مكان الملك الراحل، ثم رأوا أن يكلوا هذا الأمر إلى فيليب اوغست ملك فرنسة ليتولى اختيار الزوج المناسب، فاختار حنا دو برين الذي كان في الستين من عمره، وكان التفاوت في السن واضحاً بينه وبين عروسه التي لم تبلغ بعد سن العشرين، ولكنه كان يجمع في شخصه الصفات اللازمة للصليبيين في الشام، ووصل العريس العجوز المفلس إلى عكا في ايلول (سبتمبر) سنة ١٢١١م ٦٠٧هـ، بعد ان زوده كل من البابا وملك فرنسة بمبلغ من المال، فتزوج من عروسه الشابة وتوّج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية في كتدرائية صور(١٦).

وكانت الهدنة بين المسلمين والفرنجة قد انتهت، فرغب الملك العادل في تجديدها، عملاً بسياستها التي كانت ترمي إلى تحقيق السلام وتنمية الصلات التجارية مع الإيطاليين(١٧)، إلا ان فرسان الداوية قاوموا ذلك وقاموا ببعض الأعمال الاستفزازية لافتعال جو الحرب بين الفريقين(١٨)، فسرت موجة من الحماسة في البلاد الاسلامية،

---

(١٥) مفرج الكروب، ج٣، ص١٦٢ـ١٦٣؛ السلوك، ج ١، ص١٦٤، وقد كانت سياسة العادل السلمية وتنازلاته تتناقض مع جو الحماسة الذي ساد البلاد الاسلامية في تلك الفترة.

(١٦) الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٥٠.

(١٧) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لحتي، ج٢، ص٢٤٢.

(١٨) كان فرسان الداوية والاسبتارية قد تولاهم الضجر خلال الهدنة السابقة، فشل الأولون أنفسهم بمساعدة بوهيمند أمير طرابلس في الحرب التي نشبت بينه وبين ليو الثاني ملك أرمينية حول وراثة الحكم في انطاكية وحالفه فيها الملك الظاهر صاحب حلب، وعالج الآخرون ضجرهم بمساعدة ملك ارمينية في حربه مع سلاجقة الروم (انظر الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٥٢ و ٩٨٧ ـ ٩٨٩)

وبنى المعظم ابن الملك العادل فوق جبل الطور المطل على عكا قلعة حصينة حشد فيها الصنّاع من كل بلد، وشحنها بالرجال والذخائر والسلاح[١٩]، مما أثار مخاوف حنا دو برين فبادر إلى طلب الصلح، ولم يتردد العادل في الموافقة على ذلك الطلب فعقدت بين الجانبين هدنة تمتد إلى سنة ٦١٤هـ ١٢١٧م.

وتوفيت ماري ملكة بيت المقدس سنة ١٢١٢م ٦٠٩هـ، حزينة على شبابها الضائع[٢٠]، ولكنها كانت قد انجبت من زوجها الكهل طفلة دعتها يولاند، فورثت الطفلة عرش أمها، وغدا حنا دو برين وصياً عليها.

وكان حنا دو برين قد استغاث بالدول الأوروبية إثر توقيع الهدنة، وطلب منها إعداد حملة جديدة على الشرق، فما كاد أجل الهدنة ينتهي حتى بدأت جموع صليبية جديدة تتحرك في الغرب لنجدة الفرنجة في الشام، وكان أغربها وأطرفها ما سماه المؤرخون «حملة الأولاد»، وكان زعيم هذه الحملة فتى فرنسي يدعى اسطفان في الثانية عشرة من عمره، اقتنع بأن المسيح قد أمره بقيادة حملة صليبية من الأولاد لانقاذ القبر المقدس، فدعا أترابه إلى التطوع معه في حملته مؤكداً لهم انهم لن يصلوا إلى شاطىء المتوسط حتى ينشق البحر أمامهم فيصلوا إلى هدفهم سالمين. وتداعى الأولاد والبنات من كل مكان متحمسين للانضمام إليه والزحف معه. وعبثاً حاول الآباء منع أبنائهم من الاشتراك في هذه المغامرة التي اختلفت آراء الناس فيها، فمنهم من اعتقد بانها وحي من الروح القدس، ومنهم من رآها نزوة طائشة من عمل الشيطان.

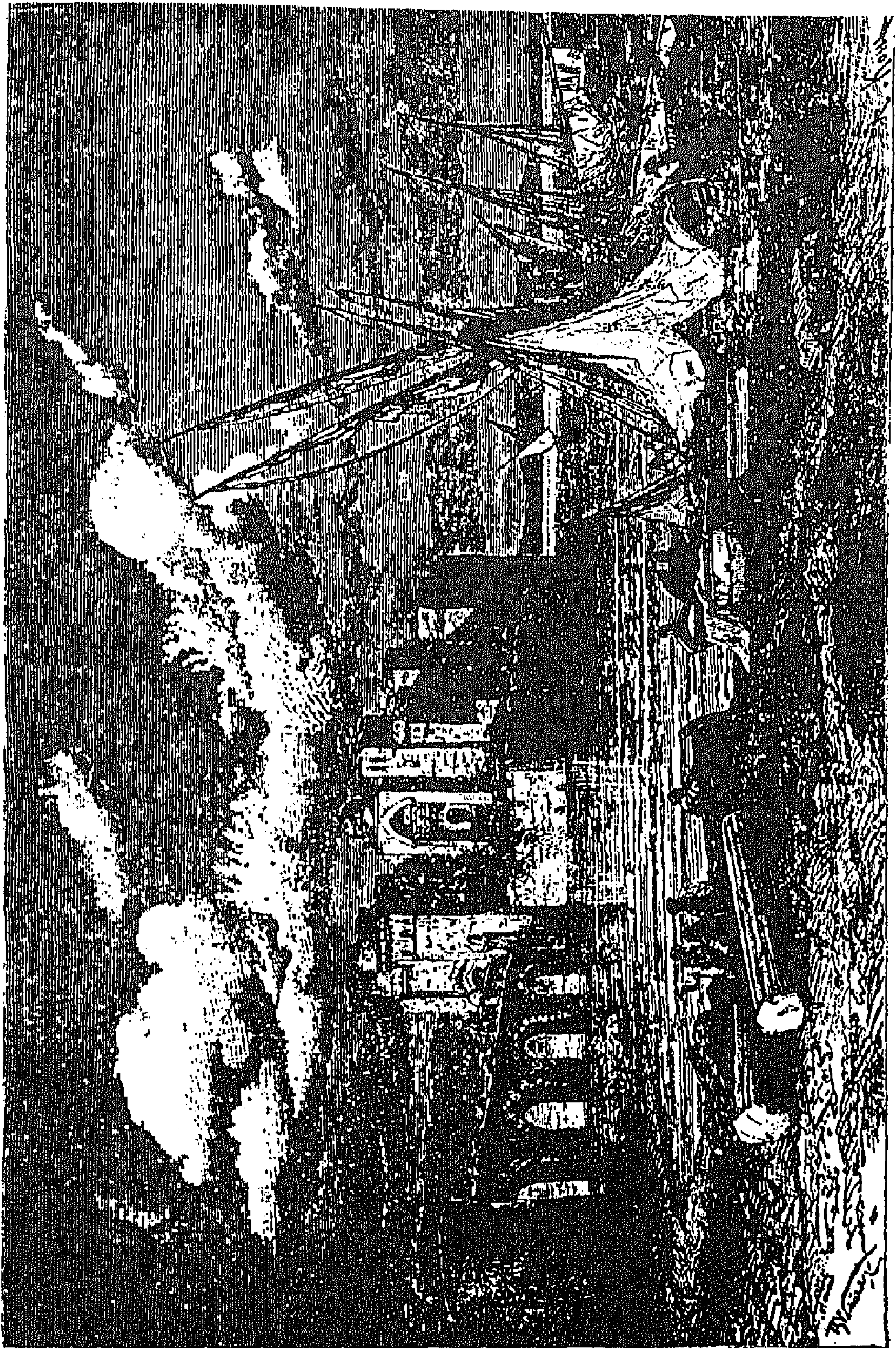
وفي إحصاء الصبيان الجرمان خلاف، فهو من عشرين ألف إلى أربعين ألف، وقد عبر هؤلاء جبال الألب ونزلوا إلى الشواطىء الإيطالية متوقعين ان يجدوا في البحر طريقاً عجائبية تقودهم إلى فلسطين، وكابدوا في الطريق من الأهوال ما قضى على قسم كبير منهم، واستقبل البابا فلولهم الباقية فلاطفهم وأقنعهم بالعدول عن رأيهم والعودة إلى بيوتهم.

أما الأولاد الفرنسيون الذين بلغوا على ما قيل ثلاثين ألفاً، فلما وصلوا إلى مرسيليا

---

(١٩) السلوك، ج١، ص١٧٦.

(٢٠) الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٥٢.



صيدا قبل تدمير قلعتها في عهد الأشرف خليل

كانت خيبتهم شديدة لأن البحر لم ينفلق عن طريق تفضي بهم إلى فلسطين. وقد أدرك القنوط وخيبة الأمل قسماً كبيراً منهم، فقفلوا راجعين إلى بيوتهم. وعرض تاجران فرنسيان على خمسة أو ستة آلاف منهم ان ينقلاهم إلى الأرض المقدسة دون مقابل، فقبلوا ذلك متوهمين ان الأخلاق المسيحية الكريمة هي التي دفعت ذينك التاجرين إلى تضحيتهما، فنزلوا في سبع سفن، واقلعت بهم تلك السفن إلى الشرق ولكن لا لتقلهم إلى الأرض المقدسة بل ليبيعهم ذانك التاجران عبيداً في أسواق النخاسة(٢١). ويقول المطران يوسف الدبس ان بعض هؤلاء الأولاد استطاعوا الوصول إلى عكا، فزادوا الفرنج قنوطاً ووجلاً ليأسهم من إنجاد الرجال!..(٢٢).

وبعد «حملة الأولاد» وصلت إلى عكا الحملة الهنغارية، وكان يقودها ملك هنغاريا ومعظم أفرادها من الهنغاريين والألمان، فقامت بغارات متعددة في سورية ولبنان، وأراد الملك العادل منازلتها قرب بيسان، ولكنه ما لبث ان تخلى عنها فاستولوا على هذه المدينة وعلى المنطقة المحيطة بها، وغنموا كثيراً من الغلال والمواشي، ثم حاصروا حصن الطور وقتاً طويلاً دون ان يستطيعوا الاستيلاء عليه. ولكنهم ما كادوا يغادرونه حتى استدعى الملك العادل ولده المعظم وقال له: «قد بنيت هذا الطور وقد يكون سبباً لخراب الشام!»، ورأى العادل ان من الصعب حفظ هذا الحصن لقربه من عكا، وان من الأفضل خرابه للاستعانة بما حشد فيه من الرجال والسلاح لحفظ مدينة دمياط التي كانت هدف الحملة الصليبية الخامسة(٢٣).

---

(٢١) التاريخ العام لفيليب فان نس مير ص ٢٥٠.

(٢٢) تاريخ سورية، ج٦، ص٢٢٤.

(٢٣) مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٥ ـ ٢٥٦؛ ذيل الروضتين ص١٠٢ ـ ١٠٣؛ السلوك، ج١، ص١٨٦.

الفصل الخامس والعشرون

معركة دمياط

انتهت تجمعات الصليبيين في الغرب وتحركات الفرنجة في الشرق، إلى تنظيم حملة صليبية جديدة عرفت بالحملة الصليبية الخامسة، وكان هدفها احتلال مصر، لأن جمهوريات إيطالية البحرية كانت قد أدركت ان مركز الثقل في السياسة الاسلامية قد انتقل بعد وفاة صلاح الدين من سورية إلى مصر، وان سفنها لا يتسنى لها الاتصال بالبحر الأحمر والمساهمة في تجارة المحيط الهندي الرابحة ما لم يتم لها السيطرة على وادي النيل[1].

وقد ترأس حنا دو برين تلك الحملة ووصلت سفنها إلى دمياط في أواخر أيار (مايو) سنة ١٢١٨م ٤ ربيع الأول ٦١٥ هـ، فأقام الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط وقد وجدوا المدينة محصنة تحصيناً قوياً، إذ كانت المآصر تمتد بعرض مجرى النيل، وهي سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ، تمتد في النهر لتمنع المراكب الواصلة من البحر من عبور أرض مصر، يضاف إلى ذلك برج السلسلة، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أي عدوان يقع عليها[2].

وبادر الملك الكامل الذي كان ينوب عن أبيه العادل في حكم مصر، بالمسير مع جيشه

---

(١) تاريخ العرب لحتي وزميليه، ج ٢، ص ٧٧٤.

(٢) الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٩٩٦؛ السلوك، ج ١، ص ١٨٨.

إلى دمياط، وعسكر في العادلية على ضفة النيل الشرقية، بينما أمر العادل نوابه وقواته في الشام بالغارة على أطراف المستعمرات الصليبية ليشغل الفرنجة هناك. إلاَّ ان ذلك لم يحل دون احتلال القوات الصليبية لبرج السلسلة وتحطيم المآصر التي تحمي مجرى النهر، بعد نضال استمر ثلاثة أشهر. وكان ذلك البرج يعتبر «قفل الديار المصرية»(٣) فلما استولى عليه الصليبيون ـ ولم يعد هناك ما يحول دون دخول سفنهم إلى النيل ـ انتشر الذعر في صفوف المسلمين، وتألم الملك العادل ألماً شديداً، فاعتراه المرض وفارق الحياة.

وقد حاول الكامل ان يسد مجرى النهر، بإغراق عدد من السفن، ولكن الصليبيين قابلوا ذلك بالالتجاء إلى خليج يُعرف بالأزرق كان النيل يجري فيه قديماً، فحفروه حفراً عميقاً، وأجروا فيه الماء إلى البحر المتوسط، وبذلك تمكنت سفنهم من دخول النيل حتى وصلت إلى موضع يقال له بورة يقابل العادلية حيث عسكر الكامل(٤).

إلا ان احتلال برج السلسلة لم يوفر للصليبيين مكاسب سريعة، لأن قسماً من هؤلاء اعتبروا ان مهمتهم قد انتهت فعادوا أدراجهم إلى أوروبة وكان على حنا دو برين ان ينتظر وصول امدادات أوروبية جديدة كي يتابع الزحف على مصر. وقد وصلت هذه الامدادات في ايلول سنة ١٢١٨م ٦١٥هـ، وكان يرافقها الكاردينال بلاجيوس مندوباً عن البابا وقائداً أعلى للحملة.

والغريب ان الكامل لم ينتقل إلى مهاجمة الصليبيين على الضفة المقابلة من النيل، إلا بعد أن وصلتهم الامدادات المنتظرة، فكان من جراء ذلك أن أخفق هجومه وتكبد خسائر فادحة، إلا انه استطاع مع ذلك صد الفرنجة عن العبور إلى الضفة الشرقية في محاولة جريئة قاموا بها لاقتطاف ثمار المعركة.

لكن أحداثاً داخلية خطيرة كانت تجري حينذاك في مصر، فقد تآمر على الكامل عدد من قواده برئاسة عماد الدين أحمد المعروف بابن المشطوب، لعزله واحلال أخيه الفائز محله في حكم مصر. وعرف الكامل بالمؤامرة إلا انه أخذ يداري المتآمرين «لكونه في قبالة

---

(٣) السلوك، ج ١، ص١٩٠.

(٤) الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٦٨؛ السلوك ج ١، ص١٩٥.

العدو ولا يمكنه المقاهرة»[٥]، ثم ما لبث ان اختفى من المعسكر، إذ تسلل منه إلى أشموم طناح. ولما شعر قادة الجيش باختفاء الكامل، غادروا المعسكر تاركين فيه كل ما معهم من مؤونة وسلاح، ووجد الصليبيون الساحة خالية فانتقلوا إلى الضفة الشرقية من النيل، واستولوا على ما في المعسكر، وضربوا الحصار على دمياط[٦].

ومرت مصر بفترة من الهلع والحيرة والقلق تنذر بأسوأ مصير، لولا أن أسرع الملك المعظم إلى مصر لنجدة أخيه، واستدرج ابن المشطوب إلى حيث اعتقله وأرسله إلى الشام، ثم جمع شتات الجيش وسار به مع أخيه إلى فارسكور (فارس كور) لمهاجمة الصليبيين من الخلف إذا هاجموا دمياط، وبعثا بالرسل إلى العواصم الإسلامية لموافاتهما بالأمداد. وهكذا استعادت البلاد رباطة جأشها، واستطاعت دمياط أن تصمد في وجه الحصار الصليبي شهوراً عديدة عانى أهلها ألواناً رهيبة من الجوع والمرض واليأس والعياء «وأنزل الله عليهم الصبر، فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار»[٧].

وقد اشتهر في حصار دمياط شاب يدعى شمايل كان يخاطر بنفسه ويسبح في النيل ومراكب الفرنج محيطة به، حتى يصل إلى المدينة فيأخذ رسائل أهلها ويعود سابحاً من حيث أتى، ورماة الفرنج تتبعه بالسهام، ومحاربوهم يرمونه بالحراب، وهو يتهارب كسمكة في الماء حتى يخلص من منطقتهم، ويفضي إلى حيث اسطول المسلمين عند أشموم[٨].

ولكن البلاد العربية والإسلامية كان يتهددها حينذاك غزو جديد هو بلا ريب، أكثر خطراً وأشد هولاً وأسوأ نتيجة من الخطر الصليبي القادم من الغرب، وهو الغزو المغولي الزاحف من الشرق، وكان لا بد لهذه البلاد من أن تواجه هذا الغزو بالاتحاد والاستعداد، مما جعل الملك الكامل يتقدم إلى الصليبيين بعرض سخي مقابل الجلاء عن مصر، وهو التنازل لهم عن مملكة بيت المقدس كما كانت عليه سنة ١١٨٧، باستثناء الأردن منها.

---

(٥) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٣٠.

(٦) السلوك، ج١، ص١٩٦.

(٧) المرجع السابق، ج١، ص١٩٨.

(٨) صور من البطولة ص١٨٢.

وقبل حنا دو برين هذا العرض السخي، في حين رفضه الكاردينال بيلاجيوس وفرسان الداوية والاسبتارية، وأصر هؤلاء جميعاً على احتلال مصر، ورأى أبناء البندقية وجنوة وبيزة الذين عارضوا الهجوم على مصر بادىء الأمر، ان احتلال الدلتا سيؤمن لهم مكاسب تجارية مهمة، وغدت استعادة بيت المقدس بالنسبة للجميع أمراً ثانوياً[٩].

واشتدت حماسة الصليبيين فقاموا في ٢٩ آب (اغسطس) ١٢١٩م ٦١٦هـ، بهجوم واسع على جيش الكامل، ولكنهم سرعان ما ارتدوا عنه خاسرين وقد فقدوا كثيراً من القتلى والأسرى. وانتهز الكامل هذه الفرصة وجدد طلبه بعقد الصلح، معلناً استعداده لاعطائهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية، وكل ما حرره صلاح الدين من بلاد الساحل باستثناء الكرك والشوبك. وكان يدفع الكامل إلى ذلك شعوره بأن البلاد الاسلامية لن تستطيع نجدته لانشغالها بالخطر المغولي الذي يتهددها بينما وافت الفرنجة نجدات جديدة من الانكليز والفرنسيين والقبارصة، والمجاعة التي كانت تهدد الشعب المصري لانخفاض فيضان النيل في تلك السنة مما جعلها من أشق السنين وأشدها على مصر[١٠].

ومرة أخرى وافق حنا دو برين على عرض الملك الكامل، ورفضه الكاردينال بيلاجيوس وأصر كما يقول لامونت على ان يهزم المصريين هزيمة تامة ساحقة بالاستيلاء على القاهرة، وأيده الإيطاليون والهيكليون وفرسان المستشفى[١١].

وكانت مقاومة دمياط قد أوشكت على الانهيار تماماً، فحاول الكامل ان يمدها بخمسمائة من جنوده، لكن هؤلاء الجنود وقعوا في أيدي الفرنجة، فقتلوهم وصفوا رؤوسهم على الخنادق[١٢]، فراع ذلك أهل دمياط وزاد في قنوطهم بعد أن «أهلكتهم الأمراض، وغلت عندهم الأسعار حتى بيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدة دنانير، وامتلأت الطرق من الأموات، وعدمت الأقوات، وصار السكّر في عزة الياقوت، وفقدت اللحوم، فلم يُقدَر عليها بوجه، وآلت الحال بالناس أن لم يبق عندهم غير شيء يسير من

---

(٩) Grousset; Hist. des Croisades, III. p. 223

(١٠) السلوك، ج ١، ص٢٠٦.

(١١) دراسات اسلامية ص١٢٧.

(١٢) ذيل الروضتين ص١١٦.

القمح والشعير فقط، فتسور الفرنج السور وملكوا منه البلد، فكانت مدة الحصار ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً، وعندما اخذوا دمياط وضعوا السيف في الناس، فلم يُعرف عدد من قتل لكثرتهم»(١٣).

استسلمت دمياط في ٢٥ شعبان سنة ٦١٦هـ ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢١٩م، ووضع الفرنجة في أهلها السيف قتلاً وسراً(١٤)، بينما كانت جيوش المغول تجتاح بقيادة جنكيزخان خوارزم وما وراء النهر، وتقتحم بخارى والري وقزوين وهمذان، وتدق أبواب العراق مهددة العاصمة بغداد.

وقد تولى الذعر الخليفة العباسي الناصر، وأرسل يستنجد بأمراء الأقاليم ومنهم الملك الأشرف حاكم خلاط والجزيرة، فأجابه معتذراً لأنه في شغل بنجدة أخيه الكامل وانقاذ مصر من غزو الإفرنج. والواقع ان الأشرف ما لبث ان قدم إلى مصر على رأس جيشه، كما سار إليهم المعظم وجيشه بعد أن عزز دفاع دمشق ودمر حصون تبنين وبانياس وصفد وشرع في هدم أبراج القدس وسورها حتى إذا قبل الصليبيون باستعادتها مقابل جلائهم عن مصر أخذوها مهدمة البناء(١٥)، «فوقع البلد في ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والشبان والصبيان إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم، بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور، وخرجوا هاربين، وتركوا أموالهم وأثقالهم، وامتلأت بهم الطرق فبعضهم إلى مصر وبعضهم إلى الكرك وبعضهم إلى دمشق»(١٦).

وبينما كان المسلمون في مصر يستعيدون معنوياتهم ويعززون قواتهم، كان الخلاف يشتد بين الصليبيين بعد احتلال دمياط لرغبة كل فريق في الاستئثار بحكمها وتولي زعامة الحملة، فرحل حنا دو برين إلى عكا في ربيع سنة ١٢٢٠م ٦١٧هـ، تاركاً مهمة القيادة للكاردينال بيلاجيوس وحده، وانصرف هذا إلى تعمير دمياط وتوطين الجاليات الفرنجية فيها، وتباطأ في الزحف إلى القاهرة في انتظار امدادات جديدة،

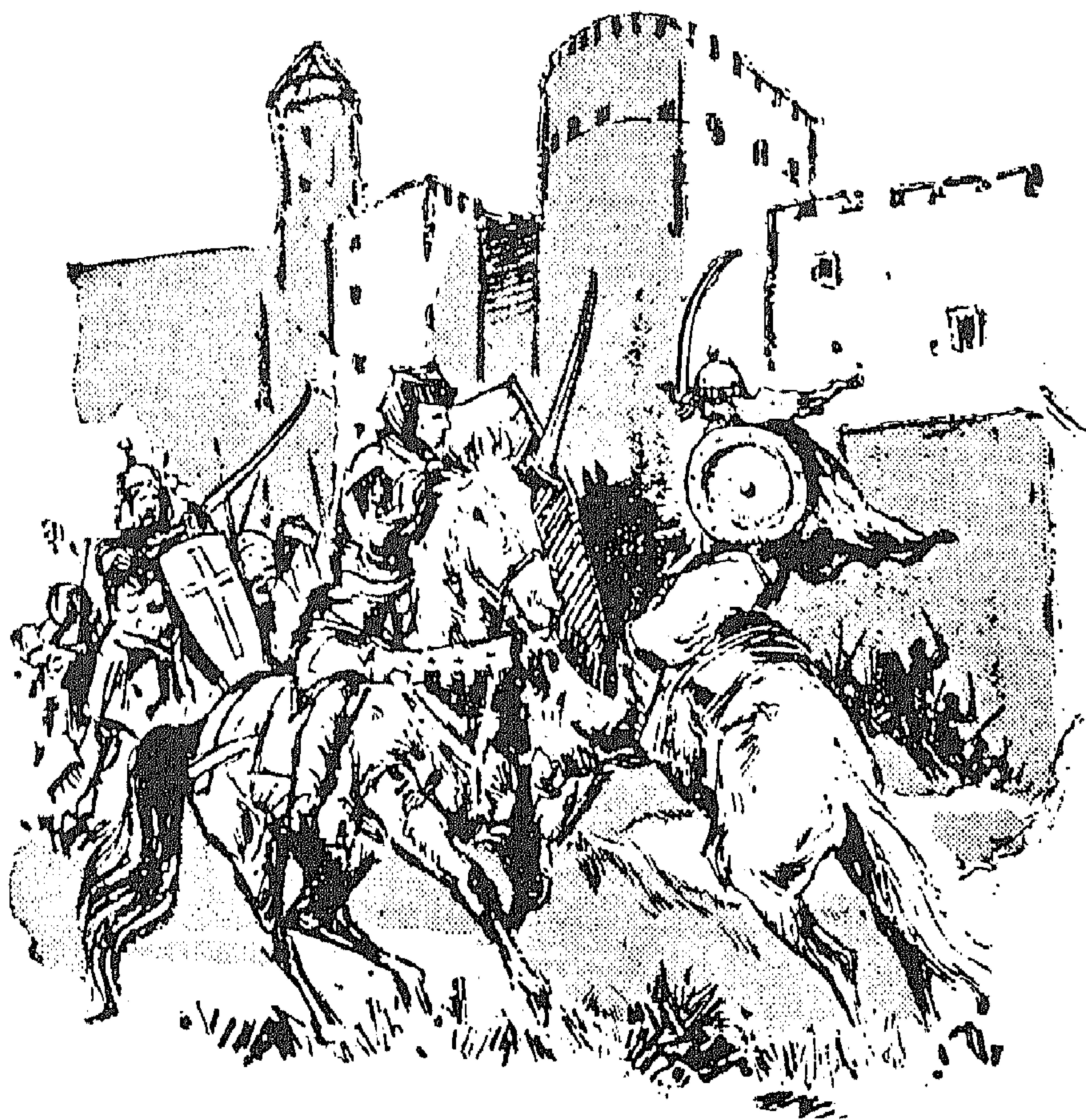
---

(١٣) السلوك، ج ١، ص ٢٠٦.

(١٤) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٢٨.

(١٥) Grousset; Hist. des Croisades, III, p. 214

(١٦) ذيل الروضتين ص ١١٥



وتراخت يده عن الحصار البحري الذي كان الفرنجة قد ضربه بين دمياط وعكا، فنشطت السفن الاسلامية هناك واحرقت عشر سفن للعدو[١٧].

وقد جدد الكامل عرضه السلمي فرفضه الافرنج للمرة الثالثة، واشترطوا مقابل الموافقة عليه أن تكون لهم الكرك بالإضافة إلى مدن فلسطين، وان يُدفع لهم ثلاثمائة الف دينار. ولا شك في أن أنباء النجدات التي تُحشد في الغرب والحملة الصليبية الكبرى التي كان يقال ان الامبراطور فردريك الثاني يُعدّها في الغرب، هي التي كانت تقوي موقف الكاردينال وتحمله على التشدد في مطالبه ورفض أي عرض سلمي، قائلاً انه من العار على الإفرنج ألا يتموا ما بدأوا بعد ان استبشروا بتمامه!

ولما وصلت إلى دمياط حملة لويس دوق بافاريا، اشتد ساعد الكاردينال وقرر الزحف إلى القاهرة، وأرسل إلى حنا دو برين يطلب منه العودة إلى دمياط، فوجد «ملك بيت المقدس» نفسه مضطراً إلى المشاركة في العودة لئلا يتهم بعرقلة أعمال الصليبيين. وهكذا توافدت كما يقول المقريزي «أمم الفرنج من داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط، فوافى دمياط منهم طوائف لا يحصى لهم عدد، فلما تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها في حدهم وحديدهم، وقد زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر»[١٨].

وللمرة الأخيرة جدد الكامل عرض الصلح، فاشترط الفرنجة في الطلب وأصروا على أن يعطيهم الكرك والشوبك إلى جانب ما عرضه من البلاد، بالإضافة إلى خمسمائة ألف دينار!

وتقدم الجيش الصليبي وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات، هي بحيرة المنزلة شرقاً، وفرع دمياط غرباً، والبحر الصغير جنوباً[١٩].

واحتال الكامل فأرسل سفناً من اسطوله بقيادة الأمير بدر الدين بن حسون في بحر المحلة، وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها الحالية ثم يعود فيتصل به شمال طلخا - فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالمؤونة وبين الوصول إلى

---

(١٧) السلوك ج ١ ص٢٠٧. Grousset; Hist. des Croisades, III, p. 232 _ 234.

(١٨) السلوك، ج ١، ص٢٠٣.

(١٩) الحركة الصليبية، ج ٢، ص٩٨٢.

عسكرهم عند المنصورة، فعبر جماعة منهم في بحر المحلة إلى الأرض التي يعسكر عليها الفرنج، وحفروا مكاناً عظيماً في النيل، وكان في وقت فيضانه، فغمر الماء أكثر تلك الأرض، وصار حائلاً بين الفرنج ومدينة دمياط، وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة. فأمر السلطان في الحال بنصب الجسور عند أشموم طناح، فعبرت العساكر عليها، وملكت الطريق التي يسلكها الفرنج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول إليها. فأيقن هؤلاء بأنهم باتوا محاصرين من كل الجهات، وأدركوا ان الهزيمة تنتظرهم، فهدموا خيامهم ومجانيقهم وأشعلوا النار فيها، ثم هموا بالزحف نحو جيش المسلمين ليشقوا لأنفسهم طريقاً إلى دمياط، فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل والمياه، وبسالة المقاتلين المسلمين، ويقول المقريزي ان العامة منهم كانت تكرّ على الفرنج أكثر مما يكرّ عليهم العسكر، فما لبثوا أن أصابهم الذعر، وشاع الاضطراب في صفوفهم، ولم يجدوا مفراً من طلب الأمان على أن يتركوا دمياط دون قيد أو شرط(٢٠).

واختلف قادة المسلمين حول قبول الصلح أو رفضه، إلا ان الملك الكامل قرر الموافقة عليه، واتفق الفريقان على أن يقدم كل منهما رهائن للآخر حتى يتم تسليم دمياط، فأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب وعدداً من قواده، وأرسل الفرنج عشرين من كبريائهم على رأسهم الملك حنا دو برين والكاردينال بيلاجيوس، فأحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم(٢١).

وتسلم المصريون دمياط في ٢٩ رجب سنة ٦١٨هـ ـ ٧ ايلول (سبتمبر) ١٢٢١م، محققين بذلك نصراً لم يكن في حسبانهم، فأطلق الفرنج الصالح نجم الدين أيوب ومن معه، كما أطلق الكامل رهائنه من الملوك والأمراء. وجلا الإفرنج عن مصر، فعاد حنا دو برين إلى عكا، بعد أن عقد مع الكامل هدنة لمدة ثمانية أعوام كان الشرط الوحيد فيها ان يطلق كل منهما من عنده من الأسرى. وعاد أفراد الحملة الصليبية الخامسة إلى بلادهم، بعد ان قضوا في دمياط وعلى شاطئيها الغربي والشرقي ثلاث سنين وأربعة أشهر

(٢٠) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص٥٠ ـ ٥١؛ السلوك ج١، ص٢٠٢ وما بعدها؛ النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٤١.

(٢١) السلوك ج١، ص٢٠٨؛ ذيل الروضتين ص١٢٩؛ المختصر في تاريخ البشر، ج٣، ص١٢٥ ـ ١٢٧؛ العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

معركة دمياط

وتسعة عشر يوماً، رفضوا خلالها أربعة عروض باستعادة فلسطين مقابل الجلاء عن مصر!

ومن قصائد الشعراء في تمجيد هذا النصر والاشادة به، قول ابن عنيّن من قصيدة أشار فيها إلى موقف الكامل المتسامح وعفوه عند المقدرة:

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى ... إذا جهلت أيامنا، والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلاً ... من الروم، لا يُحصى يقيناً ولا ظنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا ... إلينا سراعاً بالجهاد، وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منّا
بدا الموت من زرق الأسنة أحمراً ... فألقوا بأيديهم إلينا، فأحسنّا
وقد عرفت أسيافنا ورقابُهم ... مواقعها منا، فان عاودوا عدنا
منحناهم منا حياةً جديدةً ... فعاشوا بأعناق مقلدةً منا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا ... ولوغاً، ولكنا ملكنا فأسجحنا

الفصل السادس والعشرون

الامبراطور فردريك الثاني أو حملة التسامح

اشتد في أوائل القرن الثالث عشر التنافس الذي وصفنا نشأته في الفصل الأول من هذا الكتاب، بين البابوية والامبراطورية المقدسة. فبينما كان الصراع على أشده بين الاسبانيين والعرب في اسبانية والمغرب، وبين الصليبيين والمسلمين في الشرق الأدنى، كان ثمة صراع آخر يدور في غرب أوروبة بين السلطة الكنسية والسلطة الزمنية، للفصل في أمر طالما أثار النزاع والجدل، أمر يلخصه هذا السؤال: من هو السلطان الأكبر: البابا أم الامبراطور؟

وكان بطل هذا الدور الجديد من أدوار ذلك الصراع، الامبراطور فردريك الثاني (الأنبرور) الذي ساعدته البابوية في القضاء على خصومه، فما كاد يجمع تحت سلطانه صقلية وجنوبي إيطالية بالإضافة إلى ألمانية، حتى أخذ يهدد النفوذ البابوي بدهائه العظيم، ومهارته الديبلوماسية، وقوة شخصيته، وشدة بطشه، وعمله على ضم شمال إيطالية إلى مملكته المترامية.

وكان الامبراطور قد وعد البابا غريغوري التاسع غير مرة بتنظيم حملة صليبية جديدة تعيد للفرنجة في المشرق معنوياتهم التي انهارت بعد هزائمهم المتكررة، ولكنه أخلف هذا الوعد، ولعله لم يكن جاداً به قط.

وأراد البابا أن يوجد للأمبراطور مصلحة مباشرة في الحرب الصليبية، فأيد فكرة زواجه من يولاند ابنة حنا دو برين ووريثة عرش بيت المقدس من أمها ماري، على ان يعقد الزواج في بلاد الشام، فاستدعى فردريك خطيبته إلى صقلية وعقد زواجه عليها، وكانت

في الرابعة عشرة من عمرها، إلا انه وعد البابا مرة أخرى بالقيام بالحملة الصليبية المنتظرة في آب سنة ١٢٢٧م، وتعهّد له بايداع كفالة قدرها مائة ألف أوقية من الذهب في خزينة البابوية برومة، ولا تردّ إلى الامبراطور إلا إذا وفى بوعده[١]. ولكن مرت الأيام دون أن ينفذ الامبراطور عهده أو يحقق وعده، فكتب البابا إلى ملوك أوروبة يشكوه لحنثه بيمينه، فاستاء العاهل من ذلك وأعلن خصومته للحبر الروماني، واستمال أشراف رومة فثاروا على البابا وأكرهوه على الفرار من رومة، فانتضى البابا حينئذ سيفه الروحي وأعلن الحرم على الامبراطور[٢].

وكان فردريك من أب ألماني وأم نصف إيطالية، وقد نشأ في صقلية في جو الثقافة التي خلّفها العرب، والثقافة الغربية التي أدخلها النورمان[٣]، فأجاد ست لغات منها اللغة العربية، وشغف بالعلوم والآداب، وجعلت منه هذه المؤثرات المختلفة شخصية فذة بين معاصريه، أكثر تحرراً، وأعظم تسامحاً، وأقوى مقدرة على التجرد العلمي، وأكثر اتصافاً بالروح العالمية، حتى سماه المؤرخون «أعجوبة الدنيا»، ويقول لامونت انه «كان لا أدرياً متسامحاً مع جميع الأديان»[٤]. وفي وسعنا القول ان عصر النهضة الإيطالية، إنما بدأ في عصر فردريك الثاني وفي بلاطه بالذات.

وقد سار فردريك في صقلية على غرار روجر الثاني الذي امتد حكمه فيها ما يقارب نصف قرن، والذي كانت تغلب عليه في مظاهر حياته العادات العربية، ويقرب إليه العلماء العرب وأشهرهم العالم الجغرافي الادريسي الذي كان صديقاً حميماً له، وكانت اللغة العربية في عهده إحدى اللغات الرسمية المعترف بها، وعاش المسلمون والمسيحيون في الجزيرة خلال حكمه في إخاء وتفاهم وثيقين، وقد رفض الاشتراك في الحملات الصليبية على الشرق أو في الهجوم على القيروان.

وكانت تربط فردريك بالكامل ملك مصر، علاقات ودية، مبعثها محبة كل منهما للعلم، واهتمامهما بقضاياه، ورعايتهما لرجاله، واشتراكهما في المناظرات الأدبية والعلمية التي

---

(١) الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٩٤.

(٢) تاريخ سورية للمطران الدبس. ج٦، ص٢٣٢.

(٣) الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٩٥.

(٤) دراسات اسلامية ص١٢٨.

تعقد في بلاطيهما بين النخبة من أهل الفكر. وقد بعث فردريك إلى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على الشيخ علم الدين الحنفي وأرسل جوابها إليه(٥). وكما كان فردريك معروفاً بالتسامح مع المسلمين، فقد بلغ من عطف الكامل على رعاياه المسيحيين درجة جعلت الكنيسة القبطية تعدّه أكثر الملوك إحساناً إلى أبنائها، وقد عرف القديس فرنسوا الأسّيزي ذلك عنه فزاره وباحثه في بعض أمور الدين(٦).

وهذا ما جعل الملك الكامل يستنجد بالامبراطور فردريك الثاني، حين تحول أخوه الملك المعظم من محالفته إلى مخاصمته، واستنجد المعظم بجلال الدين الخوارزمي عليه وعلى أخيه الملك الأشرف، فأرسل الكامل إلى فردريك رسالة مع الأمير يوسف بن شيخ الشيوخ، يدعوه فيها للقدوم إلى الشام، ويعده بأن يعيد إليه بيت المقدس(٧).

وأمام هذه الدعوة أو هذا الإغراء، لم يتردد الامبراطور ـ وهو الذي أخلف وعوده المتعددة للبابوية بالزحف على بلاد الشام، ولم يأبه لقرار الحرمان الذي أصدره بحقه البابا غريغوري التاسع لهذا السبب ـ في الاستجابة لطلب الملك الكامل، ولا سيما ان الفرصة غدت مؤاتية له ليظهر نفسه بغير الصورة الجاحدة التي أرادت البابوية ان تصوره بها.

وهكذا تألفت الحملة الصليبية السادسة برئاسة فردريك الثاني، إلا انها كانت حملة فريدة من نوعها، لأنها لم تنعم ببركة البابا، كما ان زعيمها محروم منه، وهي فوق ذلك حملة صغيرة لم يزد عدد المشتركين فيها على خمسمائة فارس، لأن معظم الأمراء والقادة قد انفضوا عن الامبراطور المحروم من الكنيسة، وهذا العدد لا يكفي للانتصار على المسلمين في معركة جانبية صغيرة، فضلاً عن أن أولئك الفرسان لم يأتوا بدافع الحماسة الدينية أو أية رغبة في العدوان أو الانتقام، وكانت الحملة أشبه ما تكون بزيارة ودية يقوم بها الامبراطور مع أفراد حاشيته لصديقه ملك مصر(٨).

---

(٥) السلوك، ج ١، ص ٢٣٢.

(٦) تاريخ العرب لحتي وزميليه، ج ٢، ص ٧٧٤.

(٧) السلوك، ج ١، ص ٢١٦ ـ ٢٢٣؛ المختصر في تاريخ البشر، ج ٣، ص ١٤٨؛ الكامل، ج ١٢، ص ٣١٥.

(٨) Grousset; Hist. des Croisades, III. p. 281

إلا أن فردريك الثاني لم يصل إلى عكا إلا في أواخر سنة ١٢٢٨م ٦٢٦هـ، بعد ان مر بجزيرة قبرص لتوطيد نفوذه وتثبيت حقوقه فيها. وكان الملك المعظم صاحب دمشق قد فارق الحياة في السنة الماضية، وزال بوفاته الخطر الذي كان يتهدد الكامل والذي دعا الامبراطور من أجله، بل ان الكامل ما لبث ان اتفق مع أخيه الأشرف على إقصاء الملك داود ابن المعظم عن عرش ابيه واقتسام مملكته، وبادر الكامل إلى احتلال القدس ونابلس، واحتل الأشرف دمشق، وعوّض الناصر داود بالكرك والبلقاء وبعض النواحي التابعة لهما.

وقد حار الكامل في الموقف الذي يجب ان يتخذه من الامبراطور، لأنه هو الذي دعاه إلى الشام وألحّ عليه في المجيء إليها ليناصره على خصمه، واعداً إياه بقسم من أملاك هذا الخصم وهو أخوه نفسه، فلما وصل إليها لم يعد في حاجة إلى مساعدته لأن هذا الخصم كان قد غاب، وغدت الأملاك الموعودة جزءاً من مملكته، وأضحى من واجبه ان يدافع عنها، إن لم يكن بعامل الرغبة الصادقة في المحافظة عليها، فبعامل الحفاظ على سمعته أمام جماهير المسلمين.

ولم يكن موقف فردريك الثاني أقل دقة وحرجاً، لأنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة، مغضوباً عليه من البابوية، معتمداً على وعد الكامل له بإعطائه بيت المقدس لاستعادة نفوذه في الغرب، ولو جاء غازياً محارباً لاستقدم معه جيشاً قادراً على الغزو والحرب، أما الآن فان جماع قوته خمسمائة فارس، وهو لا يعتمد على أية مناصرة من القوى الإفرنجية في الشام، لان قادة هذه القوى تأبى النضال تحت لواء رجل محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها. أما إذا عاد إلى أوروبة دون أن يحقق أيّ انتصار، فانه سيعطي خصومه، والبابوية في مقدمتهم، سلاحاً قوياً للسخرية منه والتشهير به، فالمسألة بالنسبة إليه إذن «كانت تعني مستقبل عرشه في الغرب الأوروبي، ومصير المعركة بينه وبين البابوية»(٩)، وهو لم يتردد في التصريح لاصدقائه من المسلمين في الشرق بأنه «ما له غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصده حفظ ناموسه عند الفرنج»(١٠).

وهكذا كشف ملكان، مسيحي ومسلم، عن حقيقة الأهداف الدنيوية التي تسيّرهما، في

(٩) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٠٨.

(١٠) السلوك، ج١، ص٢٢٠.

صراع وصف بأنه ديني، ولم يستطع أيّ منهما إلا أن يتستر بهذه الصفة وهو أبعد ما يكون عنها. ولكن الأغرب والأعجب من هذا، موقف البابا غريغوري التاسع الذي أخذ يسعى لدى الكامل، ويرسل إليه الكتب. محرضاً إياه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور، لأنه «كان يعلم انه لو قدر لفردريك الانتصار في مهمته، فان ذلك سيكون في نظر المعاصرين بمثابة حكم الله للامبراطور المحروم، وفي هذا فصل الخطاب بين فردريك وغريغوري أو بين الامبراطورية والبابوية[11].

وانتقل فردريك إلى يافا، وأخذ يلهي من معه من الرجال بترميم الأسوار، بينما كانت المفاوضات تجري بين العاهلين، فقد بعث الكامل رسوله الأمير فخر الدين يوسف الذي سبق ان حمل إليه دعوة ملك مصر للقدوم إلى الشام، مرحباً به ومقدماً إليه هدايا ثمينة، ومصارحاً إياه في الوقت نفسه بأنه إنما وعده ببيت المقدس ثمناً لمناصرته اياه على اخيه المعظم، وبما انه لم يعد في حاجة إلى هذه النصرة، وان بيت المقدس غدت من أملاكه، فانه لا يستطيع التنازل عنها، لأن ذلك سيثير عليه نقمة المسلمين.

وشرح الامبراطور حرج موقفه، وأنشأ يرجو ويستعطف، حتى قيل انه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات[12]. وقد جاء في إحدى رسائله إلى السلطان: «أنا أخوك واحترم دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وأنا وريث مملكة القدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا أروم ان أنازعك ملكك، فلنتجنب إراقة الدماء»[13]، وجاء في رسالة أخرى: «انا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج. وأنت تعلم اني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فان رجعت خايباً انكسرت حرمتي بينهم... وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها فليس لها دخل طائل، فان رأى السلطان ان ينعم عليّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر..»[14].

---

(١١) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٠٨ نقلاً عن Kantorowicz, Frederick the Second, p. 185

(١٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٠١٠.

(١٣) تاريخ سورية للمطران الدبس، ج٦، ص٢٣٤.

(١٤) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠١٠، نقلاً عن: المكتبة الصقلية، ج٢، ص١٤ : ذيل الباب الثاني والسبعين من كتاب الوافي بالوفيات.

ومرة أخرى، كانت الكلمة الطيبة أفعل من السيف، وكانت العلاقة الودية بين عاهلين أجدى من الحقد المفتعل بين قارتين ومذهبين، فبعد مفاوضات استمرت شهرين كاملين، عقدت بين الفريقين في ١٨ شباط (فبراير) ١٢٢٩م ٦٢٧هـ، اتفاقية تقضي بإقرار السلام بينهما لمدة عشر سنوات، وان تمنح للصليبيين القدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا، على أن تبقى القدس على ما هي عليه «ولا يجدد سورها، وان تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج، وان الحرم - بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى - يكون بأيدي المسلمين، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة، ويتولاه قوّام من المسلمين، ويقيمون فيه شعائر الإسلام من الأذان والصلاة»[١٥].

وسرعان ما وضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ «فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج[١٦]» كما أعلن فردريك الثاني في جنوده: «اشكروا الله واحمدوه إذ أتمّ عليكم نعمته، فان اتمامها كان معجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة أو الحروب. وما أتمه الله لم تستطع قوة من قوى البشر على الأرض اتمامه لا بكثرة العدد ولا بالقوة ولا بأية وسيلة أخرى»[١٧].

يقول برييه: «وهكذا حقق فردريك الثاني ما عجزت عن تحقيقه الحملة الصليبية الثالثة، وما أعيا ريشارد قلب الأسد وجيوشه اللجبة، دون ان يخوض معركة أو يخسر رجلاً واحداً»[١٨].

إلاّ أن الرأي العام الاسلامي لم يجد لاتفاقية الكامل مبرراً ولم يستطع لها تفسير «فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار» أما في القدس «فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان»، وقد بلغ من ذلك ان فردريك نفسه شعر بحرج موقف السلطان «فاعتذر للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك»[١٩].

---

(١٥) السلوك، ج١، ص٢٣٠؛ المختصر في أخبار البشر، ج٣ ص١٤٧؛ الكامل، ج١٢، ص٣١٥.
(١٦) السلوك، ج١، ص٢٣١.
(١٧) شمس العرب ص٤٢٧.
(١٨) L'Eglise et l'Orient, p. 203
(١٩) السلوك، ج١، ص٢٣١.



فردريك الثاني «اعجوبة الدنيا»

وإذا كان المسلمون قد شعروا بالغبن من جراء تنازل الملك الكامل عن قسم كبير من فلسطين دون قتال، لامبراطور لا يسير في ركابه سوى خمسمائة فارس غير قادرين على الانتصار في معركة جانبية صغيرة، فان العالم المسيحي لم يهلل في الوقت نفسه لاستعادة بيت المقدس على يد امبراطور محروم، ولم يرحب أحد بإقرار السلام وحقن الدماء في الأراضي المقدسة، وبلغ من توتر الموقف ان «وقع جيرولد بطريرك مملكة بيت المقدس، قرار الحرمان على المدينة نفسها، وعلى من فيها من المسيحيين إذا هم استقبلوا الامبراطور المحروم من الكنيسة»[٢٠]، وقد توقفت على أثر ذلك الصلوات في الكنائس، وامتنع الكهنة عن أداء المراسم الكنيسية، وحُرض الجيش على العصيان، وقُذف الامبراطور وفرسانه بالقاذورات[٢١].

وهكذا اضطر فردريك الثاني حين دخل بيت المقدس في ١٧ آذار (مارس) سنة ١٢٢٩م ٦٢٧هـ، وتسلم مفاتيحها من القاضي شمس الدين قاضي نابلس الذي أرسله السلطان لمرافقة الامبراطور، إلى أن يتوج نفسه بيده في كنيسة القيامة.

وقد زار الامبراطور المسجد الأقصى، وعلم وهو يقوم بهذه الزيارة، ان السلطان أصدر أوامره بالتوقف عن الأذان خلال إقامة فردريك الثاني في القدس، احتراماً لشعوره، فأخذ فردريك ذلك على القاضي شمس الدين قائلاً: «أخطأت فيما فعلت، والله انه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل»[٢٢].

ويروي المقريزي ان العاهل شاهد قيساً يحمل الانجيل ويريد دخول المسجد الأقصى فنهاه عن ذلك ومنع دخول أي شخص من الفرنجة إليه إلا بعد استئذان، وقال: «إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره»[٢٣].

وتقول زيغريد هونكه: «وعلى الرغم من ان الذي حققه فردريك الثاني الخارج على الكنيسة باتفاقه مع السلطان الكامل كان أنجح مما حققته الحروب الصليبية كلها، فان

---

(٢٠) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠١٣ نقلاً عن: Cambridge, Med. Hist. p. 314

(٢١) شمس العرب ص٤٢٩.

(٢٢) السلوك، ج١، ص٢٣١.

(٢٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٣٢.

أعداءه لم يتركوا فرصة العمل ضده إلا واستغلوها، فقد أرسل رئيس فرسان المعبد سراً برسالة يبدو انها بإيحاء البابا غريغوريوس التاسع، يخبره فيها بانهم - أي الفرسان - قد علموا ان الامبراطور سيخرج بصحبة نفر من اتباعه في ساعة معينة، من بيت المقدس إلى مكان معين من ضفة نهر الأردن الشمالية للصلاة.. وهم يدعون السلطان لانتهاز هذه الفرصة للفتك بالامبراطور وقتله.. واشمأز الكامل من خيانة هؤلاء الفرسان، فأرسل إلى الامبراطور نفسه هذا الخطاب المختوم بختم رئيس فرسان المعبد»(٢٤).

وبعد يومين من دخول الامبراطور إلى بيت المقدس، وصل إليها أسقف قيسارية ليوقع قرار الحرمان على المدينة وفقاً لقرار البطريرك جيرولد، فتألم فردريك الثاني من ذلك ألماً شديداً، وغادر القدس إلى يافا ثم انتقل منها إلى عكا حيث جمع رجال الدين وبعض النافذين وبرر أمامهم ما تذرعوا به في محاربتهم له من مآخذ على اتفاقية يافا التي تتعلق بمنح المسلمين في بيت المقدس بعض الحقوق والسماح لهم بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى، فلم يصغ إليه أحد منهم.

وكانت المدينة منقسمة إلى أنصار للبابوية ومؤيدين للامبراطورية، فأراد ان يستعين بهؤلاء لاتخاذ تدابير مشددة بحق الفريق الآخر، لكن شؤونه في الغرب كانت أهم من مشكلاته في الشرق، وقد وافته الأنباء بان الجيش البابوي قد صادر ممتلكاته في إيطالية، وبأن حنا دو برين والد زوجته يولاند، قد انضم إلى خصومه، فبادر بالرحيل في ١٠ حزيران (يونيو) سنة ١٢٢٩م ٦٢٧هـ، إلى قبرص فانطاكية، حيث عقد الصلح مع البابا بسان جرمانوس سنة ١٢٣٠م٦٢٨هـ، فرفع عنه قرار الحرمان، واعترف بانه حقق للمسيحية مكاسب عظيمة.

ولكن الصلح بين الفريقين كان قصير الأجل، إذ لم يلبث الخلاف ان اشتد بين البابوية والامبراطورية بعد وفاة البابا غريغوري التاسع سنة ١٢٤٣م ٦٤١هـ، إذ عقد خلفه البابا انوسنت الرابع مجمعاً في ليون سنة ١٢٤٥م ٦٤٣هـ، قرر فيه حرمان فردريك الثاني من جديد، واشتد بذلك النضال بين البابا والامبراطور وحاول كل منهما ان يضم الرأي العام إلى جانبه لتعزيز مركزه، وتأييد السلطة الدينية أو السلطة الزمنية. ولم تفت المؤرخين المسلمين حدة هذا الصراع ومعرفة بعض تفاصيله، ويقول العيني في ذلك: «ان البابا

---

(٢٤) شمس العرب، ص٤٢٩.

غضب على الامبراطور وحرّض خواصه الملازمين له على قتله، وكانوا ثلاثة، وقال: «قد خرج الانبرور عن دين النصرانية ومال إلى المسلمين فاقتلوه وخذوا بلاده». وأقطع كل واحد مملكة، فأعطى واحداً صقلية، والآخر تصقانة، والآخر بولية، وهذه ممالك الأنبرور. وكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الأنبرور، فعمد إلى مملوك له فجعله في مكانه على التخت، وأظهر أنه قد شرب دواء، وأرسل إلى الثلاثة فجاءوا والمملوك نائم على التخت فظنوه الانبرور. وقد اختفى الانبرور في مجلسه ومعه مائة فارس، فلما دخلوا على المملوك مالوا عليه بالسكاكين فقتلوه، فخرج عليهم الانبرور، فذبحهم بيده وسلخهم وحشا جلودهم تبناً وعلقهم على باب القصر، وبلغ الخبر البابا، فبعث إلى قتاله جيشاً، والخُلف واقع بينهم، وهذا الانبرور هو الذي أعطاه الملك الكامل القدس»[٢٥].

والواقع ان ما قام به فردريك الثاني في صقلية، وما أدخله من أنظمة جديدة في الحكم، كانت له آثار بعيدة المدى، فهو الحد الذي انتهت عنده الفكرة القديمة عن مدلول حكومة العصور الوسطى. فبدلاً من وجود مجتمع واحد يشمل العالم المسيحي ولا يتجزأ إلا أجزاء متعددة داخلة فيه، ظهر نظام مركزي مطلق غير مسؤول إلا أمام القائمين عليه. وبدلاً من تلك النظرية التي كانت تفترض بناء سلطان الدولة على التزام أدبي، ظهرت هذه السلطة المطلقة التي لا حد لها. وهكذا فقدت الكنيسة في صقلية تلك المكانة التي كانت تتبوأها في كل دولة من دول العصور الوسطى، ولم يعد مقبولاً أن يوجد ميدان لأي نشاط سياسي ليس للسلطة الزمنية حق التدخل فيه[٢٦].

---

(٢٥) الشرق العربي بين شقي الرحى ص٢٤.

(٢٦) تاريخ العالم لهامرتن، ج٥، ص٢٢٩ ـ ٢٣١.

الفصل السابع والعشرون

لويس التاسع الملك القديس

انقضت بين الحملة الصليبية السادسة والحملة الصليبية السابعة عشرون سنة تعاقبت خلالها أحداث جسام على مسرح الشرق الأوسط، كان أبرزها الصراع بين حنا دو ابلين صاحب بيروت وفردريك الثاني، فقد احتل حنا دو ابلين قبرص فأرسل فردريك جيشاً احتل بيروت، فبادر دو ابلين إلى إنزال جيوشه قرب طرابلس وهاجم بيروت فاستعادها من جديد.

وكانت مملكة بيت المقدس تابعة اسمياً للامبراطورية الغربية، لكن الامبراطور وخلفاءه كانوا في شغل عنها بمشكلاتهم المتعاقبة في أوروبة، فترك ذلك فراغاً على صعيد الحكم والقيادة. وكان النفوذ الإسلامي والنفوذ الغربي يتقاسمان القدس، فلا يستطيع أيّ فريق أن يقوي مراكزه ويوطد أعماله لشكه في المستقبل وتخوفه من مفاجأة طارئة.

وظلت عكا مركزاً لحكومة «مملكة بيت المقدس» بإشراف مجلس بلدي يرأسه حنا دو ابلين خصم فردريك الثاني، بينما كان يحكم القدس مندوب عن الامبراطور بوصفه الوصي على ابنه كونراد من زوجته يولاند، وعبثاً حاول البابا إقناع أمراء الفرنجة بأن من حق فردريك الثاني الإشراف العام على شؤون الصليبيين في الشام، وذلك قبل ان تقع الواقعة بينهما من جديد.

وكانت المعارك لا تنقطع بين الاسبتارية والداوية في إمارتي انطاكية وطرابلس

وسكان المناطق المجاورة لها، إلا انها معارك جانبية حرص الفريقان على ألا تتحول إلى حرب عامة، كما تجددت المعارك في عهد بوهيمند الخامس أمير انطاكية وطرابلس بينه وبين ملك أرمينية «ولم يستطع بوهيمند الخامس طوال حكمه أن ينسى للأرمن انهم استدعوا أخاه ليتولى الحكم ثم تخلصوا منه بالقتل»(١).

وعلى الجانب الآخر من خارطة الشرق الأدنى، كان الأيوبيون في صراع مع سلاجقة الروم، ثم صالحوهم واتفقوا معهم على صد هجوم المغول الذي عاد فتجدد بعد ان توقف فترة من الزمن إثر وفاة جنكيزخان. إلاّ أن الأيوبيين والسلاجقة ما لبثوا ان اختلفوا من جديد. ثم اختلف الأيوبيون في ما بينهم فتآمروا على الكامل، فسارع هذا إلى احتلال دمشق وإقصاء صاحبها أخيه الملك الصالح، ثم ما لبث الكامل ان توفي سنة ٦٣٦هـ ١٢٣٨م، مخلّفاً لابنه الملك العادل الثاني السلطة العليا في مملكة الأيوبيين. يقول محمد كرد علي: «وأشبه حال الكامل حال معاوية بن أبي سفيان فانه حكم في الشام نائباً نحو عشرين سنة وملكاً نحو عشرين. وكان الكامل ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير، أمنت الطرق في أيامه، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه»(٢).

واضطربت المملكة الأيوبية اضطراباً شديداً في عهد العادل الثاني، وغصت بأصحاب المطامع، وبدأت تتمزق وتسير نحو الانهيار. ونشبت الحروب بين اسد الدين شيركوه صاحب حمص حفيد أسد الدين القائد المعروف، والمظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة، كما استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق واشتبك في صراع عنيف مع أخيه العادل الثاني، واستعان كل منهما بفئة من أمراء الأيوبيين وبفريق من الخوارزمية الذين تفرقوا في البلاد بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتي، حاملين معهم الويل والخراب، مقدمين خدماتهم لهذا أو ذاك من الأمراء والسلاطين.

وبلغ هذا النزاع الداخلي أوجه عندما عاد الصالح اسماعيل إلى المسرح السياسي، فاحتل دمشق، ووقع الصالح أيوب في قبضة الناصر داود صاحب الأردن والكرك، فاقتاده أسيراً إلى قلعة الكرك، واقتيدت معه شجرة الدر وقليل من صحابته، فبقي في أسر الناصر شهوراً طويلة وهذا يفاوض بشأنه العادل في مصر، حتى يئس الناصر من بلوغ

---

(١) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٢٥

(٢) خطط الشام، ج٢، ص٩٨.

أمنيته في اعتلاء عرش دمشق عن طريق العادل، فأطلق سراح الصالح أيوب وسار معه لانتزاع مصر من العادل، وكان قادة الجند قد ثاروا بالعادل فأعلنوا الصالح أيوب سلطاناً على مصر.

ووصلت إلى الشام خلال تلك الفترة حملتان صليبيتان لا يسلكهما التاريخ في عداد الحملات الكبرى، عرفت الأولى بالحملة الفرنسية والثانية بالحملة الانكليزية.

وقد وصلت الحملة الفرنسية إلى عكا في أول ايلول (سبتمبر) سنة ١٢٣٩م/٦٣٧هـ، وعلى رأسها تيبوت الرابع أمير شمبانيا وملك النافار، «وعندما علم الناصر داود صاحب الأردن بنزول الصليبيين في عكا خرج على رأس جيش صغير قاصداً القدس. وكان الصليبيون قد عمروا القدس وحصنوها، وبذلك نقضوا الشروط المتفق عليها مع المسلمين، فتحجج الناصر داود بما فعله الصليبيون واستولى على القدس»(٣).

ولكن ما كاد الناصر داود يتحالف مع الصالح أيوب ويتولى هذا ملك مصر بدلاً من العادل الثاني، حتى غضب الصالح اسماعيل صاحب دمشق، ولا سيما ان الملك الجديد في مصر قد وعد الناصر داود بمساعدته في الاستيلاء على دمشق، فمد الصالح اسماعيل يده إلى الصليبيين «وطلب محالفتهم ضد الصالح أيوب في مصر والناصر داود في الأردن، وفي مقابل ذلك تعهد بإعطاء الصليبيين مدينة القدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن. ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن قلعة شقيف أرنون وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل»(٤).

وأمام هذا السخاء العجيب اشترك الصليبيون مع الصالح اسماعيل في الزحف على مصر مقابل وعد جديد منه بإعطائهم جزءاً منها. وكان الرأي العام الإسلامي قد نقم على الصالح اسماعيل نقمة شديدة، فما كاد جيشه يلتقي بجيش الملك الصالح قرب غزة حتى تخلى عنه من معه من القادة «وساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم، وأسروا منهم خلقاً لا يحصون»(٥).

---

(٣) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٢٤.

(٤) المرجع السابق، ج٢، ص١٠٢٧؛ انظر أيضاً: السلوك، ج١، ص٣٠٢؛ النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٢.

(٥) السلوك، ج١، ص٢٠٥.


ELLACOTT

وانسحبت فلول الإفرنج إلى عسقلان حيث عقدت صلحاً مع الملك الصالح أيوب، ولم تلبث الحملة الفرنسية أن عادت إلى بلادها في أيلول (سبتمبر) سنة ١٢٤٠م ٦٣٨هـ، بعد أن استعادت للفرنجة القدس التي كان مجيئها إلى الشرق السبب في فقدانها، بالإضافة إلى صفد وعسقلان وبعض الحصون.

ويقول لا مونت في وصف هذه الفترة العجيبة من الحروب الصليبية ذات الأحداث السريعة المتلاحقة: «وكان المسلمون منهمكين انهماكاً شديداً بخلافاتهم الشخصية بحيث انصرفوا عن محاولة القيام بأي عمل موحد ضد اللاتين. حتى ان أفراد الطوائف العسكرية الكبيرة، وهم ألد أعداء الإسلام، نسوا المواثيق التي قطعوها على أنفسهم، وحالفوا، دون خجل، المسلمين ضد النصارى، وخاصة ضد الطوائف العسكرية الأخرى. فقد تحالف فرسان الداوية مع دمشق ضد فرسان الاسبتالية ومصر. وكانت المعارك التي وقعت بين طوائف الفرسان النصارى المتنافسة من أضرى المعارك التي حدثت في هذه الفترة»[٦].

وما كادت الحملة الفرنسية تغادر الشرق حتى قدمت الحملة الإنكليزية إلى عكا في ١١ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٢٤٠م ٦٣٨هـ، يقودها ريشارد كورنول شقيق ملك انكلترا، وقد اكتفى ريشارد بتقوية حصون عسقلان، وبعقد اتفاقية جديدة مع الملك الصالح توطد دعائم السلام وتزيد من مكاسب الصليبيين بعض الشيء.

والواقع ان مكاسب الصليبيين كانت تزداد بفعل النزاع المستمر بين أمراء الأسرة الأيوبية، وقد بلغ من حدة هذا النزاع ونتائجه أن حاول كل من الملوك الأيوبيين الثلاثة: الصالح أيوب ملك مصر، وعمه الصالح اسماعيل ملك دمشق، والناصر داود ملك الأردن، محالفة الصليبيين ضد خصومه مقابل تعهده بأن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة مطلقة، بمعنى ان يستولي الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة[٧].

وقد آثر الصليبيون محالفة الصالح اسماعيل والناصر داود، لأن توطيد أواصر الصداقة مع ملكي دمشق والأردن كان أجدى عليهما من محالفة ملك مصر، ولا سيما ان

---

(٦) دراسات إسلامية، ص١٣٠ ـ ١٣١.

(٧) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٤٢؛ خطط الشام، ج٢، ص١٠٣.

غزو مصر بالتعاون مع هذين الملكين يجدد أمامهم الأمل في احتلالها والاستيلاء على كنوزها وخيراتها، مما دفع الملك الصالح أيوب إلى الاستعانة بالخوارزمية ودعوتهم لمساندته في صد الهجوم الثلاثي، فزحف عشرة آلاف منهم على بلاد الشام «وهم ينهبون ويقتلون ويسبون»[8]، وارتكبوا من الفواحش ما ارتكبه التتار[9]، واستولوا على طبرية ونابلس واحتلوا القدس في ١١ تموز (يوليو) سنة ١٢٤٤م ٦٤٢هـ.

وقد استنجد فرنجة القدس بأمير انطاكية وطرابلس، وبملك قبرص، وبالصليبيين في عكا، وبحلفائهم المسلمين في دمشق والأردن، فلم ينجدهم أحد. وكان مسلك الخوارزمية في القدس وفي مطاردة الفرنجة الذين غادروها إلى يافا، يتناقض مع مسلك صلاح الدين وخلفائه الذين ورثوا عنه شمائل النبل والمروءة والتسامح. ثم سار الخوارزمية إلى عكا حيث التقى بجيش الملك الصالح أيوب في غزة، واشتركوا معه في صد الجيش الشامي والجيش الصليبي اللذين كانا يقاتلان جنباً إلى جنب وتحت أعلام واحدة، إلا أن الصالح أيوب وحلفاءه استطاعوا ان ينزلوا بخصومهم هزيمة ساحقة «وأسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة»، وخسروا عدداً كبيراً من فرسانهم وشجعانهم.

وكان من نتائج هذه المعركة ان انتزع الملك الصالح أيوب من الناصر داود القدس والخليل وبيت جبريل والأغوار، ثم حاصر دمشق وفيها صاحبها الصالح اسماعيل وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص. ولما ضاق صاحب دمشق بالحصار ذرعاً، سيّر وزيره أمين الدولة إلى العراق متشفعاً بالخليفة العباسي ليصلح بينه وبين أخيه، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك. وما لبثت دمشق ان سقطت في يد الملك الصالح أيوب، ولم ينفع الملوك والأمراء الموتورين منه نقمة الخوارزمية عليه، وما قاموا به من أعمال ثأرية رهيبة حين منعهم من دخول الشام وأقطعهم بلاد الساحل، في حين كانوا يعتقدون بأنه سيقاسمهم الغنائم ويشاطرهم الملك[10]، فقد استطاع بحزمه وثباته وبما لجأ إليه من أعمال الحيلة والتدبير، أن يصدهم عن دمشق بعد حصار رهيب أكل الناس فيه لحوم الموتى، وان يقهرهم بعد ذلك في معركة فاصلة وقعت بين بعلبك وحمص سنة ١٢٤٦م ٦٤٤هـ،

---

(٨) السلوك ج١ص٣١٦

(٩) خطط الشام، ج٢، ص١٠٢.

(١٠) ذيل الروضتين ص١٧٤؛ السلوك، ج١، ص٣١٧؛ خطط الشام، ج٢، ص١٠٤.

«فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها، ومضت طائفة منهم إلى التتار وصاروا معهم، وانقطع منهم جماعة وتفرقوا في الشام وخدموا به»(١١).

وبينما كان الصالح أيوب يتابع انتصاراته في الشام والجزيرة، كان جيشه المصري يتابع بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ معاركه مع الفرنجة، وقد أسفرت هذه المعارك عن استيلائه على قلعة طبرية في ١٧ حزيران (يونيو) سنة ١٢٤٧م ٦٤٥هـ، وعن محاصرته عسقلان براً وبحراً واحتلالها في منتصف تشرين الأول (اكتوبر)، وقد بادر إلى تدميرها كي لا تتخذ من جديد قاعدة لمهاجمة مصر.

وهكذا استعادت المملكة الأيوبية بزعامة الملك الصالح أيوب وحدتها بكاملها تقريباً حتى حلب والجزيرة العليا(١٢)، فلما زار القدس سنة ١٢٤٨ ـ ١٢٤٩م ٦٤٦ ـ ٦٤٧هـ، أعاد تجديد حصونها وتقوية دفاعها، وتوافد الملوك والأمراء إليها لإعلان ولائهم له. بينما تقلصت حدود الصليبيين إلى يافا، فكان لا بد من أن تقوم أوروبة بمحاولة جديدة لإنقاذ مستعمراتها في الشرق.

كانت أوروبة التي استغاث بها الفرنجة في المستعمرات اللاتينية بالمشرق في منتصف القرن الثالث عشر، تختلف عن أوروبة التي أعدت الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادي عشر. فالتعصب الديني كان في طريق الزوال، وحرية الفكر كانت قد بدأت تنير مشاعلها في معاقل الظلام، وكان العلم ينصب أعلامه المظفرة واحداً بعد آخر على حصون الخرافة والطغيان.

يقول بروكلمان: «وكانت فكرة الحرب في سبيل الأرض المقدسة قد انكمشت في تلك الفترة، وعفّى عليها النسيان أو كاد»(١٣).

وهكذا أعرض ملوك أوروبة عن تلك الاستغاثة، ولم يستجب لها سوى ملك واحد، وفي ظروف وبواعث خاصة، هو لويس ملك فرنسة (ريد افرنس(١٤))، الذي اشتهر بورعه

---

(١١) النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥؛ السلوك، ج ١، ص٣٢٢ ـ ٣٢٤؛ ذيل الروضتين ص١٧٨، خطط الشام، ج٢، ص١٠٦.

(١٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ج٢، ص٢٣٩.

(١٣) المرجع السابق، ج٢ ص٢٢٦.

(١٤) كانت كلمة ملك (روا Roi) تلفظ بالفرنسية القديمة (روي Roy) ومن هنا كانت تسمية العرب لملك فرنسة: ري افرنس أو ريد افرنس.

وتقواه حتى لقب «الملك القديس». وكان البابا انوسنت الرابع يقول عنه: «هذا أعز أولادي» ويسميه الناس «ابن البابا في الرب» وقد قيل فيه: «ان كل حياته كانت عبارة عن صلاة»[١٥]، فقد أنشأته أمه الملكة بلانش، ابنة الفونس التاسع ملك قشتالة وزوجة لويس الثامن، نشأة دينية محضة حتى انها كانت تقول انه أهون على نفسها أن تشاهد مصرعه بعيني رأسها من أن يرتكب خطيئة تغضب الرب. فملكت عليه التعاليم الدينية نفسه وسيطرت على جوانحه، وانعكس أثرها في حياته غلاماً ويافعاً وشاباً وملكاً[١٦].

وقد أصيب لويس التاسع بعد أن تولى الملك بمرض شديد الوطأة أشرف فيه على الموت، وانتابته غيبوبة فارق وعيه فيها، فخيل لمن حوله انه قضى نحبه، فأرادت إحدى السيدات ان تسجيه قائلة انه مات، واعترضتها سيدة أخرى قائلة ان أنفاسه ما تزال تتردد في صدره، وإذا به يستفيق من غيبوبته، ويتماثل إلى الشفاء. وفي إحدى نوبات هذا المرض، نذر الملك القديس على نفسه، إن هو شفي من دائه، القيام بصليبية جديدة قرباناً لربه وشكراً لنعمته.

وهكذا كانت الحملة الصليبية السابعة فرنسية محضة، وكان على رأسها لويس التاسع وزوجته الشابة مرغريت دو بروفانس وأخواه روبير دو أرتوا وشارل دو انجو وعدد من الأمراء والفرسان، واشتركت انكلترة فيها بفرقة رمزية صغيرة بقيادة وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالسبوري.

والواقع ان بقايا الصليبيين في المشرق كان معظمهم من الفرنسيين أو المتحدرين من أصل فرنسي «حتى لقد وصف بعض المؤرخين الحركة الصليبية بأنها حركة توسع فرنسية في العصور الوسطى»[١٧]، وقد جاءت الحملة الصليبية السابعة تؤكد ذلك، وتحمل بالرغم من صفتها الدينية الظاهرة، طابعاً استعمارياً محضاً. وعلى الرغم من تظاهر فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية في الغرب، بتأييد الحملة، فقد أرسل إلى الملك الصالح أيوب وهو ابن صديقه القديم الملك الكامل، ينبئه بتحركاتها وأهدافها[١٨]، كما ان

---

(١٥) تاريخ العرب لحتّي وزميليه ج٢ ص ٧٧٦

(١٦) الشرق العربي بين شقي الرحى ص١٠٤.

(١٧) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٥٤.

(١٨) المواعظ والاعتبار، ج ١، ص٢١٩ الشرق العربي بين شقي الرحى حس..

البندقيين عارضوا الحملة ولم يشتركوا فيها حفاظاً على مصالحهم التجارية في مصر ولا سيما في الاسكندرية(١٩).

وقد أبحر لويس التاسع من فرنسة في ٢٥ آب (أغسطس) سنة ١٢٤٨م ٤ جمادى الأولى ٦٤٦هـ، وبعد ان قضى في قبرص فصل الشتاء، واجتمع هناك بقادة الصليبيين في الشام، متشاوراً معهم، داعياً إياهم إلى الاتحاد ونبذ الأحقاد، اتجه باسطوله إلى دمياط فوصلها في أوائل حزيران (يونيو) سنة ١٢٤٩م ربيع الأول ٦٤٧هـ، وكان عدد وحداته البحرية نحو ألف وثمانمائة قطعة(٢٠). تحمل نحو خمسين ألف مقاتل(٢١) من مشاة وفرسان، بكامل معداتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم، وبلغ من كثرة السفن انها كست البحر حتى لم يعد يُرى سوى الساريات وهي تعلو وتهبط فوق سطح الماء(٢٢).

وكان أول ما فعله الملك القديس حين بلغت سفنه مياه دمياط انه كتب إلى الملك الصالح مهدداً متوعداً، داعياً إياه إلى الاستسلام، وقد جاء في رسالته كما رواها المقريزي: «أما بعد فانه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول انك أمين الأمة المحمدية، واني غير خاف عنك ان اهل جزائر الاندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الإيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ما ردني ذلك عن الوصول إليك، وقتالك في أعز البقاع عليك، فان كانت البلاد لي، فيا هدية حصلت في يدي، وان كانت البلاد لك والغلبة عليك، فيدك العليا ممتدة إليّ، وقد عرّفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء»(٢٣).

---

(١٩) Hist. du Commerce, I, p. 409_412

(٢٠) اضطرت الرياح بعض هذه السفن للالتجاء إلى شواطىء الشام فلم تصل إلى الشاطىء المصري ثم لحق بعضها ببقية قطع الاسطول.

(٢١) يقدر بعض المؤرخين عدد أفراد حملة لويس التاسع بثمانين ألفاً (انظر قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص٣٥).

(٢٢) هزيمة لويس التاسع عشر على ضفاف النيل ص

(٢٣) السلوك، ج ١، ص٣٣٤ ـ ٣٣٥.

وكان الملك الصالح كبير الهمة عالي الأطماع تحدثه نفسه بالاستيلاء على الدنيا كلها، ويرى أبو المحاسن انه أعظم ملوك بني أيوب وأجلّهم، وأحسنهم رأياً وتدبيراً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين، فساوره الغضب حين تلقى رسالة لويس التاسع وأجابه عنها ساخراً: «وصل كتابك، وانت تهدد به بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه. فلو رأت عيناك أيها المغرور حدّ سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وأخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولا بدّ ان تزلّ بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك، فهنالك تسيء بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون. فإذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» وكن فيه على آخر سورة صاد. «ولتعلمن نبأه بعد حين» ونعود إلى قوله تبارك تعالى وهو أصدق القائلين: «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والله مع الصابرين». وإلى قول الحكماء: «ان الباغي له مصرع» وبغيك مصرعك وإلى البلاء يقلبك، والسلام»(٢٤).

وكان الملك الصالح لما علم باتجاه الفرنجة شطر دمشق، ما يزال يعالج ثورات الأمراء في الشام، ونزاع بعضهم مع بعض، فأسرع بالعودة إلى مصر بالرغم من اعتلال صحته، وعسكر بجيشه عند أشموم طناح في شهر صفر سنة ٦٤٧هـ أيار (مايو) ١٢٤٩، وهي إحدى المدن المصرية القديمة وتقع على الشاطىء الشرقي للبحر الصغير الذي كان يسمى وقتذاك بحر أشموم نسبة إلى هذه المدينة، ليكون في مقابلة الفرنج، وقد أفاد من تحذير فردريك الثاني له، فاحتاط لمواجهة الخطر، وعزز دفاع دمياط التي كانت هدف الصليبيين في حملاتهم السابقة على مصر.

لكن الصدام الأول أسفر عن هزيمة مروعة للمسلمين. فقد عهد الصالح أيوب إلى قسم من جيشه برئاسة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، بحماية الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط، وهي المنطقة التي اختارها لويس التاسع لإنزال جيوشه، فلم يستطع جيش الأمير فخر الدين منع الفرنجة من النزول، ونشبت معركة عنيفة بين الفريقين، تفوّق الفرنجة فيها لكثرة عددهم، وهرب فخر الدين بمن بقي سالماً من أفراد الجيش إلى الضفة

(٢٤) المرجع السابق.

الشرقية التي تقوم عليها دمياط، ولكنه خشي الاحتماء بالمدينة وتابع هربه إلى أشموم طناح.

وريع سكان دمياط وحاميتها حين شاهدوا هذه الهزيمة، وتراءت لهم صور المجازر الوحشية التي عاناها أهل المدينة أيام حملة جان دو برين فغادروا البلدة هاربين، بعد أن اشعلوا النار في الأسواق حتى لا تقع بما فيها من الخيرات غنيمة في أيدي الإفرنج، وفاتهم كما فات أفراد الجيش من قبل ان يحطموا الجسر المؤدي إلى الضفة الغربية، فغدت دمياط لقمة سائغة في أيدي الإفرنج، حتى إن هؤلاء لم يصدقوا الأمر، وظنوا ان إخلاء المدينة وترك أبوابها مفتوحة على هذا الشكل مكيدة «فتمهلوا حتى ظهر ان الناس قد فروا وتركوها، فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة، والأقوات والذخائر والأموال والأمتعة وغير ذلك، صفواً عفواً»[٢٥]، وكان سقوط دمياط بهذه السرعة وهذه الصورة، مصيبة لم يجر مثلها[٢٦].

يقول المقريزي: «وقد كانت دمياط في أيام الملك الكامل لما نازلها الفرنج أقل ذخائر وعُدداً منها في هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، وعندما فني أهلها بالوباء والجوع. وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة من شجعان بني كنانة فلم يغن ذلك شيئاً»[٢٧]. والواقع ان الملك الصالح لم ينس أن هزيمة دمياط السابقة إنما كان سببها انعدام الأقوات بعد طول الحصار، فشحنها بالجند والأقوات والآلات العظيمة والذخائر الوافرة[٢٨].

ويوجه المؤرخون اللوم إلى الأمير فخر الدين لانه لم يثبت في المعركة، ولم ينتقل إلى دمياط ليقاوم فيها، ويقال انه كان يطمع في الملك وقد خشي ان يموت الملك الصالح وهو في المعركة، فتخلى عنها وانتقل إلى معسكر السلطان[٢٩]، لكن تصرف فخر الدين بعد

---

(٢٥) السلوك، ج ١، ص٣٣٦.

(٢٦) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٨.

(٢٧) السلوك، ج ١، ص٣٣٥.

(٢٨) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص٥٦.

(٢٩) انظر الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٦١.


ELLACOTT

وفاة الملك الصالح ينفي ذلك. ويقول الاستاذ حسن حبشي: «لم يكن فخر الدين بالقائد الذي يستهان به، وما كان فراره من دمياط إلا عجيبة في تاريخه، وهو الفارس القائد باعتراف الامبراطور فردريك الثاني صديقه الحميم»(٣٠).

والواقع ان صحة الملك الصالح كانت تسوء يوماً بعد يوم، حتى انه لما وبخ مماليكه على تخاذلهم وقال لهم: «ما قدرتم تقضون ساعة بين يدي الفرنج» وأعدم نفراً من قادة المعركة، تخوف المماليك من نواياه وأرادوا الفتك به، فقال لهم فخر الدين: «اصبروا عليه فهو على شفا.. فان مات فقد استرحتم وإلا فهو بين أيديكم..»(٣١).

ولما اشتد المرض بالملك الصالح حُمل إلى قلعة المنصورية التي بناها والده الملك الكامل على الجانب الأيمن لفرع دمياط عند مفترق النيلين إلى دمياط وأشموم طناح، وقد أطلق عليها هذا الاسم لما احرزه الكامل فيها من انتصار على الصليبيين كما رأينا في الفصل الخامس والعشرين. وكان الصالح على الرغم من مرضه يطلب الإمداد، ويعيد تنظيم الجيش، ويعزز وسائل الدفاع، بينما كان لويس التاسع ينتظر وصول أخيه الفونس دو بواتيه بالامداد التي طلبها كي يواصل زحفه في مصر، وقد قضى في الانتظار خمسة أشهر انصرف خلالها إلى العناية بدمياط وتحصينها، وتحويلها إلى مدينة إفرنجية، وإقامة شعائر المذهب الكاثوليكي فيها.

وفات الملك القديس ان الفترة التي قضاها في الانتظار، قد أعطت خصومه وقتاً كافياً لتعزيز قواهم وتنظيم دفاعهم، بحيث بدأ مركز الثقل يتحول إلى جانبهم، مما جعل نابوليون يقول بعد نيف وخمسة قرون: «ان جمود الجيش الفرنسي في دمياط كان غلطة من أبعد الأغلاط عاقبة في تاريخ الحروب».

ولكن ثمة كارثة وقعت فجأة في معسكر المسلمين، هي وفاة الملك الصالح، أدت إلى ظهور امرأة على المسرح السياسي هي شجرة الدر.

---

(٣٠) الشرق العربي بين شقي الرحى ص٦٥.

(٣١) السلوك، ج١، ص٣٣٦.

الفصل الثامن والعشرون

شجرة الدّر ومعركة المنصورة

يمتزج في سيرة شجرة الدر[1] الحب والبغض والنعيم والشقاء، وتتلاقى أطياف العظمة والبطولة مع أشباح الحقد والغدر..

وشجرة الدر جارية اشتراها الملك الصالح أيوب، وكانت ترافقه في معتقله بالكرك يوم أسره الناصر داود وقد شاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر، فما لبثت هذه الجارية أن برزت وغدت ملكة مرهوبة الجانب عظيمة الشأن.

لقد كانت جارية مغمورة لم يعرف المؤرخون لها نسباً، بل لم يستطيعوا التأكيد بأنها تركية أو أرمنية أو رومية... فهي واحدة من ألوف الجواري والسميرات والحظيات، وكلهن أعجميات كان يؤتى بهن إلى بلاد العرب أسراً أو شراء، فيكنَّ أشبه بالمتاع يتهاداه الناس، ويعشن في الظل حتى ينجبن الأطفال، فيظفرن حينئذ بشيء من الاحترام، وتسمى الواحدة منهن «أم ولد».

هكذا يبدأ تاريخ القصة العجيبة التي تؤلفها سيرة شجرة الدر! ويضيف التاريخ انها كانت ما تزال يوم دخلت مصر جارية للملك الصالح برغم انها ولدت ابنه خليل، وان الملك

---

(١) اختلف المؤرخون في اسم شجرة الدر فقد ورد لدى ابن واصل وابي الفدا وابن خلدون وغيرهم: شجر الدر، وأورده الصفدي والمقريزي والسيوطي وغيرهم: شجرة الدر، والراجح ان اسمها الصحيح هو «شجر الدر» وان «شجرة الدر» هي التسمية الشعبية الشائعة.

الصالح لم يكد يتولى العرش حتى تألق نجم جاريته، فتبوأت في البلاط المكان الأسمى، وغدت مصدر النهي والأمر، ولا سيما بعد ان اقنعت زوجها الملك بأن يستكثر من المماليك ليستظهر بهم على خصومه من الأيوبيين.

ونستطيع ان نتبين من خلال هذه الرواية شيئاً من ملامح شجرة الدر، فنعرف انها كانت إلى جانب ما تتمتع به من فتنة وعذوبة وجمال خلاب، ذات شخصية قوية وثقافة واسعة وذكاء حاد، وقد أثرت شخصيتها في سيدها فقدر مواهبها وسداد رأيها، وأشركها في أمور دولته منذ حظي بها في حلب، واتخذها رفيقة له تشاطره نعيم الحياة وبؤسها، وتتساهم معه أعباء الملك.

وفي وسعنا ان نمعن في الخيال، فنعود إلى ماضي شجرة الدر لنرى انها على الرغم من أصلها الأجنبي قد نشأت نشأة عربية خالصة، وحرص التاجر الذي سباها أو اشتراها على تخريجها في الفنون والآداب وتهذيبها بأخلاق البلاط، حتى غدت واحدة من أولئك الجواري المبررات اللامعات اللواتي سيطرن على قصور الملوك والأمراء في أواخر العصر العباسي، وكنَّ وقد اكتملن عقلاً وخلقاً وجمالاً، كتلك التي أقبلت على علي بن الجهم في مجلس أحد أصدقائه فهمس صديقه في أذنه مداعباً: «يا أبا الحسن.. هذه الجنة التي كنتم توعدون!..».

وكان الملك الصالح حين جلس على عرش مصر في الرابعة والثلاثين من عمره، وكانت شجرة الدر على ما توحي به سيرتها في حدود الخامسة والعشرين، وكان يحبها حباً عظيماً وقد رأى من سطوع مواهبها وما اشتهرت به من عفة وفضيلة، انها خليقة بأن تكون زوجة له، فاعتقها وتزوجها، فاكتسب نفوذها بذلك صفة شرعية، وأنشأت تسهم بنصيب أوفر في شؤون الدولة وأعمال البر.

وانقضت عشر سنوات من حكم الملك الصالح وهي تنعم معه برخاء عميم، وسعادة وارفة الظلال، وتشاطره مجده وقوته ورفعة شأنه، وتوطد معه أركان مملكته المترامية.

ولما بلغت الحملة الصليبية السابعة المياه المصرية، وأرسل لويس التاسع إلى الملك الصالح يبلغه انه جاء بعسكر بعدد الحصى، ويحذره من المقاومة العقيمة، وينصحه بالخضوع والتسليم، كان الملك يعاني وطأة المرض، فتولته الحيرة والاضطراب، وجعل يقرأ الكتاب وعيناه مغرورقتان بالدمع، إلا أن شجرة الدر وقفت إلى جانبه تبث فيه روح



شجرة الدر كما تخيلها احد الرسامين الغربيين

العزيمة والأباء، وتحضه على المقاومة المستميتة، فتذرع بالشجاعة، وأجاب على كتاب لويس بكتاب أنشأه كاتبه قاضي القضاة الشاعر بهاء الدين زهير، فردَّ كما رأينا في الفصل السابق على التهديد بمثله، وحذر ملك الفرنجة من عاقبة البغي والعدوان.

وكذلك وقفت شجرة الدر إلى جانب الملك الصالح خلال مرضه المقعد بعد سقوط دمياط وانتقاله إلى المنصورة، تسهر عليه، وتقوي من عزيمته، وتسهم معه في تحصين المدينة، وحشد القوى، حتى اشتدت عليه وطأة المرض فمات في ١٥ شعبان سنة ٦٤٧هـ ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٤٩م، وأوصى بالعرش لولده الملك العظيم تورانشاه[٢]، نائبه في البلاد الشرقية، وكان يومئذ في حصن كيفا بديار بكر[٣]، فأرسلت شجرة الدر فارس الدين أقطاي كبير المماليك البحرية ليأتي به.

وكانت وفاة الملك الصالح في غمرة تلك المعمعة الهائلة، خنجراً ماضياً يُسدَّد إلى قلب مصر. فقد كان من المألوف في تلك الأيام ان يثير موت الملك أطماع القادة والأمراء، فيتنافسوا على السلطان، ويقتتلوا في سبيل الوصول إليه والاستئثار به. وكان نشوب مثل هذا الخلاف في ذلك الموقف العصيب، خليقاً بأن يمزق وحدة الأمة والجيش، ويطوّح بالبلاد، ويفتح أبوابها للغزاة المعتدين.

ويجمع المؤرخون على ان القدر قد رحم مصر إذ وضع مقدراتها في تلك الفترة الدقيقة من فترات الحرج في يد شجرة الدر..

لقد كانت هذه المرأة القوية الحازمة تنظر إلى مرض زوجها الملك بعين دامعة ونفس والهة جازعة، إذ كان يشجيها موته ويمزق فؤادها ألماً ولوعة، كما كانت تخشى عواقب هذه الكارثة التي تُفاجأ بها البلاد وهي في ظلمة محنتها واحتدام حربها مع العدو!

وما كاد السلطان يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى كفكفت دمعها وحبست نواحها، ونهضت من تحت نير الألم لتستدعي الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وجمال الدين محسن رئيس الخصيان، وهما كبيرا رجال الحاشية، وتوصيهما بكتمان وفاة الملك حتى يصل

---

(٢) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٦٤.

(٣) كان المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الصالح أيوب من زوجته بنت العالمة، أما خليل ابن شجرة الدر فقد توفي في حداثة السن.

تورانشاه من حصن كيفا[٤]، اتقاء للفتنة. فعمل الرجلان باشارتها، وأخذ فخر الدين المواثيق على كل من وقف على وفاة الملك من رجال الحاشية والأطباء والعلماء بأن يكتموا الأمر.

وغسل الجثمان سراً، وأودع في تابوت، ونقل من المنصورة ليلاً في سفينة صغيرة عبر النيل إلى القلعة القائمة في جزيرة الروضة حيث كانت ثكنات المماليك، بينما ظل الأطباء ملازمين لقصر السلطان كي يظن الناس انه مريض[٥]، وظلت الخدمة السلطانية على حالتها في القصر المتواضع بالمنصورة، وشجرة الدر تستقبل الأمراء، وتبلغهم أوامر السلطان، ويقال ان شجرة الدر هي التي كانت تقلد توقيعه[٦].

وجمعت شجرة الدر أمراء الجيش ورجال الدولة، في اليوم التالي لوفاة السلطان، وأبلغتهم مشيئته بأن يحلفوا له ولأبنه الملك العظيم تورانشاه من بعده وللأمير فخر الدين بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة، ففعلوا ما أمر به السلطان!..

ثم أرسلت إلى الأمير حسام الدين محمد نائب السلطان في القاهرة أمراً ممهوراً بتوقيعه ليقوم بتحليف أكابر الدولة ومقدمي الجند على ما تقدم، فأطاع الأمير حسام الدين أمر الملك، وبدأ خطباء الجوامع يدعون لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه.

ويبدو ان بعض الجند قد تهامس بموت السلطان، وان قادة الحملة الصليبية قد عرفوا بهذا النبأ، وأرادوا انتهاز الفرصة التي يتيحها لهم للقضاء على الجيش المصري قبل وصول تورانشاه[٧].

واختلف قادة الحملة في الاتجاه إلى الاسكندرية لسهولة احتلالها ولجعل مرفئها ملجأ لاسطولهم يمدهم بالمؤونة المستمرة، أو الزحف إلى القاهرة للاستيلاء عليها أولاً باعتبارها عاصمة المملكة ومتى سقطت استسلمت البلاد جميعاً. وكان القادة العسكريون وفي مقدمتهم بيير موكلير كونت بريتاني من أنصار الرأي الأول، بينما كان الكونت دارتوا

---

(٤) السلوك، ج ١، ص٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٥) هزيمة لويس التاسع ص ٣٠؛ المنصورة للدكتور هدارة ص١٧٨.

(٦) المختصر في تاريخ البشر، ج٣، ص١٢٧.

(٧) Michaud. IV. p. 154 _ 155

معركة المنصورة

شقيق الملك من أنصار الرأي الثاني وقد أيده لويس التاسع فسار أفراد الحملة «بفارسهم وراجلهم وشوانيهم في بحر النيل ونزلوا على فارسكور»(٨).

وكان موقف الأمير فخر الدين هذه المرة على نقيض موقفه السابق في دمياط، ولعله أراد ان يكفر عنه، فأخذ يستعد لمواجهة الفرنجة، ثم فاجأهم في معركة ضارية نشبت بين فارسكور وشرمساح وقتل فيها الكثير من المصريين والفرنجة ومن أبرز هؤلاء رينو فيشيه رئيس فرسان الهيكل.

وعلى أثر هذه المعركة انتقل لويس التاسع عشر بجيشه إلى البرمون في مواجهة المنصورة، فلم يبق بينه وبين معسكر المصريين سوى بحر أشموم طناح، وبدأ كل فريق يستعد للمعركة المنتظرة، بينما كان المتطوعون من العربان والفلاحين يتقاطرون إلى ميدان المعركة من كل ناحية، وقد عسكر على الشاطىء الغربي للنيل أولاد الناصر أمير الكرك ومعهم عدد من الجنود العرب هرعوا لمؤازرة المصريين.

وكان المسلمون مطمئنين إلى مناعة المنصورة، وصعوبة اجتياز النهر، فكانوا يقومون بهجمات جانبية ومناوشات صغيرة تعتمد أكثر ما تعتمد على الجماعات غير النظامية، فيختطفون الغزاة أحياء ويتصيدونهم بالنبال، كما كانوا يمطرون الفرنسيين من معسكرهم بقذائف من النار الاغريقية(٩)، أنزلت الرعب في أفئدتهم، فقد «كانت تلك النار تندفع نحو الأعداء على هيئة كرة كبيرة، وذيولها من خلفها كحراب طويلة هائلة، لها دويّ مزعج كدويّ الصاعقة المنقضة من السماء، ولها صوت يهزم كالرعد القاصف، وهي أشبه ما تكون بتنين هائل طائر في الجو. وكانت النار المنبعثة من هذه الكتلة الهائلة من اللهب تلقي في معسكر الفرنسيين ضوءاً متوهجاً يجعل الرؤية واضحة تماماً كما لو كان الوقت نهاراً»(١٠).

---

(٨) الشرق العربي بين شقي الرحى ص٦٤.

(٩) كانت النار اليونانية من أسلحة المسلمين الفعالة في الحروب الصليبية، وهي تركب من النفط والكبريت والقار، وتطلق على العدو فتحدث انفجاراً عظيماً وتنشر دخاناً كثيفاً وتنبثق منها نار شديدة هائلة، وقد ظفر المسلمون بسرها من البيزنطيين، ولبثت وقتاً طويلاً من الأسلحة السرية الفتاكة (انظر بحثاً مفصلاً عن «النار اليونانية» في كتاب «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» لعنان).

(١٠) هزيمة لويس التاسع ص٤٤.

واستمر ذلك شهرين كاملين، فهال الأمر لويس التاسع، وخشي ان يقوّض القلق والانتظار من عزيمة الجند وحماستهم للقتال، وأيقن بأنه لن يستطيع التغلب على المسلمين إلا إذا التحم معهم في معركة فاصلة، وكان قد بذل جهده لبناء جسر على النهر لاجتيازه إليهم، لكن الفرنسيين لم يكادوا يمدون بضعة أمتار من الجسر حتى تساقط عليهم وابل من قذائف المصريين ردهم على أعقابهم، فرأى الملك ان يبني برجين متحركين يزودهما بالقذائف لحماية العمال الذين يعملون في النهر، ثم عاد الفرنج إلى عملهم فكانوا كلما أتموا من جسرهم متراً هدم المصريون أمتاراً أمامه في شاطئهم المقابل، فيتسع المجرى من جديد[11]. كما كانوا يحرقون الأبراج الخشبية بقذائفهم النارية كلما أعاد الإفرنج بناءها.

ثم اكتشف الفرنجة مخاضة قرب قرية سلمون يستطيعون العبور منها إلى الضفة المقابلة، فوضع لويس التاسع خطة للمعركة تتلخص في ان يعبر الكونت دارتوا بفرقة الفرسان مخاضة سلمون، فإذا وصل إلى الشاطىء الذي يعسكر فيه المصريون اشتبك معهم في قتال موقت ليشغلهم عن مهاجمة الفرنسيين الذين يقيمون الجسر إلى ان يتموه، فإذا تم بناؤه عبر عليه الملك ببقية جيشه وانضم إلى فرسان دارتوا وانقضّوا جميعاً على جيش المسلمين[12].

فلما بدأت طلائع الفرنجة تعبر المخاضة في فجر الخامس من ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ ٨ شباط (فبراير) ١٢٥٠م، وتفاجىء جيش المسلمين «وهم نيام أو بين اليقظة والنوم»[13]، من حيث لم يدر في خلدهم أو يكن في حسبانهم، كان الأمير فخر الدين قائد الجيش في الحمام، فهزع لملاقاتهم دهشاً مضطرباً، واعتلى صهوة جواده دون أن يلبس درعه، وانطلق خلفه باقي الجند والمماليك، فما لبث حتى أخذته السيوف من كل جانب، فقتل مثخناً بالجراح[14] وهو يستميت في الدفاع والمقاومة، وتفرق رجاله وتشتت شملهم، ولجأ أكثرهم إلى داخل المنصورة يحتمون بأسوارها من سيوف الأعداء.

---

(١١) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٦١.

(١٢) المرجع السابق، ص٦٣.

(١٣) الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٧٢.

(١٤) السلوك ج ١، ص٣٤٥؛ المختصر في تاريخ البشر، ج٣، ص١٢٨.

وملأت صدر الكونت دارتوا نشوة النصر وأحلام المجد ونوازع الغرور، حين شاهد الجنود المصريين يلوذون بالمنصورة كالقطيع الشارد، فرأى ان يتعقبهم ويقضي عليهم، وخيل إليه ان المعركة لا تعدو جولة او جولتين ثم تستسلم المنصورة كما استسلمت دمياط من قبل. فاندفع بفرسان الفرنجة إلى قلب المنصورة، ووصلت طلائع جنوده إلى أبواب القصر السلطاني، بالرغم من وصية الملك له بالاهتمام بحماية الجسر وعدم التوغل في المدينة قبل ان يلحق به مع جنوده، ونصيحة مقدم الداوية الأخ جيل الذي اتهمه دارتوا بالجبن فاضطر إلى الاندفاع معه في المعركة وهو على يقين بأن العودة منها مستحيلة وانه إنما يسير معه في طريق الهلاك(١٥).

وكانت شجرة الدر تتابع المعركة خطوة فخطوة، فلما قتل قائد جيشها، وأحاط العدو بقصرها، لم تفقد ثباتها ورباطة جأشها، بل وقفت تستحث الحرس السلطاني المؤلف من المماليك البحرية على الدفاع عن القصر، وتهيب بهم إلى رد الأعداء على أعقابهم.

وكان لغضبتها أثرها العظيم في نفوس الحرس، فدارت على أبواب القصر رحى معركة طاحنة سرعان ما أصبحت ملحمة بشرية كان مقدراً لها أن تقرر مصير مصر أو مصير الحملة الصليبية السابعة، وقد استمات كل من الفريقين للتغلب على الفريق الآخر، وتصادمت الامواج البشرية وكأنها أمواج المحيط صخباً وهديراً، وتلاحمت الجياد، وتناثرت الأشلاء، واشتجرت السيوف والرماح، وتشابكت العصي والسواطير.

وكان الأهالي يشاركون في هذه المعركة الرهيبة باقامة المتاريس في الشوارع، وإلقاء القذائف والحجارة على الفرنسيين من الأسطحة والنوافذ، والدفاع عن مدينتهم منزلاً فمنزلاً وشبراً فشبراً. يقول الدكتور جوزيف نسيم يوسف: «وكان مظهراً جميلاً حقاً ذلك التضامن المتين بين أبناء مصر العظيمة، من مسلمين وأقباط، والواقع ان تضامن القبط مع إخوتهم في الكفاح إنما يرجع إلى شعورهم الدائم المتوارث بالوطنية، وإيمانهم، واخلاصهم لبلادهم، وولائهم لأولي الأمر فيها. ثم هم لم ينسوا الأضرار الجسيمة التي لحقتهم من الفرنجة أنفسهم الذين كانوا يغيرون على الديار المصرية من وقت لآخر، ويعيثون فيها فساداً، دون مراعاة لحرمة بيوت الله من مساجد وكنائس. وهم لم ينسوا أيضاً ان الصليبيين عندما استولوا على بيت المقدس في بداية حركتهم العدوانية، منعوا

---

(١٥) Grousset: Hist, des Croisades, III, p. 461

القبط من زيارة الأراضي المقدسة والحج إليها، فلم يدخلوها حتى استردها منهم صلاح الدين الأيوبي. وهم لم ينسوا كذلك انهم كانوا في نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ضالين عن جادة الدين الحقيقي، مما جعلهم مكروهين في الأوساط اللاتينية لأنهم على غير مذهبهم. كل هذا وذاك خلق بينهم وبين الغزاة هوة سحيقة وسداً منيعاً»(١٦).

واشتدت حماسة المماليك أمام غضبة الشعب، ومشاركته الضارية في القتال، فانقضّوا على الفرنج بقيادة بيبرس البندقداري، وحملوا عليهم حتى مزقوهم. وتحولت تلك الموقعة التاريخية إلى نصر باهر للقوى المصرية وكارثة مروعة للصليبيين كان من ضحاياها روبرت كونت دارتوا وعدد كبير من القادة والفرسان، مما جعل غروسه يقول في المنصورة انها كانت مقبرة الصليبيين(١٧).

وقد عبر لويس التاسع الجسر الذي بناه في محاولة باسلة لانقاذ الموقف واستعادة المبادرة، ولكن المماليك والعربان قابلوه بشجاعة عظيمة، وقد أبدى الملك القديس ضروباً رائعة من البطولة والإقدام، فاضطر المسلمون للانكفاء إلى المنصورة تاركين خلفهم كثيراً من الغنائم(١٨). ورجع الفرنجة إلى معسكرهم، وعاد الفريقان إلى الوضع الذي كانا عليه قبلاً، كل منهما على شاطىء والبحر الصغير يفصل بينهما(١٩)، وكان لبطولة لويس التاسع الفضل في إنقاذ الموقف وتحويل المعركة من نصر كامل للمصريين إلى نصر متكافىء بينهم وبين الصليبيين(٢٠).

وكان لموت دارتوا وفقدان ما يقرب من ألف وخمسمائة من فرسان الصليبيين وشجعانهم دفعة واحدة، أثر عميق في نفوس الفرنجة فأصيبوا بما يشبه الذهول واليأس، لولا النجدات التي تتلاحق أفواجها عليهم، وظهور الملك لويس ومن معه بمظهر الواثقين من النصر، المصرّين على مواصلة الكفاح، لأن الفرصة لم تزل باقية، فهزيمتهم في إحدى المعارك ليس معناها انتهاء الحرب واليأس المقيم(٢١). وسرعان ما أعاد كل من الفريقين

---

(١٦) هزيمة لويس التاسع ص٥٦.

(١٧) Grousset: Hist, des Croisades, III, p. 465

(١٨) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٦٤.

(١٩) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص٦٥.

(٢٠) Grousset: Hist. des Croisades. III, p. 468

(٢١) اليوم الموعود ص١٩٩.

تنظيم جيشه وتعزيز دفاعه، وقسم الملك لويس التاسع جيوشه إلى إحدى عشرة فرقة انتظمت عشر منها على الضفة الجنوبية لبحر اشموم في مواجهة العسكر المصري، بينما ضربت الفرقة الحادية عشرة مضاربها على الضفة المقابلة. وكانت معركة المنصورة قد وقعت يوم الثلاثاء، فتجدد القتال يوم الجمعة، وانتهت المعركة الجديدة بهزيمة أخرى للفرنج وكان يقود جيش المسلمين بيبرس البندقداري. ويقول الدكتور جوزيف نسيم يوسف ان إحدى فرق الفرنجة كانت بقيادة وليم طويل السيف الذي فقد إحدى عينيه في معركة الثلاثاء، ففقد في هذه المعركة عينه الثانية، ثم سقط قتيلاً متأثراً بجراحه ولم تقم لفرقته بعد ذلك قائمة[٢٢].

ولم تشأ شجرة الدر ان تعين بعد مقتل فخر الدين قائداً جديداً للجيش، بل تولت القيادة بنفسها، وطفقت تدير شؤون الجيش إلى جانب إدارتها شؤون الملك، منتظرة وصول تورانشاه لتعهد إليه بالمهام التي اضطلعت بها زهاء ثلاثة أشهر على أحسن وجه.

ووصل تورانشاه بعد موقعة المنصورة بعشرة أيام، فأعلنت وفاة الملك الصالح للمرة الأولى، وتسلم ولي العهد مقاليد الملك، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وفيه صلابة وصلف وكبرياء.

وكان عهد تورانشاه في الحكم قصيراً جداً، لم يزد على خمسة أسابيع، ولكنه شهد انتصاراً عظيما أحرزه المسلمون على الفرنجة، ولم يسبق لهم ان أحرزوا مثيلاً له منذ انتصار حطين.

وكان أول ما فعله أنه أمر بأن ينقل فوراً جانب من الاسطول إلى بحر المحلة ليلج في النيل خلف معسكر الأعداء، لمحاصرتهم وصد مراكبهم التي تحمل لهم المؤن من دمياط. وسرعان ما وضعت خطته موضع التنفيذ، ففصلت أجزاء السفن الحربية، ونقلت على ظهور الجمال إلى بحر المحلة حيث أعيد بناؤها من جديد، وأرست في النيل شمالي المنصورة[٢٣]، وبذلك قطع الطريق على السفن الصليبية، وحيل دون اتصال الفرنجة

---

(٢٢) هزيمة لويس التاسع ص ٦٤.

(٢٣) لؤلؤة المنصورة ص ٨٠.

بقاعدتهم دمياط حيث المدد والزاد[٢٤]. ثم أقبل الاسطول المصري من ناحية المنصورة، فأحاطت سفن المسلمين بالمراكب الصليبية، وأخذتها أخذاً وبيلاً، وقُتل منها وأسر نحو ألف جندي، وغُنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات[٢٥]. ويقدر جوانفيل عدد السفن التي استولى عليها المسلمون بثمانين سفينة[٢٦].

وهكذا انقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب، واستضرى المسلمون وطمعوا فيهم[٢٧]. فأرسل الملك لويس إلى السلطان يطلب الصلح ويعرض عليه أن يتنازل عن دمياط مقابل إعطائه بيت المقدس، ولكن السلطان رفض هذا الطلب، فعرض الملك القديس حينئذ إعطاءه بعض المدن الساحلية، وكان جواب تورانشاه: «ان بيت المقدس وكل شبر من أرض العرب هي أرضنا لا نفرط فيها قط، وأنتم في مكانكم الآن لا ينبغي ان تنساقوا وراء خيالاتكم وأوهامكم، بل يجب ان تفتحوا أعينكم جيداً على حقيقة الموقف الذي تعانونه الآن، انكم مقضي عليكم ولا شك، ولكني مع ذلك ـ رعاية للسلام وحقناً للدماء ـ أعرض عليكم الجلاء فوراً عن بلادنا بحيث تحملكم سفنكم إلى بلادكم دون غيرها فإذا قبلتم فحسناً فعلتم، وإذا أبيتم فالسيف حكم بيننا وبينكم»[٢٨].

وانقطعت بذلك المفاوضات، وتابعت القوى المصرية ملاحقة الصليبيين، وما برحت تنازلهم وتفتك بهم، حتى تولاهم اليأس من مواصلة الحملة للاستيلاء على القاهرة كما كانوا يحلمون، واجتاحت معسكرهم المجاعة، وتفشى فيه الوباء، وانتشرت البغضاء بين طوائف الجند، وبات كل ما يطمعون فيه الانكفاء إلى دمياط والامتناع فيها. وقد أحرقوا خيامهم وعتادهم، وبدأوا بالانسحاب في يأس غامر وذعر قاتل، مساء الثاني من محرم سنة ٦٤٨هـ ٥ نيسان (ابريل) ١٢٥٠م، والمسلمون يطاردونهم ويضيقون الخناق على فلولهم الهاربة، ويهاجمونهم من كل ناحية بسهامهم تارة وبالسيوف والرماح تارة

(٢٤) الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٠٧١؛ الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٩١.

(٢٥) السلوك، ج ١، ص٣٥٣.

(٢٦) Hist. de Saint Louis, p. 160

(٢٧) المنصورة ص٢٢٧.

(٢٨) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٣٦.

أخرى، حتى تبعثرت الحملة الصليبية السابعة رمماً وأشلاء ممزقة، وكان الناجون من سهام المسلمين وسيوفهم، يتساقطون على حنايا الطريق عناء ومرضاً وجوعاً.

ولكن ذلك كله لم يفقد لويس التاسع شجاعته ورباطة جأشه، فتابع الانسحاب الكبير بحذاء الضفة الشرقية لفرع دمياط، في غمرة المتاعب والأهوال، حتى وصل إلى فارسكور (فارس كور) فإذا بفلول جيشه المتعبة اليائسة المثخنة بالجراح، تتعرض إلى هجوم عام من قبل المسلمين. وكان المرض قد اشتد بالملك القديس، فتولى القيادة أحد رجاله ولجأ هو إلى قرية المنيا (منية عبدالله) ليستريح فيها وقد ران عليه الشعور بالخيبة والانكسار، وأخذ يردد ان دماء أولئك الضحايا في عنقه ويسأل الله الرحمة والغفران!.

وكان الفرنجة أضعف من ان يقاوموا ويصمدوا في وجه القوى المحيطة بهم، فوقع الجيش الصليبي بأسره بين قتلى وأسرى، وقدر المؤرخون عدد القتلى منهم بثلاثين ألفاً «وأما الأسرى فحدث ولا حرج»(٢٩).

وكان لويس التاسع نفسه في عداد الأسرى، فحمل إلى المنصورة حيث اعتقل مع شقيقه كونت انجو وكونت بواتيه في دار كاتب الانشاء القاضي فخر الدين بن لقمان وعهد بحراستهم إلى الطواشي صبيح المعظمي(٣٠).

وقد سرّ تورانشاه بهذا النصر العظيم، وكتب إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين بن يغمور كتاباً يحمل هذه البشرى، وقيل ان تورانشاه كتب هذا الكتاب بخطه وقد جاء فيه: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وأما بنعمة ربك فحدِّث، وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها. نبشر المجلس السامي الجمالي، بل نبشر المسلمين كافة، بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأولاد، فنودوا: لا تيأسوا من روح الله. ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة ـ عمّ الله على الاسلام بركتها ـ فتحنا الخزائن، وبذلنا الأموال، وفرّقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كانت ليلة الاربعاء تركوا

---

(٢٩) شذرات الذهب، ج٥ ص ٢٤٠.

(٣٠) السلوك، ج ١، ص٣٥٦.

خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين، وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل، وقد حلّ بهم الخزي والويل، فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان فأمنّاه، وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته، وجلاله وعظمته»(٣١).

وحاول تورانشاه الضغط على لويس التاسع للتخلي عن جميع الممتلكات الصليبية في الشام، ولكنه كان يجيب دائماً ان لا سلطان له على هذه الممتلكات وانها تابعة للامبراطور فردريك الثاني(٣٢).

هذا ما كان في عهد تورانشاه، أما ما كان منه فالبطش والبغي، واللهو والسرف، والتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر التي صانت البلاد، وحفظت الملك، وأخذت العهد له تمهيداً لجلوسه على العرش.

وأرسل السلطان إلى شجرة الدر يطالبها بتركة أبيه ويسألها أن ترد إليه ما تحت يدها من جواهر ومال، ويهددها بالقتل ان هي تأخرت في إداء الحساب. فكتبت إلى زعماء المماليك تشكو أمرها إليهم وتطلب حمايتهم.

وقيل ان المماليك كانوا يشعرون بأن السلطان يضمر لهم الكيد والغدر(٣٣)، وانه كان إذا سكر يصفّ الشموع أمامه ويأخذ السيف بيده ويضرب به تلك الشموع وهو يقول: «هكذا أفعل بالمماليك البحرية.. هكذا أفعل بفلان وفلان!..(٣٤)»، فلما بلغ مماليك أبيه ذلك أضمروا له السوء، واتفقوا على قتله قبل أن يفتك بهم. وليس هناك ما يدل على ان شجرة الدر هي التي حرضتهم على ارتكاب هذه الجريمة، وأنها اشتركت معهم في تدبيرها، على ان مجرد شكايتها إليهم واستنجادها بهم قد يُعدّ تحريضاً لهم(٣٥).

---

(٣١) المرجع السابق، ج ١، ص٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(٣٢) Hist, de Saint Louis: p, 184 _ 186

(٣٣) شذرات الذهب، ج٥، ص٢٤٠.

(٣٤) بدائع الزهور، ج ١، ص٧٢

(٣٥) المختصر في تاريخ البشر، ج٣، ص١٩٠؛ الخطط للمقريزي، ج٢، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.



لويس التاسع في الاسر

ومهما يكن من أمر، فان المؤامرة قد دبرت ونفذت بسرعة في المعسكر السلطاني، والظاهر ان الذي دبرها بصورة خاصة اثنان من زعماء المماليك البحرية هما بيبرس البندقداري وفارس الدين اقطاي(٣٦). وفي مساء يوم الاثنين ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م، أي بعد هزيمة الفرنج بنحو ثلاثة أسابيع، بينما كان السلطان يجلس إلى السماط في خيمته وقد أحاط به الخلان والندماء، انقضّ بيبرس البندقداري عليه، وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحته فشقتها إلى الذراع، ثم لحق به مع رجاله إلى برج خشبي أراد أن يحتمي به، وأحرقوا البرج فنزل منه وهو يستنجد دون أن ينجده أحد، ويصرخ في المماليك: «ما أريد ملكاً. دعوني أرجع إلى الحصن (كيفا) يا مسلمين! ما فيكم من يصطنعني ويجيرني(٣٧)»، وتلقاه المماليك بالسيوف من كل ناحية وهو مستمر في ركضه، حتى ألقى بنفسه في النيل وهم في أثره، وأجهز عليه فارس الدين اقطاي بطعنة قاضية، ثم حملت جثته إلى الجسر وبقيت هناك ثلاثة أيام في العراء لا يجرؤ أحد على دفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة(٣٨).

وعلى أثر ذلك، اجتمع زعماء المماليك وأمراء الجيش ورجال الدولة، واتفقوا على أن تكون شجرة الدر ملكة مصر، وأن تخرج التواقيع السلطانية باسمها، وأخذت البيعة لها في اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م، ونقش اسمها على النقود: «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين»(٣٩)، وكان يخطب لها على منابر مصر بهذا الدعاء: «واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل، والدة المرحوم خليل، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب»(٤٠).

وكانت أول امرأة تتبوأ العرش في مملكة اسلامية، وقد انتهت بتورانشاه دولة الأيوبيين في مصر، وبدأت بشجرة الدر دولة المماليك.

---

(٣٦) تراجم اسلامية لعنان ص٧٧.

(٣٧) النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٧١.

(٣٨) ذيل الروضتين ص١٨٥.

(٣٩) المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص ١٩٠؛ والمستعصمية نسبة إلى الخليفة المستعصم، والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب.

(٤٠) بدائع الزهور، ج١، ص٧٣.

ويقول محمد كرد علي: «لا جرم ان مقتل الملك المعظم تورانشاه بيد بيبرس البندقداري والمماليك البحرية المصرية، كان مبدأ زوال الدولة الأيوبية من مصر والشام، فان الاختلاف بين آل هذا البيت الذي تسربت إلى أبنائه وأحفاده المطامع، وكل منهم يريد أن يستأثر بالأمر دون أخيه أو عمه أو ابن عمه، ثم اعتصام بعضهم بالصليبيين لينجدوهم على آلهم فيصفو لهم الملك، دعا إلى تفسخ أوصال المملكة، وان كان أكثر أسرة صلاح الدين بن أيوب أخيه أبي بكر (سيف الدين) على جانب من حسن التربية والعلم، ولكن الاختلاف اذا سرت شرارته التهم الأخضر واليابس وهدم الاركان القوية فما بالك بها اذا كانت متضعضعة. فصارت المملكة بيد المماليك في الحقيقة، وكان الذي انشأهم الملك الصالح أيوب أشبه بالمعتصم العباسي في اصطناعه مماليك الترك فأدخل بعمله الوهن على الدولة العباسية، وهذا الصالح ادخل الوهن باصطناع المماليك حتى قضوا على الدولة الأيوبية»(٤١).

وكان أول ما عنيت به شجرة الدر بعد ان تولت الملك، تصفية الموقف مع الفرنج واجلائهم عن الأراضي المصرية، فندبت الأمير حسام الدين محمد نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع. وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم اطلاق سراحه، ويرون في ذلك مصلحة كبيرة لمصر والاسلام، ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الإفراج عنه وعن باقي الأمراء مقابل فدية مقدارها ثمانماية ألف دينار(٤٢)، وترك معدات القتال والأسلحة والذخائر والمؤن غنيمة للمصريين(٤٣).

وقد قوبل اعتلاء شجرة الدر عرش المملكة المصرية بكثير من الدهش والاستنكار. فنعى الخليفة العباسي على مصر أن تجلس على عرشها إمرأة وأرسل إلى بلاط مصر يقول: «ان كانت الرجال قد أعدمت عندكم فاعلمونا حتى نسيّر إليكم رجالاً»(٤٤)، وأبى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة في دمشق وكثير من الأمراء ان يقدموا الطاعة

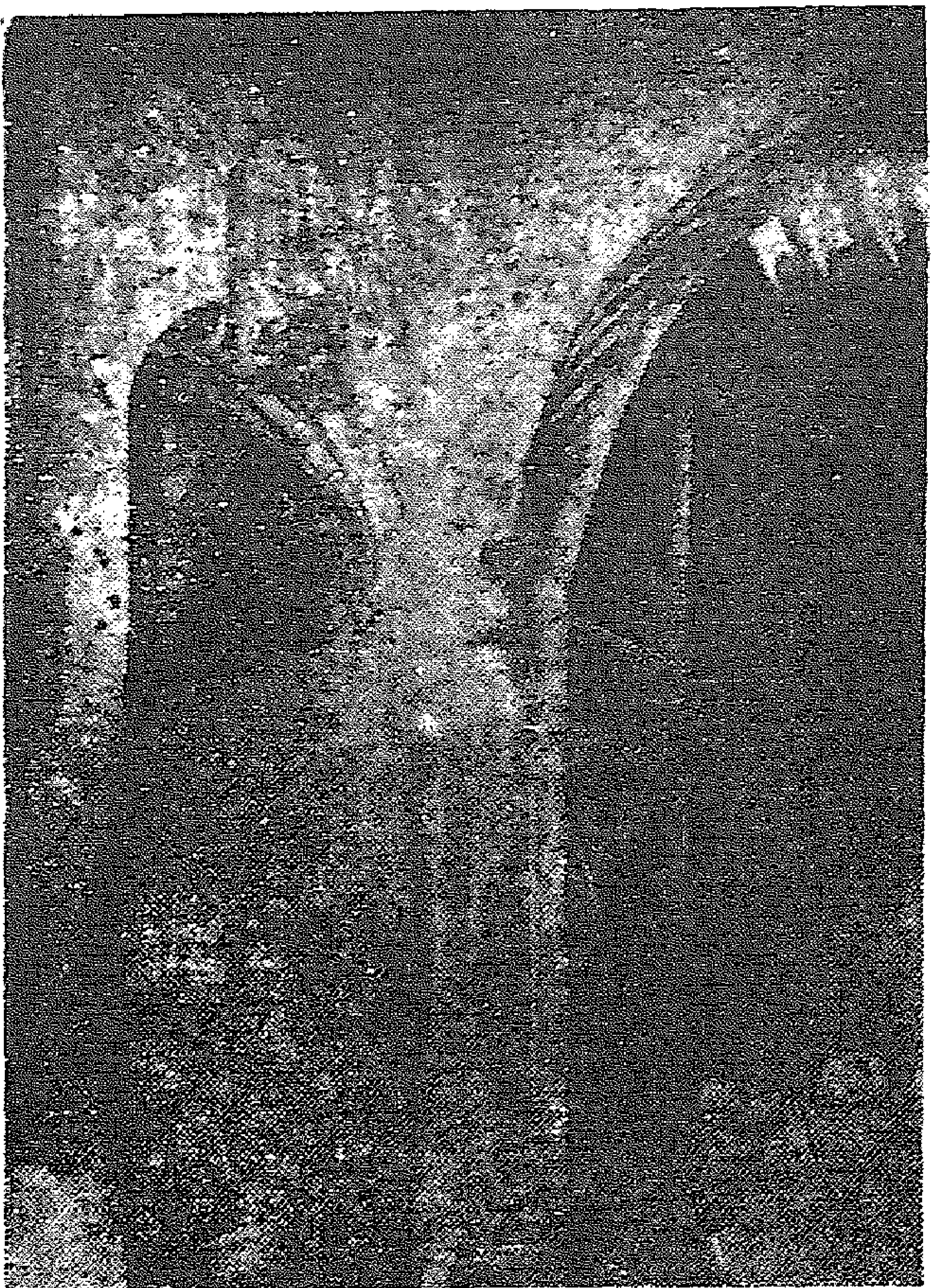
---

(٤١) خطط الشام، ج٢، ص١٠٨.

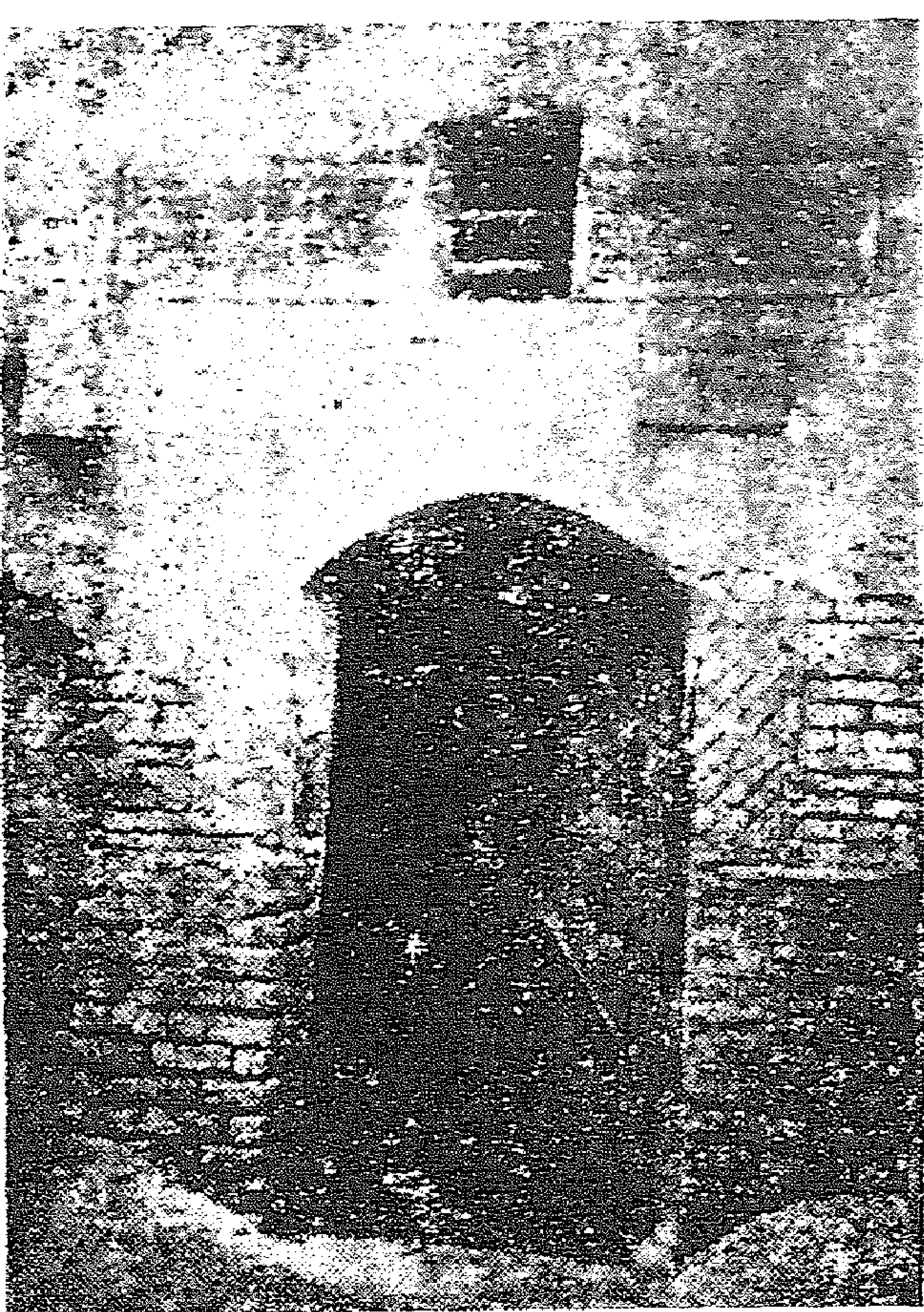
(٤٢) تراجم اسلامية ص٨١.

(٤٣) طلب لويس التاسع ان يثبت في الاتفاق حفظاً لكرامته ان المبلغ المتفق عليه هو فدية عن جنده، وان تسليم دمياط فدية عنه، لان قيمة الملوك لا ينبغي ان تقدر بالمال.

(٤٤) حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٩.



داخل دار ابن لقمان حيث اقام لويس التاسع خلال أسره



واجهة دار ابن لقمان بالمنصورة حيث اسر لويس التاسع

للملكة وأن يكونوا تحت سلطانها، وأرسلوا إلى صاحب حلب الملك الناصر بن يوسف حفيد صلاح الدين يطلبون إليه القدوم إلى دمشق لتسلم المدينة فجاء إليها وتسلمها.

وجزعت شجرة الدر لهذه الأنباء، وعزّ عليها ان تكون سبباً لتمزيق المملكة التي عملت كثيراً لدعم قوتها ووحدتها، واعتقدت انها ان تزوجت الأمير عز الدين أيبك أحد أمراء جيشها[٤٥]، قوّت مركزها وصانت سمعتها. ولم تلبث ان حققت هذه الفكرة، أو هذه الرغبة، واتخذت الأمير عز الدين زوجاً لها في ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ-١٢٥٠م.

ولكن ذلك لم يغيّر من نظرة الناس إليها، ولم يخفف من حملتهم عليها. فعمدت حينئذ إلى الحل الوحيد الذي بقي لها، وتنازلت عن عرشها لزوجها الذي لقب بالمعز، في آخر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ-١٢٥٠م.

وقد دامت سلطنة شجرة الدر ثمانين يوماً، وكان أبرز الأعمال التي قامت بها إجلاء الفرنج نهائياً عن الأراضي المصرية.

ولقد كانت تضحيتها جسيمة حقاً، إذ خلعت نفسها عن العرش وأعطت زوجها التاج والصولجان، لانها كانت أول الطريق نحو النهاية المؤسفة التي اختتمت بها حياتها العظيمة.

لقد استيقظت في شجرة الدر، وهي في تلك السن التي تجاوزت الأربعين، عاطفة الكبرياء على أقوى ما تعصف في نفس ملكة، وعاطفة الغيرة على أعنف ما تجيش في صدر إمرأة... فما هي إلا سنوات قليلة حتى أخذت تخاصم زوجها الملك المعز لأتفه الأسباب، ورانت على حبهما المطامع وغشيته أهواء السياسة والمنافسة، حتى تحولت حياتهما إلى جحيم لا يطاق.

وكان المعز يهاب شجرة الدر، ويضيق بما لها من نفوذ وسطوة. وقيل ان منجماً انذره بأنه سيموت قتيلاً على يد امرأة، فلم يشك حين اضطربت العلاقة بينهما في انها

---

(٤٥) كان ايبك من مماليك الصالح ايوب المرابطين في جزيرة الروضة بالنيل، ومن هنا عرف هو وزملاؤه بالمماليك البحرية نسبة إلى «بحر» النيل، تمييزاً لهم من المماليك البرجية الذين كانوا يقيمون في أبراج قلعة القاهرة.

المرأة التي حذره المنجم منها، فأراد ان يبطش بها قبل ان تبطش به... وشعرت هي بما يدبر لها في الخفاء، فأرادت ان تسبقه إلى هدفه...

وخطب المعز بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكانت صبية رائعة الحسن، لما بين لؤلؤ ودار الخلافة في بغداد من صلات ودية وثيقة، وكتم الأمر عن شجرة الدر. ثم قبض ذات يوم على عدد من المماليك، وساقهم إلى القلعة لاعتقالهم في الجب. فلما وصلوا إلى تحت النافذة التي تجلس فيها شجرة الدر، انحنى كبيرهم احتراماً وقال لها بالتركية انه لا ذنب له ورفاقه سوى انهم عاتبوا السلطان لأنه خطب ابنة صاحب الموصل، إذ لم يهن عليهم وهم خدمها الذين نشأوا في ظل نعمتها ان يتزوج من إمرأة أخرى!...

فأشارت إليه شجرة الدر إشارة تعني إنها فهمت ما يريد أن يقول... وقال الرجل لأصحابه: ان كان المعز قد حبسنا فاننا قتلناه!..»

والواقع ان هذه الكلمات قد قتلت الملك المعز.. إذ ما لبثت شجرة الدر أن أرسلت إليه تلاطفه وتصالحه وتدعوه لزيارتها، فأمن لها ولبى دعوتها، فاستقبلته مرحبة باسمة، وقادته إلى الحمام ليغتسل، ولكنه ما كاد يخلع ثيابه حتى انقضّ عليه غلمانها وخنقوه تنفيذاً لخطتها...

ويقال ان المعز، لما أحاط به الخدم وفي أيديهم السيوف، استغاث بشجرة الدر، فأدركتها رقة الأنثى حين سمعته يهتف باسمها، فأشارت لهم ان يتركوه، فأغلظ لها أحدهم في الجواب، وقال: «ان تركناه حياً فهو لا يبقي عليك ولا علينا»(٤٦).

وهكذا قتل الملك المعز يوم الأربعاء في ١٥ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ ١٢٥٧م، على تلك الصورة المروعة، بعد ان جلس على عرش مصر سبع سنين، وكان قد أشرف على الستين من عمره.

وأرسلت شجرة الدر إلى عدد من أمراء المماليك تعرض عليهم الملك فرفضوه كلهم مخافة كيدها!..

ولما تنفس الصبح وذاع النبأ المروع، ساد الذعر في القاهرة، وتولى العرش الملك

---

(٤٦) بدائع الزهور، ج١، ص٧٥؛ شجرة الدر للعريان ص ١٤١.

المنصور علي ابن الملك المعز وهو صبي لم يبلغ الحلم، وقام على أمره الأمير سيف الدين قطز مملوك أبيه . فما لبث ان اعتقل شجرة الدر، وسجنها في برج منيع . ثم أمر بغلمانها فصلبوا على باب القلعة ، وجيء بها إلى ضرتها أم الملك المنصور التي كانت تطالب بدم الملك القتيل وكان المعز قد طلقها إرضاء لشجرة الدر، فضربها جواريها بالقباقيب حتى ماتت، وألقينها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياماً... ثم حملت في قفة ودفنت في تربة كانت قد اعدتها لنفسها بجوار بيت الخلفاء(٤٧). وقيل انها لما أيقنت بأن ضرتها تطلب الثأر منها، وأن مماليكها لن يمنعوها، كان أول ما فكرت فيه وخشيته أن تقع جواهرها وحليها وأسباب زينتها في يد ضرتها حين تموت . فجمعتها كلها وسحقتها في هاون وذرتها في الريح(٤٨)، ثم استسلمت لمصيرها المشؤوم .

على هذه الصورة المفجعة الرهيبة قضت تلك المرأة التي حكمت مصر ثمانية عشر عاماً، وجمعت في نفسها أشتات المتناقضات، فامتزج في سيرتها الحب والبغض والنعيم والشقاء، وتلاقت أطياف العظمة والبطولة مع أشباح الحقد والغدر !..

---

(٤٧) وفيات الاعيان. ج ٤، ص ٦٤.

(٤٨) شجرة الدر للعريان ص ١٤٤.

الفصل التاسع والعشرون

الإعصار المغولي في الشرق

أطلق سراح الملك القديس في ٦ أيار سنة ١٢٥٠م ٦٤٨هـ، بعد أن دفع الفرنجة نصف الفدية المتفق عليها، فانتقل إلى دمياط حيث كانت تنتظره زوجه الملكة مرغريت. وكانت الملكة الشابة قد أظهرت إثر اعتقاله كثيراً من الجرأة والحكمة ورباطة الجأش(١)، وصبرت على ضروب الحرمان التي فرضتها الأحداث، وحافظت على دمياط حين أراد أبناء جنوة وبيزة التخلي عنها، لاعتقادها بأنها ستكون أداة للمساومة على حرية زوجها، واجتهدت في تحصيل المال لافتداء الملك وشقيقه. وكانت مرغريت حاملاً فولدت طفلها بعد هزيمة المنصورة وأسر زوجها بعدة أيام، وقد سمي الطفل يوحنا واشتهر باسم «يوحنا الحزين» لولادته في ذلك الظرف العصيب(٢).

ولم يطل مقام لويس التاسع في دمياط، وإنما بادر إلى الانتقال منها إلى عكا، فاستقبله الصليبيون استقبالاً حافلاً، واستعادوا به بعض معنوياتهم المنهارة بعد الهزيمة التي لحقت بهم في المنصورة وشارك فرنجة الشام فيها بخسارة عدد كبير من قادتهم وفرسانهم.

وكان من العسير على ملك فرنسة ان يعود إلى بلاده، بعد هزيمته وأسره مباشرة، فاستجاب إلى رجاء الصليبيين له في البقاء للإشراف على أمورهم فترة من الزمن، وقد امتدت هذه الفترة إلى أربع سنوات كاملة.

---

(١) النجوم الزاهرة، ج٦ ص٣٢٩.

(٢) Grousset: Hist. des Croisades, III, p. 491

وكان الأمراء الأيوبيون الذين يحكمون الأردن والشام، قد ساءهم ما حدث في مصر، وانتقال الحكم فيها إلى أيدي المماليك، تلك الطبقة العسكرية التي أنشأها الملك الصالح أيوب، فاستقل كل منهم بما تحت يده من البلاد، واتفقوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق على غزو مصر للقضاء على حكم المماليك.

وأراد هؤلاء أن يسبغوا على حكمهم ستاراً من الشرعية، بعدما تبين لهم من عطف الرأي العام على البيت الأيوبي، وترديد العامة في الشوارع: «ما نبغي مملوكاً يتولى علينا بل نريد سلطاناً من آل أيوب»(٣)، فجاؤوا بطفل صغير من أبناء هذا البيت يدعى الأشرف موسى، ونصبوه سلطاناً على مصر، وجعلوا من أنفسهم وصاة عليه، وقرنوا اسمه إلى اسم المعز، فكانت المراسيم تصدر وعليها اسم الملكين، وكان خطباء المساجد يدعون على المنابر لكليهما معاً. ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى أقصاه المعز عن الناس وضيّق عليه، ثم أزال اسمه من الخطبة، وقبض عليه فسجن في القلعة، والملك الصغير لا يدري لماذا أجلسوه على العرش، ثم لماذا أودعوه السجن، وهو لم يأت عملاً استحق به العرش في الأول، ولم يقترف جرماً استحق به السجن في الآخر(٤).

ولم يكن العرب المصريون بمعزل عن هذه الحوادث فقد كانوا يؤمنون بانهم أحق بعرش البلاد من الكرد والتركمانية جميعاً، فثار الأمير حصن الدين بن ثعلب شيخ أعراب ديروط، وثار معه عشرات الألوف من العرب في الجنوب والشمال، في محاولة جريئة لاستعادة الملك، فبطش المماليك بهم، ونصبت المشانق لأمرائهم، وأُلقي الأمير ابن ثعلب في جب من جباب القلعة(٥). ولعل هذه الانتفاضات هي التي جعلت الملك المعز يعلن ان مصر تابعة للمعتصم الخليفة العباسي، ثم حفزت الظاهر بيبرس إلى إحياء الخلافة العباسية بعد سقوطها، كما سنرى في الفصل المقبل.

وسرعان ما انتقل الخلاف بين الأيوبيين والمماليك إلى ساحات القتال، فجرت بين الفريقين معارك دامية أشهرها تلك المعركة التي وقعت على أبواب مصر بين الخشبي والعباسية، وانتهت بهزيمة الأيوبيين. وقد حاول كل منهما ان يشرك لويس التاسع

---

(٣) والإسلاماه لباكثير ص١٣٩

(٤) المرجع السابق ص١٥٢.

(٥) شجرة الدر للعريان ص١٢٣.



الملكة مرغريت زوجة لويس التاسع

كحليف له في معاركه مع خصمه، ورأى هذا ان محالفة المماليك أجدى له، فاشترط عليهم لإتمام ذلك التحالف إعادة جميع أسرى الصليبيين، وإعفاء الملك لويس من متأخر الفدية المستحقة عليه بموجب صلح دمياط. وقد وافق المماليك على جميع هذه المطالب، فضلاً عن موافقتهم على تسليم بيت المقدس للصليبيين إن هم نصروهم على الشاميين[٦]. وخرج جيش المصريين لقتال الناصر الأيوبي، وعلى رأسه المعز وسائر أمراء المماليك.

لكن الخليفة العباسي الذي كان يشعر بالخطر المغولي يتهدد عاصمته والبلاد الاسلامية بعامة، ما لبث أن أرسل الشيخ نجم الدين القادري لتسوية النزاع بين الأيوبيين والمماليك، فأقنعهم جميعاً بتوفير القوى لمجابهة الأخطار الأجنبية، سواء منها ما هو قادم من الغرب أو زاحف من الشرق، واتفق الفريقان سنة ٦٥١هـ-١٢٥٣م، على أن يكون للمماليك إلى نهر الأردن وللناصر ما وراء ذلك.

وهكذا أخفق لويس التاسع في استغلال النزاع بين الأيوبيين والمماليك، إلا انه لم يضع الوقت جزافاً، وإنما عمد إلى تجديد الأسوار وتعزيز الحصون في المستعمرات الصليبية، وقد استطاعت هذه التدابير ان تدعم مراكز الفرنجة في صد هجمات الأيوبيين المتعددة عليها بعد ان هادنوا المماليك.

وكان الخطر المغولي يتعاظم في الشرق، فعمد لويس التاسع إلى تجديد مفاوضات كان قد بدأها وهو في قبرص قبيل حملته على مصر، مع خاقان المغول لمحالفته ضد المسلمين. فطلب منكو خاقان المغول من ملك فرنسة أن يعلن تبعيته له. ولما عاد رسول لويس التاسع من سفارته كان الملك القديس قد عاد إلى بلاده في ٢٥ نيسان (ابريل) سنة ١٢٥٤م ٦٥٢هـ[٧]، وتخلى عن مشاريعه الخيالية في الشرق.

وقد قام البابا أنوسنت الرابع، والامبراطور البيزنطي، وهيثوم ملك أرمينية، بمساع مماثلة لدى خاقان المغول، وأسفرت هذه المساعي عن تحالفهم الفعلي مع هيثوم، بينما قام بينهم وبين الصليبيين حلف طبيعي، بعد أن علم هؤلاء ان المغول يستعدون لاكتساح البلاد العربية والاسلامية.

---

(٦) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٩١.

(٧) Grousset: Hist. des Croisades, III, p.524-525

والواقع ان خطر المغول كان يقترب من البلاد العربية بقيادة هولاكو شقيق جنكيزخان سيد النصف الغربي من امبراطورية المغول «الذي قوي أمره وظهر اسمه وفتح عدة قلاع في الشرق»[٨]. وهو الأمر الذي اضطر الأيوبيين والمماليك إلى التهادن «أما الصليبيون فيبدو أن خطر المغول كان لا يهددهم، بل على العكس، فانهم صاروا ينظرون الى تهديد المغول للبلاد الاسلامية بعين الرضى والامل، لذلك استمر الصليبيون غارقين في خلافاتهم ببلاد الشام[٩]، وهي الخلافات التي تطورت أحياناً إلى منازعات وحروب أهلية، مما أنهك قواهم ومهد لسقوط المدن والمعاقل الصليبية واحدة بعد أخرى في أيدي المماليك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر»[١٠].

وكانت المسيحية قد انتشرت بين مغول فارس، في حين انتشر الاسلام بين مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية في جنوب روسية وتركستان. وكانت أم هولاكو مسيحية نسطورية، وكذلك كانت زوجته دوقوز خاتون. وكان منكوخان قد أوصى شقيقه هولاكو حين أمره بالزحف على غرب آسية بالمحافظة على تقاليد جنكيزخان وبالتقيد بآراء دوقوز خاتون. فعملت دائماً ـ كما يقول رشيد الدين الهمذاني ـ على مؤازرة المسيحيين «وفي عهدها قوي حال تلك الطائفة»[١١]، ويقول رينه غروسه ان هولاكو أراد أن يمثل دور حامي المسيحيين في الشرق ضد المسلمين[١٢].

وبعد أن وطد هولاكو دعائم دولته في فارس، اتجه شطر العراق، وكان على رأس الخلافة العباسية المستعصم بالله. وبدلاً من أن تستعد بغداد لمقاومة الفاتح، هللت لبطشه بالباطنية في آلموت[١٣]، وشغلت نفسها بالصراع المذهبي بين السنَّة الذين يتمتعون بتأييد الخليفة، والشيعة الذين يناصرهم وزيره مؤيد الدين العلقمي، وقد بلغ من حدة هذا

---

(٨) السلوك، ج ١ ص ٣٩٩.

(٩) انقسم المعسكر الصليبي في الشام إلى جبهات متعددة متعادية، فالبنادقة والبيازنة ضد الجنوية، والبروفنسيون ضد القطاليون، والداوية والتيتون ضد الاسبتارية، وأمراء يافا وأرسوف ضد أمير صور، وأمير انطاكية وطرابلس ضد صاحب جبيل (انظر الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٠٣ ـ ١١١١).

(١٠) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٠٥.

(١١) جامع التواريخ، ج ١، ص ٢٢٠، و٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(١٢) Grousset: Hist. des Croisades, III, p. 578

(١٣) المغول في التاريخ ص١٥٢ ـ ١٥٤.

الصراع ان العلقمي على ما روى بعض المؤرخين كان يصانع التتار ويكاتبهم ويطمعهم في ملك بغداد(١٤).

ولما أرسل هولاكو رسله إلى المستعصم يدعوه إلى الاعتراف بسيادته، أهان أهل بغداد أولئك الرسل، وأجابه الخليفة ان اعتداءه على الخلافة هو اعتداء على المسلمين جميعاً «وانه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب، ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي»(١٥).

ولكن ما كاد الفاتح يتجه بجنده شطر بغداد، حتى تولى المستعصم الذعر، وكان «قليل المعرفة بتدبير الملك، نازل الهمة مهملاً للأمور المهمة»(١٦)، فأخذ يحاول إرضاء المغول بالأقوال والوعود، ولما أخفقت محاولته بعث رسله إلى زعماء المماليك والإمارات الإسلامية كي يهبوا لنجدته، فلم يستجب لدعوته أحد منهم. وزحف المغول على بغداد من كل الجهات، وكان اقتحامهم لها مذبحة من أرهب مذابح التاريخ، استمر الفاتحون يقتلون خلالها وينهبون سبعة أيام كاملة، وقيل اربعين يوماً، وعمدوا إلى خزائن الكتب في المساجد والمعاهد والقصور فألقوها في دجلة حتى جعلوا منها جسراً مرت عليه خيولهم. وقيل ان ضحايا المغول في بغداد بلغوا ثمانمائة ألف نسمة(١٧)، وكان في طليعة هذه الضحايا الخليفة المستعصم وولداه وجميع العباسيين(١٨).

يقول سيد أمير علي: «ويحتاج وصف تدمير تلك المدينة إلى براعة مؤرخ مثل غيبون، فالنساء والأطفال الذين خرجوا من بيوتهم يحملون المصاحف على أكفهم ويتضرعون إلى الجنود كي يبقوا على حياتهم وُطئت أجسادهم بحوافر الخيل، والنساء المدللات اللواتي لم تألفن رؤية الجماهير أجبرن على السير في الشوارع العامة وتعرضن لأبشع ضروب الأذى والإهانة. أما الكنوز الفنية والأدبية التي جمعها الخلفاء المتعاقبون بكثير من المشقة والعناء، مع بقايا المدنية الفارسية، فقد دمرت تدميراً في خلال بضع ساعات،

(١٤) النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٨.
(١٥) جامع التواريخ، ج١ ص٢٦٩ ـ ٢٧٠.
(١٦) النجوم الزاهرة، ج٧، ص٦٤.
(١٧) المرجع السابق، ج٧ ص٥٠.
(١٨) جامع التواريخ، ج١، ص٢٩٤.



وغرقت شوارع المدينة طوال ثلاثة أيام بالدماء واصطبغت مياه دجلة بالحمرة عدة أميال، واستمرت أعمال التخريب والتقتيل ستة أسابيع، فدمّرت القصور والمساجد والضرائح إما بالنار أو بالمعاول بغية الحصول على قبابها الذهبية، وأُعمل السيف في رقاب المرضى في المستشفيات والطلاب والأساتذة في الكليات، وفي الضرائح نبشت قبور الأولياء والأئمة الصالحين، وفي المجامع العلمية التهمت النيران تآليف كبار العلماء، وأُلقيت الكتب طعمة للنيران أو مياه دجلة، وهكذا فقدت الإنسانية تلك الكنوز التي تجمعت خلال خمسة قرون، وفنيت زهرة الأمة فناء تاماً»(١٩).

وكان لسقوط بغداد ومصرع العباسيين على ذلك الشكل الرهيب، أثر بعيد في العالم الاسلامي، فأنشأ الأمراء السلجوقيون والأيوبيون الذين عقد الخليفة أمله في المقاومة على مناصرتهم ومؤازرتهم، يتوافدون إلى بلاط هولاكو لإعلان ولائهم له مخافة ان يتعرضوا لذات المصير.

ولكن ذلك لم يمنع هولاكو من غزو بلاد الشام، وقد اشترك في وضع خطة الغزو هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى والد زوجة بوهيمند السادس أمير انطاكية وطرابلس. وطلب هولاكو من حليفه الأرمني ان يلتقي به على رأس جيش عند الرها حتى يذهب معه إلى بيت المقدس، ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين(٢٠).

واجتاحت جيوش المغول بلاد الشام حتى بلغت مدينة حلب فاحتلتها وأعملت فيها القتل والنهب، وخربت قلعتها التي طالما صمدت في وجوه الفاتحين، وبلغ عدد الأسرى فيها على ما قال المقريزي مائة ألف من النساء والصبيان(٢١)، بيع معظمهم في أسواق الرقيق في أرمينية والإمارات الصليبية(٢٢)، ولم يسلم من أهلها إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين ابن عمرون ودار نجم الدين ابن أخي مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وخانقاه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم»(٢٣).

---

(١٩) مختصر تاريخ العرب ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٢٠) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٣ نقلاً عن Hayton: La Flor des Estoires d'Orient

(٢١) السلوك، ج١، ص٤٢٣.

(٢٢) Hist. des Mongols, III. p. 319 - 320

(٢٣) خطط الشام، ج٢، ص١١٢.

وسرعان ما تساقطت المدن الأخرى، بعد هزيمة حاميتها أو هرب قادتها أو مبادرة أصحابها إلى طلب الأمان. وقد فر الملك المنصور ابن المظفر صاحب حماة، إلى مصر بحريمه وأولاده، وهرب الناصر الأيوبي صاحب دمشق إلى غزة بغية الوصول إلى مصر «وترك دمشق خالية وبها عامتها قد أحاطت بالأسوار... ولم يثبت الناس عند خروج الناصر، ووقعت فيهم الجفلات حتى كأن القيامة قد قامت»[٢٤].

واستسلمت دمشق دون قتال، ولكن حامية القلعة رفضت الاستسلام وجاء لاحتلال القلعة القائد المغولي كتبغا وهو أشد أعوان هولاكو مراساً، وصحبه في رحلته هذه بعض زعماء القوى الصليبية في الشرق الأدنى مثل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى، وبوهيمند السادس أمير انطاكية[٢٥]. وقد صمدت القلعة أربعين يوماً قبل ان تستسلم للغزاة، لكن مقاومتها جرّت الوبال على دمشق، فعانى أهلها من انتقام المغول ألوان الهول والعذاب.

وتابع الفاتحون زحفهم الرهيب «وأسعروا البلاد حرباً، وملأوها قتلاً ونهباً»[٢٦]، حتى بلغوا غزة والخليل، وكان الناصر يوسف قد خشي الذهاب إلى مصر فلاذ بالأردن، فاعتقله المغول وأرسلوه إلى هولاكو فعفا عنه ووعده بأن يعيد إليه دمشق «وبقي معهم إلى ان قتل»[٢٧] كما سنرى بعد قليل.

ويجب ان نشير هنا إلى ان الصليبيين في الشام، وعلى وجه التدقيق أمراء المناطق الجنوبية، رفضوا التعاون مع المغول، والاشتراك معهم في غزو مصر، بل ان بعضهم تعرض للمغول واعتدى على ممتلكاتهم مما اضطر هؤلاء إلى مقابلتهم بالمثل، وكان من جراء ذلك ان احتل المغول صيدا ونهبوها ودمروها. ويرجح المؤرخون ذلك إلى عوامل عدة، منها ان عطف المغول كان يقتصر على المسيحيين الشرقيين دون المسيحيين الغربيين ولا سيما بعد ان تزوج هولاكو ابنة العاهل البيزنطي، وان اشتراك بوهيمند السادس في حملتهم لم يكن دافعه سوى مصاهرته لملك ارمينية، وان كتبغا نائب هولاكو

---

(٢٤) السلوك، ج١ ص٤٢٣.

(٢٥) الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٢٧.

(٢٦) السلوك، ج١، ص٤٢٦.

(٢٧) النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٧.

في الشام، وهو مسيحي نسطوري، طلب من بوهيمند السادس أمير انطاكية إعادة البطريرك الارثوذكسي الذي كان البطريرك الكاثوليكي قد طرده من المدينة، وان البندقيين وغيرهم من أبناء المدن الإيطالية لم يطمئنوا لغزوات المغول التي عكرت صفو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، يضاف إلى ذلك كله ان أوروبة التي بدأت تأخذ بأهداب الحضارة ما كان يمكن ان تنظر بارتياح إلى الحملة البربرية الزاحفة من أعماق آسية وان ادعت حماية المسيحيين.

وكان المماليك في مصر قد شعروا بالخطر الجسيم الذي يتهددهم، وكان على العرش الملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز ايبك، وهو فتى طائش لا يستطيع ان يواجه الموقف الرهيب الذي تتعرض له البلاد في أحلك ظلماته وأخطر نتائجه، فلما تحقق الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة وأتابك العساكر ذلك الخطر، دعا الأمراء والقضاة والعلماء الى مجلس عام، فلما تكامل ذلك المجلس تقدم أحد الحاضرين بسؤال في أمر هولاكو واستيلائه على بلاد الشام، وان بيت المال خال من الأموال، وقد وصل العدو، وطمع في أخذ مصر، والسلطان صغير السن، وان الظرف العصيب الذي تمر به البلاد يقضي بإقامة سلطان كبير يخشاه الناس ويدفع العدو، كما ان بيت المال محتاج إلى المساعدة بشيء من أموال الرعية لتجنيد الجند وتجهيزهم للسفر وتأمين ما يعينهم على ذلك، فأجاب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام: «إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس، وجاز للسلطان ان يأخذ من أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على تجهيزه العسكر لدفع العدو لكن بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من المال والسلاح والسروج الذهب والفضة والكبابيش الزركش وأسقاط السيوف الفضة وغير ذلك، وان كلاً من الجند يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه، ويساوي في ذلك بقية العامة وقت القتال. وأما أخذ أموال التجار والرعية ـ مع وجود ما في بيت المال من السلاح والقماش ـ فلا يجوز، لأنه من باب أخذ أموال الرعية بغير حق»[٢٨]، ثم اتفق الحاضرون على خلع الملك المنصور وإسناد السلطنة إلى سيف الدين قطز، ولقب الملك المظفر، وقد اعترض بعض الأمراء على ذلك فاعتذر إليهم بقوله: «إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم»[٢٩].

---

(٢٨) بدائع الزهور ج ١ ص ٧٨

(٢٩) السلوك ج ١ ص ٤١٧ ـ ٤١٨

وقد بادر الملك المظفر سيف الدين قطز إلى استنفار الناس إلى الجهاد ثم عرض العساكر، واستدعى عربان الشرقية والغربية، فاجتمع من العساكر ما لا يحصى، وشرع في جمع الأموال، فأخذ على كل فرد من الناس ذكراً كان أو أنثى ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال، وأخذ على الغيطان والسواقي إجرة شهر، فبلغ ما جمعه من الأموال ستمائة ألف دينار، فأنفق على العسكر والعربان(٣٠).

وأرسل هولاكو إلى الملك المظفر يدعوه إلى طاعته في كتاب قال فيه على ما رواه القلقشندي والمقريزي: «من ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد المعظم. باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الاقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حلّ به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، واسلموا إلينا أمركم، قبل ان ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم اننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأيّ أرض تؤويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع... أسرعوا برد الجواب قبل ان تضرم الحرب نارها وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كافياً ولا حرزاً، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفنا إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى»(٣١).

وأجاب الملك المظفر على تهديد هولاكو بأن قتل رسله وعلق رؤوسهم على باب

(٣٠) بدائع الزهور، ج ١ ص٧٩.

(٣١) صبح الأعشى، ج٨، ص٦٢؛ السلوك، ج ١، ص٤٢٧ – ٤٢٨.

زويلة أحد أبواب القاهرة، وكتب إلى أمراء الشام انه جاد في العزم على قتال المغول، وقد أعدّ لهم جنوداً لا قبل لهم بها، وهو مصمم على أن ينقذ بلاد الإسلام منهم ويطهرها من رجسهم، ويحذرهم من ان يستسلم لهم أحد، أو يظاهرهم على المسلمين، وان مَثَله ومَثَلهم ومَثَل المغول، كمَثَل من اشتعلت النار في بيت جاره الأدنى، فعليه ان يسعى لاطفائها، وليس لجاره أن يقول له: «لا شأن لك بداري»(٣٢).

وكان الجيش المغولي الذي يعسكر في غزة بقيادة بيدرا أضعف من أن يقابل المماليك ويتغلب عليهم، فأرسل بيدرا إلى كتبغا في بعلبك يطلب منه ان يسرع لنجدته.

وبعض المؤرخين يأخذون على الصليبيين انهم لم ينتهزوا تلك الفرصة فيتعاونوا مع المغول في القضاء على المسلمين، ولا سيما ان كتبغا نائب هولاكو في الشام كان مسيحياً، وقد أظهر من العطف على المسيحيين والرعاية ما لا سبيل إلى نكرانه، ولو قابلوا موادعته بالمثل وتحالفوا معه لوطدوا مراكزهم في الشام، واتسعت رقعة ممتلكاتهم، وشاركوا في فتح مصر، ولكنهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً. ويرى أولئك المؤرخون ان مسلك الصليبيين هذا إنما دلّ على سوء تقدير للموقف، وعدم تبصر بنتائجه(٣٣).

ومن المؤسف ان يكون رينه غروسه أحد هؤلاء المؤرخين، وأن يسمي زحف المغول «الصليبية المغولية»، وألا يكتم اعجابه بهيثوم الأول لأنه استطاع اقناع هولاكو بهذه الحملة، وان يصف الفرنجة في عكا وصور بالغباوة لأنهم رفضوا الاشتراك فيها، ثم يهلل لسقوط بغداد في قبضة الفاتح المغولي، ويسمي ذلك ثأراً للمسيحية، ويرى في هذا الفاتح منقذاً بعثه الله(٣٤).

والواقع اننا نعتقد بأن موقف أمراء المناطق الصليبية الجنوبية من المغول، من أنبل مواقفهم وأكثرها تعقلاً، وهو دليل على ان معايشتهم الطويلة للمسلمين جعلتهم يعتقدون بأن هؤلاء أقل خطراً عليهم وعلى المدنية من القبائل المغولية، وان حمل بعض أفرادها الهوية المسيحية وادّعى حماية المسيحيين.. ولهذا فاننا نجدهم لا يترددون في السماح

---

(٣٢) واإسلاماه ص ١٨١.

(٣٣) انظر الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٢٨ ـ ١١٣٢.

(٣٤) انظر رصيد التاريخ، ج٢، ص١٣٩ ـ ١٤٦.

للمماليك بعبور أراضيهم حين استأذنوهم بذلك لمحاربة المغول. فمر الملك المظفر مع جيشه بعكا، وحصل منها على ما يلزمه من الميرة والمؤونة، وخرج وجوه المدينة لاستقباله «وأرادوا ان يسيّروا معه نجدة، فشكرهم وخلع عليهم واستحلفهم ان لا يكونوا لا له ولا عليه»(٣٥). ثم اتجه شطر الأردن، ولما علم باقتراب كتبغا أخفى القسم الأكبر من جيشه في الغابة المحيطة بعين جالوت بين بيسان ونابلس، وأرسل مقدمة الجيش لملاقاة المغول بقيادة بيبرس.

وسار ركن الدين بيبرس البندقداري حتى لقي طلائع المغول، فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك، وأخذ يناوشهم، فتارة يقدم عليهم وتارة يحجم عنهم، وهو يبغي بذلك مشاغلتهم وعدم الاشتباك معهم في معركة فاصلة، واستمر على ذلك حتى وافاه السلطان عند عين جالوت، فنزل بعسكره في الغور(٣٦).

ووصل كتبغا شارب الدماء وحارق القرى وذابح الألوف من الأبرياء، إلى عين جالوت في ٣ أيلول (سبتمبر) سنة ١٢٦٠م ٦٥٩هـ، وكأنه كما يقول رشيد الدين الهمذاني «بحر من اللهب»(٣٧)، فاضطرب جيش المماليك في أول الأمر، وإذا بالسلطان يلقي بخوذته على الأرض، ويصرخ بأعلى صوته: «وإسلاماه...وإسلاماه»(٣٨)، ثم يحمل بنفسه على العدو، ويندفع جنوده من ورائه وقد استثارت حماسته هممهم وشحذت عزائمهم.

ووقف الملك المظفر في قلب الجيش، وقام بيبرس البندقداري على الميسرة، والأمير بهادر على الميمنة، أما المغول فقد حملوا على القلب ليفتكوا بالسلطان، فتراجع الملك المظفر قليلاً ثم اندفع بكتائبه حاسر الرأس، وانقضت معه الميسرة بقيادة بيبرس، فإذا بإعصار يواجه إعصاراً، وموج يزحم موجاً، وأحس كتبغا شارب الدماء انه يخوض معركة ضارية لا عهد له بمثلها، ويواجه مقاومة جبارة لم يتعود أن يواجهها، فاشتد في القتال، وكان يضرب بسيفين وكلما عقر جواده استبدل به جواداً آخر.

---

(٣٥) السلوك. ج١، ص٤٣٠.

(٣٦) واإسلاماه ص١٩٠.

(٣٧) جامع التواريخ، ج١، ص٣١٢.

(٣٨) السلوك، ج١، ص٤٣١.



وأراد الملك المظفر ان يصل إلى كتبغا ليقتله بنفسه، ولكن الأمير جمال الدين آقوش سبقه إليه فبجلش به وسقط في الوقت نفسه صريعاً بضربة من سيفه[٣٩]، واختلت صفوف المغول إثر ذلك، وأخذوا يتقهقرون، وهزموا هزيمة ساحقة[٤٠].

واندفع المنتصرون بقيادة بيبرس فاسترجعوا من المغول دمشق وحلب، واستخلصوا بلاد الشام، وانقذوا الشرق العربي من براثن الغزاة الذين كانوا يعتقدون بانهم زلزال الأرض، لا يقف أمامهم حصن منيع أو جبل شامخ.

ومن أطرف ما قيل في انتصار المماليك على المغول قول الشاعر:

غلب التتار على البلاد فجاءهم　　من مصر تركي يجود بنفسه

بالشام أهلكهم وبدد شملهم　　ولكل شيء آفة من جنسه

ولما بلغ هولاكو وهو في بلاد فارس هزيمة عسكره بعين جالوت ومقتل نائبه كتبغا ومطاردة المغول في بلاد الشام والقضاء عليهم، غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر الأيوبي وأخاه الظاهر غازي، وكانا في أسره، وقال للناصر: «انت قلت ان عسكر الشام في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغول فقال الناصر: «لو كنت في الشام ما ضرب أحد في وجه عسكرك بالسيف، ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام؟» فأمر هولاكو بضرب عنقه. فقال الناصر: «يا خَونَد[٤١]، الصنيعة» فنهاه أخوه الظاهر عن التوسل إليه. ثم ضربت رقاب الناصر والظاهر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم، واستبقوا الملك العزيز بن الناصر لأنه كان صغيراً[٤٢].

وقد كان لانتصار المماليك على المغول في موقعة عين جالوت والمواقع التي تلتها، أثر حاسم في تاريخ الشرق الأوسط، إذ أوقف تلك الموجة البربرية التي كانت تهدد باكتساحه والسيطرة عليه. يقول الهمذاني: «وقد أراد هولاكو خان ان يرسل الجنود مرة

---

(٣٩) واإسلاماه ص١٩٨.

(٤٠) المختصر في اخبار البشر، ج٢، ص٢٠٩ ـ ٢١٩؛ العبر، ج٥، ص ٥٤٤.

(٤١) السيد

(٤٢) خطط الشام، ج٢، ص١١٧.

ثانية الى الشام ومصر لينتقم لمقتل كتبغا، ولكن لم تكن الظروف في ذلك الوقت تسمح بذلك، بسبب وفاة منكوخان، وبسبب الخلاف الذي ظهر بينه وبين أقاربه، ولهذا عدل عن الفكرة»[٤٣].

وكانت هذه الانتصارات سبباً لظهور المماليك على مسرح الشرق الأدنى كقوة فاعلة ما لبثت ان بسطت سيطرتها على الإمارات الأيوبية في الشام وألحقتها بدولة المماليك في مصر، ثم بدأت تنتزع المدن والقلاع الصليبية واحدة بعد أخرى حتى تم جلاء الفرنجة عن الشرق.

---

(٤٣) جامع التواريخ، ج ١، ص٣١٧.

الفصل الثلاثون

المماليك والفرنج

ما كاد الملك المظفر يحتل دمشق بعد انتصاراته في عين جالوت فيستقبله أهلها مرحبين مهللين، حتى شجر الخلاف بينه وبين قائد جيشه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري الذي كان السلطان قد وعده بأن يقطعه مدينة حلب مكافأة له على بطولته في مطاردة المغول والقضاء عليهم، ثم اخلف وعده له لشكه في حسن طويته وأعطاها لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ، وقد عاتبه بيبرس بقوله محتداً: «إذا كنت لا تنوي إعطائي نيابة حلب، فلماذا وعدتني بها؟ فأجابه: «وعدتك بها حين رأيت في ذلك مصلحة المسلمين، ومنعتك إياها حين خشيت من ذلك على كلمة المسلمين»[1]، فاعترضه بيبرس مع رجاله وهو عائد إلى مصر بينما كان منشغلاً بالصيد بعيداً عن معسكره، وقتله وهو في أوج انتصاره واستولى على ملكه، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ ١٢٥٩م، ولم يكن قد مضى عام واحد على تبوئه الملك.

ويقول سوبرنهايم ان الظاهر بيبرس كان السبب بتوسيد ملك الشام إلى قطز لما أبلى البلاء الحسن في موقعة عين جالوت، فأقطع قطز الأمراء من بني أيوب الاقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول، لكن بيبرس الذي كان يرجو ان توسد إليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئاً فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم، فقتل السلطان ونادى به زعماء الجند وغيرهم سلطاناً[2].

(١) السلوك، ج ١، ص٤٣٦ ـ ٤٣٧؛ وإسلاماه ص٢٠٩؛ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص٢٦٩.

(٢) خطط الشام، ج٢، ص١٢٢.

ومن أعجب ما يرويه أبو المحاسن ان القاهرة كانت قد زينت احتفالاً بعودة الملك المظفر قطز، فاستمرت الزينة ابتهاجاً باعتلاء بيبرس سدة الملك(٣)! وقد تلقب بيبرس بالملك الظاهر ويعتبر المؤسس الحقيقي لسلطة المماليك.

وقد بدأ الملك الظاهر عهده بتوطيد ملكه في مصر وسورية، واستمالة الرعية بابطال ما أحدثه قطز من المكوس والضرائب، والقضاء على حركات التمرد التي قام بها الأيوبيون، والمحاولات الانتقامية التي قام بها المغول، «ثم اتجه بكليته إلى الفرنج»(٤).

وكان بيبرس سياسياً بارعاً، فأراد ان يعطي حكم المماليك صفة شرعية، فعمد إلى إحياء الخلافة العباسية، إذ جاء بأحمد أبي القاسم ابن الخليفة العباسي الظاهر وبايعه الخلافة في ١٣ جمادى الأولى سنة ٦٥٩هـ ١٢٦٠م، بعد ان أثبت نسبه أمام قاضي القضاة(٥)، وتلقب الخليفة الجديد بالمستنصر وضرب اسمه على النقود ودعي له على المنابر(٦)، وبعد ان تمت البيعة للمستنصر قلد الخليفة بيبرس منصب السلطان وأعطاه العقد والخلعة، فعزز بذلك مركز المماليك في العالم الاسلامي وأظهرهم بمظهر الحماة للخلافة العباسية، وتلافى بذلك أية محاولة قد يقوم بها أمير من الأيوبيين لاسترجاع ملكه(٧).

وقد توجه بيبرس بعد شهور قليلة من مبايعة المستنصر بالخلافة، إلى المشرق برفقة الخليفة طمعاً في إعادة بغداد إلى أملاك الخلافة، ولكنه لم يرافقه إلا إلى دمشق فودعه فيها وعاد إلى مصر، وقبل أن يصل المستنصر بجيشه الصغير إلى بغداد أغار عليه حاكم المغول ببغداد وهو في الصحراء فكان ذلك آخر العهد به، وبلغ ما انفقه بيبرس على المستنصر وحاشيته على مايقول المقريزي وأبو الفدا ما يزيد على مليون دينار(٨).

وما لبث الملك الظاهر ان استدعى أميراً عباسياً آخر هو أبو العباس أحمد بن علي بن أبي بكر ابن الخليفة المسترشد فبايعه بالخلافة بحضور القضاة والأمراء وأرباب الدولة

---

(٣) النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٠٢
(٤) السلوك ج١ ص ٤٨٣
(٥) صبح الأعشى، ج٦، ص٩؛ السلوك، ج١، ص٤٤٩ ـ ٤٥٠.
(٦) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٥ و ص٣٨٢ ـ ٣٨٣؛ المختصر في تاريخ البشر، ج٣، ص٢٢٢، حسن المحاضرة، ج٢، ص٤٩ ـ ٦٢.
(٧) تاريخ الشعوب الاسلامية، ج٢، ص٢٤٢.
(٨) السلوك، ج١، ص٤٦٧؛ المختصر في تاريخ البشر، ج٣، ص٢١٥.

في سنة ٦٦١هـ ١٢٦٢م، ولقب بالخليفة الحاكم، وبذلك اعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى مصر، ولم يفكر بيبرس أو الخليفة الجديد هذه المرة في الاستيلاء على بغداد(٩). وقد تعاقب بنو الخليفة الحاكم على كرسي الخلافة مدة قرنين ونصف القرن وليس لهم منها إلا الاسم، وقد قنعوا بنقش اسمائهم في السكة والخطبة لهم على منابر مصر وسورية(١٠)، وان يطلق عليهم لقب «أمير المؤمنين»!

وخشي الظاهر أن يعود هولاكو إلى مهاجمة الشام، وان يتم بينه وبين الصليبيين التحالف الذي رفضه هؤلاء في حملته الأولى، فمد يده إلى بركة خان زعيم مغول القفجاق الذين عرفوا باسم القبيلة الذهبية، وأقام بينه وبين هذه القبيلة أوثق الصلات، «ثم ان دائرة التحالف بين المماليك ومغول القفجاق لم تقف عند ذلك الحد، بل سرعان ما انضم الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس إلى محور بيبرس ـ بركة، فأصبح التحالف ثلاثياً، مما مكن الظاهر بيبرس من القيام بمشاريعه الكبرى ضد الصليبيين وهو آمن»(١١).

وقد رغب الصليبيون في عقد الصلح مع بيبرس إلا أنه عدّد لهم نقضهم للصلح غير مرة، وقال لهم: «ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم، فاني لا أقبل غير ذلك»(١٢) ولم يكن التعصب دافع بيبرس على الرغم من تدينه وتقواه، وفي ذلك يقول لامونت الذي يسميه أحد أبطال الإسلام العظام: «على ان بيبرس يستحق ان يتبوأ مكاناً علياً في التاريخ باعتباره مؤسس عظمة مصر المملوكية. وعلى الرغم من أن بيبرس كان مسلماً تقياً، فانه لم يكن مدفوعاً بالدين أكثر ممن تقدمه من السلاطين، ولم تكن حروبه ضد اللاتينية إلا خطوة محتمة فرضتها عليه سياسة التوسع المصرية، ومما يدل على ان الحروب التي خاضها لم تكن حروباً دينية، أو جهاداً، رغبته الملحة في كسب صداقة الملوك النصارى: «شارل ملك انجو وصقلية، وجيمس أوف اراغون، والفونسو أمير

(٩) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ٧١.

(١٠) تاريخ العرب لحتي وزميليه، ج٢، ص ٨٠٠.

(١١) الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٤٣.

(١٢) السلوك، ج١، ص٤٨٥ ـ ٤٨٦.

قشتالة، وميخائيل باليولوغوس. فقد سعى بيبرس أن يعقد مع هؤلاء جميعاً محالفات سياسية وتجارية»[١٣].

وبدأ الصراع بين الفريقين في أوائل سنة ١٢٦٣م ٦٦٢هـ، بغارات ومناوشات من الجانبين، وكان النصر فيها سجالاً بينهما، ثم انتقل بيبرس في أوائل سنة ١٢٦٥م ٦٦٤هـ، إلى الحرب الشاملة، فزحف على رأس جيش كبير على عدد من الحصون والمدن الصليبية، فتساقطت في يده قيسارية ويافا وارسوف، وكان مانفرد ابن الامبراطور فردريك الثاني ووريثه في صقلية والامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوغوس وبركة خان زعيم القبيلة الذهبية وشيخ جمهورية جنوة الإيطالية، يتابعون انتصاراته بعطف ويتبادلون معه الرسائل الودية[١٤].

وتابع الظاهر بيبرس حربه الشاملة في سنة ١٢٦٦م ٦٦٥هـ، فاستولى على صفد وهونين وتبنين والرملة في فلسطين وعلى القليعات وحلباء وعرقة في ساحل الشام. ثم أرسل الأمير قلاوون والملك المنصور الثاني الأيوبي إلى أرمينية الصغرى فقاما بغارات انتقامية على عاصمتها ومدنها الكبرى، بينما كان ملكها هيثوم الثالث يطلب في تبريز معونة المغول، وقد عادا بأربعين ألفاً من الأسرى وما لا يحصى من الغنائم. «والواقع ان مملكة أرمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة، وصار دورها سلبياً بعد ذلك في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى. أما الملك هيثوم، فان الصدمة جعلته يترك العرش سنة ١٢٦٩ لابنه ليو الثالث»[١٥].

وفي أيار (مايو) سنة ١٢٦٨م ٣ رمضان سنة ٦٦٦هـ، أحرز بيبرس نصراً كبيراً إذ احتل انطاكية بعد حصار لم يطل أكثر من خمسة أيام[١٦]، مع انها مدينة كبيرة قوية التحصين سبق أن عجز الاباطرة البيزنطيون أنفسهم عن أخذها من الصليبيين[١٧]، وقد كان سقوط انطاكية أعظم من مجرد كارثة حربية، لأنها من أولى الإمارات التي أسسها

---

(١٣) دراسات اسلامية ص ١٣٧

(١٤) Grousset: Hist. des Croisades, III. p. 652

(١٥) الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٤٨.

(١٦) انظر تفصيل ذلك في السلوك، ج ١، ص٥٦٧؛ المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٤ ـ ٥؛ الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص٨٦ ـ ٨٧.

(١٧) الظاهر بيبرس للدكتور عاشور ص ٧١.

الصليبيون في الشرق، وقد ظلت منذ ذلك التاريخ بمثابة القلعة الكبرى للفرنجة في بلاد الشام[١٨]. فلا عجب إذا وقع نبأ استيلاء بيبرس عليها وقع الصاعقة على رؤوسهم، وأسرعت بعض القوى الصليبية المجاورة إلى الاستسلام والفرار بحياتها، في حين لجأ بعضها الآخر إلى استرضاء السلطان بيبرس وكسب عفوه ووده[١٩].

وبعد انهيار ارمينية وحليفتها انطاكية، لم يبق للمدن الصليبية القليلة المتناثرة على سواحل الشام وفلسطين من أمل في العون والمؤازرة إلا في مملكة قبرص الصليبية، بعد أن أعرضت أوروبة عن أصوات الاستغاثة وطلبات النجدة، بينما حالف العاهل البيزنطي ميخائيل باليولوغوس القباجقة في روسية والمماليك في مصر ضد شارل دانجو[٢٠] الذي اشترى لقب ملك القدس من ماري أميرة انطاكية[٢١].

وقد توحدت مملكة قبرص الصليبية ومملكة الصليبيين في الشام مرة أخرى تحت تاج واحد، حين خلف هيو الثالث والده هيو الثاني ملك قبرص سنة ١٢٦٧م ٦٦٥هـ، وورث عرش المملكة الصليبية في الشام سنة ١٢٦٩م ٦٦٧هـ، فجعل هيو الثالث يوثق صلاته بأمراء الصليبيين لتقوية الوحدة الداخلية، في الوقت الذي كان يسعى في سبيل مدد خارجي، ولم تستطع أوروبة ان تحقق أمانيه، فالحملة التي أرسلها ملك أرغونة بقيادة ولديه غير الشرعيين كانت قليلة العدد ضئيلة الشأن. والحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسة قد اتجهت إلى تونس وهُزمت فيها كما هزمت حملته السابقة، بل كانت هذه الحملة أكثر شؤماً عليه، إذ شاهدت تونس مصرعه ومصرع سواد جيشه. والحملة الانكليزية التي جاءت إلى عكا بقيادة الأمير إدوار (الذي تولى فيما بعد عرش انكلترة باسم إدوار الأول) كان عددها لا يزيد على ألف رجل وقد نشب الخلاف بينها وبين التجار المسيحيين، ولا سيما البندقيين الذين كانوا يمدون المماليك بالمواد الأولية اللازمة لصناعة السفن، ويبيعونهم الرقيق الأبيض لاستخدامهم في الجيش. والمساعدة المغولية

(١٨) المرجع السابق ص٧٢.

(١٩) المرجع السابق ص٧٣.

(٢٠) الروم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ص٢١٦.

(٢١) كانت ماري اميرة انطاكية من المتخاصمين على عرش مملكة بيت المقدس، ولكنها غلبت على أمرها سنة ١٢٦٨م ٦٦٧هـ، وقد قام شارل دانجو بالاستيلاء على عكا سنة ١٢٧٧م ٦٧٦هـ، بالتعاون مع فرسان الداوية ضد هيو الثالث ملك قبرص الذي منحته المحكمة العليا عرش القدس.

التي وعد بها أبغا خان ابن هولاكو وخليفته الذي شغلته الحرب مع مغول تركستان، كانت صغيرة جداً، وقد اقتصر أفرادها على النهب والسلب في حوض العاصي ثم عادوا من حيث أتوا.

ومع ذلك فقد كان الأمير إدوار وهيو الثالث يضعان الخطط الحالمة لاسترداد مملكة بيت المقدس، واحتلال مصر، والاستيلاء على القسطنطينية التي تحررت من نير الصليبيين(٢٢).

وكان الظاهر يتابع خلال ذلك حملته وتوسعه على حساب الفرنجة، فانتقل بعد أن وطد أركان حكمه في انطاكية، إلى إمارة طرابلس فاستولى على صافيتا وحصن عكار، ثم حاصر حصن الأكراد المنيع وهو أهم معاقل الفرسان الصليبيين، بل لعله أروع بناء حربي أبقته لنا العصور الوسطى(٢٣)، وهو يقع على قمة ترتفع سبعمائة وخمسين متراً عن سطح البحر، على مسافة أربعين كيلو متراً من الساحل، في الطرف الجنوبي لجبال العلويين، وكان الفرسان الصليبيون يشرفون منه على الطرق الموصلة بين الموانىء على البحر المتوسط، ووادي نهر العاصي والمدن القائمة على ضفافها وأهمها مدينة حمص، وكانت كتائبهم تنطلق بلا انقطاع من ذلك الوكر المنيع، فتجوب السهول والجبال، وتغزو ضفتي نهر العاصي، وتفرض الجزية والضرائب والرسوم، وتعود إلى بلادها محملة بالأسلاب والأموال. وكان الصليبيون يسمونه «حصن الفرسان» والعرب يسمونه «حصن السفح» فلما حلَّ فيه جنود صلاح الدين عرف باسم «حصن الأكراد» نسبة إلى أولئك الجنود وقائدهم العظيم(٢٤).

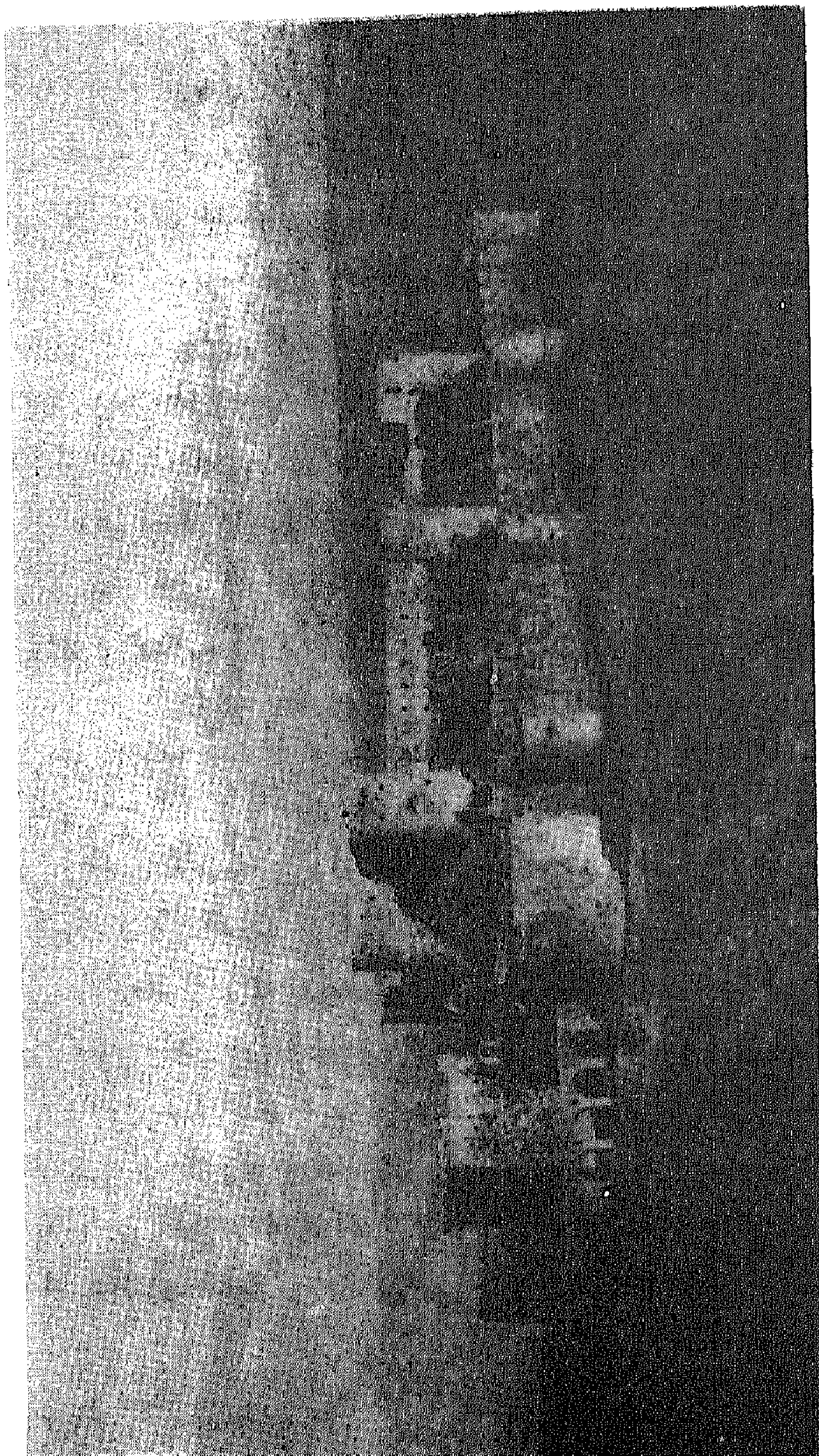
يقول الاستاذ حبيب جاماتي: «وكان دفاع الفرسان عن حصنهم رائعاً مجيداً، ولم تقل مقاومتهم عن هجوم أعدائهم شدة وعناداً، فقد شهد سفح الجبل الأجرد، خلال أيام وأسابيع متعاقبة، أسوداً تنافح أسوداً، وردد الصدى من واد إلى واد قعقعة السلاح وصياح المتحاربين على نور الشمس وضوء القمر وفي الليالي القاتمة سواء بسواء.

---

(٢٢) الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٠٩ نقلاً عن Seventeen Lectures on the Study of Med. and Modern History p. 205 - 206

(٢٣) تاريخ العرب لحتي وزميليه، ج٢، ص٧٧٧.

(٢٤) الجنة في ظلال السيوف ص١٠٥.



وتبارى الفريقان في ميدان القتال وحلبة البطولة ومضمار التضحية، وراح النصر يبتسم يوماً لهذا ويوماً لذاك، إلى أن أدرك قائد الفرسان في النهاية ان الدائرة دائرة عليهم ان عاجلاً أم آجلاً، وان مقاومتهم لن تنقذهم من الهلاك مهما تطل مدتها. فأراد أن يعلن باسم رجاله رغبته في وضع حد لذلك النضال المرير، ويطلب وقف القتال والدخول في مفاوضة لوضع شروط التسليم، ولكن معاونيه في القيادة لم يوافقوه على رأيه، بل قرروا المضي في المقاومة حتى ينفد منهم الزاد والماء، أو يؤخذ منهم الحصن عنوة واقتداراً»[٢٥].

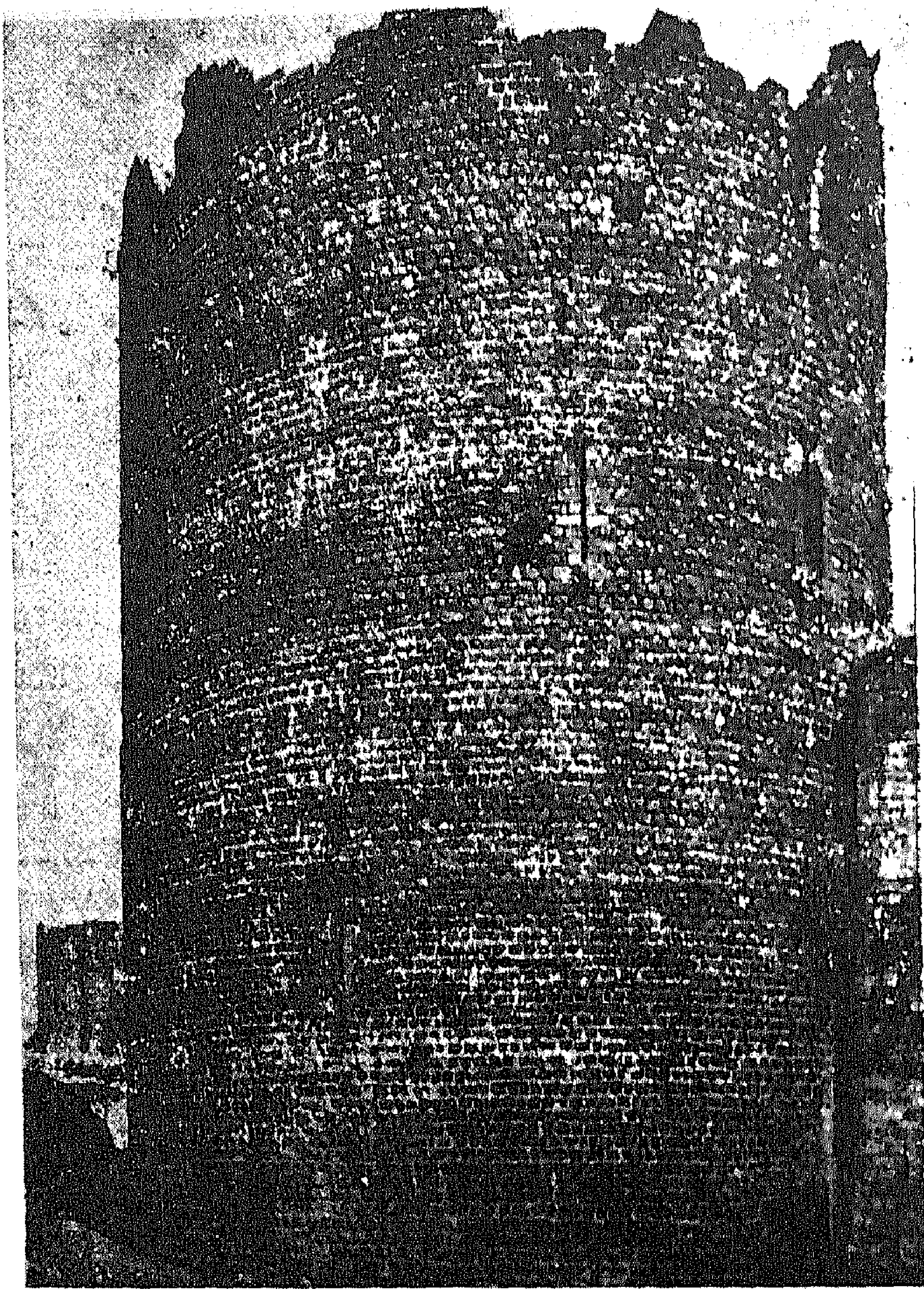
إلا أن بيبرس شدد الهجوم، واقتحم بابين من أبواب المعقل، واحتل جزءاً من الأسوار، فاضطر الفرسان إلى الموافقة على اقتراح قائدهم بالتسليم وطلب الأمان، وفي ٨ نيسان (ابريل) سنة ١٢٧١م ٦٦٩هـ، كف الفريقان عن القتال، وتم الاتفاق على ان يخرج الفرسان من حصنهم معززين مكرمين، وان يحتفظوا بأسلحتهم ودروعهم وخوذاتهم، وإن يأخذوا معهم ستين جواداً بعدتها الكاملة، وان يحمل كل منهم ألف قطعة من الذهب لا أكثر، وان يحمِّلوا عشرين من البغال والحمير ما يكفيهم من المؤونة والزاد لمدة شهر كامل، وان تأخذ النساء ما يحلو لهن أخذه من الحلي والمجوهرات. أما الذين كانوا في الحصن من أصدقاء أو حلفاء أو خدم أو أسرى من أبناء البلاد، أياً كان مذهبهم، فيترك لهم الخيار في مرافقة الفرسان في رحيلهم أو البقاء في الحصن على أن يؤمنهم الغالبون على أرواحهم، ويتعهدوا لهم بتوفير وسائل السفر لهم فيما بعد إذا رغبوا في ذلك[٢٦].

وانحدر الظاهر بيبرس بعد ذلك نحو الجنوب فاستولى على حصن القرين، وأرسل اسطولاً لغزو قبرص، فحطمت العاصفة سفنه، فاستولى هيو الثالث عليها، وأرسل إلى بيبرس ينبئه ساخراً باستيلائه على تلك السفن، فأجابه السلطان بسخرية مماثلة: «... وقد كنت عرّفتنا ان الهواء كسر عدة من شوانينا.. ونحن الآن نبشره بفتح القرين، واين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين. وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب... وما النصر بالهواء مليح، إنما النصر بالسيف هو المليح... وان عدمت من بحرية المراكب آحاد، فعندنا

---

(٢٥) المرجع السابق ص١٠٦.

(٢٦) المرجع السابق ص١٠٧.



احد ابراج حصن الاكراد

من بحرية المراكب ألوف. وانتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول. فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم من قرية معمورة إلخ..»[٢٧].

وخلال سني ٦٦٩ ـ ٦٧٢هـ ـ ١٢٧٠ ـ ١٢٧٣م، استولى بيبرس على حصون الاسماعيلية واحداً بعد آخر بقيادة الأمير عز الدين العديمي وإشراف صارم الدين مبارك ابن الرضى الذي قلده بلاد الدعوة الاسماعيلية على أن تكون مصياف وبلادها خاصة بالسلطان. يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور: «وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم، فأقطعهم بيبرس في مقابل ذلك بعض الأراضي المصرية ليستوطنوها. فكان هذا القضاء على قوتهم التي شغلت الظاهر وجيشه ردحاً من الزمن. ومن العجيب في اخلاق بيبرس انه بعد إجلائهم عن مواطنهم إلى الديار المصرية استخدمهم في قضاء أغراضه»[٢٨].

ولما يئس هيو الثالث والأمير إدوار من تحقيق أحلامهما، بادرا في سنة ٦٦٧هـ ١٢٦٨م، إلى عقد الصلح مع الظاهر بيبرس لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام. إلا أن إدوار ما لبث ان أصيب بطعنة خنجر سددها إليه أحد الاسماعيليين، لكن الطعنة لم تكن قاتلة فلزم إدوار فراشه بضعة أشهر ثم عاد إلى بلاده في خريف سنة ١٢٧٢م ٦٧١هـ. أما هيو الثالث فقد يئس من معالجة أوضاع الصليبيين في بلاد الشام وتقوية مراكزهم فيها، فعاد سنة ١٢٧٦م ٦٧٥هـ، إلى قبرص دون ان يعين نائباً عنه في عكا، متخلياً بصورة نهائية عن مملكة بيت المقدس، وكتب إلى غريغوري العاشر يشرح الوضع السائد فيها ويبرر الموقف الذي اتخذه منها[٢٩]. وقد ندم هيو الثالث على ذلك فيما بعد، وحاول مرة ومرة استعادة ملكه في بيت المقدس، فقوبل بمقاومة مسلحة من قبل أنصار شارل دانجو الذي اتخذ لنفسه لقب ملك بيت المقدس وأرسل نائباً عنه إلى عكا، بوصفه وريثاً للأمبراطور فردريك الثاني في صقلية.

وعلى أثر وفاة بوهيمند السادس أمير طرابلس في أيار (مايو) سنة ١٢٧٥م ٦٧٤هـ، خلفه ابنه بوهيمند السابع، وكان فتى قاصراً، فاشتد النزاع بين مختلف الأمراء وذوي الشأن في طرابلس بسبب الوصاية عليه، وبلغ هذا النزاع حد الحرب الأهلية.

---

(٢٧) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص٩٧ ـ ٩٨.

(٢٨) المرجع السابق ص١٠٠.

(٢٩) Grousset: Hist. des Croisades, III, p. 669 - 670

ومثلما اضطربت الأوضاع الداخلية في المدن الصليبية، اضطربت المملكة التي بناها الظاهر بيبرس إثر وفاته في ١٧ محرم سنة ٦٧٦هـ ١٢٧٧م، وهو في الطريق من حلب إلى دمشق، بعد أن امتدت إلى البحر الأسود شمالاً والمحيط الهندي جنوباً، والفرات شرقاً وتونس غرباً، وتنازع على الحكم ولداه السعيد بركة والعادل سلامش والأمير سنقر الأشقر والأمير قلاوون الألفي، وقد استطاع قلاوون الذي تلقب باسم الملك المنصور أن يستأثر بالملك، بعد أن هرب سنقر إلى قلعة صهيون واستنجد بالمغول، وبذلك أتيحت الفرصة لأبغاخان ـ الذي ما فتىء يكاتب الأمير إدوار، ويبعث الرسل إلى البابا، لاقامة حلف مغولي صليبي دون جدوى ـ كي يهاجم بلاد الشام انتقاماً من المماليك.

إلا ان غزوة المغول سنة ٦٧٩هـ ١٢٨٠م، بالرغم من الفظائع التي أقدموا عليها ولا سيما في مدينة حلب التي أحرقوا فيها الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء(٣٠)، لم تكن على ما يبدو سوى مجرد حملة انتقامية، لأنهم ما لبثوا ان تخلوا عن المناطق التي احتلوها وعادوا إلى الجزيرة.

وأدرك الملك المنصور انه في حاجة إلى فترة من السلام يوطد فيها أركان ملكه ويقوي جيشه ويعزز دفاعه، كما أراد ان يحول دون أية محاولة يقوم بها المغول للتحالف مع الصليبيين، فعقد مع هؤلاء صلحاً لمدة عشر سنوات.

والواقع ان المغول ما لبثوا ان قاموا سنة ٦٨٠هـ ١٢٨١م، بحملة جديدة يؤازرهم فيها ليو الثالث، وقدر المؤرخون عدد أفرادها بثمانين ألفاً. وقد بلغت هذه الحملة أسوار حمص، ثم ارتدت مهزومة بعد معركة عنيفة قادها قلاوون بنفسه، وانطلق المغول هاربين عبر الفرات، بينما حاول ليو الثالث العودة إلى بلاده فاعترضه الأمير شجاع الدين السناني في الطريق فقتله وأسر كل من معه(٣١).

وقد توفي أبغا خان في السنة التالية، وقلب أخوه تكودار سياسته رأساً على عقب، فأعلن اعتناقه الإسلام وتسمى باسم أحمد، واتخذ لنفسه لقب سلطان، وأرسل إلى قلاوون يخبره بأنه مسلم وانه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف، وأمر بتجهيز

---

(٣٠) النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٧٧.

(٣١) المختصر في تاريخ البشر، ج٤، ص١٥ ـ ١٦؛ العبر، ج٥، ص٥٤٥ ـ ٥٤٦.

الحجاج، وطلب منه التعاون والتهادن، فردّ السلطان عليه مهنئاً بالإسلام، وداعياً إياه إلى التحالف ضد العدو المشترك وهم الصليبيون. لكن تكودار ما لبث ان قتل سنة ٦٨٣هـ ١٢٨٤م، وحل محله إبن أخيه ارغون في حكم دولة مغول فارس، وأعلن وضع قواته لخدمة المسيحية، واتفق مع ملك أرمينية على استرداد الأراضي المقدسة من المسلمين، وأرسل أربع سفارات إلى البابوية بين سنة ٦٨٤هـ ١٢٨٥م، وسنة ٦٨٩هـ ١٢٩٠م، يقترح فيها القيام بحملة مشتركة مع البابوية لمحاربة المماليك، بحيث يغزو الفرنجة مصر ويغزو هو بلاد الشام، لكن أرغون خان لم يجد استجابة من الغرب، سواء من البابا أم من الملوك[٣٢].

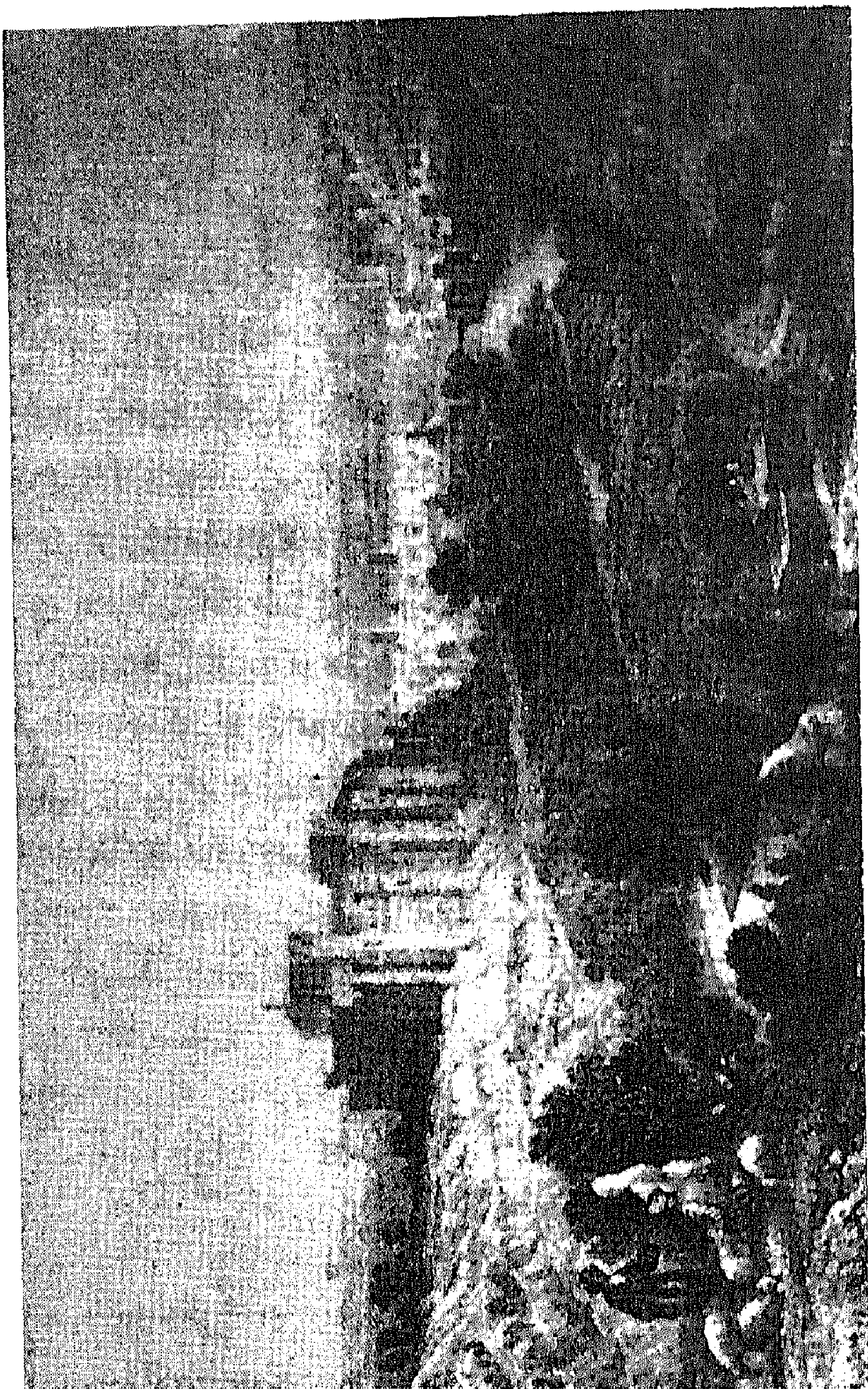
ويبدو ان المنصور قلاوون لم يعد يأبه لحملات المغول المتوقعة، وقرر اقتلاع تلك النبتة الغربية التي لا جذور لها في الأرض العربية، وقد شاخت وتساقطت أوراقها، فما لبث ان هاجم في ربيع سنة ٦٨٤هـ ١٢٨٥م، حصن المرقب، وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة[٣٣]، واستولى عليها.

وفي سنة ٦٨٦هـ ١٢٨٧م، نشبت الحرب في إيطالية بين جمهوريتي بيزة وجنوة، ثم انتقلت إلى بلاد الشام، فأقبل اسطول جنوي لضرب معسكرات البيازنة[٣٤]، وانتهز السلطان قلاوون هذه الفرصة فاستولى على اللاذقية.

وفي تلك السنة نفسها، توفي بوهيمند السابع أمير انطاكية دون أن يخلف وريثاً للعرش، فتألف مجلس بلدي لإدارة شؤون الإمارة، إلا أن اخته الأميرة لوسي ما لبثت ان وصلت إلى عكا وطالبت بحقها في ملك أخيها. واستنجدت الأميرة بالاسبتارية، بينما استنجد المجلس بجنوة. ويقول أبو المحاسن ان بارتلميو (سيرتلمية) صاحب جبيل ورئيس المجلس «سأل من السلطان الملك المنصور المساعدة وأن يتقدم للأمير بلبان الطباخي السلحدار وأن يساعده على تملك طرابلس، على ان تكون مناصفة، وبذل بذولاً كثيرة»[٣٥].

---

(٣٢) الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٦٨ ـ ١١٦٩
(٣٣) النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢١.
(٣٤) Hist. du Commerce du Levant, I, p. 354 __ 355
(٣٥) النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢١.



مدينة طرابلس عن لوحة قديمة

وقد انجد الجنوية مجلس طرابلس بأسطولهم، فوضع المجلس المدينة تحت حمايتهم، وانتهزوا تلك الفرصة فعززوا مراكزهم التجارية فيها وأضحت لهم شوارع وأسواق خاصة، إلا أن الأميرة لوسي ما لبثت أن فاوضتهم واتفقت معهم على الاعتراف بحقوقهم في طرابلس مقابل اعترافهم بها أميرة عليها، وانهارت بذلك مطامع بارتلميو فعاد إلى تحريض المنصور قلاوون على احتلال المدينة، واشترك البنادقة والبيازنة، منافسو الجنوية في هذا التحريض. بإرسال وفد إلى مصر ينبه السلطان إلى أن وجود الجنويين في طرابلس يهدد تجارة الاسكندرية ويتيح لهم السيطرة على البحر الأبيض المتوسط.

ولم يكن قلاوون في حاجة إلى كل هذا الإغراء، كي يحاول الاستيلاء على طرابلس، إذ كان يتحين الفرصة المؤاتية ليخطو هذه الخطوة، فما ان شعر بالفوضى السائدة في المدينة، حتى سار إليها في ربيع سنة ٦٨٨هـ ـ ١٢٨٩م، ورابط أمام أسوارها، وقد أسرع الصليبيون إلى تناسي أحقادهم والاتحاد في وجه الخطر المحدق بهم، وانجدت قبرص عكا وجنوة المدينة المحاصرة بقوة من جندها وطائفة من سفنها، وقد أدرك الجميع ان سقوط طرابلس معناه ضياع ما تبقى من ممتلكات الصليبيين على طول الساحل في المستقبل القريب. لكن الوقت كان قد فات، وضيّع الفرنجة فرصة الاستعداد والتأهب للمعركة، ومهما استجمعوا من قواهم في الساعات الأخيرة، فانها لن تستطيع صد القوة الجبارة التي كان قلاوون قد حشدها حول طرابلس والتي بلغت أربعين ألفاً من الفرسان ومائة ألف من المشاة[٣٦]، فضلاً عما نصب حولها من دافعات القذائف، ومن جاء بهم من الخبراء في بث الألغام وطلب منهم العمل ليلاً ونهاراً في تقويض الأسوار[٣٧].

وقد أدرك الفرنجة في طرابلس النهاية المحتومة التي ستصير إليها، فما هي إلا ثلاثة أسابيع مرت على الحصار حتى أخذ كل فريق منهم يسابق الفريق الآخر في جمع أمواله وتهريب بضائعه، إلا ان جيش قلاوون ما لبث ان احتل المدينة، فدمر أسوارها ومنشآتها القديمة القائمة على شاطىء البحر، وبنى طرابلس الجديدة بجوار النهر حول حصن سان جيل، بعيداً عن شاطىء البحر، اتقاءً لغزو الأساطيل الأوروبية[٣٨].

---

(٣٦) السلوك ج ١، ص٧٤٧.

(٣٧) الجنة في ظلال السيوف ص١٢٥.

(٣٨) السلوك، ج ١، ص٧٤٨؛ المختصر في تاريخ البشر، ج ٤، ص ٢٤.

ولما سقطت طرابلس في ١٤ ربيع الآخر سنة ٦٨٨هـ ١٢٨٩م، «أقر السلطان بلدة جبيل مع صاحبها على مال أخذه منه، وأخذ بيروت وجبلة وما حولها من الحصون»[٣٩]، وبذلك اقتصرت المستعمرات الصليبية في بلاد الشام على مدن عكا وصيدا وصور وحصن عتليت[٤٠].

كانت نهاية البقية الباقية من الإمارات الصليبية، معروفة ومتوقعة من الجميع. فبعد ان تهاوت إمارة الرها، وإمارة انطاكية، وإمارة طرابلس، لم يبق من ذلك البناء الشامخ الذي بناه الاستعمار الغربي في دمشق، سوى انقاض مملكة بيت المقدس. وكانت هذه المملكة التي تحمل اسم عاصمة فقدتها منذ عهد بعيد، تقتصر على ثلاث أو أربع مدن!

كانت النهاية معروفة ومتوقعة من الجميع، ومع ذلك، فان أوروبة لم تتحرك لانقاذ الموقف، وعبثاً كان هنري الثاني ملك قبرص يستغيث، وكان قادة عكا يستنجدون، وكان ارغو خان زعيم مغول فارس يدعو البابوية إلى مشاركته في حرب صليبية جديدة. فان كل ذلك ظل دون جواب!

لقد تحركت أوروبة يوم سقطت الرها، وضجت يوم سقطت حطين، وذعرت يوم سقطت القدس، وتدفقت أمواجها البشرية خلال قرنين كاملين لانقاذ الأرض المقدسة، وها هي البقية الباقية من الممتلكات الصليبية في بلاد الشام توشك ان تزول إلى الأبد، دون ان تتحرك أوروبة، أو تضج، أو يتولاها الذعر، أو ترسل نجدة أو تلبي استغاثة، لأن قيماً جديدة قد أشرقت في أوروبة، وهي تناضل - وقد يستمر نضالها قروناً عديدة - لاعلاء شأن العلم والحرية، وإقامة علاقات جديدة بين الناس والشعوب، ليس الدين والعنصر واللون أساسها ومرتكزها.

ان المدن والحصون الصليبية كانت تتساقط منذ عشرات السنين في أيدي أبناء البلاد، كما تتساقط أوراق شجرة زرعت في غير تربتها، ثم ما لبثت تلك الشجرة الغريبة أن تداعت على نفسها وسقطت دفعة واحدة!

هكذا سقطت عكا في ربيع سنة ٦٩٠هـ ١٢٩١م، كجذع شجرة وحيدة عارية في فلاة

---

(٣٩) النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢١.

(٤٠) Grousset: Hist. des Croisades, III, p.745

من الأرض، لا أغصان لها تحميها من الرياح والعواصف، ولا جذور تغذيها وتجدد مقاومتها.

وكانت الهدنة إذ ذاك قائمة بين السلطان قلاوون وهنري الثاني، والأمن يسود العلاقات التجارية المنتظمة بين المدن الصليبية وبقية مدن الشام، والفلاحون يعملون مطمئنين في كل مكان(٤١)، وإذا ببعض الإيطاليين الأغرار القادمين حديثاً إلى عكا، دون ان يعرفوا حقيقة الأوضاع فيها، يعتدون على تجار المسلمين في المدينة، ويغزون بعض المزارع الاسلامية في جوارها(٤٢)، ويجورون في ذلك الغزو والعدوان جوراً عظيماً أثار السلطان قلاوون، ولم يهدىء من ثورته اعتذار حكام عكا وتعهدهم بمعاقبة المعتدين(٤٣)، ولا سيما عندما طالبهم بتسليم المذنبين ليقتصّ منهم فرفضوا ذلك بحجة ان العدوان قام به صليبيون أغراب خارجون عن سلطة حكومة عكا، لذلك فان هذه الحكومة غير مسؤولة عن أعمالهم(٤٤).

إلا أن الموت فاجأ السلطان قلاوون في ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٩٠، وهو يستعد لمهاجمة عكا، وخلفه ابنه الأشرف خليل، فما كاد يقضي على المحاولات الداخلية لانتزاع الحكم منه، حتى اتجه إلى عكا لتنفيذ ما أعدّه أبوه، بعد أن أرسل إلى القوات الإسلامية في بلاد الشام لموافاته إلى هناك.

وتجمعت القوات الإسلامية أمام عكا في ربيع سنة ٦٩٠هـ ١٢٩١م، وفرضت الحصار عليها، وأخذت تضرب أسوارها بالمجانيق الكبار. وتنادى الفرنجة في الشام إلى تناسي خلافاتهم والدفاع عن ملاذهم الأخير، وأقبل هنري الثاني من قبرص مع قليل من الفرسان والمشاة وكثير من المؤن والإمدادات، ولكن سرعان ما أدرك قادة المعركة انهم يخوضون معركة خاسرة، فأرسلوا إلى الأشرف خليل يسألونه عن شروطه لعقد الصلح، فأجاب انه يطلب منهم الاستسلام دون قيد أو شرط، ويعدهم بتأمين خروجهم جميعاً مع أموالهم من عكا دون أن يتعرض لهم أحد، ولكنه يسحب هذا الوعد إذا أبوا إلا متابعة القتال.

---

(٤١) Grousset: Hist des Croisades, II, p. 748

(٤٢) السلوك، ج ١، ص٧٥٢ـ ٧٥٤.

(٤٣) الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٧٨.

(٤٤) المرجع السابق، ج٢، ص١١٧٩.

وأبى المفاوضون تسليم المدينة ومغادرتها آمنين، فعادوا إلى متابعة القتال، إلا أن اليأس كان قد دب بين صفوفهم، فأخذ الكثيرون منهم يفرون عن طريق البحر، وكان هنري الثاني أحد الفارين(٤٥). وتعاظم الذعر حين اقتحم المسلمون المدينة في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠هـ ١٨ أيار (مايو) ١٢٩١م، فهرع الناس نحو السفن القليلة الباقية هاربين، وأسقط في أيدي من لم يستطيعوا النجاة منهم، بينما كان الداوية والاسبتارية يقاتلون ببسالة عظيمة، وقد استمر القتال داخل المدينة عشرة أيام.

وكانت عكا من أحسن المدائن في العمارة والبناء الفاخر، فلما فتحها الملك الأشرف خليل وهدم سورها وقلعتها، هرب أهل المدينة منها وصارت خراباً(٤٦).

ومن يوم ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠هـ ١٨ ايار (مايو) سنة ١٢٩١م، وهو اليوم الأخير من ملحمة عكا، حتى ١٩ رمضان ـ ١٤ آب (اغسطس) ـ وهو اليوم الذي استسلم فيه حصن عتليت، استولى المسلمون على صور دون أية مقاومة، ودخلوا صيدا بعد أن فر الفرنجة منها فدمروا قلعتها لئلا يحتلها الصليبيون من البحر مرة أخرى، كما احتلوا حيفا ودمروا حصونها، ثم احتلوا طرطوس وعتليت وهما آخر معقلين من معاقل الفرنجة. وكان علم الدين الشجاعي قائد الجيش قد وجه إلى فرسان الهيكل المسيطرين على مدينة طرطوس انذاراً بالتسليم لحقن الدماء، وخيّرهم بين أن يحكّموا السلاح بينهم وبينه، أو أن ينسحبوا من المدينة، ويخلوا أسوارها وحصونها، ويرحلوا بطريق البحر إلى حيث يشاؤون، حاملاً كل منهم معه سلاحه وماله الخاص، وجاءه الرد على انذاره قبل نهاية الموعد المحدد قائلاً :

«ان جمعية فرسان الهيكل تقبل الشروط التي ذكرها القائد علم الدين لتسليم مدينة طرطوس».

وفي الوقت الذي فتحت فيه أبواب الأسوار وبدأت قوات المحاصرين تجتازها وتنتشر في الحارات والأزقة متجهة إلى الأبراج والقلعة، كانت السفن الخفيفة والزوارق الواسعة،

---

(٤٥) المرجع السابق. ج٣، ص٧٥٨.

(٤٦) بدائع الزهور، ج١، ص١٠٢.



بعض رجال المماليك في سلاحهم الكامل



تطور الاسلحة وأردية القتال في القرن الثالث عشر لدى الصليبيين

تخرج من المرفأ ناشرة قلاعها، أو مدفوعة بقوة المجاذيف، تحمل اسر الفرسان ورجالها ووجهتها جزيرة أرواد[٤٧]، القريبة من الساحل، وتسلم الجيش الفاتح الأسوار والأبراج والقلعة ومحتوياتها جميعاً، ولم يلجأ أحد من الجانبين إلى استخدام السلاح[٤٨].

وقد انطوت بذلك الصفحة الأخيرة من ملحمة الحروب الصليبية في بلاد الشام، لتبدأ صفحة أو صفحات من قصة الصراع بين الشرق والغرب، ولكن بشكل آخر وظروف أخرى، وإذا كان من المؤرخين من يعتبر الحروب التي نشبت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، بين البلاد الاسلامية وأوروبة، استمراراً للحركة الصليبية أو امتداداً لها، فليس هنا على كل حال مجال الحديث عنها.

---

(٤٧) استعاد المسلمون جزيرة أرواد سنة ٧٠٢هـ ١٣٠٢م، وبذلك سقط المعقل الأخير من معاقل الفرنجة في الشرق.

(٤٨) الجنة في ظلال السيوف ص١٣٦.

الفصل الحادي والثلاثون

العلاقات الانسانية في الحروب الصليبية

يقدر المؤرخون عدد ضحايا الحروب الصليبية من الفريقين، خلال ذينك القرنين العاصفين، بخمسة ملايين من الأنفس[1]. وهو رقم غاية في الضخامة بالنسبة لذلك الزمان، ولا يعدّل بحال من الأحوال النتائج التي أدت إليها تلك المغامرة المجنونة التي لا مبرر لها.

يقول ستفنسن: «لقد رأى القائمون بالحملات الصليبية ان هذه الحروب لم تسفر عن نتائج ذات بال للصليبيين مع ما أفاضوا عليها من موارد لا تحصى من المال والرجال طوال السنوات الكثيرة التي استغرقتها، وقد آثر الساسة العمليون أن يستخدموا الموارد القومية لبلادهم لتحقيق أغراض أخرى. وقد عاد كثير من الصليبيين من أرض فلسطين وقد تملكهم اليقين بأن الذين نشبت الحرب من أجلهم، وهم لاتينيو الشام، لا يستحقون هذه التضحيات. هذا إلى ان الحجاج المسيحيين كان في استطاعتهم زيارة القبر المقدس وبيت لحم والناصرة، وأن ينتقلوا بين هذه الأماكن المقدسة في حرية تامة، مع انها كانت في حماية المسلمين وتساءلوا هل أراد الله تعالى حقاً أن تكون فلسطين من أملاك المسيحيين، وأن الله قد خصّهم بها؟ وقد صارت الإجابة عن هذا السؤال موضع شك وحيرة وزادت على مدى الأيام غموضاً واستغلاقاً»[2].

---

(١) خطط الشام، ج٢، ص١٢٨.

(٢) تاريخ العالم لهامرتن، ج٥، ص١٨٥.

لقد أحس معظمهم ان ما فعلوه لم يأمر به السيد المسيح، رسول الحب والسلم والتسامح، وان نشر عقيدتهم يجب ان يعتمد الاقناع لا الإكراه، وان يرتكز على الوسائل السلمية وليس على إهراق الدماء وغرس البغضاء. ويمكن القول مع الدكتور فيليب حتي: «ان الروح الصليبي جرى، بهذا التأثير، في مجرى جديد، هو استخدام المرسلين بدلاً من الجنود»(٣).

إلا ان أكثرية الصليبيين كانت قد تحررت بفعل التعايش مع المسلمين، من التعصب والتطرف والاندفاع المحموم، فظهر أمثال الشاعر ريتوف (١٢٤٥ ـ ١٢٨٥)، الذي كان يقول ان من الحماقة ان يخاطر إنسان في حرب تتسم بالطابع الديني خارج بلاده، ما دام في وسعه ان يتصل بالله في وطنه ويعيش في نعمة وسلام.

ولا ريب في ان الكثيرين من المسيحيين والمسلمين، قد شعروا بأن تلك الحروب لم تكن في حقيقتها إلا حروباً سياسية واقتصادية، ومعارك تذكي نارها المطامع والأهواء، والمصالح الذاتية، وعوامل التوسع والتسلط، والدفاع عن الذات وقد وصفت بانها حروب دينية لاستغلال ما في الدافع الديني من إثارة عاطفية وكسب تأييد جماهير الشعب. وقد رأينا ان بعض أمراء المسلمين حالفوا الصليبيين وقاتلوا إلى جانبهم، وأن بعض أمراء الصليبيين وفرسانهم قد حالفوا المسلمين وقاتلوا تحت راياتهم، ونضيف هنا انه كان ثمة جنود مرتزقة من مسلمي الأتراك يخدمون في جيوش الصليبيين، كما كان هناك مرتزقة من رماة الأرمن يشتركون مع المسلمين في محاربة الصليبيين. وهكذا نرى أن المسلمين والمسيحيين، لم ينظروا إلى المعركة على انها حرب دينية لا يصح ان يخوضوا غمارها إلا في صف معين وتحت راية معينة.

والغريب أن تنتهي الحروب الصليبية إلى نقيض ما قصدت إليه أو أدعت انها تقصده، فقد بدأت بدعوى مناصرة الدولة البيزنطية للوقوف في وجه الزحف الاسلامي، وإذا بالصليبيين يحتلون سنة ١٢٠٤ هذه الدولة التي كانت خطة الدفاع الأول الذي يحمي أوروبة من كل غزو آسيوي، ولا يغادرونها سنة ١٢٦١م إلا بعد أن تقطعت أوصالها،

(٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص٢٦٣.

وتضعضعت قواها، وتمزقت أجزاء متناثرة، ولم تعد قادرة على الصمود في وجه الأتراك العثمانيين عندما ظهروا على مسرح الشرق الأوسط ليلعبوا دورهم في التاريخ.

ولم تدرك الفرنجة إلا بعد فوات الأوان، أن دولة استعمارية يقيمها السيف على أرض ليست أرضها وفي وطن ليس وطنها وبين شعب غريب عنها، لا بد من ان تتداعى وتنهار، مهما امتد بها الزمان، وخيل إليها انها امتلكت أسباب البقاء والاستمرار. فقد قامت الإمارات اللاتينية في المشرق لانقسام أهله بعضهم على بعض، ولكنها كانت دولاً ينقصها التماسك والانسجام ووحدة الجنس واللغة، وتفتقر إلى الجذور التاريخية والقومية، وظلت في حاجة دائمة إلى التماس المدد المتواصل والعون المتجدد من أوروبة كي تستطيع الثبات والبقاء. على الرغم من تمزق بلاد المشرق فانها لم تستطع فتحها فتحاً كاملاً، وظلت المدن الكبيرة مثل دمشق وحمص وحماة وحلب محتفظة باستقلالها، رغم غزوات الفرنجة وهجماتهم المتكررة، وما كادت هذه المدن تستعيد وحدتها السياسية حتى بدأت تلك الدويلات المصطنعة تسير في طريق الزوال.

وهكذا ساد السلام على الشاطىء الوادع الجميل الذي شهد أروع الحروب، وتنازعت على رماله عشرات الشعوب، لتتحقق ولو لفترة من الزمن، رسالة السيد المسيح الذي لم يأت ليشهر سيفاً بل ليزرع حباً وسلاماً.

ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن حالة الحرب هي التي كانت سائدة بين الفريقين، خلال ذينك القرنين الطويلين، فان المشاعر الإنسانية والصلات الاجتماعية والعلاقات التجارية كانت تفرض ذاتها ليس في فترات السلم وحدها بل في عهود الحرب أيضاً.

وقد حاولنا في هذا الكتاب ألا نغفل ذلك الوجه الآخر من وجوه الحروب الصليبية[٤]، فرأينا ـ كما يقول ستيفنسن ـ كيف ان الصلات الودية والعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين كل من المسلمين والمسيحيين قبل استيطان اللاتين لشقة الشام الساحلية، لم يكن يستطاع قطعها، ولم تنقطع كلية بعد ان فتح الصليبيون جانباً من هذه البلاد[٥]. وقد

(٤) انظر الفصول الأول والرابع والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والحادي والعشرين والثاني والعشرين من هذا الكتاب.

(٥) تاريخ العالم لجون هامرتن، ج٥، ص١٨٦.

تسامحت الحكومات اللاتينية مع المسلمين المقيمين في الأراضي التي تحكمها، كما تسامحت الحكومات الاسلامية مع المسيحيين، فكانوا يؤلفون حلقات اتصال وتواد وتعاطف بين الفريقين.

وكان الفريقان يضعان العلاقات التجارية والاقتصادية فوق كل اعتبار. يقول الدكتور حسن حبشي: «وكان يصرّح للتجار بإقامة الخانات في غير بلادهم، لتنزل فيها قوافلهم. وينقسم الخان في العادة إلى قسمين، الطابق الأسفل وينزلون به رحالهم، أما الطابق العلوي فانه لإقامة التجار ذاتهم. ويحسن أرباب البلد معاملة التجار. ولم يكن للدين دخل في هذه المعاملة، رغم ما قد يكون بين البلدين من الحرب، إلا ان ذلك لا يقف حائلاً دون استمرار الحركة التجارية والتبادل التجاري بينهما. وكان المألوف في هذا العصر ان يطلب التجار المسلمون حماية جماعة معينة في البلاد التي يدخلونها وتكون في حوزة الصليبيين فلا يمسهم أحد بسوء، وهذا هو الشأن مع التجار المسلمين من أهل الموصل الذين كانوا يذهبون إلى عكا فيطلبون ان يكونوا تحت حماية فرسان الداوية، كما أن التجارة قللت من الحدة الدينية التي قد تكون بين الجماعتين، إذ اعتاد القوم من صليبيين ومسلمين أن يعقدوا أسواقاً تجارية سنوية يفد إليها التجار دون نظر للفارق الجنسي»(٦).

وسرعان ما التزم الجانبان بصورة ضمنية قيوداً تمنع اتلاف اشجار الفاكهة وإبادة المحصولات الزراعية، وتقيدوا بها في أغلب الحالات بأمانة وإخلاص، «ولم يلبث الصليبيون أن تعلموا مراعاة التقاليد القديمة التي تتحكم في نظم القتال في الشام بين الدويلات المختلفة، والتقيد بها، وهذه القيود هي شبه ما تكون بقواعد القانون الدولي»(٧).

وقد تركز النشاط التجاري خلال القرن الثاني عشر في موانىء الشام، وأسس التجار الأوروبيون القادمون من إيطالية ومرسيلية واسبانية مراكز واحياء ثابتة في انطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا. أما في القرن الثالث عشر فقد أدى الغزو المغولي واغلاق الطريق التجارية المؤدية من الخليج العربي إلى بغداد فدمشق، إلى انتقال النشاط التجاري إلى مصر «وقد رحب سلاطين المماليك في مصر بأولئك التجار الأجانب نظراً لما كانت تعود به تجارة الشرق عليهم من أرباح وافرة، وكان ان عاش التجار الأوروبيون في

---

(٦) نور الدين والصليبيون ص ١٥٠ نقلاً عن G. T. p. 718

(٧) تاريخ العالم لهامرتن، ج٥، ص١٨٦.

الاسكندرية ودمياط على هيئة جاليات لكل جالية قنصل يشرف على شؤون أفراد الجالية ومصالحهم الاقتصادية»[٨]، وقد سمح للبنادقة فيما بعد بتأسيس سوق تجارية في الاسكندرية كانت تسمى سوق الأيك[٩]. وفي سنة ١١٨٧م كانت توجد ثمان وثلاثون سفينة إيطالية تجارية راسية في ثغر الاسكندرية، وفي سنة ١٢١٦ بلغ عدد الأوروبيين المقيمين في هذا الثغر نفسه واغلبهم من الإيطاليين ثلاثة آلاف نسمة[١٠].

ومن الحقائق البالغة الأهمية ان مدن الشام الساحلية التي يسيطر عليها الفرنجة، ظلت تتخذ موانىء للمدن الداخلية الاسلامية، ويمكن ان نقدر مدى التجارة بين هذه المدن والموانىء الخاضعة للاحتلال الصليبي، من رواية ابن جبير عن اثنين من تجار دمشق كانت لهما تجارة ونفوذ في بلاد الافرنج، فقد قال: «وقيّض الله لهم (أسرى المغاربة) بدمشق رجلين من مياسر التجار، وكبرائهم واغنيائهم المنغمسين في الثراء، احدهما يعرف بنصر بن قوام، والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطّافي، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذا السبيل»[١١].

وتتردد القوافل التجارية بين البلدين، فلا يتعرض لها أحد من الفريقين إلا في حالات استثنائية يستنكرها الجميع. يقول ابن جبير، «ومن أعجب ما يُحدِّث به في الدنيا، أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين، شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً»[١٢].

والعملة الذهبية التي سكتها الإمارات اللاتينية في الشام، تدل دلالة واضحة على

---

(٨) الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٦٣.

(٩) صلاح الدين الايوبي للرمادي، ص٧٤.

(١٠) تاريخ العالم لهامرتن، ج٥، ص١٧٩.

(١١) رحلة ابن جبير ص ٢٨١.

(١٢) المرجع السابق ص ٢٧١.

اتساع المعاملات المالية بين المسلمين والصليبيين، وعلى ان هذه المعاملات قد فرضت نفسها على الاعتبارات الأخرى. وكانت هذه العملة تسمى باليونانية واللاتينية بيزنتا وبالعربية ديناراً. وكانت تنقش عليها كلمات عربية مشفوعة بالتاريخ الهجري وفوقها اسم حاكم البلاد الاسلامية، ومما هو أعجب من هذا وذاك انه نقشت عليها آيات اسلامية، وأحياناً كان ينقش عليها رسم صليب صغير الحجم، أو الحروف الأولى من اسم الأمير اللاتيني، للدلالة على صفتها الحقيقية، ويكتفى في مسكوكات أخرى بذكر مكان صناعتها أو اسم دار الضرب التي سكتها للتدليل على مصدرها. وكان يُقصد بذلك ان يُقبل المسلمون من الأمراء والتجار على تداولها، مثلما كان الصليبيون يقبلون على تداول نظائرها من العملات الاسلامية[١٣].

وكان الصليبيون يحسنون معاملة من عندهم من الموظفين المسلمين[١٤]، وقد سمحوا بقدر كبير من الحكم الذاتي المحلي للمقاطعات الريفية، فشيخ القرية الاسلامية ظل مسلماً. وكان المسلمون الخاضعون لحكم الإمارات اللاتينية في زمن صلاح الدين ينعمون برفق في المعاملة يضاهي ما يحظى به المسيحيون من حكام المسلمين. وكانوا يدفعون لحكام اللاتين ضريبة «الفرضة» ونصف ما تنتجه أرضهم من المحصول، وضريبة أخرى على أشجار الفاكهة، بينما كان المسيحيون معفين من ضريبة الفرضة ولكن كان عليهم ان يدفعوا لرجال الدين ضريبة العشور[١٥].

وواضح مما تقدم ان المسلمين كانوا يتمتعون في الإمارات اللاتينية بحق تملك الأراضي، في حين حرم ذلك على اليهود، وفي ذلك يقول ستفنسن: «وكان في بعض المدن جاليات يهودية وفدت على الأخص من جنوبي فرنسة، ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي كان في بلدة صور ما لا يقل عن مائة أسرة يهودية تشتغل غالبيتها في التجارة وفي صناعة الزجاج، والراجح انه لم يكن في بيت المقدس في نفس هذه الفترة، من أمثال هذه الأسر، ما يزيد على أربع، لأن الجالية اليهودية في هذه المدينة

(١٣) تاريخ العالم لهامرتن، ج٥، ص ١٩١، صلاح الدين الايوبي للرمادي ص ١٧١.

(١٤) نور الدين والصليبيون ١٥٧.

(١٥) تاريخ العالم لهامرتن، ج٥، ص١٨٦ـ١٨٧.



عودة المحارب الصليبي تمثال في كنيسة دير الكرادلة بنانسي

كانت قد طردت منها في سنة ١٠٩٩ ـ أي بعد الاحتلال الصليبي - ولم يكن ليسمح لليهود في فلسطين بامتلاك الأرض، في حين ابيح ذلك للمسلمين»(١٦).

وكان المواطنون المسلمون في الإمارات اللاتينية يتمتعون بحريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية، ويطمئنون إلى أموالهم وأرواحهم، إذا هم أخلدوا إلى السكينة وانصرفوا إلى أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية(١٧)، وقد كان ذلك أحد العوامل التي ساعدت على تقريب الشقة بين الشعبين، والعمل على زيادة أسباب التفاهم، والاختلاط بل الامتزاج أيضاً، وان موقف بعض رجال الدين الإفرنج كغليوم اسقف صور، ليدل على هذا التبدل الجميل(١٨).

وقد بلغ من اطمئنان المواطنين المسلمين في الإمارات الصليبية، ما جعل ابن جبير يقول ان أولئك المواطنين قد أُشربت الفتنة قلوبهم لأن حالهم كانت تفضل حال اخوانهم في بلاد المسلمين، وإليك ما قاله بنصه: «ورحلنا من تبنين. وطريقنا كله ضياع متصلة وعمائر منتظمة، سكانها كلها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، نعوذ بالله من الفتنة، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أُشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه حال إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين واعمالهم، لانهم على ضد أحوالهم من الترفيه، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله»(١٩).

لقد كان المسلمون والإفرنج يختلطون بلا حرج، ويتعاملون على أوسع نطاق. ولم يكن ذلك مقتصراً على المدنيين وحدهم، فان المقاتلين منهم سرعان ما كانوا ينسون احقاد

---

(١٦) المرجع السابق، ج٥، ص١٨٨.

(١٧) Rey: Colonies Franques en Syrie, p. 106 - 107

(١٨) تراث العرب ص ١٦٧.

(١٩) رحلة ابن جبير ص٢٧٤ ـ ٢٧٥

الحرب، في فترات السلم، او الهدنة، ويختلط العسكران، وإذا بمن كانوا بالأمس أعداء يتراشقون بالنبال ويتطاعنون بالرماح والسيوف، قد غدوا بين ليلة وصباح أصدقاء وأحباء تسود حياتهم المودة والتفاهم(٢٠). وهل أروع من تلك الصورة التي رأيناها عند أسوار عكا، صورة الجيشين وقد ترك أفرادهما القتال، وأخذوا يتجاذبون الأحاديث، ويتبادلون الطرائف والنوادر، وربما غنى فريق ورقص فريق آخر!(٢١).

وقد تداخلت الحياة الاجتماعية الشرقية والغربية في بلاد الشام، وأثرت كل منهما في الأخرى وتاثرت بها(٢٢). يقول ابن جبير في وصف زيارته لمدينة بانياس وكانت قد احتلها الإفرنج ثم استعادها المسلمون وظل الإفرنج المدنيون يعملون فيها جنباً إلى جنب مع السكان المسلمين: «ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حدّ يُعرف بحدّ المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها»(٢٣).

وكان المسلمون يشاركون في حفلات الإفرنج، وقد وصف ابن جبير حفلة عرس اقيمت في صور واستغرب مشاركة المسلمين فيها وعدم استنكارهم ما تجلى فيها من مظاهر الترف واللهو. ولعل من المفيد اثبات هذه الصورة الممتعة هنا نظراً لأهميتها في إعطاء فكرة واضحة عن لون من ألوان الحياة الاجتماعية السائدة يومذاك، قال: «ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدَّث بها، زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال، كأنهما من ذوي أرحامها، وهي في أبهى زيّ، وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبّتها مثل ذلك منتظم، وهي

---

(٢٠) Grousset: Hist. des Croisades, III. p. 209 - 221

(٢١) كتاب الروضتين، ج٢، ص١٤٣؛ مفرج الكروب، ج٢ ص٢٩٤؛ النوادر السلطانية ص٩٢، Michaud, II. p. 125

(٢٢) نور الدين والصليبيون ص١٤٥.

(٢٣) رحلة ابن جبير ص٢٧٢.

رافلة في حليها وحللها، تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر، وأمامها جلّة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية، تُسحب أذيالها خلفهم، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى، والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون وسائر النصارى من النظائر، قد عادوا في طريقهم سماطين، يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك»(٢٤).

وما استغربه ابن جبير من روح المودة والتسامح السائدة بين المسلمين والمسيحيين، قد استغربه ايضاً الفرنجة الذين كانا يصلون حديثاً إلى سواحل الشام فيرون ان الفرنجة المقيمين هناك قد نبذوا التعصب وأخذوا يعاملون المسلمين بمودة وأخوة(٢٥).

لقد اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن أثر الحروب الصليبية في النهضة الأوروبية، وهم يغالون في ذلك جاعلين من هذه الحروب مدرسة كان الشرق فيها هو المعلم والغرب هو التلميذ، فقد جاء الغرب في رأيهم إلى الشرق يعبّ من مناهله حتى ارتوى، فعاد وقد تبدل جهلاً بعلم، وتأخر بتقدم، وحياة قاتمة بأخرى مشرقة، فكانت تلك النهضة الأوروبية الجبارة في مطلع القرون الحديثة. وقد ساعد على تكوين هذا الرأي، ان ما ابدعته حركة النهضة الإيطالية التي كانت طليعة النهضة الأوروبية الحديثة، إنما ظهر مباشرة في أعقاب العصر الصليبي.

والواقع ان تلك النهضة كانت ترتكز على دعائم من الرخاء المادي الذي ساد المدن الإيطالية نتيجة لسيطرتها على التجارة بمنتجات فارس والهند والصين، تارة عن طريق السواحل السورية وتارة عن طريق السواحل المصرية، وهو رخاء باذخ ازدهر في ظله الانتاج الفني والانتاج العقلي.

ولا ريب في ان الحروب الصليبية، والهجرات الجماعية التي رافقتها، واحتكاك القارتين وشعوبهما المختلفة طوال قرنين كاملين، قد أحدثت في الغرب هزة عنيفة حركت الأوساط الجامدة، وأعطت الإنسان الغربي نظرة إلى الكون والحياة أكثر تحرراً وتسامحاً

---

(٢٤) المرجع السابق ص٢٧٨.

(٢٥) نور الدين والصليبيون ص١٥٦ نقلاً عن Lamb: The Crusades; p. 262.انظر ايضاً كتاب الاعتبار ص١٣٤.

وأقرب إلى الروح العملية والنزعة التجريبية والبحث العلمي التي كانت جميعاً من أسس النهضة ومن عوامل ازدهارها.

وقد كان المشرق حرياً بأن تؤثر فيه تلك الحروب تأثيرها في الغرب، فتوقظه من سباته وتنطلق به في مجالات فكرية أرحب افقاً وأغنى تجربة وأكثر واقعية، ولكن هذه الحروب فاجأته وهو يسير في طريق الانحلال، وقد أوشكت الخلافتان العباسية والفاطمية على الانهيار، وبدأ يدخل عصور الظلام من سيرته المشرقة وتاريخه العريق، نتيجة لتمزيق شعوبه، وتفتت قواه، والصراع العنيف بين كل قبيلة وكل مدينة وكل أسرة حاكمة فيه، وما عاناه من غارات السلاجقة والقرامطة والخوارزمية والمغول. وكان الأيوبيون قد خربوا بعض مدنه وحصونه، فعمد المماليك إلى تخريب المرافىء الباقية خشية عودة الإفرنج، فتعطلت الحياة التجارية فيه، وفرضت عليه العزلة والانكماش. ثم جاء الاحتلال العثماني فقضى على البقية الباقية من روح التوثب والتفتح والإبداع.

والذي نعتقده ان ما جرى من تبادل ثقافي بين الافرنج وبلاد الشام، كان محدود المدى، لأن الإفرنج لم يختلطوا في الغالب إلا بالفلاحين وعامة الناس، ولأن الحركة العلمية في البلاد العربية كانت آخذة بالجمود، كما ان النزاع المستمر قد حال دون التفاعل الحضاري الطليق. ولم تكن سورية في الواقع الجسر الوحيد بين الشرق والغرب، بل كان هناك جسران آخران هما صقلية واسبانية اللتان نعتقد بانهما كانتا باستقرارهما وازدهارهما واستتباب السلام فيهما، أكثر فعالية وجدوى في إعطاء الغرب صورة أوضح عن الحضارة العربية السائدة يومذاك.

أما ما أخذه الصليبيون في بلاد الشام من المنتوجات الزراعية والصناعية، والفنون الهندسية والحربية، وألوان الحياة الاجتماعية، فقد أعطوا ولا ريب مثيلاً له في تلك الميادين نفسها أو في ميادين أخرى(٢٦).

ولكن الذي يستوقفنا أكثر من هذا كله، ان الفرنجة الذين كانت تطول اقامتهم في بلاد الشام، كانت مشاعرهم نحو المواطنين المسلمين تتطور مع الأيام، ثم ما يلبثون حتى

---

(٢٦) انظر: تراث الإسلام ص٢١٧ ـ ٢٢١؛ العلاقات بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ١٣١ ـ ٢١٧. Rey: Colonies Franques en Syrie, p. 189 - 250; Heyd; Hist. du commerce, p. 130 - 202.

يرتبطوا معهم بروابط المودة والأخوة والتسامح ويقيموا معهم أوثق الصلات وأمتن العلاقات(٢٧).

ان الذي يستوقفنا أكثر من هذا كله، ذلك التعايش السلمي بين المواطنين في دول متحاربة، الذي كان يجعل فرسان الفرنجة وفرسان المسلمين يشعرون بأنهم أكثر نبلاً ومروءة عندما يلتقون في أيام السلم ليتسابقوا على ظهور الخيل ويتباروا في العاب الفروسية(٢٨).

والتسامح الديني الذي شق طريقه وفرض نفسه في غمرة حرب وصفت بانها دينية، بحيث نرى في كل مدينة اسلامية كنيسة يتعبد فيها المسيحيون، وفي كل مدينة مسيحية جامعاً يتعبد فيه المسلمون، بل نرى في ضواحي عكا مسجداً بقي محرابه على حاله ووضع الإفرنج في شرقيه محراباً لهم، فالمسلم والمسيحي يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاّه وهذا مصلاّه(٢٩).

والشعور الانساني الذي كان يدفع بصلاح الدين لأن يطلب من فرسان الاسبتارية الذين شهروا السيف في وجهه وقاتلوه بضراوة، البقاء في بيت المقدس للعناية بالمرضى من الصليبيين(٣٠)، ويحمل فرسان الفرنجة على الوقوف باحترام أمام منزل الشيخ أبي الحسن بن قفل بدمياط حين علموا انه من مشايخ المسلمين وان الفقراء يلوذون به، ثم يأمرون بعدم التعرض له(٣١).

والصداقة التي نشأت بين المسلمين والفرنجة، ابتداء من صداقة اسامة بن منقذ وفرسان الداوية الذين كانوا يُخلون له مكاناً في معبدهم ليصلي فيه، إلى صداقة الملك العادل وريشارد قلب الأسد الذي حاول ان يزف إليه أخته الأميرة جوانا ليكون زواجهما جسراً يصل بين الشرق والغرب، إلى صداقة الملك الكامل وفردريك الثاني اللذين حوّلا الحرب الدامية إلى مفاوضة سلمية. وانتهاءً بصداقة الوف المواطنين المسلمين والإفرنج

---

(٢٧) انظر: العلاقات بين العرب والفرنج ص١٢٩؛ كتاب الاعتبار ص١٣٤؛ نور الدين والصليبيون ص١٥٦.
(٢٨) انظر تحفة الشرق والغرب لحتي في الكتاب الذهبي ص١٤٤.
(٢٩) رحلة ابن جبير ص٢٧٦، تاريخ العالم لهامرتن، ج٥، ص١٨٧.
(٣٠) انظر ص٣٤٢ من هذا الكتاب.
(٣١) ذيل الروضتين ص١١٧.

الذين نجهل اسماءهم والذين لا نشك في انهم قد شعروا بعد ان تعارفوا وتآلفوا، بأن البشر إخوة أيا كان موطنهم أو لونهم أو مذهبهم.

ان الذي يستوقفنا أكثر من أي شيء في تلك القرون الوسطى، التي كانت تحكمها أعراف وأمزجة خاصة مغرقة في الرجعية والظلمة، تلك العاطفة الكريمة الصافية التي كانت تدفع بعض المسلمين والفرنجة إلى ان ينادي أحدهم الآخر: «يا أخي»، وتجعل أميراً صليبياً يقول: «ان القتال بين المسلمين والإفرنج انتحار أخوي».

أجل، ان الذي يهمنا أكثر من أي شيء آخر، ولا سيما في تلك العصور المتعصبة المختلفة، هذه الأخوة الرائعة التي نشأت، برغم الصراع العنيف والقتال الدامي، بين المجتمع الاسلامي والمجتمع الصليبي!.

مصادر الكتاب

١ـ مصادر ومراجع عربية

ابن الأثير	الكامل في التاريخ
	أتابكة الموصل (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية)
أحمد البيلي (الدكتور)	حياة صلاح الدين الأيوبي
اسامة بن منقذ	كتاب الاعتبار
أسد رستم (الدكتور)	الروم وصلاتهم بالعرب
ابن أياس	بدائع الزهور في وقائع الدهور
الجبرتي	المختار من تاريخ الجبرتي
ابن جبير	رحلة ابن جبير
جرجي زيدان	صلاح الدين ومكائد الحشاشين
	شجرة الدر
جمال الدين حماد	معارك الإسلام الكبرى
جمال الدين الرمادي (الدكتور)	صلاح الدين الأيوبي
جمال الدين الشيال (الدكتور)	مصر والشام بين دولتين
ابن الجوزي	مرآة الزمان (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية)
جوزيف سمعان	الفروسية العربية
جوزيف نسيم يوسف	هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل
الحافظ شمس الدين	دول الإسلام

حبيب جاماتي	الناصر صلاح الدين
	غبار المعارك
	الجنة في ظلال السيوف
حسن إبراهيم حسن (الدكتور)	تاريخ الدولة الفاطمية
	الفاطميون في مصر
حسن الباشا	الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار
حسن حبشي (الدكتور)	الحرب الصليبية الأولى
	نور الدين والصليبيون
	الشرق العربي بين شقي الرحى
حسين مؤنس (الدكتور)	صور من البطولة
ابن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر
ابن خلكان	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
خليل هنداوي	دمعة صلاح الدين
الذهبي	تاريخ الإسلام
رشيد الدين الهمذاني	جامع التواريخ
زكي النقاش (الدكتور)	العلاقات بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية
سعيد عاشور (الدكتور)	الحركة الصليبية
	الظاهر بيبرس
سلامة موسى	مقالات ممنوعة
أبو شامة	كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
ابن شداد	النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (وفي ذيله منتخبات من كتاب التاريخ لتاج الدين شاهنشاه بن أيوب)
عارف تامر	سنان وصلاح الدين
	على أبواب آلموت

عبد العزيز سيد الأهل	أيام صلاح الدين
عبد المتعال الصعيدي	القضايا الكبرى في الإسلام
عبد المنعم ماجد (الدكتور)	الناصر صلاح الدين الأيوبي
	نظم الفاطميين ورسومهم في مصر
	تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى
عبد اللطيف حمزه	صلاح الدين بطل حطين
	أدب الحروب الصليبية
عبدالله عنان	مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام
	تراجم إسلامية شرقية وأندلسية
ابن العبري	تاريخ مختصر الدول
عثمان الكعاك	الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط
ابن العديم	منتخبات من تاريخ حلب (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية)
علي أحمد باكثير	سيرة شجاع
	واإسلاماه
علي الطنطاوي	قصص من التاريخ
العماد الأصفهاني	الفتح القسي في الفتح القدسي
ابن العماد الحنبلي	شذرات الذهب في أخبار من ذهب
أبو الفتوح التوانسي	من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ
أبو الفدا	المختصر في تاريخ البشر
فيليب حتي وجرجي وجبور (الدكاترة)	تاريخ العرب
فؤاد عبد المعطي الصياد	المغول في التاريخ
القلقشندي	صبح الأعشى في صناعة الإنشا

ابن القلانسي	ذيل تاريخ دمشق
كامل حسين	الطائفة الإسماعيلية
أبو المحاسن	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
محمد جمال الدين سرور (الدكتور)	الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره
محمد حسين	أسامة بن منقذ
أبو محمد الحسن النوبختي	فرق الشيعة
محمد رجب البيومي	مع الأبطال
محمد سعيد العريان	شجرة الدر
محمد سعيد العريان والدكتور الشيال	قصة الكفاح بين العرب والاستعمار
محمد سيد كيلاني	الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام
محمد عبد الغني حسن	صراع العرب خلال العصور
محمد فريد أبو حديد	صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب
	أمتنا العربية
محمد كرد علي	خطط الشام
محمد مصطفى هدارة (الدكتور)	المنصورة
محمد منير العصرة	لؤلؤة المنصورة
مخائيل عراد	المآصر في بلاد الروم والإسلام
مصطفى غالب	أعلام الإسماعيلية
مصطفى الوكيل (الدكتور)	صلاح الدين
مظفر سلطان	العماد الأصفهاني
المقريزي	السلوك لمعرفة دول الملوك
	المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
ابن ميسر	تاريخ مصر

ميشال لباد	تاريخ قلعة مصياف
	الإسماعيليون والدعوة بمصياف
نجيب الكيلاني	اليوم الموعود
نظير سعداوي (الدكتور)	التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي
	المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي
نقولا زيادة (الدكتور)	لمحات من تاريخ العرب
النويري	نهاية الارب في فنون الأدب
ابن واصل	مفرج الكروب في أخبار بني أيوب
ياقوت	معجم الأدباء
	معجم البلدان
يوسف الدبس (المطران)	تاريخ سورية

٢ ـ مراجع أجنبية مترجمة إلى اللغة العربية

أمير علي (سيد) مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف بعلبكي

باركر (ارنست) الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني

بروكلمان (كارل) تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة فارس وبعلبكي

بطرس غالي (واصف) تقاليد الفروسية عند العرب، ترجمة توما ونجار

بينز (نورمان) الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مؤنس وزايد

جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة الدكاترة عباس ونجم وزايد

جرونيباوم (جوستاف) حضارة الإسلام، ترجمة جاويد وعبادي

حتي (فيليب) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة الدكتور كمال يازجي

ديفيز (أدوين) فرنسا الجريحة على ضفاف النيل، ترجمة زكي شنودة

رينتز (جورج) وزملاؤه دراسات إسلامية، ترجمة الدكتور انيس فريحة وزملائه

عطية (إدوار) العرب، ترجمة بقلي ونجا

غروسه (رينه) رصيد التاريخ، ترجمة خليل باشا

كيرك(جورج) موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الإسكندري

لوبون (جوستاف) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر

مونروند (مكسيموس) تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ترجمة البطريرك مكسيموس مظلوم

مير (فيليب فان نس) التاريخ العام

هامرتن (جون) وزملاؤه: تاريخ العالم، ترجمة طائفة من الكتّاب

الهمذاني (رشيد الدين): تاريخ المغول، ترجمة نشأت والصياد

لاندو (روم): الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي

٣ - مراجع أجنبية

Alphandery, P. — La Chrétienté et l'Idée de Croisade.

Bréhier, L. — Vie et Mort de Byzance.

Bréhier, L. — L'Eglise et l'Orient au moyen âge, les Croisades.

Chalandon, F. — Hist. de la première Croisade.

Champdor, A. — Saladin, Le plus pur Héros de l'Islam.

Delarc — Les Normands en Italie.

D'Ohsson — Hist. des Mongols.

Encyclopédie de l'Islam.

Grousset, R. — Hist. des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem.

Guillard, M. S. — Grand Maître des Assassins au temps de Saladin.

Heyd, G. — Hist. du Commerce du Levaut au Moyen âge.

Iorga, N. — Brève Hist. des Croisades et de leurs Fondations en Terre Sainte.

Joinville, J. — Hist. de Saint Louis.

Lammens, H. — La Syrie, précis historique.

Lavisse, E. — Hist. de France.

Lavisse et Rambaud — Hist. Générale.

Marin — Hist. de Saladin.

Matthieu d'Edesse — Chronique; Continué par Grégoire le Prêtre.

Michaud, J. F. — Hist. des Croisades.

Michel Le Syrien — Chronique Syriaque.

Paris, G. — La Légende de Saladin (Journal des Savants, mai 1893).

Recueil des Historiens des Croisades, — Publié par l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres:

-- Documents Arméniens.

-- Historiens Grecs.

-- Historiens Occidentaux.

-- Historiens Orientaux.

Rey, E. — Les Colonies Françaises de Syrie au XII et XIII siècle.

Rey, E. — Hist. des Princes d'Antioches.

Ribard, A. — La prodigieuse Histoire de l'Humanité.

Rousset, P. — les origines et les caractères de la première Croisade.

Schlumberger, G. — Renaud de Chatillon, Prince d'Antioche, Seigneur de la terre d'outre Jourdanie.

Vasiliev, A. — Hist. de l'Empire Byzantin.

الفهرس

. . . الكتاب سجل تاريخي حافل وضع باسلوب قصصي شيق. . . وهو إن اعتمد الاسلوب السلس الا انه مستوف كل شروط الكتاب العلمي.

ان «صلاح الدين الأيوبي» اكثر من كتاب تاريخ. . انه ادب التاريخ. مؤلف موضوعي روعيت فيه الحقيقة والشروط العلمية الى ابعد حد. وانت تقرأه وكأنك تقلب مسلسلا من سير البطولة وحكايات التاريخ. . . اسلوب القلعجي يشدك الى الكتاب فلا تفلته من يدك قبل أن تأتي على نهايته.

أميلي نصر الله

وأني لأشهد اني على كثرة ما قرأت - من مصادر عربية وغربية - عن سيرة هذا البطل الذي ملأت حياته الدنيا وشغلت الناس، لم انتفع ولم أستمتع، كما انتفعت واستمتعت بهذه السيرة التي عرضها الأديب قدري قلعجي في كتابه الضخم، المانع الجامع، والتي كان فيها المؤلف مؤرخاً بأمانته، ومحللا بعقله، وناقدا بنصفته، ومصورا بريشته - ووطنيا بقلبه وعاطفته.

خليل هنداوي

. . . تعاودني وأنا اتصفح كتاب «صلاح الدين الأيوبي»، هذا السفر القيم، كلمات نعيمة التي وجهها الى مؤلفه الاستاذ قدري قلعجي منذ ثمانية عشر عاما، من الواجب ان يقوم في الشرق من يجلو له وجوه ابطاله. . . وما عرف من كتابنا من هم أجدر منك بمثل تلك المهمة. .

ففي كتاب «صلاح الدين الأيوبي» تثبت ملامح عملاقين: بطل ومؤرخ!

وما أحوجنا الى بطل يكتب سيرته مؤرخ عالم، وما أشد حاجتنا الى الاسترشاد بدراسة التاريخ، والتاريخ عند قدري قلعجي يعيش على الحقيقة الموضوعية، ويستند الى وقائع مادية، وبكتابه هذا وضع قدري قلعجي فاصلا بيِّناً بين الاسطورة والتاريخ. فباسم شبابنا العربي التواق الى المعرفة الموضوعية له كل شكر.

حسن حمية

وكان أخر ما اتحفني به كتابه الضخم صلاح الدين الأيوبي الذي طالعته بشغف على حساب حرماني من النوم. صور قدري قلعجي البطل العربي الانسان، فاذا به مرآة تنعكس فيها صورة كل انسان انسان، سواء احمل سيفاً أم قلماً. بقوة الروح هذه تعرفنا عن كثب على صلاح الدين انساناً يدمع وانسانا يشفق وانسانا يصفح وانسانا يحب، واكتشفنا بمؤرخه الحديث انسانا آخر جديرا بكل تقدير ومحبة.

روبير أبيلا

كل ذلك اسلوب يمازجه القصص، روائي على شعر، تاريخي على ري، هادىء، رزين، صاف، سلس، حتى ان أي قارىء يتعلق بالكتاب ويشفق من ان ينهي قراءة هذه الصفحات القيمة، في جهد يخيل لك ان المؤلف أرسله أرسالا وكأنه لا يعاني التأليف الا بمقدار ما يرى فيه صورة لهاجسه النفسي الباحث عن حقيقة انسانية هي وحدها الخالدة الباقية. جهد معنت مضن، لكنه لعبة أطفال عند من كان لهم معرفة المؤلف وعمق وعيه وشموخ أدبه.

خليل الخوري